

من داخل
الإخوان المسلمين

يوسف ندا

مع دوجلاس تومسون

حقيقة أقوى الجماعات الإسلامية السياسية في العالم

من داخل
الإخوان المسلمين
يوسف ندا
مع دوجلاس تومسون

هذه هي القصة الموثقة لحياة يوسف ندا؛ الرجل الذي يعلم الجانب الأكبر مما لم يروه أحد عن نصف قرن من الغضب والثورة. لقد حضر وشهد الحروب وحوادث الإرهاب العالمي والأزمات الدولية المعقدة. ورآها من الداخل، فهو شاهد عيان على التاريخ، ومشارك حقيقي ومفاوض في صنع الأحداث التي شكلت هذا التاريخ.

ويوسف ندا لا يتعهد بتقديم الأجوبة؛ لكن ما لديه هو الحلول الممكنة التي يعرضها من خلال الأفكار والفلسفة التي عاش من أجلها حياته كلها سفيرًا للتعقل وصانعًا للسلام.. وفي واقع الحال وزيرًا للشئون الخارجية لجماعة الإخوان المسلمين، التي يزيد عدد أعضائها على مائة مليون في كافة أرجاء العالم. من بينهم عدة ملايين في الولايات المتحدة وبريطانيا وسائر أنحاء أوربا.

ويوسف ندا ذو رؤية قوية وواضحة ومشوقة، وله إدراك عميق بأحداث لوكربي في اسكتلندا و« بروفات» الهجوم على أمريكا في سبتمبر ٢٠٠١، وتفجيرات السابع من يوليو في لندن وفضيحة إيران-كونترا واختطاف «تيري ويت» في بيروت وصفقات الرعب التي مست حياة الأفراد والشعوب على حد السواء.

وقد شارك في الجوانب المختلفة للربيع العربي في مصر بما في ذلك الانتخابات التي أوصلت مرشح الإخوان المسلمين إلى رئاسة الجمهورية. كان يوسف ندا، وما زال، لغزًا خفيًّا في قلب الشرق الأوسط؛ القطعة الأخيرة من أحجية الصورة الممزقة التي لم يتمكن أحد من وضعها في مكانها بعد. وعقب الحادي عشر من سبتمبر إذا بيوسف ندا الذي عرفه العالم بنزعته الإنسانية يوصم بأنه إرهابي دولي ويُدرج اسمه على قوائم الإرهابيين الدوليين الصادرة عن الولايات المتحدة والأمم المتحدة.

الإخوان المسلمون؛ أكثر الجماعات الإسلامية التي يثور حولها الجدل من شرق الدنيا إلى غربها، على خلاف مع كثير من الحكومات؛ وهي أكثر الأحزاب الإسلامية فعالية خلال العالم العربي اليوم.

ويعتقد يوسف ندا، بأنه لـمَّا علم بأنه المفوض السابق للشئون الدولية والعلاقات الخارجية للإخوان المسلمين فإن جميع وكالات الاستخبارات الدولية وقفت ضده.. والآن قرر يوسف أن يخرج عن صمته ويروي قصة حياته.

من داخل

الإخوان المسلمين

من داخل الإخوان المسلمين

حقيقة أقوى الجماعات الإسلامية السياسية في العالم

يوسف ندا

مع دوجلاس تومسون

ترجمة: الدكتور محمد فريد الشيال

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢
تصنيف الكتاب: تاريخ / سير

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٩٩٧٠/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3183-7

من داخل
الإخوان المسلمين

يوسف ندا
مع دوجلاس تومسون

ترجمة

الدكتور مُحمد فريد الشيَّال

دار الشروق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا
ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

[من مشاهد يوم القيامة كما صورتها سورة الانفطار]

«إذا لمستَ الإنسانية في الإنسان،
فسوف تصحو، حتى وإن كانت نائمةً،
بل حتى وإن كانت ميتة. عندما تلمس
الإنسانية فإنها تنهض».

يوسُف ندا، ٢٠١٢

المحتويات

مقدمة يوسُف ندا ١١

مقدمة دوجلاس تومبسون ١٥

تمهيد: فئران الصحراء ٢١

وجهات نظر عالمية: تقارير إخبارية ٢٩

الكتاب الأول

ما لا يُصدقه العقل

الفصل الأول: ميلاد أخ ٣٣

الفصل الثاني: ثقافة السجون ٤٧

الفصل الثالث: اربطوا أحزمة المقاعد ٦٧

الفصل الرابع: موكب الشاه الأخير ٩١

الفصل الخامس: عاصفة في الرمال ١١٩

الفصل السادس: تجار الحروب ١٣٧

الفصل السابع: الثورة والمصالحة ١٤٧

الفصل الثامن: المال والإيمان ١٦٥

الفصل التاسع: حوار خطير ١٩٥

الكتاب الثاني

ما لا يُعقــــل

الفصل العاشر: الدائرة تتحول إلى مربع ٢٠٥
الفصل الحادي عشـر: صَيْفٌ هِنْـدي ٢٢٣
الفصـل الثاني عشـر: حيـرة الحكمـة ٢٤١
الفصل الثالث عشـر: أشـباح وهمس ٢٦٧
الفصل الرابع عشـر: الحملة الصليبية ٢٨٥
الفصل الخامس عشر: إفلاس الحرية ٣٠١
الفصل السـادس عشـر: راحـة بـاردة ٣٠٥
الفصل السـابع عشر: في انتظار العدالة ٣٢١
الفصـل الثامـن عشـر: أرنـي المـال ٣٢٩
الفصل التاسع عشر: بدايات جديدة ٣٣٥
الفصل العشـرون: يحيا نـدا ٣٤٣
أشـباح الماضي ٣٤٥
الخاتمة: الشـهرة والنصيب ٣٥٣
ملحق رقـم ١ .... ٣٦٣
ملحق رقـم ٢ .... ٣٦٨
ببليوجرافيـا ٣٨٠
ملحق الصـور ٣٨٣

مقدمة يوسف ندا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب وثائقي أردت منه أن يعكس بعض أحداث مررت بها وبعض فكر عِشت لـه، ولعلَّ مـن يقرؤه يرى فيه خطـأ فيتجنبه، أو بنـاء لم يكتمل فيكمله، وقد مارسـت الزراعـة والتجـارة والصناعـة والعقـار والتعليـم والصحـة والنقـل البـري والبحري والبنـوك، وبلغ حجـم أعمالي في بعض المراحل عدة مليـارات من الدولارات، ولم يكن أي مما مارسته أو بلغته هدفًا لي، ولكنها كانت وسائل استعنت بها لأبلغ الرسالة.

كنـت أهبـط إلى الصفر وأعود وأبدأ من الصفر. وكلمـا تنامت رحلة الصعود يأتي الحصـار فإما يفرض عليَّ الانحسـار أو أضطـر للهروب وأعود إلـى الصفر أو تحت الصفر. ولم أعرف اليأس ولـم أقابله ولم أُعدم الأمل، ولم يشـلّني الفشـل. وأيًّا كانت المصاعب التي واجهتها فقد كنت أعتبرها موجات تختبر إيماني فألوذ به حتى تنحسر. وكلما هدّموا عليَّ صرحًا كنت قد بنيته قمت من تحت أنقاضه أنفض الغبار وأستعين بالله وأبدأ مرة أخرى ببناء غيره.

هذا الكتاب كتبه السـيد «دوجلاس تومبسون» معتمدًا على ما سمعه مني وقراءاته ومتابعاتـه، وكان أمينًا فيما ذكـر. وكنا قد اتفقنا أن يكون الكتاب بالإنجليزية لغير قراء العربية، ثم يُترجم إلى لغات أخرى؛ وهي الإيطالية والفرنسـية والألمانية والإسبانية. وقبل أن ينتهي الكتاب، وبناء على أحداث الثورات والانتفاضات في المنطقة العربية قررنـا أن ينشـر بالعربيـة بعد الإنجليزيـة، ثم نتابـع اللغات الأخرى، وصـدر الكتاب

بالإنجليزيـة في أغسـطس ٢٠١٢، وتفضل الدكتـور محمد فريد الشـيَّال بترجمته من الإنجليزية إلى العربية.

والدكتـور الشـيَّال يعيش في لندن، ومنذ سـنين حصل على الدكتـوراه من إنجلترا فـي التاريخ؛ لأنه هوايتـه المفضلة رغم أنه تخرج في القاهرة مهندسًـا، وكان أمينًا في ترجمته، وصحح لنا مشكورًا بعض تواريخ الأحداث التاريخية.

أنـا لـم أحترف الكتابـة ولم يكن فـي حياتي متسـع لأكتب، وكل ما اسـتطعت أن أكتبـه كان في تسـعينيات القرن الماضـي؛ وهو ثلاثة كتب، منها اثنـان كُتبا بتوجيه من زعيمَـي اليمن الصامتَيْـن الصامدَيْن الصالحَيْن أبو مصعب محمد اليدومي، وياسـين عبـد العزيز. الكتـاب الأول عام ١٩٩٤؛ وهو بحث تاريخـي وجغرافي عن «الحدود الجغرافية الدولية لليمن»؛ كُتب بالإنجليزية وأُهدي للدولة ولم ينشر، واعتمدوا عليه في مفاوضات ترسـيم الحدود مع السـعودية، والكتاب الثاني عن «السـيادة والوضع القانوني للجُزر في جنوب البحر الأحمر»؛ كتبناه سويًّا بالإنجليزية؛ أنا و«جان دومنيكو بيكـو»؛ الذي شـغل منصب رئيس المكتب السياسـي لأمين عام هيئـة الأمم المتحدة «جافير بيريزدي كولير»، وأهديته لرئيس اليمن في ذلك الوقت؛ علي عبد الله صالح، بتوجيـه من نفـس الإخوة، وبناء على ما جاء فيه رَبِحت اليمـن قضيّتها ضد إريتريا في التحكيـم الدولـي على جُزُر حنيش وسـقر، ونُشـر عام ١٩٩٦، والكتـاب الثالث عن «تمويل المشـاريع» وهو جزءان؛ الأول تمويل المشـاريع بالوضـع المتداول؛ وكُتب بالإنجليزية ونشـر عـام ١٩٩٦، والجزء الثاني حسـب النظم الإسـلامية، وهاجمتني الأحداث فلم أُكمِله، وكثير من مسوداته موجودة، ولعلني أفعل إن كان في العمر بقية.

ولعل مَن يقرأ هذا الكتاب يرى أنني لم أجامل بعض أصدقاء الإخوان عندما أشعر أنهم لا يستحقون هذه الصداقة؛ دولًا كانوا أو أباطرة؛ فالجماعة الآن في شبابها تسعى لإرضاء الصالح وهداية الطالح، وتسـعى للصداقة والرضا، وتتجنب العداء والهجاء، أمـا أنا فكهل يجهر بمـا يعتقده. خصوصًا وأنني الآن ليس لي صفـة إدارية أو تنظيمية فـي الجماعة، وليس من العدل أن تتحمل ملايينها مسـئولية أفكار لم تقررها قيادتها. إن أفضل ما أعتز به بعد ديني وإسلامي أمران:

الأول: هـو المتعلـق بانتسـابي لجماعـة الإخوان المسـلمين، ورحـم الله كل من سـاعدني لأنتسب لهم وزاد من حسـناتهم وغفر لهم وأحسن مثواهم، وألحقني بهم؛ فقد سبقوني بالإيمان وسبقوني جميعًا إلى الله.

والثاني: ما وجّهني إليه قيادات الإخوان المسلمين للتحرك في إصلاح ذات البين بين المسلمين.

وفـي هـذا السـبيل كنت أسـتَلْهِم أفكارًا تسـتقطب الأطراف لتـؤدي إلى صلح أو إلـى مصلحة، أو تمنع حربًـا أو تتفادى مجزرة، أو تؤدي إلى تفاهم أو تمنع تفاقمًا. أو توقف مظلمة أو تُعين على مكرمة. لم يشغلني ظلم ظالم ولكن همّني نصرة المظلوم. لـم أُستدرج لمبارزة المتنطعين ولـم أنثني عمّا اقتنعت به عن يقين.

لم أتحدث من قبل عمّا كنت أفعل، ولكن عندما بلغت الثانية والثمانين من عمري، وبعد أن تناولَتْ صحف وتلفزيونات العالم شخصي بقصص قليل منها صحيح وكثير منهـا خيال أو كـذب قررت أن أتحدث، ليـس دفاعًا ولا فخرًا ولا اسـتعراضًا، ولكن قصدت أمورًا منها:

١ ـ تسجيل تاريخي لا لبعض ما فعلته، ولكن لبعض ما وجّهني لفعله مرشدو جماعة الإخوان المسـلمين الواحد تلو الآخر. ورغم أني قررت أن أكتب وأتحدث إلا أني لا أسـتطيع البوح بأشـياء كثيرة؛ حيث كثير من الأمور لا بد أن تذهب معي إلى القبر لأسباب كثيرة ليس منها أي شيء شخصي، ولكن حتى لا يؤدي البوح بها لقلب ما أردته أن يكون إيجابيًّا إلى سلبي.

٢ ـ أن أحـرك الجمود على الموجـود في الفكر المتوارث عنـد الإخوان، لا لهدمه ولكن للبناء عليه، وحسـبي ألا يسـتطيع متنطع أن يدَّعي أنني لست من الإخوان وهـو منهـم، أو أن الإخوان قال عنهم إمامهم إنهم سـلفيون أو صوفيون، ويبني علـى هـذا القول نظرية واهمة - ما أرادها قائلها الشـهيد الإمـام البنا، ولا عاش أو فكـر بها، خلاصتهـا أنهم يجب عليهـم أن يتوقفوا هناك حيـث كانوا. ولكن الإمام الشـهيد حسـن البنا كان في تنظيره وعمله وجهاده وسـيرته أوضح تفسير

للمعنى بأن هذا كان تراثنا الذي يجب أن نُقدره ونحترمه ونبني عليه ونتخطاه ولا نتجمد عليه - تمامًا كما فعل الإسلام عندما جاء تخطّى وبنى على رسالة إبراهيم وموسى وعيسى، ولم يتجمد هناك، ولم يستدرج إلى ما تحوّل إليه تابعوهم من شِيع وأحزاب وأمم وأسباط يلعن بعضهم بعضًا. وكثرت مزاميرهم وتنوعت أناجيلهم وصوامعهم وبِيَعهم.

لقد كرَّمَنَا الله بنعمة العقل، وعندما أعطاه لنا لم يمنعنا من استعماله، بل ولم يقل لنا فقط، بل كرر وأمر: ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾، ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾... فهلَّا نتبع ذلك أو نتوقف عند من كانوا يفعلون ذلك حتى القرن الثالث الهجري ونستعير عقولهم ونظرهم وفكرهم وتدبيرهم لنستعملها في غير عصرهم؟!

ورحم الله من علّمونا أن الإخوان المسلمين يجب ألا يقتصر جهدهم على هدم الباطل، ولكن عليهم بناء الحق. وليس فقط درء المفسدة ولكن أيضًا جلب المصلحة.

واللهُ يهدي مَن يشاء إلى سَواء السبيل.

يوسُف ندا

ذو القعدة ١٤٣٣ - سبتمبر ٢٠١٢

مقدمة دوجلاس تومبسون

«العالم مسرح كبير، وجميع الرجال والنساء مجرد ممثلين: يدخلون ويخرجـون، والرجل منهم يلعب في حياتـه أدوارًا كثيرة، وما أدواره إلا سبع مراحل لهذه الحياة».

شكسبير، كما تشاء

إنـه بهلـوان في الفكر واللغـات، وفي عالـم يكتنفه الغموض نحتـاج جميعنا إلى مترجمين. ورسـالة يوسُف ندا التنويرية في أبسـط العبارات - وأكثرها استثارة - هي «عِشْ ودعْ غيرك يحيا». إنه يبحث عن العدل الشـامل والديمقراطية، ويخاطر بحياته في كفاحه من أجلهما.

يوسُـف ندا مصري يعيش في المنفى، ويقول لكل الناس إنه تشـرَّف بعضويته في جماعة الإخوان المسـلمين لأكثر من سـتين عامًا. وهي أكثر «المنظمات» الإسـلامية في العالم العربي تأثيرًا وقوة وإثارة للجدل.

ومع سـقوط الأنظمة الاسـتبدادية كقطـع الدومينو أصبحت أمم كثيرة تخشـى أن تشهد بلدان الشرق الأوسط صورة إسلامية متكررة لإيران.

أدى رحيل شاه إيران في عام ١٩٧٩ إلى عودة آية الله خميني، وإلى رد فعل هائل مضاد للغرب، وبات من المفترض أن الأحداث تبشـر بثورة إسلامية وفوضى عالمية أكبر في القرن الحادي والعشرين.

كان «مايك هكابي» أحد المرشحين الجمهوريين للمراحل الأولى من الانتخابات الرئاسية الأمريكية المقبلة، وفي خطابه الانتخابي الموجه للأمة الأمريكية في ٣٠ من يناير ٢٠١١ قال: «إذا صح أن الإخوان المسلمين كانوا وراء كثير من الاضطرابات، لوجب على كل شخص حي أن يقلق».

ولم يناقش أحد هذا التصريح علانية. فمعظم الناس بطبيعة الحال لا يعرفون حقيقة الإخوان المسلمين وما هي جماعتهم. أما «نيوت جينجريتش»؛ المرشح المنافس على الرئاسة في انتخابات ٢٠١٢، والرئيس السابق لمجلس الشيوخ الأمريكي فيظهر معرفته بهم؛ ففي ٦ من فبراير ٢٠١١، أخبر شبكة تليفزيون«CNN» أن الاتصال بالإخوان المسلمين للمساعدة في حل الأزمة المصرية فكرة سيئة، وأضاف قائلًا: « الإخوان المسلمون عدو لدود لحضارتنا، هم يُصرّحون بذلك علانية، فالجهاد سبيلهم والموت منهاجهم».

ومن غير المستغرب أن تكون ليوسف ندا نظرة عقلية متزنة للأشياء، على الرغم من أن آراءه تعد عند بعض الإسلاميين ثورية، بل ربما هرطقية. فرسالته إلى المسلمين سُنة وشيعة، والمسيحيين واليهود، إلى الغرب والشرق، إلى الرجال والنساء أن يعيشوا في سلام جنبًا إلى جنب. ويرى لدول البحر المتوسط أن تنشئ حلفًا يستطيع من خلاله العالم العربي وأوربا أن يبنيا معًا مستقبلهما: إنه حل «على طريقة ماركو بولو»؛ وهو يدرك ما الذي أحال العالم إلى ساحة تثير الهلع للاندفاع نحو الهاوية؛ وجعل القلق ينتابه أربعًا وعشرين ساعة مترقبًا من الذي سيغمض عينيه أولًا.

بدأت أنا ويوسف ندا الحديث عن هذا الكتاب قبل بداية ما أصبح يعرف باسم «الربيع العربي» بفترة طويلة.

وبعد ذلك أمضيت عامين في جمع ملف من التحريات لأسرة مشهورة في المنطقة، ثم أسرتني قضية الإخوان المسلمين وقصة مفاوضهم الدولي المبتعد عن الأضواء؛ الرجل الغامض يوسف ندا.

فحتى الآن لم يزل هذا الرجل لغزًا في قلب ألغاز الشرق الأوسط، مثله كمثل القطعة الأخيرة في أحجية تركيب الصورة من أجزائها المقطعة (وتسمى بالإنجليزية

«the jigsaw puzzle») التي لم يضعها أحد في مكانها بعد، صعب المنال كسحابة دخان تلوح في الأفق. وهو يحب أن يبقى كذلك؛ فهذا أكثر أمانًا. لقد غيرت الأحداث من حياته كما سترون. كان التوقيت مثاليًّا لبداية تعاوننا، وبعد لقاءات تعارف خاصة واجتماعات كثيرة محّصنا خلالها دوافعنا وملاءمتنا للعمل سويًّا، بدأنا.

لم يكن أيٌّ منا يدري كيف ستعرقلنا الأحداث أو بما ستحيطنا خبرًا. كانت تزعجنا في بعض الأحيان لكنها كانت شيقة على الدوام. أذكر أني جلست مع يوسف ندا وهو يُستشار مرة عن الثورة في مصر وأخرى عن نهاية القذافي ويؤخذ رأيه باستمرار في البحث عن حل للمجازر في سوريا. وكانت المشكلات في مناطق أخرى، كالسعودية واليمن وإيران والعراق، تطفو على السطح كل يوم. كان درسًا مدهشًا في الدبلوماسية والسياسات العالمية. وإذا كان ليوسف ندا من فكرة تقود خطاه فهي أن مشاركة الإسلام السياسي في تسيير الشعوب الإسلامية هي السبيل الوحيد قُدُمًا نحو تأسيس الشرعية والديمقراطية.

فقد يوسف ندا حرية إرادته الذاتية، ونفى نفسه بعيدًا عن مصر بعد ثمانية أعوام من إنشاء البكباشي جمال عبد الناصر نظامه القومي في ١٩٥٢ ورجوعه إلى الثقافة الفرعونية. لقد تصرف ناصر وخليفتاه المستنسخان منه - أنور السادات وحسني مبارك - كالفراعنة، وتوقعوا أن يعامَلوا كآلهة.

والواقع أنه على مدى ستين عامًا من الفساد المستشري قامت طغمة عسكرية بنهب كل شيء كان على ضفتَي النيل بكل ما يعنيه ذلك. كان الوقت يمر ببطء شديد، لكن شعب مصر الذي يحمل لواء السياسات العربية بدأ يقاتل لاستعادة حريته. فشباب مصر وشباب الشرق الأوسط لا يهمهم استقرار الشرق الأوسط من أجل خدمة مصالح أمريكا وحدها. وآمال العالم العربي الذي أصبح أكثر تعليمًا تتطلب تعاملًا جديدًا وأكثر حساسية.

ويوسف ندا له رؤية قوية واضحة وصافية. وهو لا يستطيع أن يَعِد بإجابات قاطعة، لكنه يقدم حلولًا ممكنة من خلال أفكاره وفلسفته التي عاش لها طول حياته سفيرًا للعقل وصانعًا للسلام. وهو من حيث الأمر الواقع كان وزير الخارجية على مدى ربع

قرن من الزمان لجماعة الإخوان المسلمين، التي تنامت عضويتها ليس في الشرق الأوسط فحسب، وإنما في مواضع هامة في أمريكا والمملكة المتحدة، وعبر أنحاء القارة الأوربية كذلك.

وهو يصر على أن كل ما كُتب تقريبًا أو أذيع عن الإخوان المسلمين ليس صحيحًا. وقد اكتشف ذلك بشكل غير متوقع بعد الهجوم على أمريكا في ١١ من سبتمبر عندما وجد نفسه في دائرة الضوء محصورًا: هذا الرجل الذي كان يملك إمبراطورية من الأعمال التجارية قيمتها بلايين الدولارات الأمريكية قد وُصِم بأنه ممول إرهابي عالمي، وبذلك صنفته على قوائمها أمريكا ومجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة في نوفمبر ٢٠٠١. لقد سمَّاه الرئيس «جورج دبليو بوش»: «رئيس بنك القاعدة». وهو، كما قيل عنه علانية: «عراب جميع الشرور». وظل حتى الآن (سبتمبر ٢٠١٢) على القائمة السوداء الأمريكية، على الرغم من أن مجلس الأمن أزال اسمه من قائمته عام ٢٠٠٩. ولم تُوجَّه إليه تهمة ما مطلقًا، وفي أي مكان مهما كان. وكل ما مر به أعده لمواجهة هذه الكارثة. فقد عاش حياة فريدة، خلَّابة، وهو يتحدث عنها وتوحي إليه بحلول من أجل مستقبل العالم.

وخلال ثلاث سنوات من تحقيقاتي وشهور طويلة من المحادثة وجهًا لوجه، لم يتجنب يوسف ندا أي سؤال ولم يُجِب إلا بكل صراحة. ومن ثمة نستطيع أن نروي قصته من كلماته ومن الأحداث التي أجبرته مكرهًا على الخروج من الظل إلى دائرة الضوء.

وهناك مَن لن يصدقوا ما يقول أو سيئوِّلون كلماته. أما أنا فسلكت في هذا الكتاب نهج مراسل ذي عقل مفتوح ومنصف، ولم أكن معلِّقًا أو مؤلفًا ذا أجندة مسبقة - وقرأت عشرات الكتب الموجودة وكثيرًا من المقالات والتصريحات الإلكترونية - من هذا الجانب أو ذاك المقابل له. وتحدثت إلى أشخاص كثيرين، بعضهم يعتقد أن الإخوان المسلمين يريدون أن يقتلونا جميعًا ونحن في فُرشنا، وآخرون يعتقدون أن الإخوان هم الوجه المقبول للإسلام. وكلهم تقريبًا يُقرون بإنكار يوسف ندا لذاته فيما قام به من أعمال في حياته.

وأنا شديد الحذر في الحفاظ على حياديتي.

يُصر يوسف ندا على أننا جميعًا بشر، وأعترف بأنني أعتقد أنه إنسان طيب وأمين. لقد تركت يوسف ندا يشرح حياته وفلسفته بكلماته هو، ما أمكنني ذلك، فهي تعكس إلى حد كبير عزيمته في الحياة. وبعض أفكاره حاسمة: ففلسطين وإسرائيل لا يمكن أن توجدا كدولتين؛ وعلماء المسلمين لم يستخدموا عقولهم منذ القرن الثاني عشر، وانفراد بعض العائلات بحكم الدول المسلمة كالسعودية والإمارات وغيرها، حيث يتوارثه أبناء هذه العائلات دون سواهم هو خيانة للإسلام والمسلمين، والنساء المسلمات يستطعن التخلي عن النقاب مع احتفاظهن بحشمتهن، وأن يشتغلن بالسياسة.

كما يعتقد أن الذين يتمسكون بتفسير سلفي جامد للإسلام لا يستطيعون البقاء في القرن الحادي والعشرين، وأن المتطرفين قد اختطفوا الشريعة، والأمر المهم أن المسلمين يجب أن يتجنبوا العنف، وأنهم يجب أن يعيشوا حياتهم في سبيل الله، كما أنهم يموتون في سبيله.

يوسف ندا رجل لن يستسلم أبدًا. إنه رجل ينظر إلى الشيطان في عينيه ويظل محدقًا حتى يغلق الشيطان جفونه – ولا يهمه في أي صورة يتنكر هذا الشيطان.

دوجلاس تومبسون

القاهرة، سبتمبر ٢٠١٢

تمهيد

فئران الصحراء

«خير لك أن توقد شمعة من أن تلعن الظلام».

القاهرة، نوفمبر ١٩٥٤

تعثرت قدماه وهو يغادر القطار في محطة مصر حيث ينتهي الخط الحديدي الذي جلب على مدى نيف وستين عامًا الركاب من الإسكندرية إلى القاهرة سعيًا وراء الفُرص وطلبًا للراحة من الأسرة والأصدقاء.

ولم تكن هذه الراحة متاحة ليوسف ندا ذي الثلاثة والعشرين ربيعًا؛ إذ كان بقاؤه قيد الحياة يكفيه آنذاك. وكان عند الشاب يوسف بعض الأمل؛ إذ كان الحارس الذي ربط القيدُ الحديدي معصميهما معًا طوال رحلة القطار، الجافة المتربة المكتظة أربع ساعات طوال، يعرف أسرته. ربما كانت هناك فرصة للنجاة. ولكنه لم يرها في عيون الجنود الذين اقتادوه بغلظة من بيت أسرته في حي لطيف مشجر من أحياء الإسكندرية على مسيرة قصيرة بالأقدام من شاطئ البحر المتوسط، ولم يرها كذلك في سلوك الحراس الذين يستعدون لأخذه هو ومعتقلين أصلب منه إلى السجن الحربي. كانت الضوضاء عارمة. وكانت صيحات الجنود الذين ابتلّت قمصانهم من العرق ملؤها الغضب، وتتردد أصداؤها في جنبات المحطة كزخات الرصاص.

كان يوسف ندا طالب الزراعة الطويل النحيل قد سمع قصصًا مرعبة عن معسكر الاعتقال الجهنمي – السجن الحربي بالعباسية – بعد أن أصبح جمال عبد الناصر صاحب السلطة في مصر وحل جماعة الإخوان المسلمين؛ التي التحق ندا بها ولمّا يزل فتى مراهقًا قبل ذلك بستة أعوام. كانت تلك القصص كثيرة، والواحدة منها تبعث الخوف أكثر من أختها. فعضوية الإخوان المسلمين والبطش الدكتاتوري بها عقب «محاولة اغتيال» الرئيس عبد الناصر التي اتُّهِم بها محمود عبد اللطيف؛ الذي كان عضوًا كذلك في الجماعة – قادا إلى الإلقاء بيوسف ندا في غيابات السجن الحربي بالصحراء الواقعة على مشارف القاهرة. ووقف عند البوابة المفتوحة للمبنى الحربي، حيث يسكن رعب السجون الذي لا نهاية له.

«اقتادونا من القطار إلى المجمع الحربي مباشرة. وعلى البوابة تحت اسم السجن مكتوب ثلاث كلمات: تأديب وتهذيب وإصلاح، لخَّصَتْ لنا نوع المعاملة المتوقَّعة. جعلونا في صفوف، وبين الصفوف انتشر الجنود وبأيديهم سياط. وفجأة صرخ القائد، فإذا بكل جندي يَجلد بالسوط المعتقلَ الواقفَ بجواره. وصرخ القائد مرة أخرى ونظر إلى شعار السجن. وأمَرنا بالنظر إليه. اقرأه.. كَرِّره، اقرأه.. كرره.

وبدأ الجنود عملهم – بجَلْدنا، وصارت قِطَع الجلد تتطاير من ظهورنا وسيقاننا وأذرعنا. وكان ثمة رجل عملاق، ملاكم وبطل رياضي، وثب نحو الجنود وأطاح بأحدهم أرضًا. واستدار أربعة جنود آخرين نحوه. لكن العملاق كان قويًّا وصلبًا للغاية فقاتلهم بكل كيانه. وانصرف عنا أكثر من عشرين جنديًّا وهاجموا الملاكم. ونظرت نحوه بعد بضع دقائق، ووجدته قد تحول إلى كوم من اللحم والدماء.

وقيل للسجناء: «لقد تعلمتم درسًا»، ثم دفعوهم إلى داخل المبنى جرحى ينزفون، مُسلِّمين إياهم للسلطات العسكرية بعد أن كانوا في قبضة أجهزة وزارة الداخلية.

ثم بدأ الجنود كتابة أوراق القيد والحصر. وقالوا: يجب أن يملأ كل منكم جميع البيانات: اسمك، اسم أبيك، اسم أمك، عنوانك، أسماء أخواتك، أسماء إخوتك، أسماء أزواجهن وزوجاتهم – حتى يعرفوا مَن الذين يجلدونه أو يقتلونه.

«كان علينا أن نجلس على رُكَبنا في الطين والماء ونرفع أيدينا إلى أعلى على الحائط المنتصب أمامنا. ومن خلفنا جاءوا وحلقوا شعورنا بالماكينات، كحلاقة

المجندين. وجلدوا أجسادنا. وتركونا راكعين في الشمس المحرقة. وإذا هبطت يداك فإن الحارس سيلاحقهما بالسوط في يده. وظللنا هكذا ساعات. وكأن أجسادنا سلبت منا لم نعرف إلى أين. في السجن رأيت أشخاصًا يُعذَّبون حتى الموت بوسائل غير إنسانية، وبِطُرق لا يستطيع الشيطان نفسه أن يخترعها».

«كان بُراز السجناء يتجمع في براميل تمتلئ به حتى الفوهة. وكانوا يأتون بالرجل مقيد اليدين والقدمين يتدلى بكتفيه فوق البرميل من رافعة «ونش» مثبتة في السقف. فإذا لم ينطق بما يريدونه غطّسوه في البرميل مرارًا وتكرارًا.. يُغطسونه في الفضلات البشرية ويجلدونه حتى ينطق بالكلمات التي يريدون سماعها. وأحيانًا كانوا يجدون متعتهم في تكرار الإذلال فحسب. علقوا مرة أحد السجناء في الرافعة وأمروه أن يسب المرشد العام للإخوان، ورفض أن يستجيب حتى غطّسوه في البرميل وجعلوه يبلع الفضلات».

«ويبدو أن الحراس كانوا يجدون متعة خاصة في عملهم. كان الضباط دائما يُوكِلون أمر «الإخوان» إلى مجموعة من الجنود الفلاحين الجهلة والأميين. كانوا يستخدمونهم في مهام لا تحتاج إلى عقول».

وقال أحد الحراس ليوسف وهو يزجره: «أنت غبي. أنتم الإخوان تريدون الوصول إلى السلطة. هل تظن أن الحكومة عمل سهل؟ نحن في الحكومة؛ ونحن هنا طوال النهار والليل نضربكم. نحن في السلطة؛ ولكننا لا نأخذ استراحة. نعمل كل الوقت في ضربكم. وأنت تريد لنفسك عملًا ليس فيه راحة!!».

ذكر يوسف أنه كانت هناك زنازين خاصة تفتح أبوابها إلى الخارج وليس إلى الداخل. «كان المسئولون في السجن يغلقونها بقوالب طوب، والأسمنت بارتفاع ٧٠ سنتيمترًا: وعندما تفتح الباب لتدخلها عليك أن ترتقي هذه القوالب».

«كانت الزنزانة مليئة بالماء وألواح الثلج، شديدة البرودة بحيث لا تستطيع الوقوف فيها. بعض السجناء استسلموا بعد خمس دقائق. وبعضهم، لأنهم كانوا أقوياء، تمكنوا من البقاء ساعة واحدة».

وبعد عذاب الزنزانة، بدأت الاستجوابات.

«ربطوا الرجال إلى عوارض خشبية كالصلبان وجلدوهم، وجرحوهم بسكاكين صغيرة. وتناثرت قطع صغيرة من اللحم هنا وهناك. ورأيت حالات فظيعة ما زلت أقشعر لذكرها. رأيت سجناء يُصلبون ويُخصون، والجَذْوات المشتعلة توضع في كل جزء من أجسادهم».

أنقذَتِ العلاقات المتشعبة لعائلة يوسف ندا حياته من موت محقق داخل المعتقل الحربي، لكن القصص التي يرويها عن ذلك المكان تجعلك تتمنى الصمم وتحاول أن تضع أصابعك في أذنيك. عندما أُخذ إلى عيادة السجن الطبية، اكتشفوا وقتها وجود قطعة من الطعام زائدة، كانت لأحد السجناء لكنه مات. قالوا له: خذها يا يوسف إلى الزنزانة رقم ١٣، ففعل. وكانت الزنزانة مظلمة، وسمع صوتًا فيها يقول له: خذ الطعام إلى الزنزانة المجاورة فجاري يحتاجه أكثر مني...، وعثر على مصدر الصوت مُلقًى على الأرض، لم يتبين يوسف سوى عينَي الرجل الحمراوين وفمه الدامي من بين سائر جسده الذي شوهت الحروق جميع أجزائه، حتى بات من الصعب التعرف عليه. وردد الرجل قوله: إنه يحتاجه أكثر مني. وأخذ يوسف الطعام إلى الزنزانة المجاورة. وكان ثمة بقايا رجل آخر، التهمت الكلاب الجائعة كل ما بين ساقيه.

هذه الوحشية أصبحت جزءًا من نظام الحياة في مصر بعد استيلاء البكباشي جمال عبد الناصر على السلطة في أعقاب ثورة ١٩٥٢. كان يخشى أن يفقد السيطرة، وأن يخسر قلوب المصريين وعقولهم أمام الإخوان المسلمين الأكثر شعبية؛ فكان رد فعله هو إزاحتهم عن الأنظار، وهكذا امتلأت السجون بأكثر من ٣٠٠ ألف عضو من جماعة الإخوان في السنوات الأولى من عهد عبد الناصر.

قال يوسف ندا: «قبل الانقلاب قال عبد الناصر إنه سوف يعيد الإسلام إلى المجتمع، ولن يخالف الشريعة، لكنه عندما وصل إلى السلطة بدأ بضرب الإخوان المسلمين. وأقام نظامًا دكتاتوريًّا. وبدأ الصدام؛ كان الإخوان المسلمون أقوياء. ولكي يقضي عليهم كان عليه أن يجد لذلك سببًا، وهكذا فعل».

حظـي يوسـف نـدا بوالدَيْـن بارَّيْن حفظاه مـن أن يذهب ضحية مـن ضحايا مصر فـي عهدهـا الجديد. فعندمـا كان في المعتقل عانـى آلامًا فظيعة مـن التهابات الزائدة الدوديـة، واسـتطاعت عائلته عن طريق صلاتها أن تنقله إلى المستشـفى العسـكري. ومـع هـذا، كانت الإجراءات الأمنية مشـددة، خاصة مع تملك شـعور الارتياب على سلطات السجن.

«كان حراسـنا يشـملون فريقًـا مـن السـجن الحربـي، ومجموعة مـن المخابرات الحربيـة تراقـب عملهم، ومجموعـة أخرى من جهـاز المباحث، وثالثـة من الحرس الجمهوري. كنا بمعزل من السجن الرئيسي، وكان هناك كثير من الأشخاص من أسر العسـكريين يحضرون إلى المستشـفى لعيادة مرضاهم. وقد تسـتطيع الحديث معهم أحيانًا، وقد يوافقون على الاتصال بعائلتك وتوصيل أخبارك إليهم».

«وانضـم إلينـا ذات يـوم أخ في غاية الاضطـراب، وحاولت أن أُهـدئ من روعه. فقلت له إن الأطباء سـوف يعتنون به، وإنه سوف يتمكن من الاتصال بأسرته. فدهش من ذلك وسـألني: هل يمكن أن أرى أبي وزوجتي وأبيها؟ فأجبته بنعم، ثم سـألته هل من الأفضل له أن يلقى كل واحد منهم على حدة أو أن يراهم مرة واحدة مجتمعين؟

فنظر إليَّ ثم أطرق برأسه وقال: بل أُفضّل رؤيتهم معًا. كنت أحسب أنه ربما أحب أن يلتقـي بزوجتـه بمفردهما، ثم يرى ويتحـدث مع أفراد أسـرته كل على حدة، لكنه نظـر فـي عينيّ قائلًا: لـم أعد رجلًا. لقد اسـتأصل الجلادون من جسـده فحرموه من خصائـص الرجولـة. ورأى من واجبـه أن يُطَلِّق زوجته. لقد ضاع منه كل شـيء؛ لأنه عارض الدكتاتور. لن أنسـى أبدًا هذا الرجل. لو أن ما جرى في ذلك السـجن حدث لأقل الحيوانات وأقربها للهلاك ما استطعت نسيانه البتة».

لـم تعد حياة يوسف إلى حالتها الطبيعية بعد ذلك أبدًا. وأنّى له ذلك؟! كانت تجربة غير عادية. لقد شـاهد – وسـمع – الرجال وهم يُعذَّبون إلى الحد الذي لا يستطيعون عنده سوى «الاعتراف». لم يتبق لهم من كرامتهم شيء، أو من نفوسهم شيء. والولد، كما يقولون، أبو الرجل. وهكذا أسهمت نشأته العائلية وتجاربه في تكوينه الوقور.

عندما كان يوسف في السجن، اعتقلت الشرطة العالِم المعروف محمد القراقصي، وكان في الثمانين من عمره وحالته الصحية سيئة، ورغم ذلك وضعوه في السجن. كان القراقصي يرتدي نظارة طبية سميكة يرى بها الشيء القليل وبصورة مهزوزة. وكان الحراس القساة يتخذون من عجزه مادة لألعابهم. كانوا يضربونه بالسوط من ورائه ويسألونه أن يدُلهم عمن ضربه، ومهما كانت إجابته يعتبرونها خاطئة، وبناء عليه يعيدون ضربه مرة أخرى. ورغم هذا التعذيب اليومي كان الرجل يدعو للرجل الممسك بالسوط قائلًا: «متعك الله بالصحة يابني».

كان الشاب يوسف ندا يغضب من هذا القول ويقترح على الشيخ أن يدعو الله أن يشل يد جلاده أو يكسرها؛ وهو بهذا يتخذ موقفًا بين التسليم بما يحدث والثورة عليه.

ولكن محمد القراقصي؛ ضحية هذا التعذيب الهمجي، كان يتطلع إلى يوسف من خلال عدساته السميكة ويقول: يابني يا يوسف، ماذا أستفيد إذا شُلت يد الرجل؟ هل نسيت آيات القرآن عن العفو والصفح.

ورغم مرور السنوات الطوال، ما زالت عينا يوسف تدمعان كلما روى هذه القصة: «كان الشيخ يتبسم وهو يقول لي: يا يوسف، هل أنت أحمق أم مجنون؟ ماذا أكسب إذا غُلت يداه. وماذا أستفيد إذا كُسرت رقبته؟ ربما يُحسن الله إليه فيتغير ويلحق بالآخرين، فيصنع شيئًا فيه خير للناس وللإسلام».

«ونظرت إليه. نعم! أحدنا مجنون إما هو وإما أنا. ورغم كل ما أصابه لم يُغير موقفه. ظل يريد الخير للآخرين. كان الشيخ أكثر نقاءً مني. وكان هذا درسًا لا يُنسى».

وكان في المعتقل مع يوسف والسجناء السياسيين الآخرين بعضُ عتاة المجرمين وأكثرهم خطورة.

«فالسجن قسمان؛ قسم لعامة السجناء والقسم الآخر للسجناء الخطرين تحت الحراسة المشددة، الذين حكمت المحاكم العسكرية على كل منهم بالسجن لأكثر من مئة عام، ولم يكن لديهم ما يحرصون عليه. وكان الحراس يأخذوننا مرة كل أسبوع إلى الفناء لنغسل ثيابنا في حوض مشترك طويل به صنابير كثيرة. كان الوقت

المسموح به قصيرًا للغاية، فكنا نتعرض لكثير من الدفع والإبعاد. ولم أكن معتادًا على مثل ذلك، وأصبحت على حذر – وحتى الجنود كانوا خائفين من أولئك الرجال الذين سيبقون في زنازينهم حتى يدركهم الموت. وذات يوم ركلني أحد السجناء بحذائه وقال لي: أنت لا تصلح لهذا العمل، دعك منه وسأكفيك إياه؛ هذا العمل ليس لك. قالها وهو يضحك، والحق أنني خِفت، فاستطرد يقول: أنت لا تعرفني، لكنني أعرفك جيدًا، إنك يوسف!».

«كيف عرف من أكون؟ هل جاء ليغتالني؟ جال هذا الشك في خاطري قبل أن يبادرني بالشرح: لقد عملت عند أبيك، أكلت عنده عيش وملح. وكانت أمك دائمًا ترسل إلينا الطعام، وإلى أُسَرِنا».

«حماني ذلك السجين الخطر وساعدني. لقد تذكر عطف أبويَّ عليه عندما رآني – تمامًا مثلما فعل الجندي الذي أوثق قيد معصمي إلى القطار. كانت أمي ترسل له الطعام أيضًا، فطلب مني رقم هاتف أبي، وأخطر أسرتي بمكاني. عندنا مَثَلٌ شعبي في مصر يقول: اعمل الخير وارميه في البحر.. مصيره يرجع لك يوم».

وجهات نظر عالمية

تقارير إخبارية

نيويورك تايمز

القاهرة، ٣ من يناير ٢٠١٢

مع اقتراب الإخوان المسلمين نحو تحقيق أغلبية واضحة في برلمان مصر الجديد، بدأت إدارة الرئيس الأمريكي أوباما تتخلى عن عقود طويلة من العداء وانعدام الثقة، في سعيها لإنشاء علاقات أكثر اقترابًا من الجماعة التي رأت فيها يومًا أنها معارضة لمصالح الولايات المتحدة ولا يمكن التصالح معها.

إن مقترحات الإدارة - بما في ذلك اجتماعات على مستوى عالٍ في الأسابيع الأخيرة - تُعد تحوّلًا تاريخيًّا في السياسة الخارجية التي اتبعتها الحكومات الأمريكية المتعاقبة التي دعمت بثبات حكم الرئيس حسني مبارك الاستبدادي، وذلك يرجع، إلى حد ما، لتخوفها من الأيديولوجية الإسلامية للإخوان ولعلاقتها التاريخية بالعسكر.

والتحول، في أحد مستوياته، إقرار بواقع سياسي جديد هنا، وفي المنطقة من حولنا بطبيعة الحال، مع وصول الجماعات الإسلامية إلى السلطة. ففوز الإخوان بنصف المقاعد تقريبًا في الجولتين الأولى والثانية من الانتخابات التشريعية في البلاد، جعلهم يدخلون الجولة الثالثة والأخيرة يوم الثلاثاء وعندهم الفرصة للحصول على أغلبية واضحة مع وصول الاقتراع إلى مناطق تعد من مراكزهم القوية منذ فترة طويلة.

والتحول الأمريكي يعكس قبول الحكومة المتزايد للتأكيدات الإخوانية المتكررة بأن مسئوليهم يريدون بناء ديمقراطية حديثة تحترم الحريات الفردية، والأسواق الحرة والالتزامات الدولية بما فيها اتفاقية مصر مع إسرائيل، وإن أعلنت ضروره تعديلها.

ذي إيجيبشن إندبندنت

القاهرة، الأربعاء ١٨ من يناير ٢٠١٢

وفقًا لبيان من الإخوان المسلمين «قامت السفيرة الأمريكية في مصر «آن باترسون» في اجتماع لها مع الدكتور محمد بديع المرشد العام للإخوان بتهنئة حزب الحرية والعدالة التابع للإخوان المسلمين على فوزه بغالبية المقاعد في مجلس الشعب». وأضاف البيان أن السفيرة أكدت للدكتور بديع أن الولايات المتحدة تتطلع إلى التعاون مع الحكومة التي سوف يختارها الشعب المصري. وقال بديع إن الحكومات الأمريكية المتعاقبة قد حكمت على الشعوب من واقع تصرفات حكامها الطغاة، ودعمت بعض الطغاة مما جعل شعبيتها تنخفض لدى مواطني هذه الشعوب الرازحة تحت الحكم الدكتاتوري. وقد حثَّ المرشد الولايات المتحدة على استعادة مصداقيتها، خاصة فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وأقرت «آن باترسون» بأن الولايات المتحدة قد ارتكبت «بعض الأخطاء» وطالبت بالتعلم منها حتى لا يتكرر الوقوع فيها مستقبلًا».

الكتاب الأول

ما لا يُصدقه العقل

«إذا كنتُ على صواب فسيقول الألمان عني: إنه كان ألمانيًّا، ويقول الفرنسيون: إنه كان يهوديًّا، أما إذا كنت على خطأ فسيقول الألمان عني: كان يهوديًّا، ويقول الفرنسيون: إنه كان ألمانيًّا».

ألبرت أينشتين، ١٩٢٢

الفصل الأول

ميلاد أخ

«رجعت ورأيت تحت الشمس أن الفوز في السباق ليس للأسرع، وليس الفوز في المعارك دومًا للأقوى، ليس الخبز للحكماء وحدهم وليست الثروة حكرًا على الأذكياء، ولا الفضل للماهرين فحسب، وإنما يَلْقَى جميعهم الشهرة والفرصة».

العهد القديم - سِفْر الجامعة، ٩ : ١١

الإسكندرية ١٩٤٨

مثلما يحدث عادة؛ بدأت المشكلة بشيء تافه؛ شجار بين صبيين ثم انضم إلى كل منهما بعضُ أصدقائه، وأخذت الأصوات تعلو من الفريقين ويزداد الغضب. وسرعان ما تبودلت اللكمات وبدأ القتال، ووجد يوسف ندا ذي السبعة عشر ربيعًا نفسه وسط هذه المعمعة في ركن بالشارع القريب من منزل أسرته.

وظهرت بعض السكاكين، ولمعت أنصالها في الشمس، وأصبح القتال مميتًا. كيف يساعد على إيقافه؟ أراد ذلك، لكنه امتلأ خوفًا عندما صعَّدت الأطراف المتقاتلة من عنفها. ضاقت دائرة القتال من حوله لكنه لم يستطع مغادرة موقعه؛ كان متسمرًا في مكانه بين ذلك الشعور الخطر: الفضول والترقب. ولحظتها كان أكثر من أربعين شخصًا من أبناء الحي مشتركين في القتال.

ظن الفتى أن الشرطة سوف تصل في أي لحظة. لكن لم يكن ثمة ما ينبئ بذلك، لم يسمع أحد صوت أبواق سيارات الشرطة. واستمر القتال حتى ظهرت مجموعة جديدة من الشباب أخذت تَفْصل بين الطرفَيْن المتناحرَيْن. وبدأت تُباعد بين المتقاتلين، محتضنة بعضهم، متلقية بأجسادها اللكمات الطائشة، وشيئًا فشيئًا، ببطء وباستخدام كلمات وتحركات مهدئة للخواطر، أعادت المجموعة الوافدة الهدوء بين الجمع المقتتل.

وانبهر يوسف بما رآه. كان الأمر لديه ضرب من المعجزة. في لحظة كان مَن في الحشد يحاول أن يقتل بعضهم بعضًا، والآن يتحدثون معًا.

كان وُسطاء الخير هؤلاء من الإخوان المسلمين. وعندما يسترجع يوسف أحداث ذلك اليوم يتذكر: «أن الإخوان أخذوا يتحدثون قائلين للمتشاجرين إنهم جيران وإنهم كالأسرة الواحدة، وذكّروهم بالأخلاق والقيم المرتبطة بالدين، واستشهدوا بآيات من القرآن، وأحاديث الرسول، وهدأت النفوس. سأل الإخوان الرجال المتقاتلين عما كان سيحل بأطفالهم إذا ذهبوا هم ضحية هذا الاقتتال؛ من الذي سيرعى أُسَركم من بعدكم؟ وذكّروهم أن معظم النار من مُستصغر الشرر. تكررت هذه العبارة مرات على مسامع يوسف. فالسر يكمن إذن في منع الشرارة - وإلا كان علينا أن نواجه النار.

«كنت أعرف عن الإخوان من مركزهم القريب من بيتنا، ومن النشاطات التي كانوا يُحْيون بها المناسبات الدينية. ولكننا كنا نحيا حياة مختلفة. كان الاتجاه العام لدى جميع المصريين هو وجوب احترام الدين. في ذلك اليوم سمعنا الأذان ينبعث من المساجد، وهو يُسمع خمس مرات في اليوم. واتخذ جميع المصلين صفوفهم خلف الإمام الذي أمّ جماعتهم. وعقب الصلاة توجه إليهم بحديثه، فاختار آيات تتحدث عن الأخوة والرحمة وحسن معاملة الآخرين وتجنب الاقتتال بين المسلمين. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾.

الأمر جاء بالإنصاف، والعدل على الدوام: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

وقد وعى الجمع الذي كان يقتتل منذ برهة ما حدَّثهم به الإمام، واستوعبوا الدرس، ثم طلب الإمام من كل واحد منهم إذا كان مُحبًّا لربه ولدينه أن يستغفر الله ويعانق خصمه. ففعلوا ذلك، ثم شربوا الشاي جميعًا وهم سعداء».

«أما أنا فكنت كمن يسمع نشيدًا مؤثرًا. لقد شاهدت فلسفة حية».

«وتساءلت: مَن هؤلاء القوم؟ وكانت هذه البداية. ذهبت إلى المركز حيث تحدث معي اثنان أو ثلاثة من الإخوان. وقالوا إنهم يُرحبون بزيارة الجميع لمركزهم كما يُوجِّهون الدعوة للحضور يوم الثلاثاء لسماع كلمة أحد زعمائهم من القاهرة؛ الأستاذ محمد فريد عبد الخالق؛ الذي سيزورهم حينذاك. وقد ذهبت يومها، وكان المتحدث ذكيًّا وجياش العاطفة.

وطلب مني أحد الأعضاء القدامي أن أساعده في فعل خير، فقد علم أن والد محمود؛ أحد زملائي في المدرسة، أصيب بالشلل في حادثة، وكانت الأم تعمل لتعول الأسرة، لكنها مرضت بدورها ولم يعد لدى الأسرة دخل. وطلب مني أن أحمل إلى السيدة مالًا على شرط ألا أبوح لها بمصدره. وكان درسًا عمليًّا تعلمت منه كيف أساعد في صمت دون أن أمس كبرياء أحد. بدأت حياتي مع الإخوان المسلمين بهذا اليُسر. وتحدثت عن ذلك إلى أسرتي، فلم يشجعوني إلا أنهم لم ينهوني عن ذلك قط».

كان مصطفى علي ندا والد يوسف، ونعمات أبو السعود والِدَتُه محل احترام مجتمعهم، وقد نجحا في تربية وتعليم أسرة كثيرة الأطفال. وُلِد يوسف؛ وترتيبه الرابع من بين أحد عشر طفلًا رُزق بهم والداه، في الإسكندرية في ١٧ من مايو ١٩٣١. وكان مصطفى علي ندا يملك مزرعة ومصنعًا لمنتجات الألبان، وسوف يُعِينه ابنه في تشغيلهما. كان الوالد هو عائل الأسرة، أما الوالدة، وإن توفيت في شبابها للأسف، فكانت تمسك بدفة الأسرة، وكانت لها بمثابة العقل المدبر: كانت دائمًا تتوخى كل ما هو صحيح. كان عليها أن تعتمد على حُسن تقديرها عندما استخدم رجال أمن عبد الناصر زوجها وابنها صبحي الطالب بكليه الهندسة والأصغر من يوسف كرهينة للإيقاع بيوسف، الذي كان شابًّا عاقلًا.

بدأ يوسف تعليمه في مدرسة الرملية الابتدائية، واستمر بها حتى دخل مدرسة الرمل الثانوية. كانت هوايته حضور جلسات المحاكم في المدينة. كان مبهورًا بالمحامين ومرافعاتهم – وكيف كان أحدهم يُقدم أدلته ويأتي محامي الخصم فيعارضها، وكيف كان القاضي يواجههما بنقاط القانون الفنية. يقول يوسف عن هوايته: «تعلمت من كل ذلك كيف أُفاوض، وكيف أطرح أفكاري»، «كما تعلمت أن أدرك ما يرمي إليه الآخرون قبل أن يختموا حديثهم. كنت لا أزال في الثانية عشر من عمري عندما بدأت الذهاب إلى المحكمة، وواظبت على الذهاب، بينما كان أصدقائي مشغولين بلعب كرة القدم أو الذهاب إلى السينما؛ كان اهتمامي مُنصبًّا على عالم القانون».

«كان في ذلك الوقت نوعان من المحاكم: محاكم للمصريين وأخرى للأجانب. في أثناء الاحتلال البريطاني لمصر كان البريطانيون لا يقبلون أن يَمْثُل أحد من مواطنيهم أمام محكمة مصرية إذا خالف القانون. زُرت المحاكم المصرية – أما المحكمة المختلطة فكانت للأعداء، كانوا يطبقون معايير مزدوجة.

وعندما أحاول اليوم تحليل سلوكي آنذاك، أستعيد صور الماضي؛ لأعرف كيف بدأ. هل كانت بدايته من المدرسة، أو من الأسرة؟ أعتقد أنها جاءت من رؤيتي للظلم في المحاكم».

غير أن يوسف وإخوته كان لديهم بعض الحرية في حياتهم: «كانت الطريقة التي رُبِّينا عليها تمنحنا الحرية؛ كنا نُنصح بفعل هذا وعدم فعل ذاك. كان يُقال لنا إن شخصًا ما طيب لأنه تصرف بطريقة معينة. كان أبي مشغولًا للغاية وقد علمتنا أمي كيف نُسيّر حياتنا».

«كان أبي يملك مزرعة للألبان، يعمل بها نحو خمسين عاملًا لإنتاج ألباننا ولجمع الألبان من مزارع أخرى. في العطلات والإجازات المدرسية كنا نذهب ونحن أطفال مع العمال إلى مزارع بعيدة ونشاهد كيف يحلبون الأبقار والجواميس. كنا نمضي مع هؤلاء الرجال اليوم كله، فعلمنا كيف كانوا يفكرون وكيف يتصرفون. وجعلني هذا أفهم كيف يعيش الآخرون، وكيف يأكلون ويفكرون. لم أنشأ في فراغ». لقد ربطت هذه التجارب بين يوسف ندا وأبناء وطنه.

بدأت جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ كحركة اجتماعية وثقافية؛ أسسها مدرس اسمه حسن البنا ومعه ستة من العاملين في شركة قناة السويس. أقيمت الجمعية على أسس من المبادئ الإسلامية الإنسانية، لكن خصومها سرعان ما وصموها بالشر. وتعرض الإخوان للسجن والتعذيب والموت. وبالضرورة، دفعهم هذا الاستفزاز إلى العمل شبه السري بينما كانوا يزدادون في هدوء عددًا ونفوذًا.

وعندما التحق يوسف ندا بالإخوان المسلمين كانوا يعيشون في بيئة معقدة، كانت الحرب الباردة تزداد شدة كل يوم. كان المحتلون البريطانيون يحصرون اهتماماتهم في أحداث بعينها، مركزين على الخطر الشيوعي الذي يتهدد الشرق الأوسط، وعلى التحكم في قناة السويس.

كان الملك فاروق يزداد سمنة، وأصبح بحجمه المتضخم يخيم بظلاله على حزب الوفد الذي كان القوة السياسية البارزة في البلاد.

كانت المصالح الأمريكية والروسية ترعاها كل من المخابرات الأمريكية المعروفة بوكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) والمخابرات السوفيتية المعروفة بوكالة الأمن القومي (كيه جي بي)، واللتين استَخدمتا وسائلهما الخداعية إلى حد كبير في بث إشاعة غامضة عن أن الملك كان مُسيطَرًا عليه تمامًا من الإمبرياليين البريطانيين المُستغلين. كل ذلك كان قِصَر نظر يبعث على القلق.

كان جمال عبد الناصر السياسي الطبع ضابطًا في سلاح المشاة عندما أرسل الملك فاروق قواته إلى فلسطين، وانتهت هذه الحملة حسبما يرى عبد الناصر إلى اتفاق مهين. وفي أكتوبر ١٩٤٨ اتصل عبد الناصر بالإخوان المسلمين متطلعًا إلى تكوين تحالف معهم. والتحق بمجموعة عسكريين منهم يرأسها ضابط أعلى منه رتبة اسمه محمود لبيب، ولم يتأكد الانسجام بينه وبينهم كما أنه لم يكن مع البريطانيين بطبيعة الحال. كان الإخوان على خلاف مع حزب الوفد الحاكم، الذي لم يُرِد لشعبية الإخوان أن تزداد. واتفق ذلك مع ما يريده البريطانيون؛ وهم القوة الاستعمارية التي كانت تكبح جماح الوفد.

وكان ليوسف ندا توجهات شاب واثق من نفسه ذي أفكار قوية، يتحدث بصراحة لا يريد من ذلك جزاءً ولا شكورًا. وساعده ذلك أثناء دراسته في الجامعة عندما كان يدرس في كلية الزراعة، وكان يذهب إليها بالحافلة في رحلة على امتداد شوارع الإسكندرية الجميلة، التي أصبحت اليوم أثرًا بعد عين، وكانت المسافة من بيته إلى الجامعة تستغرق نحو ثلاثين دقيقة. كان يوسف عضوًا في اتحاد طلاب الكلية، وذات مرة في اجتماع حضره عميد الكلية الأستاذ الدكتور شفيق الخشن، أبدى يوسف رأيه في نقطة معارضًا بقوة رأي العميد.

ورد عليه العميد بجفاء، فأجاب الطالب قائلًا: «لا تغضب مني يا دكتور. إني أُكِنّ لك احترامًا كبيرًا، فأنت أستاذي. لماذا تغضب مني؟ سأقدم لك استقالتي الآن». ولا ينسى يوسف إلى هذه اللحظة رد العميد عليه. «هل ستتركني مع هؤلاء الذين يقولون نعم ياسيدي كل وقت وحين. بل ابقَ فثمة حاجة إليك هنا». كان الطلاب الآخرون لا يسائلون العميد، ويطيعونه دون أن يقولوا ما يعتقدونه أو يفكرون فيه. ويقول يوسف: «شعرت أنني محل احترام العميد؛ لأنني أبديت رأيي، حتى ولو لم يوافقني عليه».

وعندما كان عمره عشرين عامًا، انخرط يوسف في أعمال المقاومة المنظمة: «في عام ١٩٥١، كانت مصر تطالب بجلاء القوات البريطانية عن أراضيها. وعمَّت المظاهرات والاشتباكات العنيفة بين الشرطة وبين الجيش البريطاني. كانت المواجهة شرسة واندلعت المظاهرات في جميع الجامعات. وفي الجامعات بدأ بعض قواد الجيش المصري يدربون الطلاب. وفي جامعة الإسكندرية، تلقيت تدريبًا عسكريًّا كاملًا على استخدام الأسلحة، وكان معظم من سارعوا لتلقي التدريب من الإخوان المسلمين. تمامًا كما حدث من قبل عندما سمع المتطوعون بأن اليهود يَفِدون من كل مكان في العالم ليستوطنوا فلسطين؛ التي كانت بلادًا للمسلمين والعرب، تداعوا من دول المنطقة كلها ليقفوا إلى جانب الفلسطينيين. انضم الإخوان المسلمون إلى صفوف مقاومة الغزو «الصهيوني». قلوب الناس جميعًا كانت مع الفلسطينيين، حتى أعضاء الحكومة المصرية. كانوا ضد الاستيطان، لكنهم لم يكونوا مستعدين

للدخول في المتاعب؛ كانوا يرغبون في السلام، كانوا يريدون العيش في هدوء. لم يودوا أن تكون بينهم وبين البريطانيين مشكلات، لكن قلوبهم وعقولهم كانت مع الفلسطينيين».

كانت الحاجة قائمة إلى الدبلوماسية القوية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن بدلًا منها جلبت الترتيبات المتخذة تحت غطاء من الضرورة السياسية حكم المصلحة الذاتية المغرور. ومن بعيد نفخت واشنطن وموسكو في نار الأحداث المشتعلة في مصر طوال عام ١٩٥١ ثم عام ١٩٥٢ من بعده. كان عبد الناصر يدبر لانقلابه وأنشأ حركة الضباط الأحرار بهدف استعادة كرامة مصر.

وفي ٢٥ من يناير ١٩٥٢ ارتكبت القوات البريطانية المرابطة في منطقة قناة السويس عملًا انتقاميًّا رهيبًا، عندما هاجمت مبنى قيادة الشرطة المصرية في الإسماعيلية فقتلت مئة وجرحت ٤٩ من رجال الشرطة المصريين، فاشتعلت الاضطرابات. وزحفت جموع الغاضبين بتشجيع من الضباط الأحرار وانضم إليهم عدة آلاف من الجمهور في شوارع القاهرة، مهددين كل مبنى أو متجر أو شخص له علاقة بالبريطانيين. ونتج عن هذه الاضطرابات وفاة ثمانين شخصًا، من بينهم بعض الرعايا البريطانيين. واشتعلت النيران، واستشاط الملك فاروق غضبًا، وفشل السياسيون في إنهاء ذلك الشتاء الغاضب المهلك.

واستمر اشتعال «حريق القاهرة»، وإن كان على سبيل المجاز، في عناوين الصحف العالمية إلى أن وقع الانقلاب العسكري في يولية ١٩٥٢ بقيادة اللواء محمد نجيب – الذي سرعان ما أطاح به البكباشي جمال عبد الناصر مستوليًا على السلطة وخَلَف نجيب في مناصبه. وعشية وقوع الانقلاب استُدعي الشاب، المتدرب عسكريًّا، يوسف ندا مع غيره من الإخوان. «كان عبد الناصر قد وعد الإخوان بأنه شخصيًّا لن يسمح بأي عمل يخالف الدين، يخالف الإسلام». «وبهذا حصل على تأييدنا التام».

«وصلَنا إخطار مسبق بوقوع انقلاب وشيك. وأُمِرنا بحماية السفارات الأجنبية، والبنوك والمباني الحكومية، باعتبارها أهدافًا محتملة للمخربين».

«كانت مهمتي صعبة؛ إذ كلفوني بالمساعدة في حراسة القنصلية البريطانية في الإسكندرية - أحد الأهداف الرئيسية. لم يكن مرّ سوى شهور قليلة على حريق القاهرة، فكانت المخاوف عظيمة. كان الإخوان يخشون أن يقع التخريب في أي مكان في مصر، فتُدمَّر الممتلكات ويُقتَل الناس».

«وعقب نجاح الانقلاب، أُطلِق سراح من تبقى من الإخوان في السجون منذ عام ١٩٤٨. ونزلوا إلى الشوارع ليشاركوا في الإعداد لبداية عهد جديد. كانت أصواتنا عالية في تلك الفترة وكان تأييد الناس لنا حماسيًّا.

كان على جمال عبد الناصر وزملائه ألا يفسدوا على الإخوان سعادتهم - فقد كان يومًا ما من الإخوان وعاش مع مجموعة منهم بقيادة محمود لبيب، وكانوا يظنون فيه شدة الوفاء.. لكنه انقلب عليهم».

«كان يريد أن يصبح السلطة الوحيدة في البلاد. وكان قادة الإخوان متشددين عندما تفاوضوا معه. كانوا مخلصين وظنوا أن الإخلاص وحده يكفي. في السياسة، ليس الإخلاص العامل الوحيد المعتبَر. كانت المسألة شعورًا طاغيًا بالوطنية، تملَّك مشاعر الناس: يجب على البريطانيين أن يرحلوا! علينا أن نُجليهم عن أراضينا، وأن نصبح أحرارًا! لن نظل تحت الاحتلال إلى الأبد! مصر قبل كل شيء! على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل! كان هذا هو المزاج السائد بقوته وعنفوانه».

عقب نجاح الانقلاب بدأت المفاوضات بين عبد الناصر والبريطانيين. وطلب أحد المفاوضين البريطانيين واسمه «إيفانز» مقابلة الإخوان، لكن الإخوان لم يرغبوا في القيام بأي تحركات سرية، أو أن يعقدوا صفقات من وراء ظهر الحكومة. فأخبروا عبد الناصر بما يريده «إيفانز». ونصح عبد الناصر الإخوان بمقابلة الرجل على أساس «أن البريطانيين سوف يعرفون موقفنا بالكامل، وسوف يقوّي هذا مركزنا في المفاوضات». وواصل يوسف روايته: «اجتمع الإخوان مع «إيفانز»، ولكن عندما خانهم عبد الناصر بعد ذلك، قال إن الإخوان كانوا يتجسسون، وإنهم كانوا على صلة بعملاء بريطانيا السريين. واتهم الإخوان بأنهم خونة. كانت تهمة العمل مع البريطانيين من الكبائر - فقد عانى المصريون كثيرًا من الاحتلال».

وليوسـف تجربة شـخصية في المعاناة من ظلم المحتلين وقعـت له قبل انضمامه إلى الإخوان المسـلمين، عندما كانت شـقيقته الكبرى تسـتعد للزواج. يشرح يوسف كيف أن عادات الزواج المصرية تُلزِم العريس بتوفير السكن، كما تُلزِم أسرة العروس بتأثيثـه. فيقـول: «كانـت أمي تتحرك فـي كل اتجاه، فـي دَأَب كالنحلة، واشـترت كل الأشياء لبيت الزوجية، وأشرفت على تحميلها في شاحنات نقل الأثاث. واصطدمت شـاحنتان عسـكريتان بريطانيتـان بشـاحنات الأثاث فتناثـرت قِطَعه في الشـارع. كان السـائقان مخمورين، ولكن لم يستطع أحد مسّـهما. لقد حمتهما السلطات، ليس من عائلتنا فحسـب وإنما من الأهالي في الشارع والذين شاهدوا ما حدث وغضبوا بسببه كل الغضب. جاءت الشرطة العسكرية البريطانية، واصطحبت في سياراتها السائقين. ولـم يكن في هذا أي شيء من العدل».

«كان الاحتـلال البريطاني قاسـيًا على شـعبنا – وكنا كلنا نؤمـن بحقنا في الحرية؛ وأنـه علينـا أن نقاتل في سـبيل حريتنا، نقاتل الاحتلال بالسـلاح. لا أسـتطيع أن أنكر اعتقادي بأن كل من يُقاتل من يحتل بلده بطل. عندما حارب «شارل ديجول» النازيين كان بطـلًا. لكنهـم لا يريـدون أن يعتبرونـي بطـلًا عندمـا حاربت من احتلـوا بلادي. ووضعونـي في عـداد الإرهابيين. كل مواطن مخلص في العالـم يجب عليه أن يدافع عن بلاده إذا احتلها أجنبي، وإلا ما اسـتحق أن يكون مواطنًا لها. سأصبح خائنًا إذا لـم أدافع عن بلدي».

إلا أن عضوية يوسف ندا في الإخوان المسلمين، جعلت عدوه المباشر البكباشي جمال عبد الناصر، الذي كان يحيا لطموحه الشـخصي. في ذلك الوقت كانت أمريكا حريصةً على أن تكسب إلى جانبها عبد الناصر في مواجهتها مع السوفييت التي أصبحت تعرف باسـم «لعبة الأمـم». ومن المفارقـات التاريخية الهامـة، أن الرئيس الأمريكي «تيودور روزفلت» في عام ١٩١٠ بعدما قرر عدم الترشح لولاية ثانية في البيت الأبيض بقليل تحدث فيما أصبح يعرف بجامعة القاهرة فأغضب الوطنيين المصريين لمساندته الاحتـلال البريطاني، وفـي ادعائه بأن المصريين ليسـوا مؤهَّلين للاسـتقلال... ومن ثَمَّ للديمقراطية.

وبعـد مـرور أكثر من أربعين عامًـا، كانت أمريكا - و«روزفلـت» آخر - لا يزالان يتدخـلان في السياسـة المصرية. وبينما كانـت أمريكا ورئيسـها «أيزنهاور» يحاولان إقنـاع عبـد الناصر بـأن يكـون «رَجُلَهم»، رتـب «كرميـت روزفلت»؛ حفيـد الرئيس «روزفلت» والمسـئول الكبير في «سـي آي إيه»، تسليم مبلغ ٣ ملايين دولار نقدًا إلى عبد الناصر، بطريقة سـرية بعد وضعها في حقيبتين. (ذَكرت بعض الروايات أن المال كان أربعة أضعاف هذا المقدار، لكن المسئولين في الـ«سي آي إيه»، في ٢٠١١، بعد اطّلاعهـم علـى الملفات الخاصة بتلك الفترة، أصروا علـى أن المبلغ كان «٣ ملايين دولار فقط»).

لـم يحتفظ عبـد الناصر بالمال لنفسـه، وإنما اسـتخدمه فـي بناء بـرج القاهرة في الجزيـرة فـي النيل على مقربة من قلـب العاصمة، مقابل السـفارة الأمريكية وبارتفاع أعلى من الأهرام. وأصبح البرج أحد معالم العاصمة المصرية.

كان عبـد الناصـر رجلًا قويّ الشـخصية مُهـاب المظهر، مما جعلـه يريد أن يكون «الريس»، دون أن يشـاركه أحد في حكمـه. وكان للإخوان تأثيرهم فأزعجه ذلك. لـم يكن بمقدوره أن يمضي في سياسـاته وخططه دون أن يُدخل في الاعتبار ما للإخوان مـن سياسـات وخطط. وقد اسـتخدم تاريخ مصـر بالأمس القريب المفعـم بالعذاب والإذلال والاضطراب ليكون سلاحه المختار لإسكات الإخوان.

مـن قبـل انقلابه.. في نوفمبـر ١٩٤٨، بدأ رئيس الوزراء المصـري محمود فهمي النقراشي باشا حملة صارمة ضد الإخوان المسلمين الذين اتهمهم بالعنف السياسي، وتفجيـر القنابـل وتدبير الاغتيـالات. وأعلن أنه بنـاء على تحقيقات الشـرطة فقد تم الكشـف عـن متفجرات تكفي لنسـف نصـف القاهرة، مـع خطط لتفجيـر القنابل في مؤسسـات أجنبية ومصرية في المدينة، وفي الإسـكندرية المدينة السـاحلية. وذكرت السـلطات أنها وجدت في سـيارة «جيب واحدة» كميات ضخمة من المواد المتفجرة وعشـرات الألغام من مختلف الأنواع، والقنابل الزمنية، ومدفعًا رشاشًا، وعددًا كبيرًا من المسدسـات والطبنجـات والخناجر، وكميات من الذخيرة، وقناعًا، ومنشـورات وتعليمات سرية ووثائق تشير إلى تفجيرات سابقة وأخرى يتم الإعداد لها.

وذكر مكتب رئيس الوزراء أن البيوت التي تمت مداهمتها، وكذلك السيارة الجيب مـن ممتلكات أعضاء في الإخوان المسـلمين. كما ألصقت بالإخوان أيضًا مسـئولية الانفجـار الذي وقع خارج بيت مصطفى النحاس باشـا (ذي الشـعبية الكبيرة ورئيس حـزب الوفـد)، ومحاولة تفجير وكالة السـودان، وتفجير القنابـل في محلات عدس وبنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا للأراضي والوكالة الشرقية للإعلانات، وإطلاق النار على السياسيين.

وأصـدر الإخوان بيانات تنفي كل ذلك، وقالـوا إنها «مكائد مدبرة ضدهـم». وبعد ذلك بأسـبوعين، أصدر النقراشـي باشـا رئيس الـوزراء، وبصفته الحاكم العسـكري (وبتشجيع قوي من مستشارين بريطانيين) قرارًا بحل جماعة الإخوان، وعدم السماح بوجودهم من بعد.

ولأول مرة، تُوجِّه الحكومة اتهامًا رسميًّا للإخوان بالسعي للاستيلاء على السلطة، والإطاحـة بالنظام القائم فـي البلاد. «وأعلن رئيس الوزراء حالـة الطوارئ في جميع أنحاء المملكة المصرية»، واستولت الشرطة على المقر العام للإخوان المسلمين في القاهـرة. وذكرت الحكومة أن الجماعة كانت تسـتهدف بدعوتها الجميعَ؛ من الطلبة إلى الموظفين الرسـميين. وحظر قرار الحل على الإخوان الاستمرار في أي نشاط أو الاشتراك في انتخابات أو تكوين منظمات مماثلة.

وصـرَّح عبد الرحمن عمار بك وكيل وزارة الداخلية للأمن العام، بأن الإخوان قد أنشئوا جمعية دينية اجتماعية ليس لها أغراض سياسية، ولكن عندما اكتسبت الجمعية شعبية كبيرة، «تجاوز القائمون على أمرها الأغراض السياسية المشروعة إلى أغراض يُجرّمها الدسـتور وقوانين البلاد، فهدفت إلى تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقـوة والإرهـاب». وجاء مـن ورّط الإخوان في براثـن هذا الاتهام الباطـل بأن قتل النقراشي باشا بعد عشرين يومًا فقط من إصداره قرار الحل.

وقـع اغتيال النقراشـي في صباح يـوم ٢٨ من ديسـمبر ١٩٤٨، عندما دخل رئيس الوزراء مبنى وزارة الداخلية بالقاهرة واتجه ومعه حراسـه نحو المصاعد. وكان قاتله متنكرًا في زي ملازم أول بالشرطة وقد جلس ينتظر وصوله في بهو المبنى. فلما دلف

النقراشي إلى البهو وقف ذلك الشاب مؤديًا له التحية، ثم تبعه نحو المصاعد، وهناك أخرج من جيب سرواله مسدسًا وأطلق ست طلقات، أصابت خمس منها النقراشي باشا فقتلته.

ثم صوب القاتل مسدسه باتجاه رأسه هو لكن الحرس تكاثروا حوله وقبضوا عليه. وأمكن التعرف على شخصيته؛ عبد المجيد أحمد حسن، عمره ٢١ عامًا، طالب بكلية الطب البيطري وعضو في جماعة الإخوان. وصرح الوزير إبراهيم دسوقي أباظة باشا بأن عبد المجيد قد ادعى أنه قتل رئيس الوزراء لأنه «تسبب في ضياع السودان من مصر، وسلّم فلسطين لليهود، وحلّ جماعة الإخوان المسلمين؛ وهي المنظمة الوحيدة التي جاهدت من أجل الإسلام على امتداد العشرين عامًا الماضية».

وعلى الفور بادر حسن البنا مؤسس الجماعة ومرشدها بإدانة الاغتيال، مُعلنًا أن الإسلام لا يقبل الإرهاب. ورغم ذلك، تم القبض على الآلاف في أعقاب مقتل النقراشي، وافتُتِح مُعسكران لاعتقال أعضاء جماعة الإخوان. وأُرسل كثير منهم إلى سجون «أبو زعبل والفيوم والقلعة والخارجة وهايكستب»، وكلها تعتبر في عداد معسكرات الاعتقال وإن كانت تسمى بغير كذلك.

وادّعت الحكومة وقتها أن مجموعة من داخل الإخوان (النظام الخاص) قد بايعت حسن البنا خليفة للمسلمين، وهذا بمثابة اختياره قائدًا سياسيًّا للعالم الإسلامي كله. وأن هذه المجموعة من المتآمرين قد قامت بأعمال إرهابية عشوائية. ويتفق يوسف ندا مع قيادات الإخوان في أن كل هذه الاتهامات ملفقة.

وانتقامًا لمصرع النقراشي وأخذًا بثأره، تواصلت إراقة الدماء؛ ففي ١٢ من فبراير ١٩٤٩، اغتيل حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين؛ إذ أُطلقت عليه خمس رصاصات وهو يغادر المقر الرئيسي لجمعية الشبان المسلمين في القاهرة. وقد ذهب البنا إلى هناك للقاء مع زكي علي باشا وزير الدولة، لكن الوزير لم يحضر.

كان حسن البنا ينتظر سيارة أجرة خارج مبنى الشبان المسلمين عندما أُطْلقت مجموعة من الرجال الرصاص عليه وعلى زوج شقيقته عبد الكريم منصور؛ الذي أصيب بجراح في ذراعَيْه وساقَيْه.

لـم تنتـهِ جماعة الإخـوان المسـلمين بمقتل مؤسسـها، الـذي أنشـأها عندما كان مدرسًـا حديث التخرج يعمل في مدينة الإسـماعيلية على ضفاف قناة السويس؛ ذلك الرجـل الذي كان يثـري أقواله بآيات القـرآن. وعلى الرغم من الهـزات التي أصابتها بهـا الأحداث فإن الجماعة بـدأت من جديد. ودخل الإخوان عقد الخمسـينيات من القـرن العشـرين بعد أن أعـادوا ترتيب منظمتهم فـي عالَم جديد؛ العالَـم الدكتاتوري لجمال عبد الناصر.

الفصل الثاني

ثقافة السجون

«من تَغُرّه البهجة
يدمر الحياة ذات الأجنحة
لكن من يقبل البهجة المحلقة
يحيا شروق الشمس السرمدي».

وليام بليك، ١٧٩٢

غيرتْ طلقاتُ النار التاريخَ، وغيَّرت معه حياةَ يوسف ندا. ففي ٢٦ من أكتوبر ١٩٥٤ لم تقضِ طلقاتُ المسدس الثماني على حياة جمال عبد الناصر أو حكمه، لكنها زوّدته بالسلاح اللازم للإجهاز على منافسيه في الشعبية.

كان عبد الناصر يُلقي خطابًا في ميدان المنشية بمدينة الإسكندرية احتفالًا بتوقيع اتفاقية جلاء البريطانيين عن مصر، عندما انطلقت نحوه الرصاصات. لم تُصِب الطلقات عبد الناصر، وارتفعت الصرخات والصيحات لتصنع صخبًا من العويل المفعم بالخوف، غطى على كل من حاول أن يقول شيئًا.

واقتنص عبد الناصر اللحظة وناشد الجمهور الهدوء، صارخًا في المكروفون: إذا مات جمال عبد الناصر فكلكم جمال عبد الناصر. جمال عبد الناصر منكم ولكم، وعلى استعداد أن يضحي بحياته من أجل هذا الشعب ورفع يديه فوق رأسه، محركًا إياهما إلى الخلف وإلى الأمام مستثيرًا حماس الجمهور بهذه الحركة التي تعارف عليها أبناء البلد».

لقد ربح عبد الناصر أصوات الشعب، إن كانت الأصوات تهم: كانت لحظة فارقة في التاريخ المصري.

لكن الحادثة كلها كانت تمثيلية؛ هذا ما كشفه محمد حسن التهامي نائب رئيس الوزراء في عهد السادات، والذي كان همزة الوصل مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سي آي إيه)، ورئيسًا للمخابرات المصرية في عهد جمال عبد الناصر من قبل.

لقد ثار الجدل حول هذه الحادثة منذ اللحظة التي ارتكب فيها محمود عبد اللطيف «محاولة الاغتيال» التي كانت البداية لأكبر موجة قهر سياسي ولعهد من الإرهاب – الإرهاب الرسمي من جانب الدولة. وصف عبد اللطيف بأنه أحد قتلة الإخوان المسلمين، وعندما عاد عبد الناصر إلى القاهرة واثقًا من نفسه منتشيًا كان معه جواز المرور إلى عهد القهر.

لم يقتنع يوسف ندا بإنكار الإخوان لأعمال العنف في أواخر الأربعينيات، لكنه لا يشك في أن حادثة المنشية كانت مكيدة مدبَّرة للخلاص من الإخوان. يقول ندا: «وعد عبد الناصر الإخوان بأشياء كثيرة، لكنه عندما وصل إلى السلطة أخذ يهاجمهم ويستبعدهم. لقد قال عبد الناصر مرة إنه يستطيع أن يضغط على زِرٍّ فيفعل جميع المصريين ما يريده إلا الإخوان – وما كان الإخوان ليرضوا بذلك. وقال عبد الناصر: كان يجب عليَّ أن أُزيح الإخوان من طريقي».

ويوضح يوسف ندا الأمر بقوله: «لقد استغل أحداث الماضي المتهورة، وبنى عليها خطته لسحق الإخوان باتهامهم بمحاولة قتله. وكلما وقع في محنة، كان يتهم الإخوان بالعنف من أجل أن يتمكن من مواصلة سياساته».

«نعم.. شهدت أربعينيات القرن الماضي أعمال عنف، ولا أتفق تمام الاتفاق مع تفسير الإخوان لمقتل رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا ولا مقتل القاضي الخازندار. قال الإخوان إن من ارتكب العمليتين ليسوا إخوانًا، وإن ما فعلوه كان مخالفًا للإسلام. بل إن حسن البنا نفسه قال إنهم لم يكونوا إخوانًا. لكنهم كانوا من

الإخوان – ولم يكن يعرفهم – كانوا شبابًا ملتهب المشاعر انساقوا وراء عواطفهم متعجلين. لقد تلقى رئيس الوزراء تعليمات من سلطات الاحتلال البريطاني بحَلِّ الإخوان المسلمين، فقامت هذه المجموعة المتمردة من الإخوان بقتله. أما القاضي فكان قد أصدر أحكامًا قاسية على بعض الإخوان في جرائم لم يرتكبوها؛ فأحكامه لم تكن سليمة وإنما كانت متأثرة بضغوط سياسية، ولكن هذا لا يعني أن تذهب فتقتله».

«كانت هناك أحداث أخرى: منها أن الإخوان شكّلوا جماعات فدائية ضد البريطانيين أثناء زمن الاحتلال. كما كونوا مجموعات أخرى للقتال في فلسطين في ١٩٤٧ – عندما بدأت الحركة الصهيونية الإعداد لإعلان قيام إسرائيل – تلك المجموعات من دول مسلمة كثيرة ذهبت لتساعد الفلسطينيين. هذا كل شيء – ولا توجد قصص أخرى عن العنف. وإذا راجعت تاريخ الإخوان المسلمين كما كتبه خصومهم فسوف تجد العنف ومزيدًا من العنف. كلها زيادات ملفقة».

«لم يقم الإخوان بأي من أعمال العنف منذ ذلك التاريخ في ١٩٤٨. يقول الحكام إن دعاة العنف من أمثال أتباع أسامة بن لادن قد خرجوا من عباءة الإخوان، وإنهم كانوا من الإخوان ثم تركوهم ليُنشِئوا فصائلَ أخرى. والحقيقه أن مَن فعل ذلك كانوا أفرادًا، ولم تكن كل الجماعة قد فعلته؛ لم تكن جماعة الإخوان كلها هي التي فعلت ذلك؛ مجرد فرد أو فردين من بين مئات الألوف. ولا يمكنك أن تدين أعدادًا تفوق الحصر بأخطاء حفنة قليلة، ثم هذه الفئة هاجمت الجماعة وخرجت عليها وانفصلت لتفعل ما لا يوافق الإخوان عليه».

«اكتمل نضج الإخوان. وبدأت أعدادهم تتزايد في الجامعات وبين فئات المتعلمين. وتجذرت الجماعة داخل المجتمع كما ينمو الإنسان، فيمر بمرحلة المراهقة ثم الفتوة، فإن الجماعات البشرية تمر بنفس مراحل نضج الإنسان. لا بد أن تتوقع الأخطاء في هذه المراحل. كان الإخوان أقوياء فلكي يزيحهم عبد الناصر من طريقه كان عليه أن يقدم مبررًا لذلك. فردد ما قالته عنهم الحكومات السابقة التي أرادت استئصالهم إرضاءً للمستعمر البريطاني، وقال إنهم دعاة عنف، وقتلة، يحاولون اغتياله. وقام حسن التهامي بترتيب هذه العملية لصالح عبد الناصر. وبعد

وفاة عبد الناصر اعترف حسن التهامي بأنه هو الذي لفق خطة «اغتيال عبد الناصر في الإسكندرية» بموافقة من جمال عبد الناصر».

«لكن الاستمرار في قبول حجة عبد الناصر كان من مصلحة أناس كثيرين. كانوا يريدون أن يظل الإخوان موصومين بالإرهاب - حتى بعدما جاءت شهادة تبرئتهم على لسان الرجل الذي دبَّر الحادثة، وأكدت الحقائق صحة ما قال».

«كانت الحادثة ضربة إعلامية ساحقة لحساب عبد الناصر - فقد احتشد في الميدان نحو مئة ألف شخص. وذكرت الشرطة أنها أمسكت بأحد الإخوان وسط الحشد، وأنه هو الذي أطلق الرصاص. وفي السجن علَّقوه من ساقيه ورأسه يتدلى إلى أسفل وضربوه بالسياط حتى يعترف بأسماء مَن يُفترض أنهم أمروه بأن يفعل ما فعل».

«لكن مدى المسدس لا يجعله يصيب عبد الناصر، ناهيك عن أن يقتله. قالوا إن الرامي كان مدربًا تدريبًا جيدًا؛ ولهذا تم اختياره لتنفيذ المهمة. إن اختيار مسدس مداه محدود لا يمكن أن يصل إلى ٤٠٠ متر مكان وقوف الرامي أو حتى عشرهم لا يشي بأنه خبير في الرماية. لكن بإمكانهم تعذيب الناس حتى يقولوا أي شيء».

بدأ عبد الناصر يعتقل الإخوان حيثما وجدهم، وكان يوسف ندا واحدًا منهم - كان واحدًا من آلاف. ولم يتَّبع عبد الناصر أي سلوك إنساني مع الإخوان أو أعدائه الظاهرين أو من شكَّلوا خطرًا سياسيًّا عليه. لقد وصفت أحداث ٢٦ من أكتوبر بأنها «جريمة ضد الثورة». كان ممدوح محمد سالم؛ الذي سيصبح رئيس وزراء مصر في المستقبل، مسئولًا عن أمن الإسكندرية آنذاك، وقد نفذ الأوامر بكل حماس.

تشكلت «محكمة الشعب» وترأسها جمال سالم؛ أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة والحرس الحديدي لجمال عبد الناصر. وإلى جانبه عضوان للمحكمة هما أنور السادات وحسين الشافعي.

كان جمال سالم يملك دموية ثوار القرن الثامن عشر، فكان يقول: «إن رأسًا كرأس الملك فاروق لا يثير اهتمامي إلا أن يطاح به».

واحتفظ الملك فاروق برأسه، لكن ثمانية من الإخوان المسلمين حُكم عليهم بالإعدام. ثم خُفف الحكم على اثنين منهم وهما المرشد العام المستشار حسن الهضيبي والمفكر الأستاذ سيد قطب. وأعدم الستة الباقين واتُّهمت أعداد تفوق الحصر بتدبير أعداد كبيرة من المؤامرات. كما أُودع الكثيرون من الإخوان في السجون الحربية والمعتقلات دون أي اتهام لهم أو إدانتهم بأي جريمة ما.

استغرق القبض على يوسف ندا بعض الوقت؛ إذ كان في بيته في الإسكندرية عندما اتصل به صديق من المقبوض عليهم، وطلب منه أن يخبر والديه بما حدث له. وعندما وضع يوسف سماعة الهاتف كان «يتعجب من غباء محدثه الذي جعله يتصل به من قسم الشرطة، فها هي الشرطة الآن تعرف من يوسف وأين يسكن». ويقول يوسف: «بعد ساعة دق جرس الباب، وكنت في البهو القريب من الباب، وذهبتْ إحدى الخادمات لتفتح الباب فاستوقفتها، وذهبت أمي لتفتحه بنفسها. ووجدَتْ أمامها ضابطًا وثلة من الجنود، فأخبرتهم أمي أنني غير موجود».

كان الضابط يعرف أمي وكان يخاطبها قائلًا: «يا خالتي» من باب الاحترام. فقال لها: «خالتي، نحن نريد يوسف ليوقِّع إقرارًا بأنه لن يتصل بالإخوان بعد الآن، أين أجده، هل هو مع أبيه؟». فأجابت أمي باقتضاب: «ربما».

«وذهبوا.. ولكن بعد أن تركوا وراءهم ستة حراس أسفل البيت، وكان يجب أن أذهب. فصعدت فوق سطح المنزل، ونزلت منه إلى بيت جارنا ومن ثَمَّ هربت. وعندما عاد أبي ومعه أخي صبحي في العاشرة مساءً، ألقوا القبض عليهما واقتادوهما معهم. وأسقط في يد أمي، لكنها تمكنت من معالجة الموقف؛ فاتصلت بأحد أقربائها؛ وكان ضابطًا كبيرًا في الشرطة، وسألَتْه عما سيحدث لأبي وأخي بعد القبض عليهما، فأجابها: إذا سلَّم يوسف نفسه فسوف يُطلَق سراحهما».

«وكان الخيار مؤلما لأمي، أمامها اختيار مرعب: أن تستغني عن أحد أبنائها نظير استردادها لزوجها وابن آخر! فماذا عساها تفعل؟! وعندما اتصلت بها هاتفيًّا في حوالي الساعة الثانية صباحًا أخبرتني بكل ما حدث. فقلت لها إنني سوف أُسلِّم

نفسي – لكن أخشى إن فعلت أن يحتفظوا بثلاثتنا. فعادت واتصلت بقريبها الذي أكد لها أن ذلك لن يحدث».

«ولـم يكن أمامي خيار. فلم أكن لأترك أبي يُقبَض عليه بدلًا مني، فطلبت من أمي أن تُرتب أمر استسلامي، كنت أدرك أنهم لو أمسكوا بي في الشارع فسوف يُعذِّبونني، وقال ابن عمها إنه سوف يقابلني ويصحبني شخصيًّا إلى السجن، وعندما أخذني إلى السلطات أطلقوا سراح أبي وأخي على الفور ولم يعذبوني بعد القبض عليَّ، لكنهم لم يخبروا أسرتي بالمكان الذي سيرسلونني إليه».

«ثم قدمت لي أمي؛ صاحبة المعجزات، جميلًا آخر؛ فقد قام الحارس الذي قيد معصمي إلى يده في أثناء ترحيلي إلى المعتقل بترتيب الاتصال بأبي، وعندما توقف بنا القطار المتجه إلى القاهرة في محطة سيدي جابر وجدت أبي ينظر في كل نوافذ القطار حتى عثر عليَّ، كانت أمي قد أعطت حارسي طعامًا ذات يوم، وكان في نوبة حراسة على مقربة من منزلنا، وحفظ الرجل صنيعها هذا، فرتب من هاتف أبي ليخبره بأنه سيتم ترحيلي إلى السجن الحربي في القطار من محطة مصر بالإسكندرية وسيتوقف القطار في محطة سيدي جابر».

دخل يوسف ندا السجن وهو يشكو من التهاب الزائدة الدودية، ومرة أخرى استخدمت أمه وأقاربها بما لَهم من صلات واستطاعوا نقله إلى عيادة السجن – وكانت العيادة مكونة من صفين من الزنازين، كل منهما ١٣ زنزانة، ويفصل بينهما ممر، كانت حالتها بائسة، حسبما يتذكر يوسف: «وكان ثمة مكتب للطبيب والممرض، وحمام ودورة مياه، عندما كنت في السجن حُشر معي آخرون في الزنزانة، أما عندما أُغلق عليّ الباب في العيادة وجدت نفسي وحيدًا، فبدأت أُصلي وأتلو ما أحفظه من قرآن، ولم يكن لديَّ ما أفعله سوى انتظار معجزة أخرى».

«لم يعطوني شيئًا لآكله، وفي الصباح فتحوا الزنزانة لأذهب إلى دورة المياه؛ وأخذني الحراس إليها، وفُتحت أبواب الزنازين الأخرى واحدًا تلو الآخر ليخرج السجناء في رفقة حراسهم. وسألتُ أحدَ السجناء:

- هل معك مصحف؟

- نعم.

- هل تستطيع أن تعطيني بضع صفحات منه؛ فليس لديَّ ما أقرأ منه؟

- لا أستطيع أن أمزق القرآن.

لا يمكن أن تصدق ما شعرت به عندما قال لي ذلك، رأيت في ذلك قدرًا من الغباء، ألَّا تُعير صفحات من القرآن لتمكن غيرك من قراءتها، كنت مريضًا ووقعت على الأرض، وأعادوني إلى الزنزانة، وعندما فتحوا الباب المرة التالية رموا إليَّ بطعام ثم صفقوا الباب فأغلقوه».

«وعندما ذهبت إلى دورة المياه في المساء اكتشفت سجينًا قيل لي إنه حاول أن يقتل عبد الناصر، كان جريحًا، وكانت ذراعاه تتدليان، وإحدى يديه مكسورة والثانية مشلولة، قيل إنه اتُّهِم برئاسة النظام الخاص للإخوان (الذي عُرِف بالتنظيم السري؛ وهو الاسم الذي أطلقته عليه أجهزة عبد الناصر)، وإن اسمه يوسف طلعت. وقلت له: أعانك الله يا أخ يوسف.

فنظر نحوي قائلًا: أنا لست بيوسف، أنا صلاح شادي».

«كنت أعرف أن صلاح شادي ضابط كبير في الشرطة وصديق مُقرَّب من عبد الناصر، كان من الإخوان المسلمين، وهو الذي أصدر الأوامر للإخوان في كل مكان ليلة ٢٣ من يولية؛ يوم انقلاب الجيش، بالتوجه لحماية البنوك والسفارات والمباني الهامة والمحاكم، كان هذا عندما ذهبتُ لحماية القنصلية البريطانية، جاءتنا التعليمات من صلاح شادي، وعلى الرغم من صِلاته بعبد الناصر، فإنه سُجِن وعُذِّب عندما طارد عبد الناصر الإخوان».

«منذ البداية، وعد عبد الناصر الإخوان بأنه سوف يغير القانون والدستور وأنه سوف يبني مجتمع الخير والفضيلة، لكنه حارب الإخوان، وعانى صلاح شادي

الأهـوال من جرَّاء ذلـك، لم يرحمه عبد الناصـر، عذبوه وارتكبوا معـه فظائع رهيبة، جعلوه ينحني بشـكل زاوية قائمة، وقيـل إنهم نفخوه بمضخات الهواء، دمروا عموده الفقري حتى لم يعد قادرًا على أن يعتدل في وقفته، وأبقوه في السـجن عشـرين عامًا حتى أَطْلَق السـادات سـراحه، وكان السـادات أحد القضاة الثلاثة الذين حَكَموا عليه بالإعدام ثم خُفِّف الحكم بعدها إلى السجن مدى الحياة».

عـاد يوسـف ندا إلى زنزانته فـي حالة من البؤس؛ فعلاوة علـى الكد الذهني الذي اعتراه مما رآه من برهة قصيرة، فقد كان الألـم الدائم من زائدته الملتهبة لا يتوقف.

ومرة أخرى تعود طيبة أمه نعمات أبو السعود عليه بالخير، فقد كانت هي من تجمع شمل العائلة وتربط بين أواصرها، خاصة في وجه الأنواء التي تكتنف المجتمع.

كانـت تُعـزي المكلومين، وتعود المرضى وتعين جميـع الأقرباء وخاصة من كان منهـم في حيرة أو يشـكو مـن الوحدة، وكان مـن أقاربها عن بعد أنـور أحمد الضابط الفظّ الذي اشتُهر؛ عن استحقاق، داخل نظام عبد الناصر بقسوته، وكان قائدًا للشرطة العسـكرية فـي عهده، ولـم تعبأ نعمـات بهذه الطباع عندما كان الأمـر يُهدد حياة ابنها، فاتصلت بأنور أحمد قريبها، وأخبرته أن ابنها يحتاج إلى جراحة عاجلة، فأمر بعلاجه، ولـم يكتشـف يوسـف نـدا تدخل أمه إلا عندمـا فُتح باب زنزانته ودخـل عليه ممرض وسأله عن مرضه وعن عنوان عائلته.

ويتذكر يوسـف كيف أن «هذا الاستجواب ظل مستمرًّا، والأسئلة بين شد وجذب وبـدأت ملهاة الفسـاد»، ثم زار الطبيب محمد شـفيق صفوت مريضـه المحتمل لكن لم يفعل له شـيئًا، ومر أسـبوع على ذلك، وبعد أن اشـتكى يوسـف من أنه لا يزال في ألـم، زاره الطبيب مرة أخرى، وكانت الوصفة التي كتبها للشـاب الذي أقعده الألـم أن يحمـل ثقـلًا وزنه ٥٠ كيلـو جرامًا ويجري به تحت الشـمس سـاعتين كل يوم، وبعد سـاعة جاءه الممرض مرة أخرى ومعه رسـالة: إذا أمكن الاتصال بعائلة ندا، «وتمت الترتيبات» فإن العلاج قادم.

أراد الممرض من يوسف شيئًا مكتوبًا، لكنه كان أعقل من أن يفعل ذلك، لعلمه أن

ما يكتبه قد يُتخذ قرينة ضده فيطول بقاؤه في السجن سنوات، ومع ذلك تم الاتفاق، وفي الساعة الثانية صباحًا سمع يوسف اسمه يتردد من خلال مكبر الصوت: «يوسف! مصطفى! ندا!». ودق يوسف بيده على باب زنزانته كاستجابة للنداء، ولما فُتح الباب عليه وجد أمامه الدكتور محمد شفيق صفوت والممرض والضابط المشرف من إدارة السجن.

وخاطبه الطبيب: «ما لي أرى وجهك شاحبًا؟ هل أنت مريض؟».

وبدأ الطبيب يكشف عليه بطريقة صورية، ثم أعلن أن مريضه الجديد يحتاج إلى علاج عاجل، وسرعان ما وجد يوسف نفسه خارج السجن.. في المستشفى العسكري بالقاهرة.

«عندما فتحت عيني، وجدت نفسي مع أربعة آخرين من الإخوان على أَسِرّة متجاورة، كانوا تحت العلاج مثلي، كان جوًّا مختلفًا، وكذلك كان الحراس على مستوى مغاير. كانت قد مضت على عمليتي الجراحية أربع وعشرون ساعة، وكنت أشعر بالضعف وعدم القدرة على الكلام عندما دخل علينا الضابط أنور أحمد ومعه حاشية من مساعديه، وقال للدكتور صفوت: «انظر كم يومًا يحتاج للبقاء هنا؛ لأننا بعد ذلك سوف نعيده من حيث أتى. ثم غادر المكان».

«كان الطبيب معتادًا على أخذ الرشاوى لقاء علاجه للسجناء. وكان يتمتع بحماية خاصة؛ إذ كان أخوه علي شفيق صفوت؛ مدير مكتب الصاغ عبد الحكيم عامر، أحد الشخصيات الهامة في الانقلاب، والذي أصبح بعد ذلك رئيسًا للأركان ووزيرًا للحربية. كانت مجموعة من الفاسدين».

«جاء أنور أحمد ليتأكد بنفسه من إجراء العملية لي، وليقوم بواجب عائلي تجاه أمي».

بقي يوسف في المستشفى ثلاثة أشهر. وفي كل شهر كان عليه أن يدفع إلى الطبيب ٥٠ جنيهًا مصريًّا، وكان هذا يوازي الراتب الشهري لوكلاء الوزارات في مصر. وكان

على كل مريض أن يدفع هذا المبلغ كرشوة. فوق المرتب الرسمي كطبيب السجن كان الطبيب يضع يديه على منجم للذهب.

يقول ندا: «أما أنا فكانت لي أرباحي الخاصة؛ فقد تعرفت على رجل ساعد على تشكيل شخصيتي؛ فبعد العملية كنت منهكًا، حتى بعد أن أفقت لم أكن قادرًا على الحركة بعد، كان ذلك من أثر التخدير. وعندما فتحت عينيَّ رأيت سيدة، لا أعرفها، تجلس بجوار سرير قريب من سريري. وكلَّمتني بالعربية قائلة: حمدًا لله على سلامتك. ما اسمك؟ وأخبرتها به وذكرت أنني من الإسكندرية، وطالب في جامعتها، فسألتني في أي كلية أدرس فأجبت: كلية الزراعة، فتساءلت: هل تعرف شفيق الخشن؟

- إنه عميد كليتي.

- وأنا زوجته، وهذا أخي في هذا السرير، أعطني رقم هاتف أسرتك، أخي اسمه هارون المجددي».

«كانت السيدة طاهرة المجددي، وكانت اسمًا على مُسمّى، فروحها وعقلها لهما النصيب الأكبر من اسمها:

فمن معاني الطهر في اللغة العربية الفضيلة والسمو الأخلاقي، وكانت تجمع كل ذلك في شخصها واسمها، ونظرًا لنفوذ زوجها فقد تمكنت من إرسال أخيها السجين عضو الإخوان المسلمين إلى المستشفى؛ حيث أُجرِيت له عملية استئصال المرارة».

وسوف يلمع نجم زوجها في سماء السياسة المصرية بعد ذلك ويصبح وزيرًا للزراعة، كما اختاره عبد الناصر لمنصب وكيل مجلس الشعب الذي كان يرأسه أنور السادات. كان عبد الناصر يرمي إلى أن يصبح الدكتور شفيق الخشن قوة عازلة مضادة للسادات؛ ليقيم نوعًا من التوازن في المجلس لصالح عبد الناصر.

«كانت سيدة كبيرة القلب، كانت حالة أخيها الأصغر هارون المجددي أسوأ من حالتي، ولم يكن قادرًا على الحديث، ولكن مع مرور الوقت أصبحت أنا وهو

صديقَيْن، كان يكبرني بنحو خمسة عشر عامًا، ولكنه كان يعاملني كابن له، وبدأت أتعلم منه. كان هارون وطاهرة ابنَيْ صادق المجددي باشا؛ الذي كان السفير الأفغاني في مصر في عهد الملك فاروق، وكانت علاقته بالقصر ودية للغاية، وكان يحتل مكانة دينية عالية في العالم الإسلامي. كما كان صديقًا للإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر؛ أقدم مؤسسة دينية سُنّية، وقد أُنشئت منذ أكثر من ألف عام، عمل هارون قائمًا بالأعمال في السفارة الأفغانية في القاهرة، وكان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين، وفي أيام الملك فاروق كان هارون على علم بالصلة بين الإخوان وبين عبد الناصر وغيره من ضباط الجيش، وقبل الانقلاب سرق عبد الناصر أسلحة من مستودعات الجيش، ثم قال لهارون المجددي إنه يحتاج إلى سيارته ذات الأرقام الدبلوماسية دون أن يُخبره عن سبب الاحتياج، ولأنهما كانا صديقَيْن فقد أعطى هارون السيارة إلى عبد الناصر وهو يُحسن الظن به، وتبين فيما بعد أنه وبعض زملائه استعملوها بعدة رحلات نقلوا فيها الأسلحة والمتفجرات، وهناك أخ آخر كانت تربطه صداقة بعبد الناصر وهو المحامي الإخواني المشهور حسن العشماوي؛ ابن العشماوي باشا وزير العدل السابق، وقد عمل عبد الناصر مع هارون والعشماوي وآخرين ممن كانوا في القلب من جماعة الإخوان المسلمين أو شغلوا أعلى مناصبها. طلب عبد الناصر من حسن العشماوي السماح له بأن يُخفي في مزرعته أسلحة كي تُستخدم ضد الاحتلال البريطاني، ثم قام هو وثلاثة آخرون من ضباط الجيش ببناء مخزن تحت الأرض لهذه الأسلحة، وقد وَثِق العشماوي في عبد الناصر ولم يَدُر بخَلَده أنه قد يستخدم هذه «الخبيئة» ليضره يومًا ما».

«ثم وقع حريق القاهرة، من الفاعل يا ترى؟ وحتى يومنا هذا لا يعرف أحد الإجابة. ثم خيم حظر التجول. لم يبحث أحد عن مدبر الحريق، لكن الحريق أدى إلى إمساك العسكر بزمام المبادرة، ثم تحدى ضباط غير معروفين الملك والوزارة – ثم وقع انقلاب عبدالناصر، وفتح الحكام الجدد ملفات بعض قضايا الفساد الشديد وقدموها إلى القضاء، لكن لم يسأل أحد عن حريق القاهرة، ظلوا صامتين إزاءه، كيف سيفسر التاريخ ذلك؟ كل شيء كان وسيلة إلى غاية ما.. وللضرورة أحكامها».

«عندمـا أمر عبد الناصر بالقضـاء على الإخوان، أخبر جهـازه الأمني بالتوجه إلى مزرعـة صديقه حسـن العشـماوي ليجـدوا البنادق التي شـارك عبد الناصر نفسـه في إخفائها هناك، ثم اتهم عبد الناصر الإخوان بتخزين الأسلحة بغية الإطاحة به».

«في الشرق الأوسط لا تتطابق ظواهر الأشياء مع بواطنها أبدًا؛ الوعود والتعهدات تتـم فـي الخفـاء، وكذلـك الاتفاق على العقـود يتم سـرًّا حتى لا يعـرف أحد بواعث الرجـال أو الحـوادث التي يخلقونها؛ إمـا لإنجاز وعودهم وتعهداتهـم وإما للرجوع عنها، هذا هو غموض الشرق الأوسط ولُغزه الكبير».

«في المستشـفى كان كل سـجين منا يدفع للطبيب خمسـين جنيهًا، وكان الطبيب يسـتخدم مريضًا مسـالمًا «كمحصل» لهذه الإتاوات، لكن الرجل أُعيد إلى السـجن. وحـاول الطبيـب أن يغريني بالقيام بهذا الدور من بعده، وبهذه الطريقة أسـتطيع البقاء في المستشـفى، لكنني قلت له: اعذرني يا دكتور، أنا مسـئول عن نفسي فحسب، ولا أسـتطيع القيام بهذا العمل. وفي اليوم التالي أعادني إلى السجن الحربي، كان يغريني بالرشوة! إنني على استعداد أن أنفق من مالي لأنقذ حياتي، لكن المساعدة في الرشوة معصية كبيرة؛ إنها خطأ. كانت إعادتي إلى السجن ثمنًا باهظًا، إلا أنني مهما كان الثمن لا أحب أن أشـترك في الرشـوة. ومنذئذ، عندما أعرف عن شـخص أنه فاسد، أُخرجه من حياتي على الفور».

«وإذا تبين لي الفسـاد في شـيء أو في شخص، عندها ينبغي لي أن أجد طريقًا آخر لأشـغالي، وإذا لـم يكن هناك طريق غيـره، فالتخلي عن هذا المشـروع أفضل لي من التعامل مع الفاسـدين، فهذا التعامل خطر على حياتي لأنه يضر بشـرفي وينتقص من شـخصي، وموقفي الواضح هنا أسـتمده من تعاليم ديني، إنك عندما ترشي أو ترتشي فأنت تسطو على حقوق الآخرين».

«حاول عبد الناصر أن يرشو سيد قطب؛ الذي كان ضمن المسجونين عقب حادثة المنشـية، وكان عبد الناصر مؤسس تنظيم الضباط الأحرار السري يسعى لكسب سيد قطـب إلى صفه قبل انقلاب ١٩٥٢، وفي الوقت نفسـه كان يتعامل سـرًّا مع الإخوان المسـلمين، لم تُثِرْ خطة عبد الناصر ريبة سـيد قطب في البداية فالتقى به عدة ساعات

في اليوم ليناقشا معًا شكل الحكومة المصرية بعد رحيل الملك فاروق، وبعد فترة فَهِم سيد ماذا يرمي إليه عبد الناصر وأنه يخدعه، فابتعد عنه. ورجاه عبد الناصر، ثم حاول أن يرشوه بكل أنواع الرشوة، عارضًا عليه كل منصب في البلاد، عدا عرش الملك. لكن سيد قطب رفض كل هذا؛ كان رجلًا شديد الاعتداد بنفسه، وفي مستقبل الأيام، سنرى، حتى بعد وفاته، من يحاول استخدام اسم الرجل وأعماله، مثلما فعل عبد الناصر من قبل؛ ليضفوا على أفعالهم بعض المرجعية؛ فأسامة بن لادن وغيره اتخذوا منه ملهمًا لآرائهم، كما أطلق عليه الأمريكان لقب «أبو الرعب».

«كان عبد الناصر ذكيًّا إذ حاول تجنيد سيد قطب؛ لأن سيد كان عالِمًا، وقد شَهِدتُ بعضًا من ذلك عندما التحق سيد بالإخوان عام ١٩٥٢ عقب الانقلاب وتجادل مع عبد الناصر حول الدكتاتورية، وعندما كنت في السجن كان الأستاذ سيد قطب نزيل الزنزانة المجاورة، كان معتلَّ الصحة وعانى معاناة شديدة من جراء التعذيب، كان فيلسوفًا وعالِمًا إسلاميًّا كما كان شاعرًا في الوقت ذاته، وقد عَبَّر عن تفوقه في هذه الجوانب الثلاثة: الفلسفة والإسلام والشعر في ٢٤ كتابًا قيمًا. ويتضح من كُتبه أنه أدرك آثار الظلم الذي رآه بعينيه ووقع على شخصه، ولأن حياته كانت نظيفة فقد أغضبه ما استشرى في البلد حوله من فساد اعتقد أنه سوف يدمر الجيل الجديد - فبدأ يهاجم هذا الفساد في كتاباته ويعارض الدكتاتورية، وانتقد سيد المجتمع الذي تقبل الفساد الأخلاقي والحكومي والسياسي».

«كان سيد قطب رجلًا صادقًا مع نفسه وفيما يكتبه، لكنه بدأ يبتعد، ولم يستطع الإخوان وأنا معهم أن نتقبل أفكاره الأخيرة، مع كل الاحترام له ولعلمه، لقد هاجم عبد الناصر واستبداده وحُكم العسكر، لكنهم في النهاية أعدموه عام ١٩٦٦، وأعدموا معه ستة من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، كان رجلًا مخلصًا، لكنه لم يؤثر فيَّ شخصيًّا».

«أما هارون المجددي فكان صاحب التأثير الأكبر على شخصيتي، كنت أُكنّ له احترامًا كبيرًا لأنه كان رجلًا يمتاز بالأخلاق والأدب والذوق والشخصية الرفيعة

والالتـزام بالبروتوكـول، لقـد تعلمت منه الكثيـر، وعلى رأس ذلك أخلاقه السـامية، وعندما خرجت من السجن اقتربت أكثر من هارون وأصبَحَت الصلة بيننا عائلية».

أُطلِق سراح يوسف ندا بعد عامين دون أن يوجَّه إليه أيُّ اتهام أو يَصدر عليه حُكم، واكتشـف عند ذلك أن أجهزة أمن عبد الناصر قد أَمَرت بفصله من الجامعة وأن قيده بها قد شُطب.

«أخبرت طاهرة المجددي؛ أخت هارون، بأنه ينبغي أن أجد عملًا تجاريًّا أو أبحث عن كلية أخرى تقبلني، لكن «الأمن» على الأرجح سيسُدّون عليَّ الطريق إذا حاولت العودة إلى الدراسة، فطلبَتْ مني أن أترك الأمر لها، واستطاع عميد كليتي (أي زوجها الدكتور شـفيق الخشـن) بصلاته السياسـية الرفيعـة أن يحصل علـى تصريح بعودتي للدراسـة، وأصبحـت طالبًا من جديد، لكن بعد أن تغيـرت، خاصة بتأثير هارون على سلوكي وطريقة تفكيري في كيفية التعامل مع الآخرين».

«كان هـارون يملك سـيارة كاديـلاك ليموزين، فارهـة تلفت الأنظـار، وذات يوم قـال لـي: إذا لم تكن مشـغولًا غدًا فتعالَ معـي نزور إحدى العائلات، وقطعنا مسـافة ١٨٠ كيلومتـرًا في شـوارع غطَّاها الطين وطرق صغيرة غيـر ممهدة، ومررنا عبر قرى صغيرة حتى وصلنا إلى البيت الذي كنا نبحث عنه، وجاءنا أحد الأطفال، يتبعه أطفال آخرون، وكان مع هارون بعض الهدايا، وطلب من الأطفال أن ينادوا على أمهم، ولما جاءت لم يتطلع إلى وجهها وإنما أطرق برأسـه يدعو لها، ثم قال لها بعض الكلمات المشجعة وأتبعها بأدعية ثم انصرفنا».

«واتضـح لي أن زوجها الأسـتاذ صالح أبو رقيق؛ أحد زعمـاء الإخوان، وكان من الدائـرة القريبـة مـن عبد الناصر، وأحد مؤسسـي جامعـة الدول العربيـة عام ١٩٤٥، وبعد انقلاب الضباط الأحرار حُكم عليه بالإعدام، ثم خُفف الحكم إلى السـجن مع الأشـغال الشـاقة مدى الحياة، وظلت أسرته تحت مراقبة الشـرطة السرية ليلًا ونهارًا ليعرفوا مَن قد يتصل بهم، كان هارون يعلم ذلك، ويُدرك أن تُهَم التآمر يمكن تلفيقها، وأن الانتقام قد يصل إلى التعذيب والقتل».

كان هارون ويوسف يسافران لزيارة هذه الأسرة كلما أمكن لهم، لم يكن لهذا علاقة بالسياسة وإنما مسألة إنسانية محضة.

يقول يوسف ندا: «إن الإخوان المسلمين ليست ناديًا، وإنما هي منظمة تقوم على الأخلاق الإسلامية، وهي تسعى لمساعدة الناس على التمسك بهذه الأخلاق في حياتهم، عن طريق تربيتهم حتى يعيشوا بهذه الأخلاق من تلقاء أنفسهم اجتماعيًّا واقتصاديًّا ومعنويًّا ويُحيونها بأرواحهم وعقولهم».

«ويوصي الرسول عليه السلام بالجار حتى سابع جار، مهما كانت طبقته أو عقيدته أو لونه، يجب أن يكون جيرانك بمثابة العائلة منك، إذا احتاجوا شيئًا وكنت قادرًا على مساعدتهم، يجب أن تعطيهم إياها.. في السراء والضراء، إذا مَرِض أحدهم، فعليك أن تحاول مساعدته إما طبيًّا وإما على الأقل بعيادته ورفع معنوياته، وأنت في عون جيرانك: إذا تزوج أحدهم أو تُوفِّي آخر أو واجه ثالث مشكلة اجتماعية».

«وإذا كنت طبيبًا أو مدرسًا، فعليك أن تساعد مرضاك أو طلابك، وإذا كنت مهندسًا فعليك أن تُدرب العمال حتى يُحسنوا أعمالهم، كلها أوجه لفعل الخير، يؤديها الأخ المسلم ابتغاء مرضاة الله، ولا يطلب لقاءها أجرًا من أحد، ولهذا لا يحتاج الإخوان المسلمون إلى كثير من المال، ومن يعرف القليل من علم الحساب يُدرك أن جماعة يزيد أعضاؤها في دول العالم كله على مئة مليون، لو أن كل عضو دفع اشتراكًا دولارًا واحدًا في الشهر لاجتمع لديها مئة مليون دولار شهريًّا».

«كان مبارك وأعوانه من الراسبين في مادة الحساب، فوضعوا خطة ضد الإخوان المسلمين عام ٢٠٠٥ مكونة من ثلاثة عناصر؛ الأول: محاولة القضاء على الموارد المالية للجماعة. والثاني: تقديم القيادات المعروفة منهم إلى المحاكمة وتجميد نشاطهم بوضعهم في السجون. والثالث: إرضاء إسرائيل والإدارة الأمريكية الراعية والحامية لنظام مبارك. ورأى نظام مبارك أن يبدأ بتقديم أربعين من أعضاء الإخوان المسلمين إلى محكمة الجنايات بالقاهرة.. وأنا من بينهم لأُحاكم غيابيًّا».

«وقد رفضت المحكمة القضية - قائلة بأنه لا يوجد شيء يستوجب مساءلة المتهمين عنه، ولما أُحيلت القضية إلى محكمة أخرى أصدرت المحكمة الجديدة

قرارهـا بنفـس المضمـون، وتكـرر الأمر نفسـه مـع محكمة ثالثـة، إن غالبيـة القضاة المصرييـن غير فاسـدين والأقلية منهـم يعتبرون مـن رجال الحكومـة، وهؤلاء على اسـتعداد دائم ليفعلوا ما تريده الحكومة، ولم يقلع مبارك عما يريد. ولجأ إلى وسـيلة أخـرى - المحكمة العسـكرية، وهي غير مقيدة بأحكام القانـون الجنائي، وأصدرت المحكمة العسكرية أحكامها وكانت بطبيعة الحال: مذنب، مذنب، مذنب».

«وكانت تهمتي تمويل جماعة الإخوان المسـلمين في مصر». وبنظرة إلى الوراء، كما يقول يوسف: «كان الحكم غريبًا وطريفًا، بل محزنًا». وأضاف قائلًا: «فالعالـم كله يعلم أنني منذ عام ٢٠٠١ وحتى سبتمبر ٢٠٠٩ وكل أصولي وحساباتي المصرفية في مختلـف أنحـاء العالم مجمدة بأمر مـن مجلس الأمن التابع لمنظمـة الأمم المتحدة، وعلـى الرغم مـن تجميد كل أصولي وأموالـي فقد ادّعوا أنني في الفتـرة ذاتها موّلت الإخـوان المسـلمين، وذَكَـرَت صُحفهـم أن المبلغ بليـون دولار أمريكـي!! وصدر الحكـم عليَّ غيابيًّا بالسـجن عشـر سـنوات. والآن.. في يولية ٢٠١٢ مـا زال الحكم قائمًا، وقد قال الرئيس الثوري الجديد محمد مرسي الذي طالما عانى من ظلم مبارك إنه سـيُلغي هذه الأحكام الظالمة، وإذا ذهبت إلى مصر في هذه اللحظة فإنه بإمكانهم القبـض علـيّ، وهذه ليسـت أول مرة أجد نفسـي في هـذا الموقف؛ ففـي عام ١٩٦٦ حكمت عليَّ إحدى محاكم عبد الناصر الاسـتثنائية بالسـجن عشـر سـنوات كذلك، ولنفس التهمة: تمويل الإخوان».

«إن اثنيـن مـن القضـاة العسـكريين الثلاثـة الذين حكمـوا عليَّ غيابيًّـا في ٢٠٠٥ كانـوا أفرادًا في المجموعة العسـكرية التي حكمت مصر بعـد تنحي مبارك، وقد وقّع على الحكم آنذاك اللواء حسـن الرويني العضو الحالي في المجلس الأعلى للقوات المسـلحة الذي سلَّمه مبارك سـلطة إدارة البلاد عندما أعلن في ١١ من فبراير ٢٠١١ تخليه عن منصب رئاسـة الجمهورية عقب أحـداث الربيع العربي في مصر، وجماعة الإخـوان المسـلمين محظـورة في كثيـر من البلاد، وفـي بعض البلاد ليـس لنا وجود قانونـي.. غيـر أننا هناك». «في مصـر، وفي كل الأعوام التي اعتُبر نشـاطنا غير قانوني أثناءهـا، كنـا نعمل في الشـوارع، وكنا فـي البرلمان وفـي المستشـفيات والجامعات

وفي المصانع والحقول، وعندما سيق الإخوان إلى السجون، حاول البعض مساعدة عائلاتهم بالطعام والمال، فأصابهم أذى كبير من جرّاء ذلك، فإذا أَعطيت خمسة جنيهات كنت تُلقى خمس سنوات في السجن عقابًا على ما فعلت، لم تكن تَصْدُر أحكام من المحاكم بذلك، ولكن كانت سلطات الأمن هي التي تعاقب المحسنين، وبالطبع إذا كنت أسخى قليلًا ودفعت عشرة جنيهات فسوف يكون جزاؤك عشر سنوات، وهكذا دواليك».

عندما بدأت مظاهرات الربيع العربي في القاهرة في ٢٥ من يناير ٢٠١١، انتقد الناس الإخوان لعدم اشتراكهم، لكن يوسف ندا يُشير إلى الجانب الآخر من القصة: «إن الجماعة قد سُجِن كثير من قادتها يوم ٢٣ من يناير، ومنهم الرئيس الحالي الدكتور محمد مرسي، ثم هُدِّد باقي أفرادها إذا شاركوا في الإضرابات؛ ولمعرفتهم بتاريخ التعذيب والعقوبات كانت الحكمة تقتضي منهم الحذر، ولذلك أَخْبَرت قيادات الجماعة الذين لم يُسجنوا جميعَ الأعضاء بأن يشتركوا في المظاهرات.. ولكن كأفراد فحسب، وبهذه الطريقة يساهمون في التعبير عن مشاعر الشعب دون أن يُساقوا إلى السجن حيث يطويهم النسيان، لقد انضممت إلى الإخوان المسلمين وأنا في السابعة عشرة واشتركت في معسكرات الفدائيين في حرب القنال وأنا في سن العشرين، وسُجِنت وأنا في الثالثة والعشرين، وتستطيع أن تسمي محبسي سجنًا أو معسكر اعتقال، ولكنني لم أَمْثُل أمام محكمة، ولم يتم التحقيق معي على الإطلاق. سمِّ هذه الإجراءات كما تشاء، لكنها كانت إجراءات خاطئة، وبقيتُ في معتقلي نحو عامين».

«كل ما سُئلت عنه كان أسماء وعناوين أفراد عائلتي، لم يسألني أحد عن أي جريمة البتة، وأنى لهم ذلك؟ وبعد عامين أطلقوا سراحي دون أي توضيح لما فعلوا - لأعود إلى عالم آخر قائم على الخداع وأكثر خطرًا».

كانت الرحلة محفوفة بالأخطار ليوسف ندا المسلم الملتزم: «نعم أنا مسلم، ولكنني إنسان كذلك، لقد وضعتني أمي طفلًا آدميًّا إنسانًا.. وليس مُسلمًا».

«لقد اشتركت معها في الإنسانية قبل أن أكون مسلمًا؛ ولذلك فأنا مشترك مع كل إنسان في إنسانيته، وهذه رابطة لها حقوق وعليها واجبات، إن دينك لا يعني

أن تتخلى عن أصلك، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويُمجسانه». نعم إن أصلي إنسان قبل أن أكون مُسلمًا.. وُلدت على الفطرة وفطرتي الإنسانية».

«لم أَقْتُل إنسانًا أبدًا، لم أستعمل سلاحًا أبدًا، على الرغم من تدريبي على استعماله، وإذا كان الدفاع عن الوطن ضد الغزاة أمرًا مشروعًا، فلا أعرف ماذا يكون شعورك وأنت تقتل شخصًا آخر أثناء استخدامك لهذا الحق؟! ذات مرة صَدمت قطة بسيارتي، أقسم إنني ظللت أرتجف نصف ساعة بعدها - وبعد هذا تتهمني وكالاتُ الاستخبارات الأمريكية بتمويل العنف، بدفع الأموال لقتل الناس! أبدًا. إنني لن أنسى أبدًا ما رأيته في السجن الحربي».

بعدما خرج يوسف من السجن بعامين تقريبًا، زاره أحد حراس السجن من الجنود الذين كانوا يُعذِّبون السجناء. يقول يوسف: «كان الرجل قد انتهى تجنيده في الجيش ويبحث عن عمل، رأيته في السجن يقتل - قتل ثلاثة أمامي، أحدهم كان صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره، من الإخوان المسلمين؛ أمسكوه وهو يوزع منشورات الإخوان وأحضروه إلى السجن ليقطعوه إربًا إربًا، كان اسمه عبد الهادي، ولم أعرف قط بقية اسمه، لكن وجهه - ما زلت أذكر وجهه.. وجراحه - كان الدم يغطي جميع صدره، وعندما حاولت مساعدته قال لي: أخي يوسف، لا تُتعب نفسك، لقد قُضي الأمر. كان القاتل اسمه عوض. وعندما جاءني رأيت مشهد القتل يمر أمام عينيَّ وكأنه حدث لفوره، رأيته بكل وضوح، أخافني ذلك لأني خشيت أن أفقد صوابي وأتصرف بغضب، فنظرت إليه ووضعت يدي في جيبي وأخرجت كل ما فيه من النقود ودفعت بها إليه وقلت: الله يرضى عليك، لكن من فضلك.. من فضلك لا تأتِ هنا مرة أخرى. لا أستطيع الأخذ بالثأر، فدِيني يمنعني من ذلك، ولا يعني هذا أن كل الإخوان المسلمين متماثلون، لكننا تعلمنا أن نحاول أن نلتزم بما أَمَرنا به الله ورسوله، لا يمكنني القول إن المسلمين لا يخطئون، أو إن الإخوان كاملون - بل هم كالمجتمع تمامًا بتمام، فيه الصالح والطالح، والأمل دائم في أن يحاول كل واحد أن يكون من الصالحين، وهذا شيء عظيم».

«والإحصاءات الأخيرة التي أُجريت في كافة أنحاء العالم عام ٢٠٠٩ تُشير إلى أن الذين يلتزمون بأفكار الإخوان ومبادئهم تجاوز عددهم مئة مليون شخص، لا يوجد ثمة سجلات رسمية - فالأخ هو أي فرد يتبع طريقنا، وهم أشخاص يعملون مع الأحزاب السياسية في كل الدول، في المدارس، وفي المساجد وفي المستشفيات والجامعات؛ طلاب وأساتذة وفلاحون في المزارع وعمال في المصانع؛ آباء يحاولون أن يُورِّثوا عائلاتهم أفكارهم.. الجماعة في كل مكان في المجتمع، وفي كل مستويات المعيشة».

وبالطبع، فإن العالم لا ينظر كله نظرة سوية إلى الإخوان المسلمين، وإنما يزعم البعض أن الإخوان يريدون السيطرة على العالم بأسلحة فتاكة وطُرق وحشية، ويرد يوسف على ذلك بكل هدوء: «إذا هجم أكثر من مئة مليون شخص اليوم، هل يمكن إيقافهم؟ لكننا لسنا كذلك، نحن نريد أن نتحاور، أن نُعلِّم ونتعلم، أن نتفاوض.. وقد فعلت ذلك طيلة حياتي».

«أما إذا ذكر الطغيان فنحن سُعداء بتواضعنا، وعندما يستخدم أحدهم عضلاته ضدنا فنحن مسرورون بالرد عليه بالعقل والحكمة، نحن تلامذة محمد القراقصي الذي سألني عما سوف أَجْنِيه من العنف، والإجابة: لا شيء، إن مجرد التفكير في القضاء على حياة إنسان آخر فكرةٌ تثير في نفسي الغثيان».

ورغم هذا، اتَّهم «جورج دبليو بوش» يوسف ندا في عام ٢٠٠١ بتمويل أعمال وحشية، وأمر مجلس الأمن أن يُدرج اسمه في القائمة باعتباره صاحب بنك الإرهاب. ويُعبِّر يوسف عن هذه المفارقة بتهكُّم رزين: «وما زلت أتعامل مع حالة أخرى من الظلم شديدة القسوة، ليس مصدرها الطغمة العسكرية ولا النظام المستبد ولكنها جاءتني هذه المرة من أكبر دولة ديمقراطية في العالم، ومن دولة صغيرة لكنها أكثر دول الغرب تَحضُّرًا، وهاتان الدولتان هما الولايات المتحدة الأمريكية.. وسويسرا».

الفصل الثالث

اربطوا أحزمة المقاعد

«المسروق الذي يبتسم؛ يسلب اللص شيئًا».

شكسبير، «عطيل»

خلال مرحلة دراسته الجامعية، باستثناء فترة سجنه التي قطعَتْها عنوة، كان يوسف يشتغل في تجارة منتجات الألبان مع إدارته مكتبًا للتصدير، وعندما تخرج في كلية الزراعة في جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٩ كان ناجحًا جدًّا في عمله، ولكنه كان قلقًا، ويقول إنه شَعَر بأنه كان يعيش في دولة بوليسية.

ويشرح ذلك بقوله: «كان النظام قد وظَّف آلافًا من الجواسيس لدى جهاز أمن الدولة على غرار جهاز الأمن في ألمانيا الشرقية، كل واحد مذنب حتى تَثْبُت براءتُه، وليس بريئًا حتى تَثْبُت إدانته، كان الجميع مشكوكًا فيهم.. لقد كان مُناخًا مرعبًا وخانقًا».

كان مصنع الألبان؛ الذي يملكه، يُزوِّد مدينته بثلث استهلاكها اليومي من الحليب، كما كان يُزوِّد شركة سويسرية للحليب المبستر في الإسكندرية، كما تعاقد مع شركة نمساوية لتزويدها بالجبن الأبيض (جبنة الفيتا)، الجاهز للتصدير. لقد ساعد ذلك العقدُ يوسفَ على اتخاذ قرار حاسم؛ إذ كان بمثابة جواز سفره إلى حياة جديدة،

ولكنهـا أكثـر اضطرابًا. بعد مغادرته السـجن كان يتصرف على نحو هـادئ، إذ كانت الرقابة والسـلطة تتحكمان في الجميع: «لم أحتمل طريقتهما في تسـيير شئون حياتنا، كُنَّا جميعًا كأحجار الشطرنج بين أصابع الدكتاتور».

كان يوسف يخضع لمراقبة مستمرة من قِبل مباحث عبد الناصر، وذات مرة أرادت السلطات أن تُظهر تورطه في مؤامرة، فأخذوه للاستجواب وحققوا معه.

- ما نوع السيارة التي تقودها؟

- سيارة فورد صغيرة.

- كلا، إنك تقود سيارة شيفروليه زرقاء.

- لا.

- هل تعرف سيدة اسمها فتحية بركات؟

- لا.

- اكتب قائمة بأسماء الضباط الذين تعرفهم.

قبـل التحاق يوسـف بالجامعة، التحـق بعض أصدقائه بالكليـة الحربية، وبعضهم بالقوات الجوية، فكتب أسماء ستة منهم.

- كلا ، هذا غير كافٍ.

- إنني لا أتذكر أي أسماء أخرى.

- يجب أن تتذكر، إنك تعرف، ولكنك لا تريد أن تقول.

- كلا.

- طيب، سنعطيك فرصة، اذهب إلى المنزل وعُد إلينا غدًا، فكِّر مليًّا، فإن لم تفعل، فإنك تعرف ماذا سيَحدُث! تذكّر أين كنت من قبل، إنك تعرف أين كنت، وتعرف إلى أين ستذهب ثانية.

ذهب يوسف إلى منزله وهو في غاية الاكتئاب، معتقدًا أن كارثة ستحدث، ويقول: «ثـم اتصـل بالهاتـف رجل يطلب أخـي صبحي الـذي يصغرني، بعـد أن أتم صبحي دراسـته في الهندسـة التحق بكليـة الطيران، كانـت علاقته جيدة بالنظـام، وكان يقود طائرات تنقل مسئولين كبارًا في الحكومة، من بينهم الرجل الثاني بعد عبد الناصر».

«قـال المتصل إن اسـمه علاء بركات، لقد سـألني رجال الأمن مـن قبل عن امرأة لقبهـا بـركات، كان المتصـل أحد زملاء أخـي الطيارين، وأمه السـيدة فتحية بركات، وكان ابنهـا وأخي يركبان سـيارتها الزرقـاء، وقد تم تتبعهما حتى وصـلا منزلنا حيث يقضـي أخـي عطلته، وفهمت علـى الفور أنهمـا كانـا مراقبين، وظن الجواسـيس أن صبحي هو أنا، ولذلك وَقَر في أذهانهم أن لي علاقات مع ضباط في الجيش والقوات الجوية، وأنني أخطط لانقلاب! فاتصلت بالأمن وقلت للمسـئول: «لقد التبس الأمر على الرجل الأحمق، الذي أرسـلتموه ورائـي، فظن أن أخي هو أنا، وأخي ضابط فله علاقات واسعة بأشخاص لا تربطني بهم أي صلة».

«ومرة أخرى لاحقوني؛ لأنني لم أُدْلِ بصوتي في الاستفتاء على رئاسة الجمهورية، كان عبـد الناصر المرشـح الوحيد، فكان ينبغي عليك الاختيـار بين «نعم» و «لا»، أن تقول لا فهذه مشـكلة، لـم أشـأ أن أقول نعـم، ماذا عسـاني أن أفعل؟ لـم أذهب للإدلاء بصوتي، بعد أسبوعين استدعوني، قالوا: لماذا لـم تذهب إلى الاستفتاء؟».

«قلت إنني كنت مشغولًا جدًّا، فلم يكن لديَّ وقت كي أذهب، قالوا: إما أنك تقبل بالنظـام، وإمـا تكون ضده». «عـدم التصويت يعني أنـك لا تريد أن تبـوح بما تعتقد، مـا عسـى المرء أن يفعل؟! لـم تكن لي وسـيلة للعيش في ذلك المُنـاخ المفعم بالريبة والكراهية، كان بعض الناس مجبرين على ذلك، أدركت أنني لو سافرت فسوف أحيا حيـاة أفضل، أردت أن أكون مواطنًـا يتمتع بحقوقه.. قررت الهجرة. لم أكن متزوجًا، وكان بإمكاني المحافظة على صلتي بأمي وبإخوتي وأخواتي، وأبي لا يزال حيًّا، وهم يعيشـون حياة طيبة، لم يكونوا بحاجة إليَّ، وكنت أعرف كيف أدير شـئوني الخاصة، وكانت لي علاقات في كل مكان».

بموجب عقد إنتاج الجبنة البيضاء للتصدير، تقدم يوسف بطلب تأشيرة خروج، فمُنِحَت له، انتقلت آلات مصنعه في الإسكندرية إلى الحاج عباس السيسي؛ الذي كان يملك مصنعًا لصُنع الأجبان في مدينة رشيد. غادر يوسف مصر في عام ١٩٦٠ بإذن كامل من الحكومة وتصريح بالعمل وتأشيرة خروج، ليبدأ التحول الكبير في حياته.

أصبح يوسف رجلًا دوليًّا من رجال الصناعة، يتمتع بقدرات عالية، أنشأ لنفسه مكاتب في كلٍّ من فيينا، وطرابلس، والرياض، وجلاسجو وليختينشتين، وراح يتنقل بين أوربا والشرق الأوسط حيث ينظم أعماله الحرة في الشرق الأوسط وإفريقيا. لقد أنشأ بطاقَتِهِ المتوهجةِ أعمالًا تجارية كثيرة، مثلما أقام علاقات مع شخصيات مشهورة، كان يُحرك السلع ويدوِّرها بسرعة وانتظام: الذرة، والزيت، والشعير، والحديد، والقمح، والأسمنت، والدقيق، والنحاس، والألمنيوم، والأسمدة. كانت تجارته في الأسمنت ومواد البناء الأخرى أكثر أرباحًا من سائر المشروعات الأخرى.

كان نجاح مشروعاته كبيرًا إلى الحد الذي جعله يتباحث مع زعماء الدول وأكابر رجال الأعمال، كان يتمتع دومًا بغريزة الوصول إلى صُناع القرار الحقيقيين في مجالَيِ الصناعة والسياسة – وقد أخبرهم جميعًا بانتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين واعتزازه بذلك، وكان منهم الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة والملك الحاذق إدريس السنوسي ملك ليبيا المستقلة، الذي ظل حليفًا لبريطانيا وأمريكا رغم أزمة قناة السويس في عام ١٩٥٦، فالدولتان ساهمتا في تأسيس مملكته بعد الحرب العالمية الثانية، لقد أزعجت علاقات الملك الدولية القوميين العرب أمثال عبد الناصر.

في عام ١٩٦٢ قابل يوسف الملك إدريس، ونشأت بينهما علاقة ودٍّ، وتوسط لهذا اللقاء فتحي الخوجة رئيس المراسم، الذي أدرك رجل الأعمال الشاب أنه مسلم متدين نزيه. لقد أخبره الشاب يوسف عن اعتقاله والمعاملة التي تلقاها في مصر. كان له أيضًا علاقات مع مسئولين آخرين مثل الدكتور محمود أبو السعود؛ الاقتصادي العالمي وعضو جماعة الإخوان المسلمين والذي كان معه في معتقل عبد الناصر الحربي عام ١٩٥٤، كان الملك إدريس قد عَيَّن الدكتور أبو السعود مستشارًا

اقتصاديًّـا للمصـرف المركـزي الليبي ولـوزارة الاقتصـاد كذلك. فـي طرابلس، كان سـعد الجزائـري؛ حفيد الأمير عبـد القادر الجزائري أقربَ أصدقاء يوسـف له، وكان سـعد ينبض بالوفاء والإخلاص والتُّقى والمروءة والأدب والبراءة.. ما عرفه أحد إلا وقدَّره واحترمه.

وعـلاوة على ذلك، قـدم الرئيس التونسـي القوي الحبيب بورقيبة ليوسـف حرية السـفر والتنقل الثمينة: إذ منحه الجنسـية التونسية، فجاءه معها جواز السفر الذي فتح أمامـه العالـم ليتنقـل في أرجائه، وفـي ليبيا كان لديـه دعم رفيع المسـتوى من جانب الملك وكبير تشريفاته فتحي الخوجة.

كان بمقدور يوسـف أن يتعامل مع تعقيدات التجارة. أما الشـئون المنزلية فأمرها يختلف، عاش يوسـف الشـاب الأعزب متنقلًا بين منزليـن، أحدهما في فيينا والآخر فـي طرابلس، وكذلك كان يـزور مرارًا المملكة العربية السـعودية دون أن تكون لديه الرغبـة في قضـاء وقت طويل فيها، لقـد زاره هارون المجددي فـي ليبيا، وقضى معه في منزله حوالي عام كامل، كما زار أبوه صادق باشـا المجددي يوسفَ في منزله عدة مرات أثناء زياراته للملك إدريس، إذ كانا صديقَيْن حميمَيْن، وجاءت مع صادق باشا ابنته طاهرة المجددي.

يسترجع يوسـف ذكريات هذه الأيام: «عندما حضرت طاهرة، كنت مُثْقلًا بأعمال كثيرة، ولقد عاملتني وكأنها أم لي، كانت جميع أوعية المطبخ وأواني الطهي الجديدة لا تـزال فـي صناديقها؛ إذ لم يكن لـديَّ وقت أقضيه في الشـئون المنزلية، فأحضرَتْ طاهـرة زوجَيْن إيطاليَّيْن ليعتنيا بي، فبقيا معي في طرابلس وفيينا وبلدة كامبيوني حتى تقاعـدا. كنت أقضي وقتي في العمل وإقامة شـعائر الديـن، ولقد تبين لي أن ذلك كله كان نقطة تحول في حياتي».

كانـت مشـروعات الإنشـاءات بمثابة منجم للذهب فـي ليبيا والخليـج ونيجيريا، وكذلك شـرق وغرب وشـمال إفريقيا. لقد غدت شـركات يوسـف المُورِّد الرئيسـي لمـادة الأسـمنت، وبالتعـاون مع أكبر شـركة إيطالية للأسـمنت (شـمنتير) صَنَع أول تيرمينـال عائـم للأسـمنت في العالـم في أكبر حـوض إيطالـي لبناء السـفن في ذلك

الوقت، وأصبح يوسف معروفًا في أوربا والشرق الأوسط باسم «ملك أسمنت البحر الأبيض».

كان ليوسف مملكة أعماله الخاصة به في ليبيا، كان شابًّا واثقًا من نفسه وناجحًا، ربما واثقًا أكثر مما ينبغي. خلال مراقبته لأسواق السلع، تنبأ بارتفاع أسعار الحديد، وفي أوائل عام ١٩٦٩ اشترى مئة ألف طن من مادة الحديد ودفع فيها عشرين مليون دولار أمريكي- مئتي دولار أمريكي للطن الواحد - على أن يتسلمها في أكتوبر من ذلك العام. بينما كانت أسعار الحديد ترتفع، وشحَّت المادةُ في الأسواق.

أحد منافسيه في ليبيا كان (فيتوريو حداد) من رجال الصناعة الأذكياء. ويَحكي يوسف عن لقائه بحداد فيقول:

«يوم ٢٠ أغسطس١٩٦٩ بينما كنت يومًا أسير في طرابلس، رَبَت شخص على كتفي؛ لقد كان «فيتوريو حداد» الذي سمعت عنه ولكن لم أقابله من قبل، قلت له إنني سمعت عنه وعن سُمْعَته، فقال إنه عَلِم من المنتجين أن عندي كمية كبيرة من الحديد، وسألني إذا كنت أرغب أن أبيعه نصفها. في ذلك الوقت، كان سعر الطن قد بلغ أربعمئة وخمسين دولارًا فزاد ذلك من قيمة الكمية بمقدار خمسة وعشرين مليون دولار.. لم أجد سببًا يضطرني لبيع السلعة، فالأسعار ما زالت في ازدياد.

نظر إليَّ حداد وقال: هل لك أن تأخذ بنصيحة يهودي؟

- سيكون الأمر صعبًا، ولكن هات ما عندك.

- بعْ نصف الكمية وغامر بالنصف الآخر.

لم آخذ بنصيحته فلم أبعه».

وبعد عشرة أيام في أول سبتمبر عام ١٩٦٩ استولى العقيد القذافي على الحكم في ليبيا، بينما كانت مملكة يوسف تزدهر؛ إذ كان لديه أسطول يتألف من ست وثلاثين باخرة تجلب السلع إلى ليبيا: النفط والحديد والشعير والقمح وبعض الأسمنت، الذي ساهم ببناء قسط كبير من الشرق الأوسط الحديث. كما كان يملك في ذلك الوقت كمية من مادة الحديد تقدر قيمتها بخمسة وأربعين مليون دولار.

كانت الساعة السابعة صباحًا عندما تلقَّى يوسف نبأ الانقلاب بالهاتف من سعد الجزائري، وعندما أدار المذياع في منزله في طرابلس، جاءت الأخبار مدعمة بأصوات إطلاق النار في المدينة، عرف على الفور أن عبد الناصر سوف يدعم انقلاب القذافي، إذن لم تَعُد ليبيا مكانًا آمنًا له.

مع الانقلاب فُرِض منع التجول، السير في الطريق يعني أن تصبح هدفًا لرصاصة ما لم تكن شخصًا مُهمًّا، مثل الدكتور سينغ صديق يوسف. كان سينغ هنديًّا سيخيًّا، ويقول يوسف: «كان أعزب مثلي، فكان دائمًا يأتي إلى منزلي لتناول العشاء والاستماع إلى الموسيقى والتحدث، وقد يجلس ليقرأ في مكتبتي عندما أكون مشغولًا، كانت تربطنا صداقة جيدة، وكان مسموحًا له التجول؛ إذ كان لدى الأطباء إذن خاص بالتنقل أثناء حظر التجول، فأول شيء فعله أن جاء لزيارتي، لقد أخبرني عما يجري؛ جميع الثوار يهتفون لعبد الناصر وكأنه كان إلههم، كان القذافي والآخرون يعتبرون عبد الناصر بطلهم، كان ذلك أمرًا سيئًا بالنسبة لي، كنت معروفًا بمعارضتي لعبد الناصر واسمي في قائمة المطلوب تصفيتهم، كما كنت صديقًا للملك إدريس؛ لذلك بات من المؤكد أنهم سيلاحقونني، كانت لديَّ بواخر في الميناء، ولكن لم يتم إفراغها بعد».

«في هذه الأثناء طَرَق بابي جاري «فكتوريو بجاني»؛ صاحب توكيل شركة «فولكس فاجن» في طرابلس، ولأنه كان يهوديًّا فقد كان خائفًا مما يمكن أن يحدث له، فقال: إنني وحدي، وقد غادرتْ عائلتي منذ يومين إلى روما ليحتفلوا بيوم الغفران، وكنت أنوي اللحاق بهم غدًا، لكنني الآن وحيد وخائف جدًّا، هل يمكنني البقاء معك؟ فقلت له: هذا منزلي أمامك، هنا الموسيقى والمكتبة، وهنا المطبخ، وها هي الثلاجة وموقد الطبخ، وها هي غرف النوم، وكلها يمكنك استخدامها، لقد أوصانا رسولنا صلى الله عليه وسلم على سابع جار. فافعل ما شئت، فقط لن أستطيع الجلوس معك طويلًا لأن أمامي أشياء كثيرة لا بد من عملها. كان عليَّ أن أُفكر مليًّا كيف أحافظ على حياتي، استدعى «بجاني» سكرتيرته إلى منزلي، فرتبت له أمر هروبه إلى كندا عبر

مالطـة في صندوق جيتار، وهربت أنا أيضًـا، ولكن في اللحظات الأخيرة؛ لقد ركبت في سفينة شحن تحمل الأسمنت مُنطلقًا نحو الحرية».

« فـي الأيـام الأولـى القليلة فُرضـت حالة حظـر التجول أربعًا وعشـرين سـاعة، ولكن نتيجة لاحتياج الناس إلى الطعام والمواد الأساسية الأخرى سُمح برفع الحظر لسـاعتين ثم أربع سـاعات في اليـوم، كانت إحـدى بواخري قد أفرغـت ٩٧٠٠ طن مـن حمولتهـا، وبقِيَت على متنها كمية مقدارها ٣٠٠ طـن. كان القبطان في طرابلس، ومالك الباخرة في اليونان، وكنت أسدد الفواتير من فيينا».

«بينمـا كان القبطـان يطلـب نقـودًا انقطعـت الاتصـالات، ولكن إذا أرسـلت إلى فيينـا أي برقيـة حتـى مـن السـفينة لاتُّهِمت بتهريـب الأمـوال وارتـكاب جريمة ضد النظام الجديد».

«وقال لي القبطان: يا سيد يوسف، مالكُ السفينة سيعلن إفلاسه، ومن الأفضل لو تحدثت إليه عن طريق جهاز الإرسال في السفينة».

«وضعـت خطـة، وقَبِلت التحدث إليه من على السـفينة في اليـوم التالي، لقد كان هنـاك نقـص فـي المـواد الغذائية، فمن لديه منها شـيء علـى متن إحدى السـفن كان يُصـرَّحُ له بالذهـاب إليها بموجـب إذن خاص، وكانـت هذه فرصتـي، عندما يذهب الشخص إلى مكة لأجل الحج، فإنك لا تذهب بموجب جواز السفر، ولكن بموجب وثيقة الحج التي هي إذن سفر خاص للسفر من ليبيا إلى المملكة العربية السعودية».

«ذهبـت إلـى الميناء ومعـي وثيقة حج وجوازان للسـفر ودفتر شـيكاتي على بنك «كريديـت آنشـتالت فيينا» وبعض المال أخفيته في حذائي، كما أخذت معي مسدسًـا بلاستيكيًّا، ولا شيء غير ذلك؛ لا ثياب ولا حتى موسى للحلاقة، وثيقة الحج مكَّنتني للوصول إلى الميناء وتجاوز حرس الميناء، عندما وصَلَت السفينة أخبرت القبطان أنه يجب علينا الانطلاق، كان شـديدَ الاضطراب إذ أراد نقودًا لأجل مالك السـفينة، كان يريد مني السـفر معه لأدعمه، ولكنه خائف على سـلامته في الوقت نفسـه، طلبت منه الحصول على إذن من سلطات الميناء للإبحار».

«قالـوا لـي: انتظـر إن الحراس سـيأتون بُغْية التفتيـش. وهذا ما فعلـوه، جاءوا في زورق حربي سـريع، كانوا نحو اثني عشر رجلًا في بِزَّات عسكرية، ويحملون البنادق الرشاشـة، عندمـا اعتلوا السـفينة، فقد القبطان أعصابه وقال: سـيد يوسـف يجب أن تخرج.. سـيد يوسـف ينبغي أن تغادر السـفينة. فأجبته: هل أنت مجنون؟ لقد طلبت مني البقاء. فأجابني متوسـلًا: يا سـيد يوسف لديَّ أولاد. فقلت: نعم لديك أولاد هل تريدهم أن يعيشوا بدونك أم معك؟ إذا لم يكن من بد إلا أن أُقتل، فإنك ستُقتل قبلي».

«لم يكن أمامي سـوى إخافته بالمسدس البلاسـتيكي الذي بدا وكأنه حقيقي، إنها الحيـاة أو المـوت، كان هناك ثلاجة كبيرة في قَمَرة السـفينة، فقال لي إن باسـتطاعتي الاختفـاء خلفهـا، كان مكتبـه في الجانـب المقابل من الغرفة، فقلت لـه: اجلس على ذلك المكتب بحيث أستطيع أن أراك، وإذا تحركت، فسأطلق النار عليك. كان التوتر شديدًا والجو حارًّا».

«وقـف الحـراس أمـام القبطـان مستفسـرين: هـل هنـاك أيُّ أحد مختبـئ؟ كنت أراقبـه مـن وراء الثلاجـة، فرأيته يتصبـب عرقًا، طلبـوا أن يصحبهـم للتفتيش فاعتذر وأمـر مسـاعده باصطحابهم لإجراء التفتيش، لم يجدوا شـيئًا بالطبـع ، فأعطوه الإذن بمغادرة ليبيا».

«مكثت وراء الثلاجة سـبع سـاعات حتى غادرنا المياه الإقليمية، تاركًا ورائي ليبيا ومنزلـي وتجارتي، التي تُقدر بعشـرات الملايين من الـدولارات. عندما خرجت من مخبئي، كان على القبطان أن يحملني؛ إذ شـعرت وكأن الدماء تجمدت في جسـدي، ما استطاع جسدي أن يتحرك وحده، وما زالت يدي مطبقة على المسدس، كان نظري طَـوال الوقـت متجهًـا إلـى القبطان، كان الرجـل خائفًا، ممـا يعني أنه أصبـح مصدرًا للخطر، لم أكن لأتنبأ بما قد يفعله، ذهبنا من ليبيا إلى تونس، وقد كان لديَّ جواز سفر تونسـي، توسـل إليَّ القبطان كي أبقى معه حتى نصل إلى اليونان؛ لأن طاقم السـفينة سـيقولون إننـي دفعت له نقـودًا كي يُهربني من ليبيا، أو إنه شـيوعي، إذ كنت الشـاهد الوحيد على ما حدث حقًّا».

«لقد تنازعتني فكرتان؛ كنت قد أصبحت في مأمن، ولكن إذا بقيت في السفينة كان عليَّ المرورُ بالمياه الإقليمية الليبية ثانية مما يعني أنهم ربما يُلقون القبض عليَّ، ومن جهة أخرى: إذا نجوت أنا وذهب الرجل ضحية لذلك، كيف لي أن أعيش بعدها؟ انتابني صراع داخلي.. فكيف لي العيش بعد ذلك مع إحساسي بأنني قد تخليت عن شخص ساهم في حصولي على حريتي، حتى وإن فعل ذلك مضطرًّا».

«قررت المجازفة والبقاء معه، عندما جاء رجال الأمن إلى السفينة في تونس، قالوا بناء على جواز سفري يمكنني مغادرة السفينة، ولكننا تابعنا الإبحار، وبعد أن عبرنا المياه الإقليمية الليبية، صعدت فوق برج السفينة لأستخدم جهاز اللاسلكي وأتحدث إلى المصرف في فيينا، أعطيت عامل اللاسلكي مبلغًا جيدًا من النقود فقال: يا سيد يوسف انتبه لنفسك، فقد طلب مني القبطان أن أرسل ثلاث رسائل: واحدة لمدير ميناء بيريه، والثانية لجهات الأمن، أما الثالثة فلرئيس الدولة.. وأحسب أنك في خطر».

«عندما عرف القبطان أنني كنت في غرفة اللاسلكي، بدا عليه الاضطراب الشديد، أما أنا فأخذت الأمر بجدية، فتوقفت عن أكل وشرب أي شيء غير معلب خشية أن يَدُسّ السُّمَّ لي، بقيت في المقصورة حتى وصلنا اليونان، طوقتنا ثلاثةُ زوارق حربية لتقتاد السفينة نحو المَرْسَى، كانت لديهم معلومات أن شخصًا هاربًا من ليبيا يختبئ فيها، ثم وصل مالكُ السفينة الذي كان صديقًا لي، وراح يتشاجر بصوت مرتفع مع القبطان باللغة اليونانية وحاول ضربه».

«ثم وصل رجال الشرطة، وطلبوا جواز سفري وسألوني من أين أتيت، أجبت غاضبًا: من تونس، لديَّ جواز سفر، إنني لا أحتاج لتأشيرة دخول، إنني أدخل بلادكم من ميناء يُسمح للجميع بالدخول منه».

«لاحظ ضابط آخر الغضب الشديد يعلو وجهي، فتقدم قائلًا: ياسيد يوسف لا تغضب فإنني أعرف قضيتك، أين جواز سفرك؟ نظر إلى جواز السفر، ثم قال: عندنا مشكلة يا سيد يوسف، إن قضيتك ليست بأيدينا، إنها عند رئيس الدولة. لقد وصلتنا رسائل وكذلك لرئيس الدولة. اليوم هو يوم الجمعة مساء، لا أحد يستطيع الاتصال

بالرئيس، غدًا وبعد غد كذلك لا يستطيع أحد الاتصال به، هل يمكن أن نطلب منك البقاء على متن السفينة حتى صباح يوم الاثنين؟».

«لم يكن لي خيار آخر.. فإما البقاء في السفينة وإما النزول عنها إلى البر حيث أذهب إلى السجن لأقضي عطلة نهاية الأسبوع، طلبت من مالك السفينة أن يهيئ لي محاميًا، ويتصل بغالب همت، الذي أثق به، كي يلحق بي من ميونيخ بأقصى سرعة ممكنة، في صباح يوم الاثنين وصل رجال الأمن، وسألهم المحامي عن وجهتنا فأجاب قائدهم: ليس مسموحًا لي أن أخبرك».

«طلبوا من المحامي البقاء، ثم أخذوني إلى مقر رئيس الدولة «جورجيوس بابادبولوس»، الذي سيطر على الحكومة بانقلاب قام به منذ سنتين، لم أكن قابلته من قبل».

«بادرته بالسؤال: يا سيادة الرئيس، هل من خطأ ارتكبته؟

- كلا.. كلا، لا توجد مشكلة، إذا أردت اللجوء، فسنمنحك ذلك، لقد أخبرتهم كي يضعوا على جواز سفرك ختم إقامة لمدة عام واحد، وإذا أردت أكثر من ذلك فليس هناك مشكلة، إنك الوحيد الذي خرجت من ليبيا، إن جميع الأخبار التي نسمعها عن ليبيا تصلنا عبر الإذاعة البريطانية، أريد أن أعرف الحقيقة، إن ليبيا مهمة جدًّا بالنسبة لنا، ملك ليبيا هنا في اليونان، إذا لم نعامله جيدًا، ثم عاد، فإننا سنخسر ليبيا، وإذا عاملناه جيدًا، ولم يعد، وبقي القذافي في السلطة، فإننا سنخسر ليبيا كذلك.. أريد أن أعرف».

«كان الملك في رحلة علاج في تركيا عندما استولى القذافي على الحكم، فأبحر من هناك إلى قرية تُدْعى «كمينا فورلا» على بحر مرمرة، سألني «جورجيوس بابادبولوس» إذا كان الملك يحظى بشعبية واسعة، فقلت له: إنه كذلك، وإن الناس يحبونه، فسألني إذا كنت أعتقد أن الملك سيعود إلى ليبيا، فأجبته إنه لن يعود، فتعجب من ذلك التناقض، فقلت: حقًّا إن شعبه يحبه، ولكن رجال الملك إدريس، الذين من حوله إذا استثنينا كبير تشريفاته المعتقل الآن.. فكلهم فاسدون وجبناء».

«أخبرته أن الشعب قد سَئِم الفاسدين والعصابات في الحكومة، وأن الشعب سيُرحِّب بالقذافي والضباط الجدد وإن دعاية عبد الناصر موجودة هناك ليبنوا عليها، وقد كان القذافي وأعوانه يهتفون لعبد الناصر عندما غادرت ليبيا».

«نظر إليَّ ثم قال: هذا يعني أن الملك لن يعود».

«وافقته في الرأي، ثم أصدر أوامره بالترتيبات اللازمة لمعونتي إذا ما احتجت مساعدة، سألته إذا كان باستطاعتي زيارة الملك».

«يا سيد يوسف، إنني لم أسمع شيئًا، أعاد ذلك مرتين، فشكرته كثيرًا ثم انصرفت، التقيت بعد ذلك بالمحامين وطاقم السفينة، ثم استأجرت أنا وغالب همت سيارة، وذهبنا لزيارة الملك إدريس، كان الوضع محزنًا جدًّا؛ رأينا الرجل مُسِنًّا وهزيلًا جدًّا، قبَّلت يده، وقلت له: أنا في خدمتك، أخبرني إذا كان بوسعي أن أفعل شيئًا، فقال: أعتقد أنني سأقضي بقية حياتي في مصر، لم يُرِد البقاء في اليونان؛ لأنهم إذا عاملوه كلاجئ فلن يقبل ذلك، وإذا ما عومل كملك، فالقذافي والمعارضة سيغضبون؛ لقد كان الوضع حسَّاسًا، كان رجلًا صالحًا لكنه محاط بأناس سيئين، باستثناء كبير تشريفاته الذي اعتقله الانقلابيون الجدد في طرابلس».

«بعد ذلك اللقاء، لم يسمع أحد بالملك في اليونان؛ إذ بقي حوالي عشرة أيام ثم غادر إلى مصر، ركبت أنا وغالب همت أول طائرة إلى فيينا، وكنت آنذاك مريضًا، لم أقوَ حتى على الوقوف».

إلا أن يوسف ندا أصبح على علم بقائمة عبد الناصر المؤلَّفة من ثمانين من أعدائه «الخطرين» المطلوب ترحيلهم من ليبيا إلى القاهرة؛ إنها قائمة أرسلها عبد الناصر إلى مساعده القذافي، الذي راوده الطموح كي يصبح قائدَ العالم العربي بديلًا عن دكتاتور مصر.

غادر يوسف طرابلس في التاسع من سبتمبر ١٩٦٩ مختبئًا، كما ذكرنا من قبل، وراء ثلاجة قبطان السفينة. في اليوم التالي وصلت قائمة «أخطر المطلوبين» من القاهرة، وعلى رأس قائمة المطلوب ترحيلهم الدكتور محمود أبو السعود، ثم يليه الاسم الثاني في القائمة يوسف ندا.

كان الدكتور محمود أبو السعود؛ الذي يعمل مستشارًا رئيسيًّا في المصرف المركزي ووزارة الاقتصاد أثناء حكم الملك إدريس، يقضي إجازة عندما حدث الانقلاب؛ إذ ذهب إلى أمريكا حيث ساعد في تنظيم جماعة الإخوان المسلمين وساهم في نشاط جمعية الطلاب المسلمين في أمريكا « Muslim Student Association (MSA) ».

كان يوسف لا يزال مختبئًا وراء الثلاجة عندما وصلت قائمة المطلوبين إلى طرابلس. تم ترحيل الآخرين، ومكثوا في السجن دون محاكمة سنين عددًا حتى وفاة عبد الناصر، ثم أَطلق سراحهم أنور السادات، وقد اختفى بعضهم.

خسر يوسف الملايين بما في ذلك شحنة الحديد (ونَدِم على ذلك قائلًا: منذ ذلك اليوم أصبحت دائمًا أقسم قراراتي إلى نصفين؛ متبعًا نصيحة فيتوريو حداد). بيد أنه بعزيمته الماضية، استطاع أن يُعيد تكوين نفسه بصورة رئيسية في أوربا متخذًا لنفسه مسكنًا في بلدية «كامبيوني» الإيطالية؛ التي تستقر هادئة ضمن المقاطعة السويسرية «تشينو»، والتي تفصلها عن إيطاليا بحيرة لوجانو والجبال البديعة التي تحيط بها، من ذلك المكان أنشأ مكاتب بعيدة وصلت إلى «إنديانابوليس» في أمريكا، و«جلاسجو» في إسكتلندا، ومكاتب أخرى كثيرة موزعة بين الرياض وليختنشتاين ولاجوس وفيينا.

ما كانت الأربع والعشرون ساعة في اليوم تكفيه ليتابع سير أعماله التجارية. لقد كان السبّاق والتاجر الصياد، ومحاورًا للعلاقات العامة، ومفاوضًا مرنًا وفطنًا، يدير شبكة علاقات معقدة في التجارة والسياسة والدين والنشاطات الاجتماعية، كانت علاقته بموظفيه رسمية وضمن مجال العمل، واحتاج يوسف لشخص يثق به ليس في أعماله فقط، بل في المجالات الأخرى أيضًا.

يجب أن يكون ذلك الشخص معروفًا لديه؛ مُسلِمًا ملتزمًا وجديرًا بالثقة ومهذبًا وقادرًا على أن يتصرف كماصٍّ للصدمات، اعتقد يوسف أن علي غالب همت يتمتع بجميع هذه الصفات؛ إنه رجل محب للسلم بين الرجل والآخر، والرجل والمرأة،

وليس فقط بين الأمم أو الفصائل. لقد قيل ذات مرة: لو أن أحدًا جذبه من سُترته، لخلعها وقدمها له.

التقى يوسف ندا بغالب همت أول مرة قبل عشر سنوات في مخيم إسلامي في ميونيخ أثناء عطلة ميلاد المسيح.

«طلبت منه المجيء إلى فيينا، وفاجأته بعرض كي يعمل معي شريكًا، فقال: ليس لديَّ نقود ولا خبرة ولا معرفة. قلت له: إنك لا تحتاج للنقود، وأنا سأدربك، أما الخبرة فستأتي مع الوقت. أخبرته: ستكون نائبًا ومساعدًا لي أثناء حضوري وغيابي، وستكون مسئولًا عن المكتب الخلفي، وستسافر معي إذا اقتضى الأمر أو بمفردك إلى الأماكن التي لا أستطيع السفر إليها، سأعتبرك أخًا أصغر لي وليس شريكًا في أعمالي فحسب».

«عرضت عليه خمسين بالمئة من الأرباح، فلم يكن أمامه فرصة للرفض، ولم يكن لديَّ وقت للتفاوض، لم نكتب شيئًا، ولكن الاتفاق تم، واستمر لأربعين عامًا حتى أزال مجلس الأمن الدولي اسمينا من القائمة، فأخذ كل منا خمسين بالمئة من الأصول والممتلكات المتبقية من أعمالنا المشتركة، ورغم انتهاء شراكة العمل، ما زلنا أسرة واحدة، وما زال هو أخي الأصغر وأسرته هي أسرتي. لقد كان غالب همت الموتور الصامت، الذي أزوده بوقود من الأفكار. فما إن ينتهي من عمل، حتى أكلفه بعمل آخر لا يقل أهمية عن سابقه. كان غالب عملاقًا بأدبه وثابتًا في إخلاصه ومتشبثا بمُثله العليا وملتزمًا بدينه في تواضع صوفي، ولا يعني هذا أنه كان ملاكًا لا يخطئ، ولكن سمو مقوماته كانت تتعدى الطلاسم التي يُخفيها صمته».

من فيينا، أعاد يوسف ندا تجميع موارده، ثم نهض مرة أخرى وازدهرت أعماله من جديد، كانت دول النفط الغنية - مثل السعودية والكويت وشمال إفريقيا ونيجيريا - تنهض عمرانيًّا في ذلك الوقت، وبفضل صوامع الأسمنت العائمة وأسطوله البحري استطاع بسهولة أن ينقل مواد البناء من أوربا إلى الشرق الأوسط وإفريقيا، فما كان لأحد أن ينافس يوسف ندا؛ إذ حافظ على لقبه «ملك الأسمنت» في حوض

البحر الأبيض المتوسط. كان بمقدوره نقل كميات كبيرة في أكياس أو سائبة حسب حاجة السوق، لقد سيطر على السوق بفضل أسطول الشحن الذي كان ينقل كميات الأسمنت المعبأة وغير المعبأة من اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا وروسيا وإيطاليا وإسبانيا وتركيا.. بل وألمانيا.

خلال ثلاث سنوات أعقبت هروبه من ليبيا أصبح يتاجر في سبعة ملايين طن من الأسمنت سنويًّا، ويشحن كمية موازية من الحديد. خسر يوسف عشرات الملايين من الدولارات نتيجة لانقلاب القذافي، ولكنه عاد ليصبح أكثر قوةً وأرفع مكانةً في مجال التجارة والصناعة الدولية. في عام ١٩٧٤ أسس شركة ندا الدولية في الرياض بالمملكة العربية السعودية؛ حيث أصبحت له بعد بضع سنوات علاقات مع الملك فهد ومستشاريه. حتى أثناء ولاية عهده للملك خالد حيث كان يُدير المُلك كملك غير مُتوّج.

قبل تشغيل صوامعه العائمة، كانت الحاجة لمادة الأسمنت مُلِحّة جدًّا بسبب طفرة البناء؛ فكانت تفرغ بواخر الأسمنت بواسطة الحوامات في ميناء جدة، تضاعفت صفقاته التجارية وثروته وتنوعت، وكذلك أدواره في جماعة الإخوان المسلمين المحظورة من قِبل عبد الناصر رغم ممارسته للسياسة في الخفاء.

بموت عبد الناصر عام ١٩٧٠ نتيجة أزمة قلبية أصبح نائبه أنور السادات؛ الذي كان تابعًا خاضعًا لعبد الناصر، رئيسًا على مصر. اعتقدَتْ مجموعة العسكريين الأقوياء المحيطين بعبد الناصر أنهم يستطيعون إخضاع أنور السادات لإرادتهم، ويقول يوسف عن السادات: «إنه كان مخلصًا لعبد الناصر، ولكنه ضعيف لا يهتم إلا بمصالحه ومُتَعه الشخصية، استولى الضباط الآخرون على الأمر، وثبّتوا السادات معتقدين أنهم يستطيعون احتواءه، لكنه كان أكثر ذكاءً منهم، فوضعهم جميعًا في السجن، وأصبح عليه أن يحمي ظهره».

«رغم اضطهاد السادات لجماعة الإخوان المسلمين بأوامر من عبد الناصر، إلا أنه أمر بإطلاق سراح الإخوان من السجون، وقال إن المُبْعَدين يستطيعون العودة ثانية دون أن يمسهم أذى، فعاد كثير من الإخوان، بعد أن كان أغلبهم يعيشون في دول

عربية وإسـلامية، ورغم ما كان لديَّ من مكاتب في كثير من هذه الدول، بما في ذلك القاهرة، فلم أكن أعيش في أي بلد عربي، وقد رفضت العودة».

في عام ١٩٧٤ مع صعود نجم يوسـف ندا، انتقل من مسـكنه صاعدًا الهضاب في طريق متعرج خارج «كمبيوني» الإيطالية ليقيم في «فيلا ندا» الرائعة على سـفح جبل، والتـي تطل علـى البحيرات بمنظرهـا الخـلاب، كان أيضًا قد تزوج مؤخـرًا من آمال الشيشـكلي من مدينة حماة السـورية، ورغم اعتراضه على بعـض مفاهيم وتصرفات أهـل التصوف إلا أن ما أغـراه بزواجها هو اعتدال صوفيتها ووضوح رؤيتها للصواب والخطـأ والحلال والحرام، وإلمامهـا بالفقه والتزامها به وحفظها لثلث القرآن؛ وهذه الصفات بالذات اكتسبتها من علاقتها بالسيدة الفاضلة منيرة القبيسي التي تُعتبر دعامة الحركة النسائية الإسلامية في سوريا؛ والتي كان لها الفضل في إنقاذ عشرات الآلاف من نسـاء سـوريا من الانحراف الخُلقي والديني، ولها مُريدات في بلاد كثيرة أخرى، ويُكِنُّ يوسف لمنيرة القبيسي الكثيرَ من التقدير والاحترام.

سـرعة تسـارع الأحداث في حياة يوسـف ندا لم تمنعه من تسـطير مشـاعره تجاه زوجته ومشـاعرها تجاهه بالصعود والهبوط كسُـنَّة الحياة رغـم الرضا والمحبة، ولم يكن قبلها ولا بعدها يقرض الشـعر ولكنه أهداها قصيدة، ولذلك خرجت ركيكة غير موزونة، وكلما غضبت أعادها على مسامعها فتغير الجوّ وعاد الوئام:

قامـت فـي الليـل داعيـةً وتركـت مَـن يداعبُهـا
فتوجهتُ إلى ربي احتسـابًا ورضاء.. بل أُشجّعُها
أجهـر بآمـال.. أناديهـا وأصواتـي لا تُشَـنِّفها
تسـمعها أوامر فظٍّ غليظٍ والأوامر تُحـرِّك تمرُّدَها
تراهـا قيـودًا وكلُّ قيـودي تريـد أن تُكَسِّـرَها
لها لسـانٌ ولا عقـلَ لها.. والقلبُ شـيء يُشـرِّفها
لهـا ديـن قلـب وسـماحة وليـس مَـن يُضَارِعهـا

رجـوتُ عطفهـا فأعرَضَـتْ عنـي بـكُلِّ قَسْـوَتها
تعـود تئوب كطائـر وديع وترضيني من سـماحتها
حلوُهـا مـرٌّ لا يـدوم.. مسـكين مَـن تزوَّجهـا
إن تلطفتُ استضعفتني وتجبَّرت فلا بد أن أزجرها
وإن قسـوت ضعفَتْ وبَكَـتْ فأضطر أن أُهدْهِدها
وقَبَعـتُ وحـدي مُهْمَـلًا أخْشَـى مِـن تَصَلُّبهـا
وقـرَّرت أن أرضـى؛ فـلا أسـتطيع أن أُغيّرهـا
هـي آمـال.. وآمالـي هـي.. وعلـيَّ أن ألاطفهـا

وكان والـد آمـال؛ صلاح الدين الشيشـكلي، ضابطًـا في الجيش ورجلًا سياسـيًّا وقوميًّا عربيًّا، وفي عام ١٩٥٣ أصبح عمها أديب الشيشكلي رئيسًا لسوريا إثر انقلاب عسـكري، بعـد فترة قصيـرة من عام ١٩٥٥ أطـاح به انقلاب آخر مدعـوم من العراق اشترك فيه البعثيون والشيوعيون السوريون والحزب الدُّرزي (أهل التوحيد).

كان أديب الشيشـكلي يتمتع بدعـم كبير من الجيش والحكومة، لكن تجنبًا لسـفك الدماء في شـوارع دمشـق عندما تحدى الانقلابيون سـلطته، تجنب المواجهة، ونفى نفسه مدة أربع سنوات إلى سويسرا. وهناك جاءه من يحذره من خطة مدبرة لاغتياله، فغادر سويسرا إلى البرازيل؛ حيث اشترى مزرعة وسوَّى أرضها، إلا أنه لم يجد مهربًا من القتل؛ ففي ٢٧ من سـبتمبر عـام ١٩٦٤ قتله «نواف غزالة» عضو الحزب الدُّرزي السوري في «سرس» في البرازيل.

لم تكن عروس يوسف غريبة إذن عن السياسات المضطربة، ولكن كان عليها في البـدء التعامل مع موضوع حسـاس؛ ألا وهو دبلوماسـية الضيافة، لـم يمر عليهما في منزلهمـا في «كامبيوني» أكثر من أسـبوع واحد عندما أعلن زوجها أن بعض الضيوف سيحضرون إلى العشاء. كم عددهم؟ ربما حوالي مئة وعشرين.

لم تعتد آمال الشيشكلي على مثل هذه الأعداد، رغم ثقتها وقوة شخصيتها وطباعها الاجتماعية. كان لدى زوجها فريق من الخدم والطباخين والمساعدين في المنزل، ومن فندق «أوليفيلا» المجاور ذي الخمسة نجوم في قرية «موركوت»، والذي زود المنزل بطعام إضافي، وبعض خدم الضيافة.

أقام يوسف ندا تلك الوليمة ليُرحِّب بجمع من المفكرين المسلمين من جميع أنحاء العالم من بينهم يوسف القرضاوي وإسماعيل الفاروقي ومحمود أبو السعود ومحمد المبارك وخورشيد أحمد وأحمد العسال وعبد الحميد أبو سليمان، وثلاثة من مديري شركات ندا الدولية في الرياض «هشام الطالب وجمال برزنجي ومحمد شمة»، وآخرون كثيرون.

لقد تردد كثيرًا لسنين عديدة أن هدفهم كان تأسيس المعهد الدولي للفكر الإسلامي، ولكن يوسف؛ مضيف ذلك المؤتمر، يؤكد أمرًا مختلفًا؛ فلم يكن ذلك المؤتمر لأجل تأسيس المعهد الدولي للفكر الإسلامي، ولكن كان لقاءً يضم مجموعة من الملتزمين بالإسلام كي يتحدوا بتوجّهاتهم ويحاولوا توحيد المفاهيم الإسلامية، لا يمكن نشر الدين بالسيف، في بداية ظهور الإسلام لم يكن هدف الحروب فرض الإسلام على مَن لم يقبله، ولكنها استهدفت من حاولوا إيقاف نشر الدعوة.

«ينبغي عليك الوصول إلى أذهان الناس كي تقنعهم بأفكارك وبما تريد، صحيح أن أولئك الذين حضروا في بيتي ذلك الاجتماع ينتمون لبلدان مختلفة، ويتبعون طرق تفكير مختلفة، لكن جميعهم كانوا مرتبطين بطريقة أو بأخرى بفكر جماعة الإخوان المسلمين: لم يريدوا قتالًا، ورفضوا طريق العنف».

لقد بدأت جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وحتى وقتنا هذا نجد أن جميع الحكومات، التي تولت السلطة في مصر، استهدفت الجماعة؛ فسجنتهم، وصادرتهم، واعتقلتهم، وأوقفت نشاطاتهم. لقد اتَّخذت جميع الإجراءات، التي من شأنها أن تشلهم، ولكنهم كمنظمة قبلوا أن يحملوا على أكتافهم جميع المتاعب دون أن يقابِلوا ذلك بالعنف، صحيح أن واحدًا أو اثنين أو عشرة أشخاص على أكثر تقدير قد خرجوا

عن الخط واستخدموا العنف، لكن لم تكن المنظمة هي التي فعلت ذلك، بل كانوا أفرادًا بذواتهم قد خرجوا عن الخط وتصرفوا على نحو مستقل».

«أيمن محمد ربيع الظواهري؛ الرجل الثاني بعد أسامة بن لادن، كان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين، ولكن عندما حاول إقناع الآخرين بأن العنف هو السبيل، وضعوا جدارًا بينهم وبينه مما جعل أيمن الظواهري يهاجم الإخوان المسلمين ويعتبرهم كفارًا».

«لقد انشق وشكَّل جماعته العنيفة، إلا أنه لم يستطع أبدًا إقناع الإخوان المسلمين بالالتحاق به؛ إذ اعتبروه شخصًا غير ناضج، لقد ذهب وحيدًا وفعل ما أراد مع المجموعة التي شكَّلها، لم تستطع جماعة الإخوان المسلمين إيقافه، ولم تستطع الحكومة منعه، فكيف لنا أن نفعل ذلك؟!».

«حتى قبل مصرع بن لادن كانت القاعدة تتألف فقط من الظواهري وقليل من المحيطين به لا أكثر، في رأيي أن عدد أعضاء القاعدة في عام ٢٠١٢ لا يتجاوز مئة شخص؛ إنهم لا شيء، ولا يستطيعون فعل شيء، إنهم ظلال فحسب، ولكن حتى الظلال تخيف أحيانًا».

«لقد أوجدت أمريكا شبحًا، ثم ضخَّمته جدًا لدرجة أن الخوف ذاته اشتد أيضًا، الإرهاب موجود في العالم منذ زمن ابنَيْ آدم، هل ينبغي للحياة كلها أن تتغير بسبب حفنة من المجانين؟!».

لقد كان هذا العالم عنيفًا في الماضي وما زال، ويوسف ندا تعلم اتخاذ الاحتياطات اللازمة، كان دائمَ السفر والتنقل، وكلما سافر عرف غالب همت وفريق العاملين بتحركاته، كما كانوا يتابعونه، وغالبًا ما كان يأخذ تأشيرة دخول البلد منفصلة عن جواز سفره، حتى لا تظهر على الجواز أختام تضر بمصالحه يومًا ما.

«كان لدينا نظام تدقيق وإعادة تدقيق، فكلما ذهبت إلى أي مكان، كنت أتصل بهم هاتفيًا فيعيدون الاتصال بي كي يتأكدوا أن الاتصال لم يكن تحت التهديد، وأنني في المكان الذي أخبرتهم بأنني أهاتفهم منه، ثم كانوا يعاودون الاتصال بي للتأكد من

سلامتي، كنت دائمًا أفعل ذلك لأنني غالبًا ما أكون بصحبة أناس مستهدفين بالقنابل أو بالرصاص أو بكليهما معًا، فربما كنت متضررًا بريئًا ولست الضحية المستهدفة».

عندما تنقل يوسف ندا في عواصم الشرق الأوسط في أوائل السبعينيات من القرن العشرين، قال إنه قد اكتشف مجتمعًا نزيهًا للغاية.

«بينما كنت ذاهبًا إلى شركتي في الرياض، طلب مني بعض مكاتبي هناك أن أُحضر معي نصف مليون دولار لسداد نفقاته، كان حملُ النقود أمرًا مألوفًا وغير ممنوع. وضعت النقود في حقيبة وذهبت إلى المكتب، وبعد حوالي أربع ساعات سألوني عن النقود، فلم أجدها. ظننت أنني تركتها عند مكتب استقبال الفندق، فاتصلت بهم فقالوا لي إن سائق سيارة أجرة قد أحضر حقيبة مليئة بالنقود قائلًا إنها حقيبتي وإنني قد تركتها في سيارته. ورغم معرفة سائق السيارة أن المبلغ كان كبيرًا جدًّا، إلا أنه أحضر الحقيبة وسلمها لموظفي مكتب الاستقبال في الفندق وهم بدورهم عرفوا أيضًا أن المبلغ كبير جدًّا، لكن لم يمسه أحد منهم. ذهبت إلى الاستقبال وفتحت الحقيبة ووجدت أن المبلغ لم ينقص دولارًا واحدًا، بعد ذلك وجدت سائق سيارة الأجرة وأردت مكافأته، ولكنه رفض أن يأخذ أي شيء، وقال لي: لا أستطيع أن آخذ نقودًا كي أثبت أنني أمين، وأنا لا آخذ نقودًا ليست لي، إن واجبي أن أَرُدَّها لمالكها، وإلا أصبحت لصًّا. حاولت جاهدًا، ولكن الرجل لم يأخذ شيئًا».

«في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي كان لديَّ في الرياض بالمملكة العربية السعودية مصنع لخلط خرسانة الأسمنت، وكانت به خزينة لحفظ الأموال مبنية بالخرسانة في الحائط، وذات يوم حضر العاملون ففوجئوا باختفاء الخزينة بأكملها من مكانها الحصين، فالتغيير كان قد بدأ يعتري المجتمع».

في منتصف السبعينيات قام حسب الله الكفراوي وزير الإسكان والتعمير المصري ووفد من وزارته بزيارة يوسف ندا في سويسرا محاولًا إقناعه بمساعدة بلده. كان الأسمنت يُباع في السوق السوداء بعشرة أضعاف سعره الحقيقي، فأرادت الحكومة أن تجد حلًّا. كان رئيس الوزارة آنذاك ممدوح سالم الذي أشرف على اعتقال يوسف الشاب في الإسكندرية؛ وذلك أثناء عمله كضابط في الأمن. أكد له

حسب الله الكفراوي أنه ليست هناك أي مشكلة تعوقه عن العودة إلى وطنه: لقد عاد إلى الوطن جميعُ أعضاء الإخوان المسلمين من جميع أنحاء العالم.

لم يقتنع يوسف ندا، ولكنه احتفظ برأيه لنفسه، كان يعلم أنه ما لم تَسْرِ جميع الترتيبات بسهولة تامة، فإنه لن يورط نفسه في أي مشروع. طلب أن يكون له مَرْسًى في ميناء السويس كي ترسو فيه إحدى صوامعه العائمة لتوريد الأسمنت، كما طلب التصريح له بجلب مئة عربة قطار خاصة لنقل الأسمنت من أسطوله السويسري. لقد أعطت السلطات مَرْسَى الميناء لمواطن إسرائيلي يدعى «سليمان بن ناتان»، ولم يوضح أحدٌ أسباب هذا القرار، في الوقت ذاته اتصل بيوسف الأميرُ محمد الفيصل؛ نجل الملك فيصل ملك السعودية الذي كان قد اغْتِيل قبل ذلك بقليل، لأنه يريد أن يؤسس مصرفًا في مصر.

وكانت علاقات الأمير بالسادات طيبة، فحصل على ترخيص لإنشاء مصرف فيصل الإسلامي، ويضيف يوسف ندا قائلًا: «بالإضافة إلى مؤثرات أخرى، فكمال أدهم رئيس الاستخبارات السعودية كان صهر الملك، وكان على علاقة متينة بالإدارة الأمريكية والاستخبارات الأمريكية. وزارة الأوقاف المصرية اقترحت أن يَصْدُر الترخيص للمصرف الإسلامي بحيث يكون نصفُ رأس ماله مصريًّا، والنصف الآخر من الدول الإسلامية الأخرى».

«قال لي الأمير محمد الفيصل: لا أريد أن يُملي عليَّ الآخرون شيئًا يخالف أحكام الإسلام، إنني أحتاج أن يكون معي من بين مالكي أسهم النصف المصري شخص أستطيع الوثوق فيه، ملتزم بمبادئ الإسلام من أهل هذا البلد، إنني أحتاجك هناك. يجب أن تشارك في المصرف وتشتري بعض الأسهم.

قلت له: إنني لن أذهب إلى مصر؛ ففي عام ١٩٦٦ حكموا عليَّ بالسجن عشر سنوات غيابيًّا، كنت بريئًا، ولكنني مستهدف. قال الأمير: الآن لا توجد مشكلة، ولدينا علاقات جيدة مع السادات، نستطيع أن نرتب لذلك».

«رفضت، ولكنه ألَحَّ. قال إن اجتماع توزيع الأسهم ينبغي أن يكون في مصر، ودون أن أخبر أحدًا ذهبت إلى القاهرة في نهاية عام ١٩٧٧. كان على غالب همت

وموظفي مكتبي أن يراقبوا تحركاتي، أخذت جواز سفري التونسي وليس المصري، ووصلت في الساعة الثامنة مساءً، فأبقوني في المطار حتى الساعة الثانية صباحًا، ومن وقت إلى آخر كان أحد الضباط يدخل عليَّ، ثم يختفي بعدها. أخذوا جواز سفري إلى المباحث العامة ثم المخابرات الحربية، وفي نهاية المطاف جاءني ضابط مطار ذو رتبة عالية، وقال: يا سيد يوسف، يجب عليك أن تحل المسألة مع السلطات العليا. إننا خدم، ونحن ننفذ الأوامر».

«سمحوا لي بدخول البلاد، فذهبت إلى الفندق في الساعات الأولى من الصباح. هاتفت حسب الله الكفراوي، وقلت له إنني سأرحل اليوم، أخبرته بما حدث، فطلب مني أن أنتظره، حضر إليَّ خلال نصف ساعة. بارك الله فيه.. لقد كان لطيفًا ومهذبًا جدًّا معي».

«بعد خمس عشرة دقيقة، اتصل بي وزير الداخلية النبوي إسماعيل؛ الذي كان أيضا نائب رئيس الوزراء: يوسف، لقد سمعت بالقصة، هذا مستحيل، إن البلاد ليست كما كانت من قبل، إنها منفتحة، ونحن نحتاج لأبنائنا، إننا نحتاج للمصريين كي يأتوا من كل مكان، لقد كان ذلك خطأً، ربما خطأ من المخابرات الحربية، لكن يجب أن نلتقي».

«قلت له: أنا آسف يا معالي النائب، سواءً كانوا ضباطًا صغارًا أم كبارًا فالأمر قد حدث، وهذا يعني أن هناك شيئًا خطأً، ويجب أن أغادر اليوم. حضر الوزير بعد نصف ساعة، وقلت له: أعلم أنك قد فعلت أشياء كثيرة طيبة لهذا البلد، وأنك تبذل قُصارى جهدك لي وللآخرين، وأنا أُثَمِّن ذلك، ولكن ما عساي أن أقول بعدما حدث لي؟ إنني أفهمك وأصدقك، لكن لا بد أن هناك أطرافًا وقُوى أخرى تتدخل في هذه اللعبة».

«قال: ربما كان ذلك من الماحي (كان الماحي رئيس المخابرات الحربية)، ولو أردت أن أعتقلك الآن لما استطعت».

«قلت: بالطبع تستطيع، فهذا واضح أمامي كل الوضوح».

«قال: ما كنت لأخبرك بذلك ما لم يكن حقيقيًّا، هناك أيضا خطأ من ناحيتك، فشخص في مكانتك ينبغي عليه أن يبلغنا بقدومه كي يتم استقباله في صالة كبار الزوار».

«قلت: إنني أصدقك، ولكن ما يحدث من جانبك أو من أي طرف آخر هو الحقيقة بالنسبة لي، وأنا أردت رؤية الحقيقة».

«في اليوم ذاته، دعاني حسب الله الكفراوي إلى الغداء مع النبوي إسماعيل وأربعة من أكبر رجالات الأعمال في مصر حينذاك: عثمان أحمد عثمان وأخوه حسين عثمان والحاج حلمي عبد المجيد وعبد العظيم لقمة، وكانوا جميعهم أصدقاءَ لي كذلك، لقد أخبروني أن كل شيء في البلاد قد تغير تغييرًا جذريًّا، وأنها حقبة جديدة، وكلهم أرادوا مني البقاء، فكرت مليًّا، وقلت: شكرًا جزيلًا. ثم مكثت أسبوعًا واحدًا».

المرة الأخرى التي ذهب فيها يوسف إلى مصر، صاحَبَتْه فيها زوجته، وكانت الزيارة لإتمام اختيار أعضاء مجلس إدارة مصرف فيصل الإسلامي، كان ينبغي أن تحصل وزارة الأوقاف المصرية على العدد الأكبر من الأسهم المصرية، وحصل يوسف على ثاني أكبر عدد من تلك الأسهم، وقد تم انتخابه عضوًا لأول مجلس إدارة للمصرف.

وعن تلك الزيارة، يقول يوسف: «لقد وضعوا تحت تصرفي سيارة بسائقها ومثل ذلك لزوجتي، وبينما كنت في أحد الاجتماعات، عادت زوجتي إلى الفندق، وطلبت مفتاح الغرفة، فلم يكن موجودًا على اللوحة، فاعتقدَتْ أنني في الغرفة، ولكن عندما ذهبتْ إلى هناك صادفَتْ ثلاثة رجال يخرجون من الغرفة. وقيل لي بعدها إن أولئك الرجال ربما كانوا من المخابرات الحربية، أو من جهاز أمني آخر. قلت: ليس مهمًّا من أي جهاز أتوا، فالنتيجة واحدة. إنهم إذا فعلوا ذلك مرةً، فبوسعهم أن يفعلوه ثانية وثالثة».

حضر يوسف ندا أول اجتماع لمجلس إدارة مصرف فيصل الإسلامي في مصر مع الأمير محمد الفيصل، لكنه استقال من مجلس الإدارة مبقيًا على أسهمه. «كان

لـي أصدقاء يعملون في المصـرف، وكذلك رئيس المصرف والمؤسـس، ولأنه كان مصرفًا إسلاميًّا فكان بين العاملين فيه عدد من جماعة الإخوان المسلمين».

«أما بالنسـبة لمصر، فقد غادرتها ولم أعد إليها؛ إذ لا أسـتطيع أن أنسـى ما حدث لي، إنني لا أستطيع محو ذلك كما تزيل الممحاة كتابة القلم الرصاص، فبعد ما عانيته في السجن الحربي، ما كنت لأغامر كي ينتهي الأمر بي في المعتقل».

...إلا أن ذلك لم يمنعه من تعريض نفسه للخطر.

الفصل الرابع

موكب الشاه الأخير

«يفتشون عنه هنا
يفتشون عنه هناك
هل هو في الجنة؟
أم هو في النار؟
يا له من مراوغ لعين».

زهرة حنك السبع القرمزية، البارونة إيموسكا أورزي، ١٩٠٣

من أوائل المهمات التي أُلقيت على عاتق يوسف ندا باعتباره موفدًا دبلوماسيًّا ومفاوضًا من قِبَل الإخوان المسلمين كانت مهمته مع واحدة من أهم حوادث القرن العشرين؛ الثورة الإيرانية، وعودة آية الله السيد روح الله موسوي خميني، وتصاعد الانبهار الواسع من الغرب مصطحبًا بالخوف من الإسلام في جميع جوانبه؛ سياساته وروحانياته.

قبل وصول خميني، ربما كان المراقب الغربي العادي لا يرى في العالم الإسلامي سوى «البترول والإرهابيين»، والمشكلات الدائرة في فلسطين. وقليل من كان يعرف الفرق بين السنة والشيعة – فكلتا الجماعتين المسلمتين كانتا تعنيان نفس الشيء عند معظم الأشخاص في الغرب.

لكن يوسف ندا يُصر على أن وجود الجماعتين استُخدم قرونًا من الزمان كأداة لسياسة «فرِّق تَسُد» خدمةً للمصالح الاستعمارية، كلٌّ من الفريقين له تفسيره لتراث

النبـي محمـد ﷺ - مثلمـا أن العلماء والفقهاء يسـتنبطون تفسـيرات مختلفـة لتعاليم الإسـلام، وكما نرى عادة يلوي البعض أعناق الكلمات لتعزيز مبادئهم أو سياساتهم، وليسـت رؤيـة الجمـال وحدهـا التـي تختلف باختـلاف الرائـي، ولكن الديـن أيضًا حَمّال أوجه.

عندما تُوفّي محمد ﷺ عام ٦٣٢ م، أصبحت قيادة الأمة موضع تسـاؤل، لـم يترك الرسول أبناء يَرِثُونه، فقد تُوفّي أبناؤه الثلاثة في طفولتهم، كما أنه لم يحدد اسم خَلَفِه ولم يترك وصية مكتوبة، وهذه مشـكلة دائمة؛ فأهل السـنة (أي متبعو سـنة الرسـول: أقوالـه وأفعالـه وإقراراتـه) يقولـون إن الصحابة المقربين قـد اختاروا أبـا بكر رضي اللـه عنه ليكون الخليفة؛ أي إمام المسـلمين بعد النبي. وفي الوقت ذاته يُصر الشـيعة (أو «شـيعة علي»؛ أي: أنصاره) على أن عليًّا لم يكن موجـودًا عندما اختار الصحابةُ، ويقولـون إن النبـي قال إن ابن عمـه وزوج ابنته عليَّ بن أبي طالـب رضي الله عنه هو الإمام من بعده.

وكانـت الغَلَبـة للسُّـنة، وأصبـح الشـيعة يخالفـون القسـم الأكبر من المسـلمين، والإمامـة لدى الشـيعة أصل من أصـول الدين، فعلى الرغم مـن أن الأئمة لا يملكون تغيير نص القرآن لأنه وحي من عند الله، إلا أنهم يستطيعون تأويله لما أُوتوه من علم خاص بهم، لم يقبل علي بن أبي طالب نفسـه بانقسـام المسلمين وتعاون مع الخلفاء الثلاثـة الأوائـل أبي بكـر وعمر وعثمان وبايـع كلًّا منهم وكان رابعًا لهم، أما أشـياعه فيعتقدون بعصمة الأئمة من نسله وبأن الثلاثة اغتصبوا الولاية منه.

كان آية الله «العظمى» خميني مرجعًا شيعيًّا كبيرًا، وأغلبية مواطنيه الإيرانيين شيعة كذلك، ويرى الإيرانيون أن مذهبهم يَسمح لهم دينيًّا وسياسيًّا بالتميز عن أغلبية الأمة من السُّنة.

وعندمـا كان خمينـي منفيًّا إلى تركيا ثـم إلى العراق في سـبعينيات القرن الماضي اشـتدت إدانتـه للشـاه محمد رضـا بهلوي؛ شـاه إيران، ذي الشـعر الكثيـف المرتفع فـي مقدمـة رأسـه. وكان يهاجمـه هجومًـا لاذعًا، واصفًـا إيـاه بعبد الـدولار. كانت

الاستخبارات البريطانية وحدها التي واكبت سرعة التغير في الشرق الأوسط آنذاك، ورأت المشاكل القريبة من الغليان.

أما الـ«سي آي إيه» الأمريكية فظنت أنها قد وضعت الشاه «داخل جيبها» في أمان، وأن آية الله شخصية بلهاء خفيفة الوزن، يمكن تجاهلها، أما وزارة الخارجية البريطانية وعيونها فقد اعتبروا آية الله خميني شخصية قد تُغير العالم وليس ذلك المجنون الأهوج حسب التعريف الذي نعتته به واشنطن. في عام ١٩٧٨ طردت العراق آية الله خميني، ولم تُرد الكويت استضافته، لكن فرنسا سمحت له بالدخول الحر إلى أراضيها بعد أن وافق الشاه للرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان» على ذلك.

كانت إقامة خميني في فرنسا سابقة على بزوغ عصر التواصل الاجتماعي عبر الشبكة العنكبوتية الكونية (الإنترنت)، لكن انتشار أشرطة التسجيل «الكاسيت»، في ذلك الحين ساعد على قيام الثورة الإيرانية، وبدلًا من الاسترخاء في هدوء في فرنسا كان آية الله خميني على اتصال هاتفي مباشر مع طهران: كان يُمْلي خُطَبه مباشرة داخل البلاد حيث تُسجل على شرائط الكاسيت وتوزع في كل مكان. ونشرت الصحف الغربية صور خميني وكلامه، وكذلك فعلتْ هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي»؛ كانت علاقاته العامة رائعة.

كان خميني في نظر الكثيرين رجلًا ممتازًا، بينما رأوا في الشاه قائدًا مغرورًا فاسدًا قُدّر له أن يكون آخِر الحكام في ملكية استمرت ٢٥٠٠ عام. زادت علمانية الشاه وبرامجه من أجل العصرنة وسلوكه الملوكي من غضب ملالي الشيعة إزاءه، وامتلأت سجون الشاه بالسجناء السياسيين، وفي نهاية المطاف اضطر الشاه في يناير ١٩٧٩ إلى التوجه إلى المنفى نتيجة الاضطرابات والثورة الكبيرة في بلاده، وأشاع مؤيدوه أنه ذهب في إجازة، لكنه لم يعد أبدًا.

كان الإخوان المسلمون يرصدون كل خطوة في نشوء الثورة الإيرانية، كان خميني يقيم بقرية «نوفشاتيل سيور آسن» الفرنسية في منزل ريفي يملكه مؤيده العتيد أبو الحسن بني صدر الذي كان مرتبطًا بمجموعة من المساعدين أمثال إبراهيم يزدي الذي كان منفيًّا إلى أمريكا حيث عمل مع تجمع الإخوان المسلمين، واحتفظ أضرابه

من المفكرين بصلات مع الإخوان ومع يوسف ندا، ومن بين هؤلاء العالم مصطفى شمران والمفكر الكبير علي شريعتي ومساعد خميني وموضع ثقته آنذاك صادق قطب زاده.

ويبين يوسف أن «هذه المجموعة كانت في بلدان إسلامية كثيرة، وكانوا على صلة بنا وبإخواننا في الجامعات الأمريكية والأوربية أيام الشاه، كنا نعتبر الشاه ضد الإسلام، لقد ساعدهم الإخوان عندما قامت المظاهرات ضد الشاه الذي كان يبيع بلده وبترولها إلى الغرب، أصبح وضع الشاه حَرِجًا للغاية، وكان خميني يستعد للعودة، وتحدثت وسائل الإعلام في كل مكان عما عساه يحدث. كانت إيران كلها على ما يبدو قد نزلت إلى شوارع طهران (بعض التقارير ذكرت أن ستة ملايين ملئوا شوارع العاصمة). وتخلت بعض وحدات الجيش عن الزي الرسمي وانضمت إلى الناس، كان الجميع يهتفون للإسلام، وتوقع الإخوان ظهور دولة مسلمة ترث الشاه، وأن الغلبة فيها للإسلام».

ومع اقتراب موعد عودة خميني، رتب يوسف ندا زيارة يقوم بها وفد من الإخوان إلى «نوفشاتيل»، وهناك رحب بهم خميني وردوا التحية بالثناء عليه، وشاركهم هذا الثناء الإخوان من دول كثيرة أخرى ممن اتصلوا بخميني لعدة سنوات تلت.

وعندما عاد خميني بالطائرة إلى بلاده في فبراير ١٩٧٩، شكَّل الإخوان وفدًا آخر لتهنئته ضم ممثلين عن الحركات الإسلامية في إندونيسيا والباكستان ومصر والأردن والمملكة العربية السعودية والعراق وتركيا وماليزيا وسوريا. يقول يوسف: «اعتقدنا أننا نُرضي الله بتأييدنا للثورة، وكنا نعتبر أي حركة في العالم ترفع الظلم عن كاهل المسلمين هي حركتنا».

في مارس ١٩٧٩ أصبحت إيران جمهورية إسلامية، وفي نوفمبر أصبح خميني مرشدها الأعلى، أما أبو الحسن بني صدر، المنفيّ الذي اعتبره نظام الشاه خارجًا على القانون، فأصبح أول رئيس لإيران.

احتفظت أمريكا بعلاقاتها الدبلوماسية مع النظام الجديد في إيران – لكنها لم تَدُم طويلًا؛ ففي ٤ من نوفمبر غَضِبَ الطلاب الإيرانيون الأصوليون من السماح للشاه

بدخول أمريكا للعلاج من السرطان، واعتقدوا أن هذه خطوة أولى من الرئيس «جيمي كارتر» لإعادة الشاه إلى الحكم، فاستولوا على مجمع مباني السفارة الأمريكية في طهران، وأوجدت الأزمة التي أعقبت هذا العمل الطلابي حالة تشبه الحرب، ودمرت رئاسة كارتر، وبدأت حالة من العداء المتواصل - ظلت تتفاقم حتى وصلت إلى مستوى المواجهة النووية الملتهبة بين أمريكا وإيران في عام ٢٠١٢.

والسبب الخفي وراء هذه الأحداث يكمن في تأييد أمريكا لحكومة الشاه على المدى الطويل. حكم الشاه إيران من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٧٩، تخللتها فترة قصيرة من المنفى عام ١٩٥٣، عندما فر الشاه إلى إيطاليا نتيجة صراع على السلطة بينه وبين رئيس الوزراء محمد مصدق، ولأن سياسات مصدق وتصريحاته أثارت المخاوف حول البترول الإيراني، وأسعار الوقود، بل وربما النفوذ السوفيتي في إيران، فإن الاستخبارات الأمريكية والبريطانية عملت مع العسكريين الإيرانيين على الإطاحة برئيس الوزراء، وعند عودة الشاه إلى عرشه أقام حلفًا وثيقًا مع الولايات المتحدة التي تزوده بالسلاح والتدريب والمعرفة التقنية من أجل «عصرنة» إيران.

غير أن الشاه كان دكتاتورًا؛ استخدم السافاك؛ جهاز الشرطة السرية، كعين له، يرهب به أعداءه السياسيين، كان يعارضه كل من حزب «توده» الشيوعي وكذلك الزعماء الإسلاميون الأصوليون الذين اعتقدوا أن سياسات الشاه واعتماده على الأمريكيين إفساد للمجتمع الإيراني.

عقب دخول الشاه إلى أمريكا للعلاج في ١٩٧٩ - تحت اسم مستعار هو «دافيد دي نيوسوم»، نادى آية الله خميني بخروج المظاهرات المناهضة لأمريكا إلى الشوارع، وفي ٤ من نوفمبر من ذلك العام، تحولت إحدى المظاهرات إلى عملية استيلاء على سفارة الولايات المتحدة، تسلق الطلاب أسوار مجمع السفارة وأخذوا ٦٣ أمريكيًّا رهائن لهم، كما أصبح ثلاثة مواطنين أمريكيين غيرهم سجناء في وزارة الخارجية الإيرانية، وخلال ثلاثة أسابيع أطلق سراح مجموعة من النسوة ومن الأمريكيين السود، وبقيت ٥٢ رهينة ظلوا محتجزين لمدة ٤٤٤ يومًا بينما العالم يرقب المشهد في رعب، متسائلًا أين سينتهي المطاف بكل هذا؟ وكانت الرهائن يعرضون أمام

آلات التصوير التلفزيونية، معصوبي الأعين عادة أو مرتدين أكياسًا تغطي رءوسهم، وعلى الرغم من أن خاطفي الرهائن لم يكونوا من العاملين في الحكومة الإيرانية أو العسكريين، إلا أن ولاءهم المعلن لخميني وللحكومة الإسلامية خَلَق أزمة دولية.

طلبت الحكومة الأمريكية مساعدة الإخوان المسلمين، كما طُلب من يوسف ندا أن يساعد كذلك: زار الأمريكيون المرشد العام الأستاذ عمر التلمساني في القاهرة وطلبوا منه رسميًّا أن يتدخل للمساعدة على إطلاق سراح الرهائن قائلين له: «أنت رئيس منظمة إسلامية، وإيران تُعتبر دولة إسلامية، وأنت تعرف كيف تخاطبهم، وبإمكانك أن تتدخل.. فهلا ساعدتنا؟».

والأستاذ التلمساني كان يعلم أن الإخوان لا يوافقون على أخذ رهائن، فهذا ممنوع في الإسلام إلا في الحرب، ولم يَعِد ممثل الأمريكيين بشيء، وإنما أجابه بأنه سيدرس المشكلة وكيفية التعامل معها. «أي حوار مع إيران سوف يكون مع الإمام خميني، والصلة في واشنطن سوف تكون مع الرئيس «جيمي كارتر»، فطلب من زواره رقمًا مباشرًا للاتصال بـ«كارتر» في البيت الأبيض فأعطوه».

«ثم جاء الأستاذ التلمساني إلى «كمبيوني» وأصدر تعليماته لي ببدء الحوار، كنت شابًّا لكنني قلت له: إن علينا تأكيد هذا الطلب مع سلطات أمريكية عليا، وأن نعرف ما هم مستعدون لتقديمه للإيرانيين، علينا أن نحتاط كيلا نصبح جسرًا يَخدعون الإيرانيين عبره، إذا كانت هناك فرصة للسلام، وتجنب تدمير دولة مسلمة، فعلينا أن نحاول، وإلا وجب علينا ألا نتورط».

«وافقني المرشد العام على ما قلت، وذكّرني بما حدث لنا مع «إيفانز»؛ السكرتير السياسي للسفارة البريطانية عام ١٩٥٤، عندما قام عبد الناصر بلعبته المزدوجة، كان علينا أن نتحاور مع البيت الأبيض مباشرة».

«كان المرشد بجانبي عندما هاتفت البيت الأبيض على الرقم الذي أعطوه له قائلًا: إنني أتحدث باسم الإخوان المسلمين في مصر، والمرشد العام هنا، وقد طَلَبَت السفارة منه المساعدة، وهو يريد أن يسمع هذا الطلب من الرئيس شخصيًّا، وعندها سنكون مستعدين للتحرك».

الشخص المجيب على يوسف ندا أخبره بأنهم لن يستطيعوا توصيله، وإنما سيتصل به أحدهم مرة أخرى. «أعطيتهم أرقامي الهاتفية، وطلبت منهم سرعة الاتصال لأننا يجب أن نتحرك بسرعة أيضًا، لكنهم لم يتصلوا بي أبدًا».

وفي الوقت ذاته، كانت ردود الفعل الأمريكية على الأزمة هي إيقاف الواردات البترولية من إيران، وإبعاد كثير من الإيرانيين المقيمين في الولايات المتحدة، وتجميد أرصدة الحكومة الإيرانية واستثماراتها. طالب كثير من الأمريكيين باتخاذ عمل عسكري لتحرير الرهائن، لكن الوضع أصبح أكثر تعقيدًا عندما غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان جارة إيران، من أجل القضاء على ثورة إسلامية المنطلق ضد الحكومة الشيوعية.

لم يكن ثمة تفسير لعدم استجابة «كارتر» أو من سواه من الإدارة الأمريكية لمكالمة يوسف ندا التي ربما أوصلت إلى حل، وبدلًا من ذلك واجه «كارتر» إيران الغنية بالبترول والمعادية، وحربًا باردة مع موسكو أعيد تأجيجها، وأمريكا غاضبة من قيادتها.

وكانت النتيجة أن شن الرئيس «كارتر» عملية مخلب النسر لاستعراض قوته ولتحرير الرهائن: وقد فشلت بشكل كارثي؛ ففي ٢٤ من إبريل ١٩٨٠، هبطت قوة إنقاذ أمريكية في الصحراء الإيرانية لإعادة تزويد الطائرة التي تحملها بالوقود، ولكن خللًا في الأجهزة وعاصفة رملية صحراوية دفعا إلى إلغاء المهمة، وفي أثناء انسحاب القوة اصطدمت إحدى المروحيات بطائرة نقل ونتج عن ذلك وفاة ثمانية من قوة الإنقاذ، وقد أطلقت طهران على العملية المجهضة اسم «الغزو الأمريكي لإيران»، وادعت بأن النصر من عند الله هو الذي هزم الغزاة. وقال الخميني إن ذلك تم ذكره بسورة الفيل في القرآن.

تُوفي الشاه في ٢٧ من يولية ١٩٨٠، وبعد وفاته بشهرين قام الرئيس العراقي صدام حسين بغزو إيران، وشجع هذان الحدثان الحكومة الإيرانية على الدخول في مفاوضات مع أمريكا، بوساطة من الجزائر.

وحانت الذكرى السنوية الأولى لبداية أزمة الرهائن في ٤ من نوفمبر ١٩٨٠، وكان دورها محوريًّا في انتخاب الرئيس الجديد، وفي الساعة الخامسة مساء بتوقيت كاليفورنيا حصل «رونالد ريجان» على أغلبية كبيرة، حتى قبل أن يقترع أغلب الغرب الأمريكي، وفقد «جيمي كارتر» الأمل، وكان أكثر الرؤساء الأمريكيين خسارة على مدى خمسين عامًا تقريبًا، وأثناء الاحتفالات، وقف أحد مساعدي «ريجان» عند سلالم بهو الفندق قائلًا: سوف نعيد كتابة قصة إيران. أرجعوا «الرهائن» إلى وطنهم. وعندما أصبح «رونالد ريجان» الرئيس رسميًّا في ٢٠ من يناير ١٩٨١، سمحت إيران للرهائن بمغادرتها جوًّا. وفي نفس الوقت تم الإفراج عن ثمانية بليون دولار أمريكي من الأصول الإيرانية المصادَرة.

أما الإخوان المسلمون ويوسف ندا فلم يكن لديهم وقت للاحتفال، لقد رأوا في انتهاء أزمة الرهائن نصرًا لكل المسلمين، ولكنهم صُدموا عندما رأوا الشيعة يدّعون شرفًا من ورائها للشيعة وليس للإسلام، وبدلا من المساعدة على توحيد السُّنة والشيعة فإن الأزمة زادت الانقسام بينهما، ويعقب ندا بقوله: «يجب أن نصب إيماننا جميعًا في بحر واحد، إننا دعاة للإسلام ولسنا مُصَدّرين للثورات».

«كان الشرق الأوسط يغلي، والحرب الإيرانية العراقية تقسمه إلى ولاءات وطوائف، وكان الإخوان المسلمون يقفون في مكان ما في الوسط. كان الأمر لغزًا: كان الإخوان في نظر إيران عملاء يعملون لحساب العراق أو المملكة العربية السعودية أو الإمارات العربية المتحدة أو لحساب مصالحهم الجشعة.. وعلى الجانب الآخر وبدرجة أشد كانت السعودية ودول الخليج والعراق والولايات المتحدة الأمريكية وفوق ذلك كله الحكومة المصرية جميعها تعتبر الإخوان يرفعون نفس راية إيران».

ضبط يوسف ندا الصلات بين الإخوان والثورة الإيرانية، لكنه كان مضطرًّا لإبقاء اجتماعاته ومفاوضاته في نطاق السرية بسبب المخاوف المتعلقة بنوايا إيران في عهدها الجديد؛ ففي السعودية والعراق ودول الخليج كان يمكن القبض على واعتقال أي شخص أو منظمة لديه صلات بإيران.

ومع ذلك، استطاع أن يرتب في هدوء اجتماعات كثيرة داخل إيران وخارجها مع زعماء مهمين، وكبار الوزراء والسفراء ورجال الدين ورؤساء الباسدران؛ الحرس الثوري الذي أنشئ لدعم مبادئ الثورة والسلطة الجديدة، وقد دُعي إلى طهران عدة مرات والتقى بالحكام من رجال الدين.

وقد تسببت المقاطعة البحرية التي حرضت عليها أمريكا في إحداث نقص مؤلم في الغذاء والمواد الضرورية الأخرى في إيران، فطلب رضا صدر وزير التجارة الإيراني العون من يوسف؛ فهو على كل حال «ملك البحار»؛ إذ أصبح مثل «بوسيدون»؛ إله البحار الأسطوري عند الإغريق، باستطاعته نقل جميع السلع. وعلى الرغم من كل العقبات، والحصار البحري نقل إليهم المواد وخسر في هذه العملية ٥ ملايين دولار، نقل إلى إيران ١٠٠ ألف طن من الصلب، و٤٥٠ ألف طن من القمح. نقلت البضائع بالقطارات، احتاجت كمية الصلب إلى ٣٣٠٠ عربة من عربات السكك الحديدية - قامت من همبورج إلى كوتكا في فنلندا ثم اتجهت شرقًا بالقطار عبر روسيا إلى بحر القرم، ومن ثَمَّ وصلت إلى «جولفا» في إيران. ويصف يوسف هذه العملية بأنها كسرت الحصار: «استخدمتُ كل مهاراتي واتصالاتي وكافة الوسائل لأقوم بها في إطار القانون، وما من أحد يستطيع أن يجد منفذًا في العملية يجعله يقول إنني خالفت القانون، كانت قواعد الحظر تستثني العقود التي وُقِّعت ووُثِّقت قبل تاريخ صدور قرار الحظر».

«لقد فعلت ذلك في سبيل الله، ومن أجل بلد مسلم؛ فأنا أُفرق بين التجارة والأرباح وبين العلاقات والمساعدة، إنهما شيئان مختلفان، لقد خسرت مبلغًا كبيرًا من المال لأن الإيرانيين جادلوا في كمية السلع المشحونة إليهم مقارنة بما تسلموه، وذكروا لي أنهم على الرغم من تأكدهم من أنني على صواب، فإن هناك ثورة في البلاد! وأنهم إذا أعطوني من مال الحكومة فقد يُتهمون بالفساد، وقد أُتَّهم به أنا أيضًا، والمفروض في التجارة الدولية أن استلام البضائع يكون في موانئ وصول البواخر، ولكنهم نقلوها بالسيارات من الموانئ إلى مخازن متفرقة في داخل البلاد، ثم أحصوا الواصل منها داخل المخازن، ولا يخفى أن هذا الأسلوب يخالف الاتفاق ويخالف

المعقول حيث يُعرض السيارات للسرقة في طريقها داخل البلاد، والنقل الداخلي هو مسئولية المستلم وليس الشاحن.. وقَبِلْت بالخسارة».

«عند بداية تفكك الاتحاد السوفيتي بدأ الحديث في الجمهوريات، وبخاصة الجنوبية منها لاختيار اللغة التي سوف تتبناها كل جمهورية حيث بدأ الاعتراض على اللغة الروسية باعتبار أن بعض حروفها مختلفة عن حروف اللغات الأوربية وبمشاعر عامة بان تخلف هذه الدول بالنسبة للغرب، فإن خروجهم من هذا التخلف يستدعي تقليد الغرب والتعامل بلغته، ومن زاوية أخرى فإن كثيرًا من شعوب هذه المنطقة بدأ يعود إلى جذور قومياته ومقدساته التي حاربها النظام الشيوعي وأهمها الإسلام».

«وهنا ظهرت لنا فكرة للدفع والإغراء بإعادة استعمال اللغة العربية التي كانت متداولة في لغاتهم الأصلية، وهذه خطوة مهمة تجاه سهولة تداول وفهم الدين الذي واجه صحوة ورغبة في العودة إليه وفهمه، وسواء كانت العودة إلى الدين الإسلامي سُنّيه أو شيعيه جذور هذه المناطق وغالبية إحدى هذه الطوائف في بعضها والأخرى في البعض الآخر، ولكنها جميعًا كانت من قبل تُكتب بالحروف العربية، ولو كانت فارسية، إن هذا الأمر من لُبّ اهتماماتنا العالمية، ولذلك اتجه تفكيرنا لمحاولة إيجاد شبكة من المصالح نربط بها ما نريده في منظومة معقدة اقتصادية وسياسية تجمع الأطراف المتنافرة ومعها الناشئة الحائرة في مفترق الطرق تبحث عن طريق، ووقع الاختيار في البداية على جمهورية تركمانستان، وكان أهم هدف لنا هو التوسع الإسلامي في هذه الجمهوريات، بصرف النظر عن كونه شيعيًّا أم سُنيًّا؛ فنحن نتعامل مع العالمَيْن المسيحي والبوذي اللذَيْن يَكْفران بكل ما نؤمن به، فهل نرفض أن نتعامل مع العالم الشيعي الذي يؤمن بأكثر ما عندنا؟ الأمر ليس تسطيحا لأمور معقدة، ولكن طريق الأهداف الكبيرة لا توقفه العقبات الغبية القاصرة المفتعلة، ولا يعني اتجاهنا هذا ألا نتعامل مع اللغات الغربية كأداة للتقدم واللحاق بركب التقنية الغربية، ولكن ذلك يجب ألا يطغى على الأصول والأعمدة المرتبطة بعقيدتنا، والقرآن المُنَزَّل بالعربية.. والمكتوب بحروفها».

«اتجهنا في طريق البحث عن نقطة البداية، واتجه تفكيرنا إلى ضرورة البحث عن وسائل لربط شبكات من المصالح الاقتصادية والسياسية تجمع الأطراف المتنافرة، ومعها الناشئة التي تبحث عن طريق، ووقع اختيارنا على تركمانستان؛ هذه الجمهورية الناشئة التي تقع على الحدود الشمالية الشرقية من إيران، ورغم أنها منتجة للبترول إلا أن تصديره صعب؛ فلا يوجد لها موانئ، وأوجدنا دراسة لعمل طريق سريع يصل عاصمتها «أشقباد» بـ«يزد» في إيران، وبذلك تتشابك المصالح وتنمو التجارة والاختلاط والثقافة والمعرفة الدينية، وبدأنا في تسويق فكرتنا في إقناع السعودية بتمويل الطريق، وبذلك يبدأ التشابك في المصالح بين الأطراف الثلاثة؛ السعودية وإيران وتركمانستان، مع إمكانية أن يستهلك بترول تركمانستان في شمال شرقي إيران، وتسلم إيران بدله من بترولها في مولني الخليج لحساب تركمانستان، وتبني السعودية الطريق في إطار الاستثمار الأجنبي، وتسترد أموالها المستثمرة في إنشاء الطريق عن طريق تحصيل رسوم المرور فيه واستعماله، وتساعد السعودية أيضًا تركمانستان في تعليم ونشر اللغة العربية وتشجيع البعثات لتعليم الدين في مكة، ووجود الطريق الممول باستثمار سعودي أيضا سوف يشابك المصالح والاتصالات بين الطرفين الآخرين. وتحركنا في خطوط متوازية في دراسة الجدوى الاقتصادية والتكلفة والمخططات الهندسية والفنية».

«في البداية لم نجد معارضة من الملك فهد، ولا نقول إننا وجدنا موافقة منه، ولكن ظهر على وجهه مفاجأة الفكرة، وقال: استمروا في الدراسة ثم نرى ماذا نقرر، أما الطرف الإيراني فكان في مرحلة تشجيع الاستثمار الأجنبي، وكان يحلم باستقطاب السعودية لتمويل المشاريع التنموية، وفي مرحلة أخرى متقدمة قد أقنعوا رجل الأعمال السعودي المشهور صالح كامل بتمويل صفقة سيارات، وأتمها، وفجأة بدأ التوتر في علاقة السعودية بإيران، ولم تَرُد السعودية على أي سؤال بخصوص هذا الموضوع بتاتًا. أما إيران فقد وضعت المشروع في الخطة ونفذته.. ولكن بأهداف غير أهدافنا».

«التقيت بأشخاص لن أستطيع أبدًا الحديث عنهم أو ذكر أسمائهم؛ لأنني بذلك أخون ثقتهم بي؛ هذه الأسماء والحالات سوف تصحبني إلى قبري، وإذا مزقني بعض

الأشـرار كل ممزق فلن أبوح بالأسـماء؛ فهذه الثقة هي سر سـمعتي النظيفة، وهي ما أعطت للإخوان مكانتها كوسيط أمين في حل النزاعات».

«قمنـا بـأدوار كثيرة، ونجحنـا فيها على الأغلـب، مع الأكراد، وفـي العراق، وفي إيـران والمملكة العربية السـعودية واليمـن وماليزيا وتركيا وسـوريا ولبنان والجزائر وأفغانسـتان وباكستان وروسيا والصين [تركستان الشـرقية]، وغيرها، وفي الحالات التـي لـم يحالفنا فيها النجاح بنسـبة ١٠٠٪ فإننـا خففنا حدة بعـض الأوضاع الصعبة وأوقفنـا العنف وفقدان الأرواح، ولا يوجد شـيء أهم مـن محاولة الوصول إلى حل في مثل هذه الظروف».

فـي الأيـام الصعبة التـي أعقبت الثـورة الإيرانية، وفـي محاولة للحـاق بتطورات الحـرب الإيرانيـة العراقيـة، التقـى يوسـف ندا بمعظـم القـادة الإيرانيين، بمـن فيهم الشخصية المحافظة آية الله سيد علي حسيني خامنئي الذي سيخلف فيما بعد آية الله خميني في منصب المرشـد الأعلى لجمهورية إيران الإسـلامية في منزله، مع محمد سـوري (اسمه سـوري، وهو إيراني وليس سوريًّا لا هو ولا جدوده)؛ وهو رجل أمين وصالح ومن أكفأ رجال العالم في مجال البواخر والشـحن البحري، واسـتطاع بعلمه وخبرتـه أن يبني لإيران أكبر مؤسسـة فـي العالم لنقل البترول، كما كان يوسـف قريبًا مـن آية الله العظمى حسـين علـي منتظري النجف آبادي الذي اعتُبِـر لفترة من الوقت الخليفـة القـادم لآية الله خميني، لكنه اختلف معه حول الاتجاه الذي تسـير فيه إيران ما بعد الثورة. كان حسـين علي منتظري عالمًا يتمتع باحترام هائل، وكان يؤيد حقوق المرأة والحريات المدنية التي يعتقد أن قادة إيران الجدد قد أهدروها، وكان ليوسـف مع هذا العالم أحاديث ممتعة، وأهدى منتظري الذي كان مشـغولًا في وضع دسـتور إيران الجديد إلى صديقه كتابًا عن نظريته وآرائه ومشروعاته، والنسخة مزينة بالتقويم الفارسي، وتحتل مكانها باعتزاز في مكتبة يوسف ندا الكبيرة (بين صفحاتها وُضِعت بعناية نسخة من نعي حسين علي منتظري).

وظل يوسف ندا على اتصال برئيس إيران الجديد أبو الحسن بني صدر، واجتمعا في طهران بعد الثورة، ويقول يوسـف: «كانت هناك ثورة في كردسـتان التي انقسمت

بين الفصائل المتحاربة، وأراد الرئيس منا أن نتدخل لحل النزاع - لم يكن ينبغي للحرس الثوري أن يقاتل الذين ساعدوا الثورة، كانت جماعة شيوعية من الشمال مرتبطة بالاتحاد السوفيتي تقاتل جماعة أخرى من الأكراد الإخوان، كانوا سُنّيين، وليسوا من الشيعة، لكن خميني لم يمنحهم الحرية لتعليم الإسلام السُّني، ولم يسمح للسُّنة أن يكون لهم مسجد في طهران، أو استخدام عوائد البترول الكردستاني في مناطقهم».

«وقُتل بعضهم، واختفى أحد قادتهم المحرضين وهو كردي إيراني من «كرمانشاه» اسمه أحمد مفتي زاده، كان لدى «أبو الحسن بني صدر» مستشار كردي هو «مظفر برتوما»؛ وكان عضوًا في الإخوان ويعيش في أمريكا، ولكنه رجع إلى إيران بعد الثورة - فاتصل بنا، وطلب منا أن نصلح بين الحكومة والشعب الكردي السُّنّي».

«وذهبت أنا وغالب همت إلى منطقة الحرب، وعلى الرغم من أن أحمد مفتي زاده كان هاربًا، فإن مهمتنا في الوصول إليه كانت بموافقة من «أبو الحسن بني صدر» الذي كان يدرك أن أي اتصال بين المسلمين أمر طيب، ربما تملك الحكومات إمكانات تفوق ما للإخوان المسلمين، لكننا ننجح أحيانا في تحقيق ما لا يمكنهم تحقيقه، نحن نعرف حدودنا ونتوقف عندها، بيد أن صلاتنا الشخصية تساعدنا على الدوام، أخذنا حذرنا؛ لأنه كان في داخل الحكومة الثورية الإسلامية بعض الشيوعيين الذين كانوا يتحركون باسم الإسلام ويوجِدون الانقسامات من الداخل، وقد يتابعوننا - كما قد تفعل ذلك الحكومة - حتى يعرفوا مكان أحمد مفتي زاده، كانت مشكلة الرجل أنه ساعد الثورة، ولم يعجب ذلك القوميين الأكراد، وكذلك الشيوعيين؛ فكانوا يطاردونه جميعًا ومعهم الثوريون الإيرانيون، وأصبح أول المطلوبين.. واختفى الرجل».

«سافرت أنا وغالب همت بالطائرة إلى «كرمانشاه»، وذهبنا كلانا في هذه المهمة حتى يغطي أحدنا الآخر، وكان كل منا على استعداد للموت، كان أهالي أحمد مفتي زاده ينتظروننا، والتقينا بابن عمه، ثم رافقتنا سيارتان إلى المنزل الذي كان يحتمي به».

«كان أحمد مفتي زاده غاضبًا أشد الغضب من آية الله خميني، وكرر عدة مرات قوله إن جماعته أيدت خميني والثورة الإيرانية: وفي المقابل وُعدوا بمكانة داخل الحكم الجديد، وعلى العكس من ذلك، شكا مفتي زاده من أن طهران قد تخلت عن الفصيل الكردي لصالح السوفييت، الذين كانوا يقتلونهم كل ساعة من ساعات اليوم، وأخبرنا أحمد مفتي زاده أن القتل يجب أن يتوقف، وأن كل من يفرق المسلمين فهو مخطئ، وكل من يفرق الإيرانيين فهو مخطئ، وأننا نريد الاتحاد والتسامح عن كل ما وقع من أخطاء».

«وتحدثنا عن أن خيرات البلاد يجب أن تكون لجميع المسلمين وليس لمجموعات عرقية فحسب، ولأنه كان كرديًا، كان يريد دخل كردستان؛ العائدات الكبيرة لبترول المنطقة، أن يوجه مباشرة إلى شعبها وليس للحكومة المركزية».

«واشتكى مفتي زاده من أن طهران قد خلت من مسجد وحيد للسُّنّة، وكل المساجد فيها للشيعة وحدهم، فالناس في الغرب ينظرون إلى المساجد على أنها لا فرق بينها، لكنه بيّن أن السُّنّي على سبيل المثال لا يستطيع تدخين سيجارة في المسجد بينما يفعل الشيعة ذلك، والصلوات أيضًا يختلف عددها فبينما يصلي الشيعة ثلاث مرات يوميًا فالصلاة عند السُّنّة خمس صلوات كل يوم، ويشكو السُّنّيون من أن المساجد لا تفتح للصلاة إلا ثلاث مرات في اليوم؛ ولذلك وجب أن تكون لهم مساجدهم الخاصة ليتمكنوا من القيام بالخمس المكتوبات».

«قلت لأحمد مفتي زاده، إننا من وجهة نظر الإسلام لا نستطيع أن نميز بين الأجناس، ولا نستطيع المناقشة على أساس عنصري، وقد شكا لي من أن المدرسين الشيعيين قد أُرسِلوا لتعليم أطفالهم السُّنّيين، كان الرجل مُحقًّا في بعض طلباته، وكان علينا أن ننقل رسالته».

وعندما انتهوا من حديثهم، كانوا في ساعة متأخرة من الليل، واصطحبهم بعضٌ من حرس مفتي زاده إلى فندقهم القريب من المطار، واتفقوا على أن يحضر الحرس إليهم لينقلوهم إلى المطار قبل موعد إقلاع الطائرة بتسعين دقيقة، وما إن دخل يوسف ندا وغالب همت حجرتهما حتى سمعا طرقًا على الباب، وعندما فتح يوسف الباب

رأى نحو عشرة رجال يمسكون بمدافعهم الرشاشة، وقال له أحدهم: أخي، يجب أن تذهب معنا الآن، لا يمكنك النوم هنا، ولو فعلت ذلك فسيقتلونك هنا.

يقول يوسف: «لقد تعرفنا على شخص أحد رؤساء هذه المجموعة ووجدناه أهلًا للثقة، فذهبنا معهم، وأخبرنا أن هناك مؤامرة لاغتيالنا؛ ولهذا أرسلهم أحمد مفتي زاده لحمايتنا، وأن الأوامر لديهم بالبقاء معنا حتى نركب طائرتنا، كان هناك من يريد قتلي أنا وهمت، وكانت الاحتمالات مفتوحة - الشيوعيون أم الثوريون أم سائر الفصائل الواقعة بينهما. واستمر الحراس معنا حتى ركبنا الطائرة التي أقلتنا سالمَيْن إلى طهران».

كانت الثورة الإيرانية تدور رحاها في قوة واندفاع فترفع قدر بعض السياسيين وتطرد البعض الآخر من دائرة المقربين إليها، وكان الرئيس أبو الحسن بني صدر ممن لم يعد لهم مكان في طهران: ففر إلى فرنسا إثر خلافه مع آية الله خميني الذي وقّع أوراق الاتهامات الموجهة ضده في يونية ١٩٨١، واقتحم الحرس الثوري القصر الرئاسي وأعدم بعض أصدقاء بني صدر والعديد من معارف يوسف ندا داخل الحكومة.

أما أصدقاء أحمد مفتي زاده في الحكومة الثورية فقد اختفوا جميعهم، وفي عام ١٩٨٢ أسروه في عرينه الجبلي واتهموه بأنه خطر على الأمن القومي، ولم يبين أحدٌ حقيقة جرائمه، لكنه سُجِن عشرة أعوام، وبعد إطلاق سراحه بأسبوعين في ١٩٩٣ اتفق أن الرجلين اللذَيْن حاولا مساعدته منذ سنوات طويلة وهما يوسف ندا وغالب همت كانا في طهران لاجتماع في وزارة الخارجية، ولما عرف يوسف المشغول بأمر مفتي زاده بأنه أصبح حرًّا تساءل إذا كان بإمكانه زيارته، فقالوا له إنهم لا يعرفون مكانه، وبعد الاتصال مع أحد الإخوان، أُخذَ همت إلى البيت الذي يعيش فيه الرجل، وأصيب همت بصدمة كبيرة عندما دخل عليه أحمد مفتي زاده، حطام إنسان أشبه بالهيكل العظمي، وقال لهمت: كنت سأرحل أمس لكنني كنت في غاية الضعف فلم أستطع الذهاب، لم أدرِ لماذا، ولكنني أعلم الآن، كأني كنت أنتظر حتى أراك.

ويـروي نـدا ما حـدث: «لقـد وضعوه فـي زنزانة ارتفاعهـا متر ونصـف بحيث لا يستطيع الوقوف معتدلًا، وتكسرت عظامه مرة تلو الأخرى، وتحطم جسده».

«بعد ذلك اللقاء بأسـبوعين توفي أحمد مفتي زاده، وبعد وفاته لاحقت السلطات الإيرانيـة بعـض مشـاركيه وقتلتهم، لم يريدوا لهـم أن يتجمعوا حـول الذكرى؛ حول استشـهاد أحمـد مفتي زاده، لقد وَفّيت بوعدي ووصلـت إلى الرجل لكن لم يكن من وراء ذلك فائدة ما، لأنه قد صار حطامًا من قبل».

«كان ضحيـة أخـرى للحرب المصطنعة بين الشـيعة والسُّـنّة، إن الاختلافات بين السُّـنّة والشـيعة تسـتغل عقـودًا من الزمـان لإنجاح سياسـة فَـرِّق تَسُـد: أولًا من قِبل البريطانييـن، ثم من الأمريكيين بعدهم. ويُسـتدعى السـعوديون لهـذا النزاع نيابة عن الأمريكييـن طـوال الوقت، وأعظـم مخاوف الغـرب دائمًا كانت مـن أن تتحد جميع الشـعوب الإسـلامية؛ ولذا كانت لعبة الغرب على الـدوام أن يضرب أحدها بالآخر. وفـي مؤتمر عُقـد بلندن عام ١٩٠٧ صـرح «كمبل بانرمان» رئيس الـوزراء البريطاني بأن: «شـعوب الشرق الأوسـط لها نفس الدين ونفس اللغة ونفس الشعور، وعلينا أن نفرقهم ونحرمهم من ثمرات العلم والتكنولوجيا».

وأثنـاء الخمسـينيات مـن القرن الماضي نشـأت حركة مناهضـة للأمريكيين، كان رائدهـا عبـد الناصر زعيم حركـة القومية العربيـة، وعلى الرغم من دعـم الأمريكيين لعبـد الناصـر فقد ألهب المشـاعر المناهِضـة للأمريكيين كجزء من القوميـة العربية، وفي رأيي أن السـبب الرئيسـي لذلك هو قضية إسرائيل، وفي رأيي أن وجود إسرائيل في المنطقة لم يكن من أجل اليهود، فإسرائيل خُلقت لتقوم بدور الشرطي عندما يرفع أي مثير للمشكلات من جيرانها رأسه، ولِتُسقط المشاغبين وتخدم مصالح الآخرين.

(في فبراير ٢٠١٢ طُردت البارونة «تونج»؛ العضوة المخضرمة في حزب الأحرار الديمقراطييـن من حزبها السياسـي البريطاني؛ وذلك لأنها قالت: «في يوم ما سـوف يُرهِق الولايات المتحدة أن تدفع ٧٠ بليون دولار كل عام لإسـرائيل لتدعم ما أسـميه حاملة الطائرات الأمريكية في الشرق الأوسط).

ويواصل ندا حديثه: «عندما امتلك عبد الناصر عواطف العرب، قرر الأمريكيون أن يستخدموا شاه إيران كحائط ضده، وكان الشاه سعيدًا برهان الأمريكيين عليه، فكان يتباهى بأن الفُرس سبقوا العرب وأنهم كانوا أكاسرة يوم كان فيه العرب سكانًا للخيام في الصحراء، كانت قومية في مواجهة قومية أخرى - الفارسية ضد العربية - وكلاهما وُجدت لمصلحة الأمريكيين، لم تكن حربًا بالسلاح: فكل جانب كان يحاول أن يُثير عواطف شعبه، قال الشاه «الخليج الفارسي» فسماه العرب «الخليج العربي»».

«عندما حرك الأمريكيون الشاه في مواجهة عبد الناصر، كان عليهم أن يُفتتوا الكتلة العربية حتى يمنعوها من أن تزداد قوة، فأقنعوا المملكة العربية السعودية بالتعاون مع الشاه ضد قومية عبد الناصر؛ مما أحدث انقسامًا في الجانب العربي كذلك، وبهذه الطريقة تمكّن الأمريكيون من حماية مصالحهم التجارية والسياسية الضخمة في المنطقة، لقد دفعوا الملك فيصل ثم الملك فهد والمملكة العربية السعودية ليَكونوا ضد القومية العربية وضد عبد الناصر، أوجدوا جبهتين وأصبحت العروبة أكبر بكثير، ليست قوية فحسب وإنما تسيطر على منطقة المصالح الأمريكية، كانت إيران جزءًا من هذه المصالح - فهناك البترول والغاز، والاتحاد السوفيتي المتاخم لإيران».

«وعندما انتهت حرب يونية ١٩٦٧ بفشل القومية العربية، سعى الأمريكيون لإيجاد راية أخرى وقضية أخرى ليواصلوا تفريق شعوب المنطقة وحكمها، بينما يستنزفون ثروتها وبترولها ومصادر الطاقة فيها».

«بعد أن أصبح عبد الناصر ضعيفًا، واحتاج أن يُعيد بناء جيشه تقرب زلفى إلى الملك فيصل، لم يُرد فيصل أن يتعامل مع إسرائيل بمفرده، حرصًا منه على مصالحه؛ ولكي يعيد القوة إلى عبد الناصر قام بتمويل الجيش المصري الجديد، وبعد فترة قصيرة جدًّا، مات عبد الناصر وتوافق الملك فيصل مع خلفه أنور السادات وواصل ضخ المال إلى مصر. كان الشاه بدون أمريكا ضعيفًا، وهي إرادته أن يكون غاية في القوة؛ لأنه على الحدود مع الاتحاد السوفيتي: كان الشاه بالتأكيد أقوى من إسرائيل».

«أولئك كانوا اللاعبين، وكان الأمريكيون يحركونهم كقطع الشطرنج هجوما ودفاعًا لحماية الذات، توافق الملك فيصل والشاه لكن لعبة القوة تغيرت؛ كان الشاه قويًّا ومغرورًا، أخذ في التمييز ضد السعوديين وهم بدءوا يخشونه».

«عندما تُوفي عبد الناصر كان السادات خيار النظام؛ أي الجيش والمخابرات الحربية، وبيدهما السلطة في تلك الأيام، وإلى الآن - ليتولى الرئاسة، ارتأت المجموعة المحيطة بعبد الناصر أن السادات شخص ضعيف ويمكن التحكم فيه تحكمًا كاملًا.. وتغير رأيهم، وسرعان ما بدءوا يخشونه، لم يكن دمية يحركونها بأصابعهم على الإطلاق، ادعى السادات أنهم كانوا على وشك الانقلاب عليه وألقى القبض على مَن كان يفترض أنهم حكام مصر الحقيقيون؛ المجموعة التي من خلالها سيطر عبد الناصر على الجيش والمخابرات والشرطة والوزارات المختلفة، وبعدما سيطر السادات على البلاد سيطرة كاملة أبرم صفقة سرية مع إسرائيل؛ مقدمة لاتفاق علني وقع في كامب دافيد، كان السادات مدعومًا من الأمريكيين، وكان عرّاب هذه الصفقة حسن التهامي، وتمت بين طنجة بالمغرب وبوخارست في رومانيا».

«وعلى الرغم من أن السعوديين قد أوصلوا السادات مع أمريكا عندما انفرد بالسلطة، إلا أن البيت الأبيض آثر أن يتعامل معه على انفراد، وعندما تفاوض حول اتفاقية سلام اتهمته جامعة الدول العربية بخيانتها (وقد وقّعها في واشنطن السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي «مناحم بيجن» في ٢٩ مارس ١٩٧٩، عقب توقيع اتفاقات كامب دافيد قبل ذلك بعام بإشراف الرئيس جيمي كارتر)، نقل العرب مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس، ولم يعد السادات، ولا مصر، أبطال العرب. وجاء وقت أصبح فيه صدام حسين بطلًا للعالم العربي، فالتاريخ أعاد نفسه بطريقة فجة».

«ساعد العرب صدام ضد إيران، بل حتى الأمريكيون فعلوا ذلك، هل وثقوا في أمثال صدام حسين؟! صدام كان ضدهم جميعًا، هاجم كل القادة العرب في جرائده وخُطَبه وإذاعاته، اعتبر أنهم جميعًا خانوا قضايا العرب».

«ومع ذلك، فعندما أرادت أمريكا إيقاف خميني ودفعت بصدام إلى الحرب مع إيران، إذا به يطلب من كل العرب مساندته، وقد استجابوا له».

«منذ الأزمة الاقتصادية العالمية في ثلاثينيات القرن العشرين، تقبلت أمريكا الإسلام تكتيكيًّا، وورثت سلوكها الاستعماري من الإمبرياليين البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين والإسبان والإيطاليين والهولنديين والبرتغاليين؛ كانت مصالحها الاقتصادية في البترول إلى جانب الاعتبارات السياسية والعسكرية، قد استقرت أساسًا في الشرق الأوسط أثناء الصراع ضد الشيوعية، بالاعتماد على أن الإسلام هو العدو اللدود للإلحاد الذي يُشكل الركن الأساسي في النظام الشيوعي، وأنا أستطيع أن أؤكد أنه إذا وجدت أمريكا أن مصالحها تتطلب التوافق مع الإخوان المسلمين فسوف تتوافق معهم». (عُقد أول اجتماع رسمي بينهما في القاهرة في ١٠ من يناير ٢٠١٢ بعد مرور نحو ١٤ شهرًا من إدلاء يوسف ندا بهذه الملاحظة، ولم تكن المرة الأولى؛ فقد قالها في فيلم وثائقي أمريكي مع اثنين من مراسلي النيوزويك؛ وهما «مارك هوزنبال» و«ميكائيل إيزيكوف» عام ٢٠٠٧ في منزله بسويسرا).

«من جانب الشريعة، فإن القصص في القرآن تُعلمنا أن الحوار أسلوب حضاري للحياة يقبله الله والرسل والمؤمنون والحكماء».

«إن أفعال الولايات المتحدة نتاج لسياساتها التي قد تكون تكتيكية وتتغير طبقًا للواقع لخدمة المصالح الاستراتيجية الثابتة على المدى الطويل، أما الديمقراطية، وحقوق الإنسان والحلفاء والأصدقاء والمعتدلين والاتفاقيات – فكلها مساحيق تجميل تختلف طبقًا لمن وما يكون في الإدارة الأمريكية».

«وأمريكا لا تختلف عن إمبراطوريات الماضي، لم يستطيعوا تجميل أهدافهم القبيحة والشائهة، في عالمنا المعاصر كان «نورييجا» وحش بنما، واحدًا من أفضل حلفاء الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى، وعندما أدارت أمريكا ظهرها له أنهت حياته السياسية والمعنوية والإنسانية؛ ألقته في السجن عشرات السنين ثم أرسلته إلى سجون فرنسا، ثم أعادته إلى بنما للسجن مرة أخرى، هذا هو صديقهم. نفس الشيء حدث لـ«موبوتو» في الكونغو – كان حليفهم الإفريقي الكبير، لكنه مات بالسرطان في المنفى في مستشفى قذر وموبوء في المغرب».

««فرديناند ماركوس»؛ الذي تفوق في خدمة أمريكا في جنوب شرق آسيا، لقي نفس مصير «موبوتو». حتى الشاه، الذي قام بدور الشرطي الأمريكي في الخليج وحافظ على الاستراتيجيات الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتي، وكان الداعم الوحيد لإسرائيل في الشرق الأوسط لم ينجُ بدوره، وكانت نهايته مثل «موبوتو» و«ماركوس»، استخدمت أمريكا صدام حسين لتشل حركة الثورة الإيرانية في حرب دموية، جالبة الفقر للمنطقة ومانحة البترول لأمريكا بأسعار أقل من سعر الماء في الدول المنتجة للبترول».

«الدرس هو أن أمريكا تخدم مصالحها فحسب، والمال الذي تأخذه أمريكا من الدول المنتجة للبترول في الشرق الأوسط يكفي لتحويل الشرق الأوسط إلى جنة، وعندما كان جالون البترول؛ وهو حوالي ٣,٧ لترات، يُباع في الولايات المتحدة بدولار واحد، كان ثمن اللتر في دول الشرق الأوسط، المنتج له في مصر وشمال إفريقيا نصف دولار؛ هذا أمر غير منطقي بالمرة، لكن الأمريكيين قد وضعوا في جيوبهم حكام الدول الخليجية التي تملك البترول، وهؤلاء الحكام يرون في أنفسهم أصحاب هذا البترول لا لشيء سوى أن أجداد أجدادهم قد أخضعوا بعض قبائل الصحراء ذات يوم بأسلحة زوّدهم بها الإنجليز».

«الملك عبد العزيز آل سعود، على سبيل المثال أطلق اسمه على البلد وشعبها فأصبحت – المملكة العربية السعودية».

«ماذا لو حكم أمريكا «الملك جورج واشنطون»؟ أو حكم بريطانيا «الملك ونستون تشرشل»؟ وتولت أسرتاهما الأمور إلى الأبد، وأصبح الآخرون كلهم عبيدًا لهم؟ أنا أحاول توضيح الأحداث. لست ضد هذه الجنسية أو تلك».

«الإخوان المسلمون؛ وأنا منهم، نعتقد أنه على الرغم من جلاء البريطانيين عن المنطقة منذ وقت طويل، فإن نفوذهم ونفوذ مخابراتهم حتى الآن أقوى من الـ«سي آي إيه»، وبهدوء وصمت، ما زال البريطانيون يملكون جميع المفاتيح، حتى في إيران، يعرفون أفضل مما يعرف الأمريكيون. حتى أثناء حُكم صدام حسين، كانوا يعرفون

أكثر. هذا شيء مستقر في التاريخ البريطاني، في إمبراطوريتهم، وهو متماسك في صمت. لقد انغمس البريطانيون في الشعوب التي سيطروا عليها، وكثير من الأمور تدور ولا يعرف عنها أحد شيئًا. هناك كثير من الأسرار في الماضي وسوف تكون للمستقبل أسراره».

«كنت في زيارة أحد أعضاء مجلس الدفاع الأعلى في طهران ووجدت على مكتبه ملفًّا كُتب عليه بالفارسية «أسارى مصري»، وسألته: هل يعني ذلك أسرى مصريين؟ فأجاب: نعم. هناك سبعة عشر صيادًا مسكينًا من المصريين قُبض عليهم في جانب إحدى المعارك وظنوا أنهم جواسيس، ثم ثبت أن لا علاقه لهم بالحرب. فقلت له: فلماذا لا تُفرجون عنهم؟ قال: هناك إشكالات قانونية، وأيضًا بسبب استمرار الحرب. فعرضت عليه أن يدرس مع المجلس تسليمهم للإخوان ليعيدوهم إلى عائلاتهم. وفي المرة التالية أخبروني بالموافقة على أن أُذلِّل العقبات القانونية؛ فليس معهم جوازات سفر، وليس بين الدولتين تمثيل دبلوماسي أو مواصلات، وليس هناك وسيلة إلا أن يكون التسليم عن طريق دولة ثالثة. ووعدته بالتحرك، وأخذت منه قائمة بأسمائهم وقُراهم وأرسلتها للصحفي المشهور مصطفى أمين، وقلت له إن هؤلاء لا علاقه لهم بسياسة خاطئة أو مصيبة، ولا علاقة لهم بحرب أو سلم، وإن أسرى الحرب أمامهم قوانين دولية تتولاهم، وهلال وصليب أحمر يتعهدهم، أما هؤلاء الصيادون فليس لهم إلا الله، وأرى أن تساعد في هذا الموقف، وقد عهدناك تتلهف لنجدة المظلوم فما بالك بأسير أو سجين مصري في غير بلاده؟!».

«كتب مصطفى أمين رحمه الله في عموده «فكرة»، وذكر الأسماء التي أعطيتها له وأسماء قُراهم، وبعد أسبوع اتصل بي وكنت في المدينة المنورة، وقال إن أهالي الصيادين الذين قرءوا أسماءهم في مقالته جاءوا في شبه مظاهرة أمام مكتبه يسألون عن ذويهم، وإن وزارة الخارجية تطلب رقم تليفوني، فهل يعطيه لهم، ووافقت، فاتصلَتْ بي السفيرة المفوضة مرفت التلاوي وقالت إن السيد عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية كلفها بالاتصال بي لمعرفة السبيل للإفراج عنهم، خاصة أن العلاقات بين الدولتين مقطوعة بسبب حرب العراق، فقلت لها:

اطلبوا من الأستاذ عمر التلمساني مرشد الإخوان المسلمين أن يُرسل برقية للخميني يُتبعها بوفد، وسوف أقوم أنا بتسهيل مُهمّتهم. بعد أسبوع اتصلت بي السفيرة مرفت مرة أخرى وقالت: نريد اقتراحًا آخر من خارج مصر، فقلت لها: يمكن تكوين وفد من المراكز الإسلامية في أوربا يرسلون برقية للخميني، ثم يذهبون لطهران، وسأقوم بعمل التسهيلات والمقابلات لهم، فقالت: مَن تقترح من المراكز الإسلامية؟ فقلت لها: أكبرهم في ميونيخ ويديره الأستاذ محمد مهدي عاكف؛ وهو مصري مخلص مخضرم في أعمال الإغاثة، ويتبعه حوالي ١٥ مركزًا إسلاميًّا في ألمانيا، وعلاقاته متشعبة في كل أوربا، ومؤكد سيؤثر على الإيرانيين، ويمكنه تكوين الوفد في وقت قصير. بعد أسبوع أرسلَت السفيرة مرفت القنصل المصري في فرانكفورت (واسمه فخري) للأستاذ عاكف، وكان للأستاذ عاكف تجربة مريرة عندما كان جمال عبد الناصر يتفاوض مع الإنجليز للجلاء، وطلب المستشار المفاوض (واسمه إيفانز) مقابلة الإخوان لسماع رأيهم، وأخطر الإخوان عبد الناصر بذلك، فاقترح عليهم مقابلته ليُعرّفوه أن مصر كلها، بما فيها أكبر قوة شعبية في هذا الوقت تؤيد الحكومة، ولا يقبلون سوى الجلاء التام. ودارت الأيام وانقلب جمال على الإخوان واتهمهم بأنهم التقوا بالإنجليز ضد مصلحة الدولة».

«قص الأستاذ عاكف هذه القصة للقنصل، وقال له: أريد شيئًا مكتوبًا وأنا خادم مصر وأهل مصر من أسرى وغير أسرى، ولكن أريد تكليفًا مكتوبًا حتى لا أُتّهم بعد ذلك بأنني عميل لإيران في وقت تقف فيه مصر وكل الدول العربية في معسكر العراق ضد إيران. ووعد القنصل بإبلاغ الخارجية لإرسال تكليف مكتوب للأستاذ عاكف، ولكنه ذهب ولم يَعُد. ثم اتصل بي الشيخ محمد الغزالي رحمه الله وقال إن المخابرات المصرية طلبت منه التدخل، ويمكن أن ينتظروه في دمشق، وهل ممكن أن يُرْسِلوا الأسرى إلى دمشق حتى تُحَلّ مشكلة جوازات السفر؟ أي يركبون الطائرة من طهران إلى دمشق بدون جوازات. فقلت له: توكل على الله. وقابلته في طهران واشتكى بأنهم يسوّفونه منذ أكثر من أسبوعين بحجة أن الطائرات إلى دمشق توجد صعوبة للحجز عليها بعدد مقاعد كبير؛ لأن الإيرانيين يسافرون باستمرار لزيارة مقام

السيدة زينب في دمشق، والأسرى وهو ومرافقه ابنه الدكتور يحتاجون ١٩ مقعدًا بالإضافة لمقاعد المرافقين من الأمن الإيرانيين. وشعر الشيخ الغزالي رحمه الله أنه مجمد ولا يدري إلى متى سيصبر، فقلت له: قل لهم إن يوسف سيُحضر لي طائرة خاصه خلال ٢٤ ساعة تُقلنا إلى دمشق، فقال لي: هل تفعلها إن وافقوا؟ ولم يكن هناك حلٌّ آخر سريع، فقلت له: تأكد أنني لن أخذلك، وهم يعرفون أنني قادر على ذلك».

«وعندما قال لهم ذلك أعطوه الأماكن في اليوم التالي، وسافر بهم والحمد لله. ومن كشوفات أسماء الأسرى التي عندي أرى أن غالبية الأسماء من كفر الشيخ والمنزلة».

«في عام ١٩٩٦ تُوفيت والدة الدكتور ولايتي رحمها الله، وذهبتُ إلى طهران للعزاء، وفي طهران التقيت بأحد الأصدقاء القدامى؛ وهو الدكتور عبد الكريم الخطيب رحمه الله؛ أحد أهم الشخصيات المغربية التي لها تاريخ مجيد في حرب الاستقلال ضد فرنسا، ويعتبر من الشخصيات الإسلامية المعتدلة، وله باعٌ في الأعمال الخيرية والاجتماعية والسياسية، وهو منفتح على كل الفعاليات في العالم الإسلامي والعربي رحمه الله».

«وبعد العناق والقُبَل قال لي: أنا أبحث عن شيء هنا ولا أعرف أحدًا يساعدني فيه، ولعل الله كتب لنا هذا اللقاء هنا للخير. وانتحى بي جانبًا بمفرده حيث كان معه مرافق وقال لي: أنت تعلم أن العلاقة بين المغرب وإيران سيئة مثلها مع باقي الدول العربية ما عدا سوريا، وهذه القطيعة ليست في صالح الإسلام والمسلمين، وإن استطعت أن أوجد قناة هنا قد أتمكن أن أبني عليها لإصلاح ذات البين بين دولتين إسلاميتين قد تؤدي إلى ما هو أكثر لصالح الإسلام والمسلمين، وأنا أعلم أن لك صلات هنا بالمسئولين، فهل يمكن أن تُعرفني بأحدهم لأبدأ في دراسة خطواتي وما يمكن أن أفعله؟ الواقع أن هذه مبادرة شخصية مني، ولكن آمل أن أولّد قناعات عندنا مع المسئولين إن كان الطريق ممهدًا».

«أخرجت من جيبي إحدى بطاقاتي الشخصية، وكتبت خلفها اسم الدكتور عبد الكريم الخطيب، واسم الفندق الذي ينزل فيه ورقم غرفته وتليفونه، وأخذته معي إلى عزاء الدكتور ولايتي في أحد المساجد وتقدمته في طابور مصافحة أهل المتوفاة رحمها الله والدكتور الخطيب خلفي حتى وصلنا إلى الدكتور ولايتي، ولم يكن يعلم أني في طهران، ولم يصافحني فقط مثل الغير، ولكن عانقني وتوقّف الطابور وعرّفته بالدكتور الخطيب، وأكدت على ضرورة مقابلته، فسأل أين ينزل، فأعطيته بطاقتي التي كنت جهزتها».

«عرّفت الدكتور الخطيب بآخرين لخدمته؛ فقد كان غريبًا عن كل شيء، وسافرت وتركته ليكمل مهمته، وأحمد الله أنه فعل، وبدأت الرسائل والوفود بين الدولتين حتى أعيد التمثيل الدبلوماسي بينهما. رحم الله الدكتور عبد الكريم الخطيب فقد كان رجل الجهاد.. رجل السياسة.. رجل الخير والرحمة، وكان مع الله وكان الله معه».

«وكما قالت لي زوجتي: أهم عامل يجعل المرء على صواب أن هناك شرطيًّا بداخله؛ فالله يراه أينما ذهب، والله يرى ما يفعله، وعندما لا يراك أحد يبدأ عمل الشيطان».

«في عام ١٩٩٤ استعَرَت الأمور الشخصية في الجزائر بين قيادات جبهة الإنقاذ وغيرها من التيارات الإسلامية عندما نجح الإنقاذ في استقطاب الشارع السياسي ورفضوا التعاون مع غيرهم من التيارات الإسلامية الأخرى وأعلنوا أن الجميع يجب أن ينضموا تحت لوائهم ويَقْبَلوا قيادتهم».

«وقد رأى بعض قيادات التيار الإسلامي الآخرين أن قيادة جبهة الإنقاذ ركبها الغرور وتتصرف بحسابات خاطئة، وسوف يؤدي ذلك إلى صِدام حتمي مع التروكيا العسكرية المتحكمة في كل شيء (جيش، بوليس، سلاح، بترول، غاز، اقتصاد، بنوك، زراعة، صناعة، استيراد، تصدير، وأيضًا مساندة من القوى الخارجية الأوربية والأمريكية)».

«وحاولت القيادات الإسلامية الأخرى تقديم النصح أو إيجاد البديل فأعلنت جبهة الإنقاذ الحرب عليهم، وكانت الشخصية الإسلامية التي ركز زعماء الجبهة هجومهم عليها هي محفوظ نحناح رحمه الله وجماعته، حتى بلغ الأمر أن ضربه أعضاء الإنقاذ بالأحذية في أحد المساجد، ولحساسية علاقتنا مع محفوظ هو وجماعته تحركنا بهدوء بدون الظهور على الشاشة، ولكن بالتنسيق معه، وأوجدنا القناعات عند بعض الشخصيات المحايدة المحبوبة من كل الأطراف للتوسط، وظللنا نتابع ونُحرّض على الصلح بطرق تظهر أنها غير مباشرة، وتجعل هذه الشخصيات تشعر أنها تتحرك بوازع شخصي وليس بتحريض منّا».

«ونشهد بأن محفوظ تحمل الكثير مما لا يمكن قبوله إلا إذا استدعينا معنى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفضل ألا تصيب جماعته شظايا انفجارٍ مُقبلٍ ليس لمُفجّريه القدرة على حسابات نتائجه، وابتعد هو وجماعته وانتظر حتى يهدأ الغبار، أما زعماء جبهة الإنقاذ فقد تابعنا علاقتنا بهم لعلنا نستطيع إيجاد قناعات لديهم يوما ما بالتأني وتفادي الكوارث، ليس فقط لهم أو للحركة الإسلامية برمتها، بل وللشعب كله، وكان ما كان وقُبض عليهم واستعَرَت حملة الجيش ضدهم وضد كل مناصريهم؛ سواء من رفع السلاح أم أعلى صوته».

«وجاء محفوظ إلى كومو الإيطالية قُرب الحدود، ولم تكن معه تأشيرة دخول سويسرا فذهبت إليه وقابلته، وكان يرافقه أبو بكر قدودة، شرح لي الوضع وخطورة القادم على البلاد، وسأل: هل هناك وسيلة لإقناع عباس مدني وعلي بلحاج بمحاولة التفاهم مع الرئيس زروال لإنقاذ البلاد؟ فقلت له إن أمكنك أخذ إذن لي لزيارتهم في السجن فأنا مستعد، فقال لي: رتّب أنت أمورك معهم وأنا سأرتب مع الرئيس ورجال أمنه».

«اتصلت برابح كبير في ألمانيا؛ وكان أهم شخصية لجبهة الإنقاذ في أوربا وعلى صلة سرية معهم في السجن، وطلبت منه أن يسألهم عن استعدادهم للقائي إن وافقَت السلطات. واتصل هو بهم وأبلغني بترحيبهم باللقاء».

«فـي اليـوم التالـي كان محفوظ فـي انتظاري فـي المطـار، وبعد العنـاق قال لي: سـنلتقي فيما بعد فهذه حدودي. واختفى، وحضر شـخص آخر بملابس مدنية وأنهى الجوازات وحمل الشنطة وأخذني إلى فندق «أوراسي»، وقال لي: خلال نصف ساعة سـيتصل بك المسـئولون. وفعلًا حضر من اصطحبني إلى فيـلَّا وجدت فيها محفوظ ومعـه «الجنرال بتشـين» وقدمه لـي أنه المكلف مـن الرئيس زروال. بعد اسـتعراض الوضـع الأمني وخطورة الأوضاع، سـألني «بتشـين»: هل الإخـوة يعلمون ويوافقون على زيارتك لهم؟».

«أنا أتحدث إلى المسئول عن المخابرات، قد يكون السؤال التالي: كيف عرفت؟ وكيـف اتصلت بهم؟ وندخل في لعبة القط والفأر، وقد يكون الأمر أنه غرر بمحفوظ وبالتالـي بـي، قلت لـه: هذا مـا فهمته ولنتأكـد، هل يمكـن أن أكلمهـم بالتليفون في سـجنهم؟ فقال: سـأطلبهم لك. وفعـل وأعطاني السـماعة، فكان عبـاس مدني على الخط فذكرت له اسمي فرحب بي وسألني أين أنا، فقلت: سأزورك بعد قليل، فرحب مرة أخرى وشكر».

«أخذنـي المرافـق، وعنـد وصولنا إلـى فيلَّا بعد الحديقـة مررنا على جهاز أشـعة إكـس، ثـم التقيـت بهم. والفيـلَّا مؤثثة أثاثًا فاخـرًا ومُرَتَّبًـا، ولا يمكـن أن يكون بيت أحدهم مجهزًا بهذه الفخامة، وفورًا حضرت في ذاكرتي زنزانتي في السـجن الحربي فـي مصر عام ١٩٥٤، وقلت في نفسـي: هذا سـجن سـتة نجوم. ولمّـا امتد الحديث قلـت لهم: لَعَلِّـي أقضي الليلة معكم حيث إني أغادر غدًا، وخرجت من الغرفة لأخبر المُرافق أن يسـتأذن لي من الجنرال فكلمه بالتليفون ووافق مشكورًا، واستمر النقاش بعـد العشـاء حتى الثانية صباحًا، وذهـب كلٌّ منّا إلى غرفته لقليل مـن النوم، ثم التقينا مرة ثانية في الرابعة والنصف لصلاة الفجر، ثم استمر النقاش مرة أخرى حتى العاشرة صباحًا بعد الإفطار».

«وكانت أهم الأهداف عندي:

١ ـ المحافظة على هيبة الدولة وتفادي تفككها.

٢ ـ أفضل وسيلة لكسب الحرب هو تفاديها.

٣ ـ يجب أن يكون هناك حلٌّ يتفادى أن يكون هناك غالب أو مغلوب.

٤ ـ وإذا شعر كلٌّ من الأطراف أنه رابح فسيمكن التعاون بينهم في المستقبل.

٥ ـ يجب أن يتغير أسلوب الخطاب الذي يستعمله قادة الإنقاذ مع الدولة، لأنه أسلوب بدائي وقح. ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾، ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

٦ ـ الإفراج عن المعتقلين وعودة المغتربين وعدم الاعتداء عليهم بعد الإفراج عنهم.

٧ ـ الاتفاق على البدء في آليات انتخابات تعيد الحياة النيابية إلى مجرى دائم.

٨ ـ معالجة الكراهية والحقد الاجتماعي.

٩ ـ إنقاذ اقتصاد البلاد ومنشآتها.

١٠ ـ الحذر من تعدد جيوب أدعياء الإفتاء وانتشار خلايا متفرقة ممن سيسمون أنفسهم مجموعات إسلامية باسم الفتاوى والشرع وتصاعد تجاوزاتهم باسم الشرع مما يضر بالشرع نفسه».

«وعرضت الأمر كما تصورته على الحكومة، ثم عندما ذهبت إلى الطرف الآخر، وبعد صلاة الفجر بدأت في تسجيل طلباتهم وملاحظاتهم:

١ ـ الإفراج الفوري عن شيوخ الحركة لتمكينهم من استشارة باقي فعالياتهم، وتمكين مراسليهم من السفر.

٢ ـ رفع حالة الطوارئ وإيقاف حملات التمشيط والمتابعات.

٣ ـ إعادة الاعتبار إلى الانتخابات السابقة البلدية والولائية والتشريعية.

٤ ـ منع الجيش من التدخل في السياسة.

٥ ـ الاتفاق على حكومة انتقالية أو مجلس سيادي مؤقت يضم كل الفعاليات السياسية.

٦ ـ إجراء انتخابات رئاسية».

«وقـرأ لي علي بلحاج رسـالة كان قد أرسـلها إلى الرئيـس زروال، والحقيقة أنني أصابنـي الهلـع والتشـاؤم من الأسـلوب الـذي كُتبت به؛ فليـس في الإسـلام ما يبرر اسـتعمال مثل هذه الألفاظ مع المسـيطرين على مقاليد الدولة مهما كانت الأسـباب، ورغم شعوري بأنهم أناس مُتديّنون وفيهم تقوى، وممكن أن يقال إنهم يَصْلُحون في المظاهرات ولكن لا يمكن بأي حال أن يُطلَق عليهم ساسة».

«وجـاء المرافق وعدت مرة أخرى إلى السـلطة فوجدتهم يسـمعون ولا يُجيبون، وتغيرت الاتجاهات خلال هذه الأربعة والعشرين ساعة.. وتوقف الديالوج».

«وعلمـت فيمـا بعـد أن بعض القـوى المُتحكمـة في الجزائـر بلغها نبـأ وجودي وأسـبابه فتحركَتْ بسـرعة خلف الكواليس، وجندَتْ كل إمكانياتها، واستمر الاقتتال في الجزائر بصورة أكثر وحشية والعياذ بالله».

الفصل الخامس

عاصفة في الرمال

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾.

سورة الإسراء، ٣٤

«كل الاتفاقيات بين الدول الكبرى تصبح غيرَ ملزمة عندما تتعارض مع كفاحها من أجل البقاء».

أوتو فون بسمارك، ١٨٧٢

«المعاهدات مع غير المسيحيين لا قيمة لها».

البابا نيكولاس الرابع لملك هنجاريا

ليس الشـرُّ غريبًا على يوسـف نـدا؛ فلقد تحداه وجهًا لوجـه وحاربه طول حياته. ولأن رسـالته في الحياة أن يجلب بعض التعقل إلى عالم تسـوده الصراعات والموت كان عليـه أن يواجـه كل مظاهـر مـا نسـتطيع فعلـه ببعضنـا البعض، وهو يكـره بصفة خاصـة المنـاورات الدائمـة لإبقـاء التناقضات بين السُّـنّة والشـيعة: أو ما يسـميه هو بالحرب الزائفة.

هـذة التكتيـكات القائمة علـى المصالح الذاتيـة أبقت على التـوازن بين الممالك وغيَّـرت التاريـخ، ومما يثير الجدل أن يوسـف لديه حلٌّ مشـوق: «لدى السُّـنّة أربعة مذاهـب فقهيـة: المالكـي والشـافعي والحنفـي والحنبلي، مـن الأفضـل أن نقول إن

المسلمين، وليس السُّنّة وحدهم، لهم خمسة مذاهب، وذلك بإضافة المذهب الشيعي الجعفري، الذي يمثل أغلبية الشيعة ومعظم أتباع الشيعة المعتدلين، وقد ألف أحد علماء الشيعة اللبنانيين (واسمه جواد مغنية) كتابًا سماه «الفقه على المذاهب الخمسة»، ورغم وجود ثغرات فيه ويؤدي إلى ردود أفعال غير حسنة، ولكنه بداية يجب البناء عليها، وبقبول الاختلافات والتسامح سوف يتصالح الجميع».

«إن الشيعة منذ أن تعاون علي بن أبي طالب ابنُ عم الرسول وعمل مع الخلفاء السُّنّيين بل وبايعهم ، كان يجب عليهم ألا يستخدموا اسمه لإثبات ما لم يفعله البتة؛ بأن يرفضوا الخلفاء الثلاثة من قبله، وكلهم قد انتقلوا إلى الرفيق الأعلى ورحلوا عنا وليس هناك جدوى أن يتقاتل أنسالهم بالنيابة عنهم ١٤٠٠ عام، ويمنعوا وحدة أتباع الدين الواحد. والمذاهب الخمسة جميعها تؤمن بنفس الإله ونفس النبي وتؤتي الزكاة، وتؤمن بالقرآن، وتُصلي نفس الصلوات وتصوم نفس الصيام. والذين خانوا أجيال المسلمين وفرّقوهم على مدى خمسة عشر قرنًا ينبغي ألا يحلموا بدخول الجنة، إن جامعة الأزهر؛ التي نشأت في المسجد الذي يحمل نفس الاسم والقائم في القاهرة منذ ألف عام، هي مركز الفكر والدراسة الإسلامي الأول في العالم (فهي لكافة المذاهب الأربعة في مقام أكسفورد وكمبردج في الغرب). وللأزهر مبعوثوه في كل مكان، وقد خسر الأزهر جانبًا كبيرًا من مكانته عندما وضع عبد الناصر مساجده وكلياته تحت السيطرة الشديدة للدولة. (ولكن مؤخرًا، بسقوط مبارك في ٢٠١١، بدأ الأزهر يحاول إعادة بناء نفسه كقوة في السياسة المصرية والمجتمع المصري وفي الفكر الإسلامي السُّنّي؛ مثلما أدى سقوط صدام حسين منذ ثمانية أعوام مضت إلى فتح عالم جديد أمام فقهاء الشيعة). ومن المؤسف أن شيخه الذي عينه مبارك وكان من أعضاء حزبه تورط في مساندة مبارك في محاربة الطلبة الإسلاميين عندما كان رئيس جامعة الأزهر، وحرم بعضهم من الدراسة وتسبب في سجن البعض الآخر إرضاء للدكتاتور ورجال أمنه الفاسدين، وبذلك اقترف الفساد والإفساد وتواطأ مع الطاغي هو ورجاله في محاربة الإسلام وأبنائه، فهل مثل هذا يستحق أن يتحدث

باسم الإسلام أو يمثله؟ حاشا لهذا الدين العادل. إن وجوده في هذا المكان وصمة للمكان، وصمة لا يجوز أن يوصم بها شيخ للأزهر».

ومع ذلك، فقد كان لدى الأزهر صلاحية إصدار الفتاوى الدينية، لكن لم يتبع الجميع طُرق الأزهر، إن التفكير والتفسير المتناقضَيْن للإسلام قد أدّيا إلى مشكلات كثيرة العدد، ويعتقد يوسف ندا أن بعض الأيديولوجيات وبعض طرق النظر إلى الدين الإسلامي وفهمه قد وُضعت للحط من شأن هذا الجانب أو ذاك، فنشأ ذلك الاتحاد غير المقدس بين السياسة والدين.

«عندما اعتلى فهد بن عبد العزيز عرش المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٢ توسع في افتتاح جامعات في المملكة لتدريس الإسلام حتى لا يعتمد على ما يُدرس في مصر، وكانت بداية ذلك في عهد الملك فيصل، ودعمت الجامعات السعودية بالمال والمِنَح الدراسية وأوجدت لنفسها طريقتها المتشددة في تفسير الإسلام، واستخدمت كسلاح ضد [أفكار] عبد الناصر عندما بدأت دعوة عبد الناصر للقومية العربية تتردد أصداؤها من المغرب إلى العراق ومن سوريا إلى اليمن، أصبح حكام السعودية في مأزق؛ قال عبد الناصر في أحد خطاباته: سوف نُسقطهم حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة. (والكعبة محرم فيها القتال لا يُسمح لأحد، وبالتأكيد إذا كان مسلمًا، بالقتال فيها)».

«إن السعوديين هم القوّامون على مكة، وقد بدءوا ينشرون صيغة فهمهم للإسلام، وقالوا إن تأييد المسلمين للقومية حرام لأن الناس كلهم سواسية أمام الله والإسلام لا يسمح بالقومية وهذه الفكرة ليست من تعاليم المسلمين. هذه سياسة. وقد استعمل السعوديون الدين في كل شيء لدعم أعمالهم وأقوالهم».

«حدثت التفرقة ضد الشيعة لأن الصيغة السعودية من الإسلام انتشرت خلال منطقة الخليج؛ فعقيدة الشيعة بالنسبة لهم انحراف عن الإسلام الحقيقي، وكثير من الشيعة عندهم نفس النظرة بالنسبة للسُّنّة، لقد مضى عبد الناصر بقوميته منذ زمن طويل، وكذلك الشاه، لكن في عام ٢٠١٢ ما زالت التفرقة مستمرة، وما زالت تستخدم. ليس الخطأ خطأ السعودية أو السُّنّة أو الشيعة؛ فلهم أن يدافعوا عن أنفسهم، لكن

الجماعات والشعوب ذات المصالح الذاتية سوف تسكب الزيت على النار دائمًا، والمجانين سوف يستدعون الجنون باسم الدين ويستخدمونه لتبرير أخطائهم؛ فكأنه مثل صندوق إشعال فحم المدفأة، والتحدي المستمر يكمن في منعه من التحول بذاته إلى كتلة من اللهب».

«عندما عاد خميني إلى إيران، شجع الإخوان النظام على إجراء الحوارات بين علماء الشيعة والسُّنّة ووافق الجميع، لكنها ما كادت تبدأ حتى انفضّت. اتُّهِمت إيران بـ«تصدير الثورة»، وبرغبتها في زعزعة استقرار البلاد العربية. ولم يكن هذا كذبًا، أو افتراء عليهم، وتقرر أن أي مباحثات بين الشيعة والسُّنّة خطر على الأمن. وجُمِّدت المباحثات».

«كوّن آية الله خميني لجنة للتقريب بين المذاهب، وطلب من الإخوان المسلمين المشاركة، وقد أعطاني المرشد العام الصلاحية لذلك، لكنني لم أستطع التقدم بمسألة دينية فلست من رجال الدين. كان عليَّ أن أقدم المسألة السياسية، كان الأمر واضحًا: إن رئيس الحكومة لا يستطيع أن يقول للمرجع الديني ماذا يفعل أو ماذا يقول، فالمرجع يجب أن يقول ما يريده الإسلام، ويجب أن يختاره الناس ولا يُعيّن من قِبَل الحكومة».

«فالدولة ورجال الدين يجب أن يكونا كيانين منفصلين عن بعضهما تمامًا، استقلال الديني عن السلطوي، ولو افترضنا أن رئيس الدولة قال لبابا الفاتيكان مهددًا إياه بالقتل: أُعلن تحريم التعامل مع العرب، فإن فعل البابا ذلك فهذا ما تريده الدولة، وليس الدين. بهذه الكيفية تسير الأمور في المملكة العربية السعودية؛ ففي كل وقت تتداخل اعتبارات كثيرة: السياسات، والدين تارة، والمصالح الشخصية تارة أخرى».

والمدهش أن الناس تهاجم غالبًا أولئك الذين يريدون مساعدة الغير؛ فقد رأى يوسف ندا بعينيه انشغال الإخوان المسلمين انشغالًا كبيرًا بأفغانستان عندما كان السوفييت يحتلونها.

«كان ثمة مجاهدون [في سبيل الله]، ولكن كان هناك أيضًا لصوص وقَتَلة، وجماعات غير منضبطة ومتهورة يقاتل بعضها بعضًا، بينما الحرب دائرة ضد

السوفييت. كان منهم قُطّاع طرق سواء كانوا شيعة أم سُنّة؛ سرقوا ونهبوا، وكانت بعض أخبارهم كالكوابيس التي نقرأ عنها في الحكايات».

«من ذلك أن الدكتور أحمد الملط (رئيس الجمعية الطبية الإسلامية، ونائب المرشد العام للإخوان المسلمين) كان يرسل أفواجًا متعاقبة من أطباء الإخوان المسلمين إلى أفغانستان للمساهمة في إنقاذ أرواح المصابين، كان الفوج يقضي مدة ثم يعود عندما يتسلم العمل منه الفوج الجديد، لكن مجموعة من المقاتلين الشيعة اختطفت أحد هذه الأفواج واتصل الدكتور الملط بي يتساءل عن إمكانية مساعدتهم».

«اعتقدت أن أفضل حل هو أن تتدخل إيران، وفي طهران التقيت بالسلطات وأخبروني أنهم سوف يتحدثون مع زعيم المنطقة التي منها الخاطفون واسمه المنصوري. وجاء الرد: إن الإخوان أغنياء ويجب أن يدفعوا فدية. وانفجَرْتُ؛ فلقد أغضبني ذلك القول للغاية. أيّ إسلام يقول بذلك؟! إيران تقول إنها دولة مسلمة ومع ذلك تنقل رسالة بأننا إذا كنا نريد فك أسرانا الأطباء فيجب علينا أن ندفع فدية».

«كان ذلك عارًا، كان عليهم أن يلاحقوا الخاطفين، ويعاقبوهم! كان هذا أدنى مستوى وصلت إليه العلاقة بيني وبين الإيرانيين، بعد أن تعاونّا معًا في أمور كثيرة فيما سلف، لكنها السياسة».

«ثم الحل جاء من عند الله: إذ هبّت عاصفة رملية وفرّ الخاطفون هربًا بأرواحهم تاركين الأطباء المخطوفين لمصيرهم، وتمكّن الإخوان الأطباء من الهرب من قبضة خاطفيهم، كانت نجاتهم سالمين إحدى المعجزات».

أثناء اشتراك الإخوان في أفغانستان كان يوسف ندا على صلة ببعض القادة الأفغان من أمثال برهان الدين رباني الذي زار ندا في منزله بسويسرا، وقد سبب هذا الاجتماع مشكلات للمضيف. عُيّن رباني فيما بعد رئيس دولة أفغانستان الإسلامية من عام ١٩٩٢ ولمدة أربع سنوات، وقد اغتيل بتفجير انتحاري في بيته بكابول في سبتمبر ٢٠١١. ولقد اجتمع رباني وأحد مساعديه مع يوسف ندا لمناقشة التعاون بين الفصائل الرئيسية التي كانت تقاتل السوفييت: برهان الدين رباني وقلب

الديـن حكمتيـار وعبد رب الرسـول سـياف ومحمد نبـي.. وكان اجتماعـًا وديًّا كما يصفة يوسف.

«وفي اليوم التالي أرسـل إليّ مسـاعده خطابًا يشكرني فيه ويخبرني بأنهم يعتبرون أنفسـهم جزءًا من الإخوان المسلمين، وطلبوا مني أيضًا المساعدة في الحصول على مستشـارين عسـكريين ومدافع وصواريخ وملابس عسـكرية وأجهزة راديو... وحتى الأحذية، وقد حمل الخطاب توقيع كلٍّ من رباني ومساعده».

«وعلـى الرغـم من جميـع اتصالاتي بهم، وبآخريـن مثلهم، فلم أُقحم نفسـي أبدًا في مناطق غير واضحة المعالم؛ وأتورط في مسـائل تتعلق بالأسـلحة؛ فأنا سياسـي، ولسـت متمردًا أو مقاتلًا، لم أنسَ على الإطلاق سـجن العباسية الحربي في القاهرة، وكيـف عُـذّب الناس فيـه، وقناعتي هي أننـي لا ينبغي أبدًا أن أتـورط في العنف حتى وإن كان هناك ما يبرره؛ فأنا أنتمي إلى الإخوان المسلمين؛ والجماعة حازمة في عدم تورط فرد منها في أي شيء يتعلق بالسلاح أو العنف. ولم أرد على رسالة رباني، وقد وجدها المدعي العام السويسـري في أوراقنا وسـألني عنها فأجبت أنني مسـئول عما أكتب لا عما يكتبه غيري».

ومـن وجهة نظر يوسـف ندا، يُعتبـر قلب الدين حكمتيار أهم شـخص في القضية الأفغانية؛ أقوى اللاعبين، وزعيم الحزب الإسـلامي الأفغاني؛ وهي جماعة سياسـية شـبة عسكرية كانت تحارب السـوفييت عند الحدود الباكستانية. ومن المعروف أنهم تلقوا كمية كبيرة من الأموال والمواد الحربية من باكستان والسعودية وأمريكا.

«إذا أراد أي شـخص تحقيـق السـلام فـي أفغانسـتان أو الوصـول إلـى أي وضع باسـتثناء الحـرب فعليه أن يتفـق أولًا مع البشـتون، أو طالبان، أو الحزب الإسـلامي الذيـن كانـوا جزءًا من قبائل البشـتون. كانـت طالبان في المراحل المبكـرة لتكوينها، وكانـت المحادثـات معهـا صعبة للغايـة. لم يكن الحزب الإسـلامي متسـامحًا لكن كان التعامـل معه أيسـر؛ كان قلب الدين حكمتيار بالمقارنـة متفتح العقل. كان وضعًا قبليًّـا معقدًا في وجود الفصائل وولاءاتها لطالبان وللحزب الإسـلامي، والأوزبك.. وبالطبع لأنفسهم».

«وفـي هـذة المرة قـال لي الإخوان: افعل كل ما تسـتطيع؛ فهـذه الحرب يجب أن تنتهي، كل يوم يُقتل مسـلمون بأيدي مسلمين. كنت أعمل بمفردي، أعطَوْني الإشارة ثـم بـدأت أعمل، لم يخبرني أحد مـاذا أفعل، اتصلت بقلب الديـن حكمتيار وذهبت إلى باكستان. في بيشاور استقبلني عضو من الحزب الإسلامي، ثم أخذوني من مكان إلـى مكان يسـلمني أحدهم للآخر دون حول لي أو قـوة، حتى وصلت في النهاية إلى مجموعـة من المباني ما زالت فيها حياة وتغمرها أضواء كاشـفة للتعرف على كل مَن يقتـرب منهـا، واصطحبوني إلى حجرة تشـبه المكتـب، كان بابهـا مفتوحًا ومنه دخل علـيّ قلـب الدين حكمتيار؛ المحارب الكبير ذو الابتسـامة الكبيرة. كان يعرفني؛ فقد اجتمعت به عدة مرات منها مرة في جنيف».

«وبدأنـا نتحدث علـى الفور، لم يكن لـديَّ وقت لأضيعه، كان يعلـم أن الإخوان لا يمكـن أن يدينـوه عندمـا يقاتل غزاة بلـده، لكنني كنت قـادرًا على بيـان قوة موقفه التفاوضـي. شـرحت له أن أفضل الطـرق أمامهم أن يأخذوا حقوقهـم لكونهم أقوياء ويتفاوضـوا. وواصلت القول: دعنا نفترض أن السـوفييت سـوف يرحلون الأسـبوع القـادم، عندمـا تصبـح مسـئولًا عـن البلد سـوف تجـد أناسًـا يموتون، وليـس لديك مستشفيات ولا مدارس، ولا طعام ولا طرق ولا مساكن، حتى الحقول التي سيذهب النـاس لزراعتها قـد امتلأت بالألغام، إنك في مأزق، أمـا إذا تحادثت الآن في الوقت الذي يريد فيه السوفييت الرحيل، فستطلب منهم إزالة الألغام وتعويضكم عما فعلوه».

«بينت له أنه عندما تكون ضعيفًا، فإن الطرف الآخر يُملي عليك، لكن عندما تكون قويًـا، فاذهـب وفاوض، خـذ ما تريد، لكن دون تضحيات، دون خسـائر. السـوفييت يريـدون المغـادرة – ولا يريـدون لرجالهـم أن يُقتلـوا أثناء انسـحابهم، كمـا يرغبون أن تكـون لهـم علاقـات طيبة مـع النظام الجديـد، وأن لا يصبح لهـم عـدو جاثم على حدودهـم. وسـألته: ما هـو الأفضل؛ أن يتولى أمـرَ دولة لـم تُدمّر بالكامـل بعدُ، أو أن يمثل دور البطل بإطلاق الصواريخ في الهواء؟! وقلت له: إنك ستسـتولي على أرض قاحلـة، وإذا كان الأمريكيون والباكسـتانيون يسـاعدونكم اليوم (بلَغَت المسـاعدات للأفغانييـن نحـو ٦٠٠ مليـون دولار أمريكـي من أمريـكا ومن السـعودية بطريق غير

مباشـر عبر أجهزة الاستخبارات الباكستانية)، فسـتصبح مشكلتكم بعد ذلك أنكم لن تملكوا شيئًا، فالمساعدات سوف تتوقف. قلت: إن كل واحد يَعتبر السوفييت الشيطان الأكبر؛ فلقد دمّروا كل ما كان أمامهم لكنهم ضعفاء، وعُدت إلى نفس القاعدة: عندما تكون قويًّا، فاوض، وأقل الأساليب تكلفة وأسهلها لكسب أي حرب هو اجتنابها».

أوضح يوسـف نـدا لحكمتيار أنـه إذا تحادث مع الـروس فباسـتطاعته أن يطالب بتعويضـات، لا صدقات. وقال له: اطلب إزالة جميع الألغام وتعويضكم عن الطرق، والمدارس والمستشفيات وكافة المرافق التي دمروها.

قال يوسف ندا إنه حاول إفهام قلب الدين حكمتيار بأن التعامل مع السوفييت ليس خيانة، وإنما ليحمي به مصالح الشعب والبلد: «كل حالة ولها متطلباتها، والأحاسيس شيء، أما الواقع فشيء آخر، وعليك أن تتعامل مع الواقع».

تحادث الرجلان ست ساعات تقريبًا، ثم قال حكمتيار ليوسف: أعتقد أننا نستطيع أن نسلك هذا الطريق، لكن ليست لديَّ وسيلة إلى ذلك، ليس لي اتصال بهم، بل على العكس، أنا أقاتلهم، كيف أستطيع التحادث معهم؟

كانت خطة ندا أن يقوم الإيرانيون بدور الوسطاء ويتحدثون مع السوفييت عن حل معقـول في محاولة لإنقاذ أفغانسـتان من دمار محقق، وطلب مـن حكمتيار أن يعطيه الفرصة لتنفيذ خطته.

«دعنـي أحاول أن أرى إذا كان الإيرانيون مسـتعدين للوسـاطة. لا يريد الإيرانيون أن يكون الأمريكيون والسـوفييت ضدهم، وإذا سـاعدوا السـوفييت فسوف يكسبون تأييدهـم لهم ضـد الأمريكيين. فأجـاب حكمتيار: وأنا أفوضـك أن تفعل ذلك، لكن دعني أتابعك خطوة بخطوة».

كان من المعروف في أنحاء الشرق الأوسط أن ليوسف ندا اتصالات مع الإيرانيين. «لي صلات بالكل، إني أستمع لكل واحد، ولا أغلق بابي أبدًا».

قال الإيرانيون إنه لا مانع لديهم، ووافقوا على اللقاء مع حكمتيار.

«ومنذ تلك اللحظة طلبت من غالب همت أن يسافر مع قلب الدين حكمتيار حتى يعامَل المعاملة اللائقة في المفاوضات». ويُفصّل ندا كلامه قائلًا: «كانت العلاقة بين الإيرانيين وحكمتيار غير طيبة، بل سيئة للغاية».

«تمكن غالب همت من قبل من ترتيب حمايته من الاستعلاء؛ من أن يعامل كواحد من تجار الحروب القاطنين الجبال».

«كانت الترتيبات أن يذهب بالطائرة للاجتماع بالإيرانيين، وبصحبته غالب همت. وقبل موعد الرحلة بثلاث ساعات تدخل الأمريكيون؛ إذ ذهب الأمير تركي بن فيصل آل سعود ليقابل قلب الدين حكمتيار، وكان الأمير تركي رئيس الاستخبارات السعودية وقد عمل مع الـ«سي آي إيه» والباكستان ضد السوفييت في أفغانستان، وقبيل مغادرة حكمتيار إلى طهران، أخذه الأمريكيون إلى الرياض، وانهار كل ما عملنا على بنائه».

«لم يتوقف القتل في أفغانستان، أراد الأمريكيون للحرب أن تستمر: كانوا يريدون أن يزداد نزيف السوفييت إلى أقصى ما يمكن، لم يرضوا لهم انسحابًا آمنًا. وقد حصلوا على ما أرادوا؛ واصل قلب الدين حكمتيار هجومه؛ قصف كابول، فمات عشرات الآلاف».

«تقاتل زعماء القبائل فيما بينهم حول مَن سيكون المُخلّص لكابول؛ فهو الذي سيتوَّج بطلًا. ثم بدءوا يقتلون بعضهم بعضًا، ومات المزيد من عشرات الآلاف. هذه الأحداث تثير الغضب ولكن يجب ألا تصيب المرء بالإحباط أو تُغير من نواياه الحسنة؛ فعندما تفعل كل ما في وسعك لمنع الرعب فيجب ألا تتحول عن أهدافك إذا لم تتمكن من منعه، عليك أن تكرر المحاولة وترجو النجاح في المرة القادمة، كما كان يفعل «روبرت ذا بروس» بطل تحرير إسكتلندا المشهور».

«كل ما أردته كان إيقاف العنف، كان هذا هو غرض الإخوان، ولهذا الغرض عملنا مع كل الفصائل».

«مير حسين موسوي خامنه؛ الذي عمل رئيسًا لوزراء إيران (من ١٩٨١ إلى ١٩٨٩)، ثم أصبح الآن زعيمًا للمعارضة، عندما أراد أن يجتمع مع قلب الدين

حكمتيـار وغيره وجد صعوبة في الاتصال بهم، فقمنا لـه بالترتيبات اللازمة، وزودته بأرقـام الهواتـف، والأماكـن المطلوبة في بيشـاور، وعندمـا تمكن من بـدء التواصل انسحبنا نحن لنفسح له المجال للقيام بمهمته».

إن معتقـدات يوسـف ندا الراسـخة كانت وما زالت تسـانده عندما تتبـدد الآمال، لكنه إنسان، والحزن يطل من عينيه عندما يكون الحديث عن تعثر جهود كان نجاحها سيؤدي إلى إنجاز الكثير إنقاذًا للأرواح وحمايةً للبلاد.

إن تعقـد الأهمية المتوازية للدين والسياسـة في كثير مـن المفاوضات التي قام بها كرجل دولة باسـم الإخوان المسـلمين قد جعلته يحتاج إلى سرعة التفكير؛ ومحاولة إيجاد حل للمشـاكل بدلًا من اسـتبعادها لاسـتعصائها على الحل، وهو غالبًا ما ينظر إلى الماضي يستلهم منه الهداية، إن لم يكن الإجابات الكاملة، لكن نقطة البداية دائمًا عنده هي أن جميع الناس وجميع الأشخاص لا يختلف بعضهم عن بعض.

يقـول يوسـف ندا: «كثـر الحديث عـن أن الإخوان المسـلمين يريـدون أن يكون الخليفـة على رأس الدولة، وحتى الأسـتاذ البنا مؤسـس الجماعة نـادى بذلك، وظل الإخـوان يرددونهـا بدون بحث وتمحيـص؛ هذه مرحلة تاريخية لكنهـا لن توجد مرة أخرى أبدًا بسبب ما حدث من تغيرات في العالم والتاريخ الإسلامي والواقع، وكذلك بسـبب الطريقة التي حَكم بها المسـلمون بعد الخلفاء الأربعة الراشـدين الذين طلب الرسـول من المسلمين اتباعهم، وبعد الراشـدين قامت إمبراطوريات مسلمة عديدة، وليسـت أمة مسلمة. كان ذلك أشبه بشعب تحكمه أسرة حاكمة؛ كانت إمبراطوريات مسـلمة عربية ثم تركية يرأسها رجال أقوياء وأُسـرهـم أو قبائلهم، وكان رئيسهم يمنح نفسه لقب الخليفة».

«كان الخليفـة فـي عصر الراشـدين حَكَمًا وصاحـب القرار النهائـي، وهناك قصة مشـهورة فـي مصر: عَيَّـن الخليفة الثانـي عمر بن الخطـاب واليًا له علـى مصر؛ وهو عمـرو بن العـاص، وذات مرة جاء رجل من أهل مصر يشـكو ابن عمـرو بن العاص واليـه علـى مصر قائلًا: يا أميـر المؤمنين عائذ بك من الظلم. قـال: عذت معاذًا. قال:

سابقتُ ابنَ عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه. فقدم عمرو، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال عمر للمصري: اصنع على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنُه الذي ضربني وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني».

ابن الحاكم!! ابن المحكوم!! الجميع متساوون بصرف النظر عن الطبقة الاجتماعية أو الدين، هذه هي العدالة».

«لكن بعد الخلافة الراشدة، حَكَم الطغاة من بني أمية (أول أسرة حاكمة لبلاد المسلمين) كل المجتمعات والبلاد الإسلامية، وتلتها الأسرة العباسية على نفس المنوال، والماضي مليء بالطغاة الذين صنعوا إمبراطوريات: الرومان واليونان والعرب والأتراك. وقد حفروا أسماءهم في التاريخ، واستطاعوا أن يحكموا أجزاء ضخمة من هذا الكوكب. درست معظم هؤلاء ولم أجد أحدًا منهم يُقارَن بالخلفاء الراشدين في عدلهم وإخلاصهم واحترامهم لكرامة الإنسان».

«وبعد قرون من الاستغلال، طور الناس نظمًا تمنع البشرية من الطغيان، وأعتقد أن أفضلها هي الديمقراطية، ولا أرى أي تعارض بين الإسلام والديمقراطية، الإسلام دين لكن الديمقراطية أداة، الإسلام يطلب من كل مسلم أن يطبق أحكامًا توفر الحرية والعدالة، ومع كل عيوب الديمقراطية وأوجه قصورها فإنها بُنيت على تقسيم السلطات والفصل بينها من أجلِ الوصول إلى العدل. حتى لا يستطيع شخص واحد أن يجمع في يديه كل السلطات.. ويصبح طاغية».

«وبعد الخلفاء الراشدين الأربعة انحرف نظام الخلافة وأصبح لا يمكن مقارنته بما كان عليه من قبل، واليوم لا يعمل نظام الخلافة ولا يمكنه تحقيق القيمة العليا في الإسلام؛ وهي العدل. لا أجد في القرآن أو السنة ما يفرض على المسلمين حكم

الخليفة، وإنما أجد أسمى قيم الإسلام: العدل والمساواة، وأي نظام يضمن هاتين القيمتين يقبله الإسلام».

«المسلمون اليوم موجودون في كل مكان في العالم؛ في الباكستان وأفغانستان وإندونيسيا والولايات المتحدة وبريطانيا والشرق الأوسط والصين.. في كل مكان. وحيثما كان الفرد فهو يحب أن يحافظ ليس على دينه فحسب، وإنما على تقاليده وعلى حياته الأسرية والعلاقات التي تربطه مع الآخرين أيضًا. ووجه الاختلاف أن لديهم أسلوبًا فرديًّا نابعًا من مجتمعهم ينبغي على كل واحد أن يحترمه. لا يصح أن تشكو من أن المسلمين لن يكونوا صورة مستنسخة من الغربيين، لا يمكن أن تتوقع منهم التخلي عن تاريخهم أو عواطفهم الشخصية أو الخاصة، إن الاختلافات موجودة حتى بين المسلمين أنفسهم.. مثلما هو الحال في كل مجتمع غربي؛ فالعقلية الإيطالية، على سبيل المثال، منفتحة بينما العقلية السويسرية محافظة».

«إن نزعات الغرور والأنانية والكبر هي التي تجعلنا نظن بأن على الجميع أن يكونوا مثلنا، وهذا ليس من العدل في شيء، ولن يحقق لنا شيئًا، هناك جدال في الغرب حول المساجد وعن أناس يصلون في الشوارع، لكن ماذا يفعلون إذا لم يجدوا مكانًا آخر يصلون فيه؟! طالما كانوا جزءًا من المجتمع، فيجب عليك أن تساعدهم على أن تكون لهم خصوصياتهم وأماكنهم وغرفهم الخاصة للصلاة. فإذا منعتهم من ذلك فأنت تُوجِد شعورًا بالتميز. في التاريخ الأوربي كان البروتستانت في فرنسا يضطرون إلى الذهاب إلى الشوارع الخلفية حتى يتمكنوا من الصلاة، نفس الشيء هو ما يحدث الآن: عدم احترام الغير».

«المسلمون متهمون بأنهم يريدون تغيير الغرب، لكنهم يريدون أن يُحكم عليهم كأناس يريدون احترام الآخرين، يريدون أن يتساوَوا مع الآخرين، عندما تستفز شخصًا ما فإنه يتصرف بخلاف طبيعته. قد يتطاول عليك بعضهم في القول، أو يضربك أحدهم، لكنك عندما تستفز الآخرين فعليك أن تتوقع منهم الرد».

«كل مَن ينكرون على الآخرين حقهم في الاجتماع على ما يعتقدون أو حريتهم في التفكير، لماذا يفعلون ذلك؟ قد يرضى البعض بالعيش دون حرية، لكن ينبغي أن

تتوقع أن لا يقبل غيرهم ذلك. هذا سوف يخلق الكراهية، والكراهية ستولد التمرد والتمرد سوف يخلق الجرائم».

«يجب ألا تعمى أبصاركم عن الاختلاف بين محاربة الأيديولوجيا ومحاربة الدين. إذا نظرت إلى التاريخ، فتأمل كيف حاول الرومان محاربة المسيحية، فزالت الإمبراطورية الرومانية واستمرت المسيحية، إذا حاولت محاربة الدين بالسلطة والقوة، فلن يكون النجاح حليفك. إنك تحتاج إلى تغيير من الطرفين؛ أن تحاول إيجاد طريقة يقبلُك بها هذا الدين، وأن تقبله أنت دون أن تتبناه، أنت لا تستطيع أن تجبر من يؤمنون به على تبني طريقك».

«إن أكبر حربين في التاريخ هما الحربان العالميتان الأولى والثانية، ولم تكن أيهما من حروب المسلمين، كلتاهما كانتا حروبًا مسيحية، وقُتل فيهما عشرات الملايين. ارجع إلى التاريخ وادرس الفظائع التالية:

- الصليبيون الذين ذهبوا إلى فلسطين وملئوا شوارع القدس بأنهار من دماء المسلمين.
- حروب الصليبيين في الأندلس وكافة أنواع الجرائم ضد الإنسانية التي ارتُكِبت ضد المسلمين.
- ما حدث لليهود في أوربا بين عامَيْ ١٩٣٢ و١٩٤٤.
- مقتل نحو مليون أفغاني ونحو مليون ونصف عراقي من المدنيين في مطلع القرن الحادي والعشرين، وما صاحب ذلك من تحول مليونَيْ زوجة إلى أرامل وخمسة ملايين طفل إلى يتامى.
- ما جرى في حرب الأفيون في الصين وحروب كمبوديا ولاوس وفيتنام.
- شحن السفن بالبشر من إفريقيا ليتم استعبادهم على الساحل المقابل من الأطلنطي.
- ما حدث في هيروشيما ونجازاكي».

«التاريخ لا ينسى ولا يغفر، سوف يخبرك التاريخ أن من ارتكب تلك الفظائع لم يكن من المسلمين، لم يكن من الإرهابيين المسلمين!! ولم يأتوا من الشرق الأوسط

أو آسيا أو إفريقيا، ولا يمكن تبرير هذه الأعمال دينيًّا، ما لم تحرف رسالة الله، أو تتعمد تأويلها تأويلًا غير صحيح أو تنحرف بها؛ فالذين ارتكبوا تلك الفظائع كانوا مخلوقات وحشية ومتوحشة، لم يكن ذلك من عمل الله، كان هذا من فعل البشر والبشر يخطئون، والسياسة والدين يتصادمان».

أصبح يوسف ندا منشغلًا في هذا النوع من النزاعات الذي وصفة آنفًا عقب الاضطرابات العنيفة بين الشيعة من إيران والسُّنّة من المملكة العربية السعودية في موسم من أعظم الأوقات عندهم جميعًا؛ ففي السنة السابعة من الحرب الإيرانية العراقية اشتبكت مجموعة من الحجاج الإيرانيين في اضطراب مع قوات الأمن السعودية في مكة في موسم الحج عام ١٩٨٧. وما زالت الأرقام موضع نزاع، لكن بعض التقارير ذكرت أن عدد الوفيات وصل إلى ٤٠٢؛ من بينهم ٢٧٥ حاجًّا إيرانيًّا و٨٥ شرطيًّا سعوديًّا، و٤٢ من الآخرين، ولكن المتفق عليه أن جميعهم من المسلمين. وأدت أخبار وفاة الشيعة الإيرانيين وتورط الأمن السعودي السُّنّي إلى اضطرابات في طهران، وهجوم على السفارتين السعودية والكويتية هناك، وفي مكة جرت معارك في الشوارع بجوار المسجد الحرام؛ قتال محرم تحريمًا تامًّا في الإسلام. كان ذلك عشية الحج: أحد أركان الإسلام وأكبر مناسبة في التقويم الإسلامي، كان الحجاج الإيرانيون في الأعوام الستة السابقة يسيرون في مظاهرة سنوية ضد إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، لكن في عام ١٩٨٧، قام أفراد الشرطة والحرس الوطني السعوديين بالاصطفاف مغلقين بذلك جانبًا من الطريق الذي أزمع المتظاهرون على سلوكه، فأدى ذلك إلى المواجهة، كانت لحظة صعبة أمام العالم، كان الغرب متوجسًا مما يراه من نمو الأصولية الإسلامية، وكان هناك توتر يحيط بالجهود الأمريكية لحراسة ناقلات البترول الكويتية عبر الخليج الفارسي.

وتحت هذة الطبقة من الخليط غير المستقر من المصالح المتعارضة كان احتمال اندلاع حرب شاملة بين الشيعة والسُّنّة: ما يعتبره يوسف ندا سياسة «فَرِّق تَسُد».

بدأت المظاهرات العنيفة عندما تجمهر الحجاج الإيرانيون عقب صلاة الجمعة في تظاهرة سياسية، وكانت السلطات السعودية قد قررت منع ذلك، ردد المتظاهرون

هتافات: الموت لأمريكا! الموت للاتحاد السوفيتي! الموت لإسرائيل! ورفعوا صور قائدهم آية الله خميني، وادعت إيران أن شرطة مكافحة الشغب السعودية أطلقت النار على «المتظاهرين الأبرياء».

وقبل بداية موسم الحج التالي لتلك الأحداث، أراد قادة الشرق الأوسط تلافي المشكلات في المدينة المقدسة في المستقبل، وتم الاتصال بيوسف ندا ليتوسط، وهذه المرة استطاع أن يغير أحداث العالم دون أن يغادر بيته في «كمبيوني»، تم حل النزاع في حجرة الجلوس التي تطل على بحيرة لوجانو، كان يحضر الاجتماع ممثل عن الملك فهد (علي بن مسلم ومعه اثنان من مساعديه)، وممثل عن الرئيس الإيراني علي أكبر هاشمي رفسنجاني (مصطفى فوماني)، مع اثنين من الدبلوماسيين الإيرانيين (حسين ملائك سفير إيران في سويسرا، وجواد ترك أبادي سفيرها في البحرين).

ويتذكر ندا ما حدث بقوله: «كانت العداوة مخيمة بظلالها على الاجتماع، وكان النزاع ما زال قائمًا واحتمال الحرب كبيرًا، واتُّخذت بعض الاستعدادات لموسم الحج التالي، كان الملك فهد قد أدخل توسيعات كبيرة في الحرم المكي، لكن لم يكن المكان ليتسع لكافة حجاج العالم؛ ولذلك أعطى السعوديون لكل دولة حصة تتناسب مع عدد السكان، وأدى ذلك إلى نقص العدد المسموح به من إيران. كان الحجاج من كبار السن يتوقون إلى الحج قبل أن يدركهم الموت، وكان لدى الإيرانيين قوائم انتظار تراكمت عبر السنين، وصلت المفاوضات إلى حالة من الجمود عندما تمسك كل طرف بموقفه. وعند ذلك قلت للسعوديين: «هم يريدون السماح لمئة وعشرين ألف حاج، وأنتم تقولون إن الحد الأقصى لما تستطيعون إعطاءهم هو ثمانون ألف تأشيرة حج، الفارق إذن أربعون ألف، لماذا لا تعطونهم هذه الآلاف الأربعين خلال الأشهر الأربعة «الحُرُم»، والتي يعتبرها الشيعة حجًّا أصغر إلى مكة؟».

«وقلت للإيرانيين أنتم تعتبرون الذهاب إلى مكة في الأشهر الحرم حجًّا أصغر لأفضلية هذه الفترة عن بقية شهور السنة الأخرى، فإذا وافقوا فإن السعودية لن يكون لها عذر لعدم إصدار تأشيرات لهذه الأشهر الأربعة. في البداية، عندما تقدمت باقتراحي، توقف الطرفان عن الحديث وكأن ألسنتهم انعقدت: لم يجدوا جوابًا، ثم

طلبوا استخدام الهاتف، ذهب السعوديون إلى غرفة نومي! بينما ذهب الإيرانيون إلى غرفة أخرى! طلب الأولون الملك فهد، وهاتف الآخرون الرئيس رفسنجاني. (لم يكن الموبايل قد ظهر)، وتم الاتفاق».

«لكن قبل ذلك، كان كل طرف يستعد لمعركة تدور في موسم الحج التالي، كانت المملكة العربية السعودية تريد أن تُظهر للعالم أجمع أنها تسيطر على أراضيها، وأن خميني لا يستطيع أن يفعل شيئًا، وإذا لم يكن هذا الاتفاق قد تم لتعرضت أرواح الآلاف والآلاف للخطر».

ويشرح يوسف ندا كيف كان التعامل مع آية الله خميني حساسًا على الدوام، وبسبب رقة شعوره كان من الممكن التأثير عليه، ومثال على ذلك قضية الكاتب سلمان رشدي، الذي مرَّ كتابه «أطفال منتصف الليل» الحائز على جائزة «بوكر» عام ١٩٨١ مرور الكرام، فلم يشعر به أحد في إيران، غير أن صدور كتابه «آيات شيطانية» في ١٩٨٨ أحدث ضجة كبرى هناك.

فعندما اتُّهِم رشدي وروايته بالتجديف والسخرية من الإسلام، أصدر المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية فتوى تطالب بإعدام رشدي. «وأقول لك صراحة، لقد أخطأ خميني؛ فقضية رشدي كانت تافهة، ولا ينبغي للحركة الإسلامية أن تشغل نفسها بها؛ لقد دُفع آية الله لهذا بخطأ عاطفي، فلم يكن في صالح العالم الإسلامي أن يعلن أن شخصًا ما سوف يقتل في الشارع».

ويصر يوسف ندا على أن قضية رشدي قد ساعدت الآخرين على التهويل في إظهار آية الله بمظهر «الجنون» في أعين الغرب. «ما إن أصدر آية الله فتواه حتى أصبحت موضوع العناوين الرئيسية، من وجهة النظر الإسلامية فإن هذا الرجل المضلَّل - سلمان رشدي - لم يقل أكثر مما تجده في سائر الكتب في أوربا؛ ولذا فإثارة قضية حول كلمات كتبها كان خطأً. وأن تطلب من الناس أن يذهبوا فيقتلوه أمر يثير الاشمئزاز، إنه أمر غير مقبول، بيد أنه اتخذ وجهة سياسية من كلا الطرفين».

«ويظل البريطانيون يتمتعون بتأثير ضخم في الشـرق الأوسـط بما فيه إيران، ولهم استخباراتهم «إم آي سيكس» وليست «سي آي إيه»، وهناك الكثير من التناقضات في حياتنا، وما نراه ليس دائمًا ما هو هناك، بإمكانك فقط أن تحاول صُنع الخير وسط كل العلاقات المعقدة».

الفصل السادس

تجار الحروب

«إذا لـم تبرهن على العلاقة بين حرب وما سبقها من سياسـات فلن تفهم من هذه الحرب شيئًا».

فلاديمير لينين

لـم يكن الصلاح يومًا مقترنًا بصدام حسـين، ولـم يقترفـه الرجل أبدًا، وكما يجري نهرا دجلة والفرات منسابين في أرض العراق، فإن أرضه محاطة من كل جانب بسوريا والأردن والكويت وتركيا والمملكة العربية السـعودية كما تحيط بها المتاعب من كل جانب، وفي كنف صدام حسين كان الشر مدعاة للأسف.

واتضـح ذلـك بفظاظة في تسـلق صدام حسـين العنيف إلى السـلطة، كانت وراءه العصبيـات القَبَليـة، أو تلـك الشـبكة البيزنطية من الروابط والمنافسـات التي تسـبب المشكلات للعالـم العربي، ثم إنه انضم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ليستخدمه كأداة توصله إلى السـلطة هو وابن عشـيرته أحمد حسـن البكر، واشترك الرجلان في انقلابات وعمليات تعذيب واغتيالات تم الكثير منها بالتعاون مع مدير الاستخبارات العسـكرية العراقية عبد الرزاق النايف، وبعد أسـبوعين من استيلاء أحمد حسن البكر على الحكم وتعيين صدام حسين نائبًا له طردا رئيس وزرائهما النايف خارج العراق، ثم أرسـل صدام مَـن اغتاله في لندن بعد ذلك، وبنفس الطريقـة تم التخلص من وزير الدفاع السابق اللواء حردان التكريتي في الكويت.

وبعد عشر سنوات «شجع» صدام قريبه البكر على الاستقالة من رئاسة الجمهورية ليتولى بنفسه المنصب في ١٩٧٩؛ أي حين بدأ آية الله خميني تغيير سياسات إيران.

وتسكن الدولتين أغلبيةٌ شيعية؛ وكان صدام سنيًّا لكنه لم يكن مسلمًا ملتزمًا، كما لم يعبأ بضحايا طموحاته أو حروبه قط، كانت الحربُ الإيرانية العراقية التي اشتغل بها بُعيد أن أصبح رئيسًا للعراق (كمدافع عن العالم العربي حلَّ فيه محلَّ عبد الناصر) مذبحةً طويلة الأمد. كانت الخسائر في الأرواح تفوق الحصر؛ فقد زاد عدد القتلى عن نصف مليون شخص، أما التكاليف المادية فكانت باهظة بمقياسين آخرين أولهما بلايين الدولارات التي بددتها الحرب، والآخر مقدار الغش والخداع الدوليين المرتبطين بها.

عملت الـ«سي آي إيه» مع العراق وأحيت أمريكا من جديد علاقاتها الدبلوماسية مع بغداد. كانت فرنسا والسوفييت مع صدام، أما إسرائيل فشعرت بأن صدام عدو أكبر فوقفت إلى جانب إيران، وفي العالم المظلم لأحداث الدبلوماسية الدولية، باعت بريطانيا لإيران قطع غيار لأسلحتها، وباعت أمريكا أسلحة لإيران في صفقة «إيران- كونترا» السيئة السمعة، عن طريق وسطاء إسرائيليين، بموافقة من الرئيس «ريجان» ونائبه «جورج بوش» (الأب).

وفي عام ١٩٩٠، انتهى القتال ومحادثات التسوية ولم تُسفر المغامرة الكارثية عن نتائج إيجابية، وأصبحت قائمة نفقات صدام الإجمالية المقدرة ببلايين الدولارات دَيْنًا عليه مستحقًّا لجيرانه بما فيهم السعودية والكويت؛ تلك الإمارة الصغيرة التي أوجدتها الإمبريالية البريطانية، كما أوجدت العراق نفسه، ورفض مجلس تعاون دول الخليج أن يُسقط ديون صدام حسين، أو أن يحتضن خطته لرفع أسعار البترول، كان صدام يرى أنه حارب دفاعًا عن هذه الدول كما كان يدافع عن العراق أيضًا، وأن العراق دفع الثمن من دمائه وكذلك الأموال التي يتعين عليهم إسقاطها. عرف يوسف ندا بخبايا القصة من شخص حضر بنفسه الأحداث الهامة: «يقع حقل بترول الرميلة على خط الحدود بين العراق والكويت، وفي أثناء الحرب كان الكويتيون يضخون البترول من آباره وكأنه مِلك لهم وحدهم، وبعد الحرب، عندما طالب الكويتيون

«صدام» بسداد ديون الحرب، طلب أن يستبدل بها نصيبه من البترول الذي ضخوه من بئر البترول المشتركة بينهما».

«كان لدى صدام جيش ضخم فاستخدمه محاولًا إجبار الكويت على مساعدته، واتهم الدولة الغنية بالبترول بكل أشكال الإيذاء، وحشد صدام عشرات الآلاف من قواته على حدود الكويت، ظنوا أنه يناور، لكن القوى الدولية صاحبة المصالح والتي كانت تراقب ما يحدث لم تكن متأكدة من ذلك».

وفي نهاية يولية ١٩٩٠، رتب السعوديون لعقد محادثات بين الدولتين، ولدى يوسف ندا تفاصيل ما جرى: «أرسل صدام نائبه عزة إبراهيم إلى الطائف (في المملكة العربية السعودية) ليتفاوض مع الشيخ سعد الصباح ولي عهد الكويت آنذاك، وهدد ولي العهد المغرور بأنه لو رفع سماعة الهاتف فبإمكانه أن يطلب مئة ألف من مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) لحماية الكويت. وقال: إننا سوف نجوّع العراق، حتى تُباع المرأة العراقية بعشرة دنانير. وعندما أُعيدت هذه المقولة على مسامع صدام حسين غَضِب وتصرف بشكل غير عقلاني كعادته عندما تتملكه سَوْرة الغضب، وأمر عزة إبراهيم بالعودة إلى بغداد».

«وفي ٢ من أغسطس ١٩٩٠، دخلت قواته الكويت ومعها ألفان من الدبابات، وفي خلال ساعات أصبح صدام مسيطرًا على الإمارة سيطرة كاملة، وبعد ستة أيام أعلن ضم الكويت لتصبح محافظة عراقية، وتحول كل العاملين والزوار الأجانب إلى رهائن، وعُومل الكويتيون بقسوة أو قتلوا».

«لم يسمع كثير من الأمريكيين من قبل بالكويت، لكن حكامهم سمعوا، كان البترول يتدفق أنهارًا من الكويت، كما أنها أصبحت ممرًّا لصدام ورأس جسر إلى المملكة العربية السعودية التي تسبح فوق بحيرة أخرى كبيرة من البترول، كانت رئيسة وزراء بريطانيا «مارجريت تاتشر» في المرحلة الأخيرة من حياتها السياسية، ولكنها كانت تذكر أن بريطانيا قد أعطت ضمانات للكويت منذ ثلاثة عقود خلت، وأنها تعتزم تنفيذ هذه الضمانات».

واشـتـركت «تاتشـر» مع الرئيس «جورج بوش» (الأب) في تحدّي صدام حسين، لكن العمل الدولي يسـتغرق عادة وقتًا طويلًا. في سـبتمبر ١٩٩٠، زار وفد إسـلامي صدام حسـين، وعبثًا حاول إقناعه بالانسـحاب من الكويت، وفي أعقاب هذا الفشل اتصلت قيادة الإخوان المسلمين بيوسف ندا وأعطته تعليمات بأن يجد طريقًا لإخراج صدام من الدولة البترولية، وبأسرع ما يمكن.

لم يستطرد الإخوان كثيرًا في تعليماتهم: فهم يعرفون أن موفدهم الدولي الخاص عنـده القـدرة والصـلات، وفي خلال سـاعات كان يوسـف يتحدث إلـى معارفه في بغداد، وبعد ٢٤ سـاعة دعاه برزان التكريتي أخو صدام إلى الاجتماع معه في جنيف. برزان (الذي أُعدم مع أخيه بعد ذلك بسـنوات) لـم يترك بشـخصه أو ثقافته أو معرفته السياسـية انطباعا حسنا عند يوسـف ندا. فلم يحدثه يوسف عن مهمته واعتمد عوضًا عن ذلك على علاقاته المباشرة في بغداد، وسرعان ما استجابوا، فتلقى دعوة ليذهب إلـى بغـداد فـي الرحلـة الجوية الأسـبوعية الوحيـدة التي تصلهـا من عمـان؛ وهكذا اتخـذ يوسـف طريقـه لرؤيـة صدام لكـن بعد أن أكـد لهم علـى أن الوقـت المتاح له هو ٤٨ ساعة.

وعندمـا وصل إلى عمان اتضح له على الفور من ممثلي صدام أن موعد الاجتماع لـن يكـون في مدى السـاعات الثمانـي والأربعين المتاحـة؛ فأخبرهم يوسـف ندا أنه سـيعود عندما يحددون له موعدًا نهائيًّا، ولا يسـتطيع أن يذهب إلى بغداد وينتظر إلى أجل غير مسـمى، وعاد من عمان إلى سويسـرا، وعبثًا حـاول مبعوثُ صدام لمرافقته من عمان إقناعَ يوسـف لتكملة الرحلة إلى بغداد، وبعد ذلك بخمسة أيام دُعي للعودة إلى بغداد حسب شروطه، اصطحبه في الطائرة رئيس مخابرات أمن صدام الشخصي، ولـم يبح له الرجل باسـمه، وفي مطار صدام الدولي في بغداد عَبَر به منطقة الجوازات وسائر الإجراءات الرسمية دون أن يوقفهما أحد، فكان دخوله إلى العراق بصورة غير رسـمية، وصاحبه مسـئول الأمن في القصر الجمهوري إلى فنـدق المنصور وأخبره: أنت الآن في أيدي حرس الرئيس.

وفـي العاشـرة من صبـاح اليـوم التالي اسـتدعوه إلى بهـو الفنـدق، وعندما غادر غرفته شـاهد حُراسًا مسلحين عند نهاية الممر، كان البهو خاليًا إلا من رجال الرئيس. «لم أشـاهد أي إشـارة، لكنهم تحركوا وكأنهم مجموعات تـؤدي دورها المتقن على المسرح، وسرعان ما تحركنا للقاء مع صدام في قافلة من السيارات قَطعت بنا الطريق واسـتدارت في اتجاهها عدة مرات، كانت الستائر مُسْدَلة داخل السيارة، ولكني كنت أسمع صوت ماكينة أو جهاز لاسلكي أو هاتف في الجزء الخلفي من السيارة، وتركنا المدينـة وتوقفنا مرة تلو الأخرى عند حواجز الطريق، وبعد أن اجتزنا آخرها أسـرعنا السير حتى وصلنا إلى إحدى الفيلات».

«لـم تكـن الفيلّا ضخمـة، دخلناها واتجهنـا إلى غرفة جلوس لم تكـن فاخرة، بل متواضعـة. وجـيء بالشـاي، ثم جـاءت الشـرطة وبعدهم دخـل علينا صـدام في زيه العسـكري، وبعـد التقديـم التمهيـدي التُقِطت الصور الرسـمية، وطيلـة الوقت، كان الحرس المسـلح يراقب، كنت أشـعر بعيونهم تتفحصني دون توقف، وتراقب الغرفة كما لو كنت سأحاول الهروب».

«انتقلنا إلى غرفة أخرى حيث جلسـت مع صـدام، كان أحد الحراس يقف خلفه، وشخصان آخران وأحد الوزراء والمسئول عن الإعلام، وكان عليَّ أن أنتبه إلى القيود علـى مـا يمكـن قوله؛ فصدام قـد لا يقبل أن تُقال له أشـياء معينة فـي حضور أحد من شـعبه، وهناك أساليب لكيفية التعامل مع رؤسـاء الدول.. وكيفية التعامل مع الطغاة. لكننـي كنت قد أعددت العدة لذلك؛ اشـتملت خطتي على إشـراك إيـران في الحل، وكنت فاوضت بالفعل هذا الأمر مع مجلس الأمن القومي الإيراني».

«لـم يكـن لصَدَّام سـابق معرفة بتلـك الترتيبات التـي أجريتها في سويسـرا، كنت أعرف ما أفعله، كنت أعلم أنني سـأقابل دكتاتورًا، سـأجتمع مع شـخص سوف يقتل شعبه وشعوبَ دول أخرى، وقد يقتلني أنا دون أن تطرف له عين، نعم كنت أعرف أنه طاغية مستبد».

«عندما أذهب في مهمة كهذه ينبغي أن أتوقع أي شيء وكل شيء، قد أُعتقل وربما أُعـدم، وقـد يقتلني خصوم صدام، وقـد يغتالونـه. إذا أوذي أو قُتل أحد الأشـخاص

الذين اجتمعت معهم لمحادثات سياسية فماذا سيحدث؟ هل سأكون مسئولًا؟ كنت أخاف من ذلك، لكنني قبل كل شيء أتوكل على الله، ولأن نواياي حسنة فقد كنت واثقًا من عون الله».

عندما بدأ يوسف ندا الحديث مع صدام أدرك بسرعة أن الطاغية لم يكن معتادًا على أن يتحدث الناس إليه بشكل مباشر. وكما يقول يوسف: «لم يكن أمام الناس سوى الامتثال لطاعته وإلا اختَفَوْا عن الأعين».

«كان صَدَّام قد حارب إخوان العراق، فكان من الضروري أن يعرف من أنا ومن أُمَثِّل، وكنت ممتنًّا إذ أتيحت الفرصة أمامي لأقول ما أردت، كان يعرف أنني من الإخوان المسلمين، كما كان يعلم جيدًا أن بعض أعضاء الإخوان المسلمين اجتمعوا في عمّان وأدانوا غزوه للكويت، كما أدانوا في الوقت نفسه الغزو الأمريكي، كان غاضبًا من آراء الإخوان المسلمين حول غزوه للكويت، ولكن ذلك لم يكن سياسيًّا، ولكنه كان نقطة أساسية حول الخطأ أو الصواب».

«ليس في السياسة خطأ أو صواب، هناك ما هو ممكن، وكما يقول التعبير الشائع في تعريف السياسة بأنها فن الممكن، إنها فن؛ فن ما هو ممكن وليس ما هو صواب، فمن حقك أن تخطئ في نصف ما تفعل، ولكنك بهذا تكون قد فعلت نصف الصواب».

«كان أهم موضوع في ابتعاثي إلى صدام هو أن أقدم له خطة قد تمنع إزهاق الأرواح ودمار البلد».

«كان ثمة هدف واحد؛ أن نجعله ينسحب من الكويت، وكانت رسالتي إليه تبين كيف أن بقاءه في الكويت خطر على المنطقة برمتها وعلى العراقيين، وكان عليَّ أن أتبادل الحوار معه في شيء مشترك معه لا أن أكون كمن يعارضه، كانت مفاوضات سياسية، لم تكن القضية «أنا عدوك، وأنك ارتكبت خطأً.. أنت شيطان. بل كانت: أنت الرئيس، وموقفك له ما يبرره.. والمشكلة عندكم في أمير الكويت وآل الصباح. كما كان يقول هو علنًا، أما بالنسبة للعراقيين، فقد كانت النقطة الحساسة تكمن في مقولة ولي عهد الكويت حول: بيعهم نساءهم في مقابل حفنة دنانير. هذه الكلمات أهانت

شـرفهم، خاصة أبناء القبائل، فكان عليهم أن يدافعوا عن هذا الشـرف. قلت له: نحن ندرك أن المشكلة تكمن في العائلة الحاكمة في الكويت، أنتم تقولون إن الكويتيين لا يحبونهم، وإن جيشكم هناك لأن هذه الأسرة تفرض نفسها على الكويتيين، يجب أن يحكم الكويتيون أنفسـهم بأنفسهم، وبسـبب وجود الجيش العراقي هناك ربما سوف يأتي الأمريكيون ويدمرون المنطقة كلها بما في ذلك العراق».

«ومـن الضـروري للخطة أن تكـون جذابة في عينه، فقد صرح بـأن آل الصباح في الكويت هم العدو وليس الشـعب الكويتي، وقـال لي صدام: أريد إنقاذ الكويتيين من هذه الأسرة قبل أن يمتصوا دماءهم. كان قاتلًا وطاغية، لكنه كان يرى حكام الكويت هـم الطغاة ولا يرى نفسـه كذلك! كان يعتبر الكويت جـزءًا من العراق، وهذا صحيح تاريخيًّا، لكن الإخوان المسـلمين لم يريدوا تشجيع صدام على بسط نفوذه على بلاد أخرى، كان عليّ أن أقسم عملي:

أولًا: كيـف أدخل إلى الموضوع عندما أتحدث إليه، أنا أتحدث إلى دكتاتور، إلى رئيـس دولة، واثق من نفسـه مغـرور، يجب أن أحذر إغضابـه حتى لا تنتهي المحادثات قبل أن تبدأ.

ثانيًا: يجب أن أشـد انتباهه بالحديث فيما يحب أن يسـمعه، وأن أسـايره في خط تفكيـره إلـى حد ما، ثم أقدم له أفكارًا جديدة، ولكـن في كلمات قليلة، يظن معها أنه مخطئ، من تلك الكلمات مثلًا: بإمكانكم أن تفعلوا شيئًا آخر.

ثالثًا: أن أتحدث في الموضوع الذي أريده؛ أي ما أهدف إليه من وراء اللقاء؛ وهو الانسحاب من الكويت ولا أُدفع أو أُسْتَدرج بعيدًا عنه».

«وحتـى أمـزج العناصـر الثلاثـة سـالفة الذكـر كان علـيَّ أن أجـد طريقـة لأعمل بموجبهـا، بـدأت بما يفتخر الرجل به؛ وهو أنه انتصر فـي حربه على إيران، ثم قدمت رؤيتـي: فخامـة الرئيس، الحمد لله الذي نصركم في الحـرب ضد إيران، وعلى أنكم خرجتـم منها ظافرين منتصرين، بيد أنكم لـم تسـتثمروا هـذا الانتصار حتى الآن؛ لقد فزتـم في الحرب واخترتم أن تنهوها عند ذلك، وهذا يعني أنكم مقتنعون أنه لا يجب

تكـرار الحـرب، ولتجنب تكرار الحروب ينبغي أن يكون هناك تبادل مصالح تسـتفيد منه الدولتان؛ لا بد أن يتم نوع من تشـابك المصالح يجنبنا اندلاع حروب جديدة كل خمسة أو عشرة أعوام أو حتى عشرين عامًا، الأمريكيون يملئون المنطقة بالدمار الذي سـيعم جميع الأماكن، وحتى إن فزتم في الحرب ضدهم فسـيدمرون البلد، لا بد لنا من مخرج».

«الحـل أن نتـرك للكويتييـن اختيار حكومتهـم إذا أرادوا هذه العائلـة، فلا أظن أنه مـن حقكم أن ترفضوا اختيارهم، أمـا إذا كانوا لا يريدون آل الصباح فعلى العائلة إذن أن تتـرك الحكـم، ولكي يتحقق ذلك ينبغي أن تخرجوا من الكويت، لكنكم تخشـون إذا خرجتـم مـن الكويت أن يأتي إليهـا الأمريكيون، والحل أن يتم تشـكيل جيش من مختلف الدول المسـلمة تحل محل الجيش العراقي وتُشـرف على الانتخابات، ومن يربحها يربح الحكم، الأمريكيون يريدون إعادة الحكومة الكويتية إلى السـلطة لأنهم ينتفعـون منهـا، فـلا تتركـوا الأمريكيين يُجـرون الانتخابـات، يجب أن يشـرف على الانتخابات طرف ثالث يحل محل الجيش العراقي في الكويت».

«وعلـى عجل قدمت لـه البديل: من المعـروف أنكم لا تقبلـون بالمملكة العربية السـعودية ولا بمصـر، دعنا نسـتبعدهما ونعود إلـى النقطة التي حدثتكـم عنها؛ وهي أنكم لـم تستثمروا انتصاركم في الحرب ضد إيران بعدُ، إذا أشركنا إيران في المشكلة فمـن مصلحتهم أن يعملوا علـى تهدئة جيرانهم والتحدث إليهـم، لو أن وحدات من الجيـوش الإيرانيـة والسـودانية والماليزية والإندونيسـية؛ وثلاثتهم لـم يكونوا أعداءً لكم أبدًا، حلت محل الجيش العراقي في الكويت فسـوف تجلب السـلام، وإذا قبلتم بذلك، وعُقِدت انتخابات فحينئذ سـتتجنبون الدمار المقبل نحو جميع بلدان المنطقة وليس العراق وحده».

«إذا كان هناك ما تسـتطيعون الحصول عليه بالمفاوضات، فلماذا تبددون الطاقات لتحصلوا عليه بالقوة؟ إذا أصبح الإيرانيون جزءًا من القوات المسلمة التي سترتب عقد الانتخابـات في الكويت، وانسـحبتم من الكويت، فإن هذا سـيؤدي إلـى تفاعل بينكم وبينهم، فإذا هاجمكما الأمريكيون فسـوف تسـتطيعان الوقوف أمامهم سـويًّا وتحلان معًا مشكلة الأمريكيين، إن المشكلة هي غزو الكويت.. وسوف تختفي المشكلة».

«وكانت إجابة صدام : ومن يمكنه الثقة في الإيرانيين، وكيف سيتصرف الإيرانيون؟ هل سيقبلون بهذا؟ فقلت له: فخامة الرئيس، قبل المجيء إليكم ناقشت هذه المشكلة مع الإيرانيين، وهي كما حدثتكم».

«كنت قد تحدثت ساعتين ونصفًا قبل أن يسألني هذا السؤال، كان قد خلع الحزام الذي يحمل مسدسه ونحّاهما جانبًا، لكن عينيه لم تفارقا عينَيَّ لحظة».

«وفي خاتمة المطاف قال لي: حديثك منطقي، لكنك بطريقة تفكيرك هذه أهملت عاملًا مهمًّا: ألا وهو الشرف، نحن على استعداد للموت بشرفنا ولا نقبل الحياة مع العار. دكتاتور يتحدث عن الشرف! ماذا تقول له؟ إنه بكل تأكيد ليس رجلًا ديمقراطيًّا لكنه يتحدث عن الشرف وكأنه قَبِل بكل شيء قلته، ثم تحدث بعدها عن الشرف».

«ومضى يقول: حقًّا إن الأمريكيين هم الأقوى، لكن كن متأكدًا من أننا مستعدون للتضحية بمائتي أو ثلاثمئة ألف في أول معركة، ولو قتلنا خمسة آلاف أمريكي لانسحب الأمريكيون، وسوف نقاتل دفاعًا عن كرامتنا ووجودنا، عن ثرواتنا ومستقبلنا، نحن مستعدون للتضحية، إذا مات أكثر العراقيين دفاعًا عن شرفهم، فإن من تبقَّوا سيحيون بشرف».

«صمم الإخوان المسلمون على أننا لن نوافق أبدًا على دخول قوات أجنبية أو استمرار الاحتلال العراقي للكويت، وقلنا إن الغزو كان خطأً، أدرك الإخوان أن كارثة على وشك الوقوع، وكان صدام يعرف رأينا، لم أتوقع قط أن أتمكن من الحديث إلى صَدام حسين بهذه الاستفاضة أو بهذه الحرية، وأنت لا تحصل على فرصة مماثلة مع كثير من القادة، لكنه كان مستمعًا، وأي حاكم يستمع لا بد أنه مهتم. لقد تركني صدام أعبر عما يدور في رأسي».

«وفي النهاية أردت أن أستخرج مفكرة من جيب سترتي، ولأول مرة، فارقت عيناي عينيه، وعندما أَجَلْت النظر حولي رأيت على وجوه من حوله نظرات مفعمة بالقلق، كانوا مندهشين، وكأنهم فوجئوا بي أفكر وأتكلم بهذه الصراحة، أصبحت

قلقًا من أن تكون نبرات صوتي قد أفسدت قضيتي فأدرت وجهي نحو صدام وطلبت منه أن يسامحني على اجترائي، فاستمع إلى ما قلته وقال لي إنه على الرغم من إعجابه بتحمسي إلا أنه شعر بأن اقتراحي سوف يؤدي إلى مشكلات لا يمكنه قبولها».

أدت مبادرة يوسف ندا للاجتماع بصدام حسين إلى بعض الضيق في صفوف الإخوان الكويتيين، لكنه كان يعمل على الدوام دون أن يبوح بما يفعل إلا في أضيق دائرة من الأشخاص الذي من الواجب إطلاعهم في قلب الدائرة الداخلية للإخوان المسلمين.

«لم يكن لإخوان الكويت شأن بهذا الأمر، ولم يكن هناك ما يدعوهم لمعرفته، كنت أتابع مصلحة الشعبين الكويتي والعراقي، ولم أكن مهتمًّا بصدام الحاكم أو بالأسرة الحاكمة في الكويت».

«إذا تدخلتَ في أزمة دولية يعجز العالم برمته عن حلها، فيجب عليك أن تملك مشروعًا تتحدث به وتقدمه. اعتبر الإخوان المسلمون هجوم الجيش العراقي على الكويت عملًا غير شرعي تحت أي ظروف، وعملًا لن يقبله شخص عاقل في المنطقة، كان الغزو غير مقبول ومرفوضًا من وجهة نظر كلٍّ من القومية العربية والإسلام».

«كنا لا نتحدث عن الماضي ولكن عما هو أمامنا. إذا لم ينسحب صدام فسوف تصل الجيوش الأجنبية، كانت هناك فرصة لإخراج الجيش العراقي من الكويت، لكن إذا دخلَتْها القوات الأجنبية فلن يكون أمامنا طريق لإخراجهم منها، والتاريخ أكد ما تَخوَّفنا منه».

الفصل السابع

الثورة والمصالحة

«شيئان يملآن العقل دومًا بالشك والخوف المتجددين والمضطردين كلما أكثرت واجتهدت في تركيز تفكيري فيهما، ألا وهما: السماء المزينة بالكواكب من فوقي، والقانون الأخلاقي النابع من داخلي».

عمانويل كانط، ١٧٨٨، «نقد العقل العملي»

يوسف ندا رجل مُرتب، غاية في الترتيب، واعتناؤه ودِقته وانتباهه الشديد للقواعد والتفاصيل... كل ذلك أبقى على حياته و أنقذه يقينًا من السجن في عُمْر متقدم ومن التحقيقات المرعبة. وهو يداعب الموت لأنه يعلم علم اليقين أن حياتنا مهما طالت محدودة.

وغالبًا ما يقول مبتسمًا في دهاء إن هناك بعض الأشياء يجب أن تقال قبل أن يوافيه الأجل، ولكن ثمة أشياء أخرى يجب أن يحتفظ بها لنفسه وتذهب معه إلى القبر. وقد أوتي النعمة التي تمكنه من ترتيب معلوماته وتفاصيل حياته في غرف مستقلة داخل عقله: مما ساعده على التركيز على أهم قضايا لحظته الراهنة، دون التأثر أو الالتهاء بأي شيء سوى ما هو مطلوب لإيجاد حلول لهذه القضايا.

ومَلَكة التنظيم عند يوسف جزء من براعة شخصيته؛ فحقيبة سفره معدة بعناية توقعًا لكافة الأحوال الجوية، أو فضول موظفي الجمارك المقتحمين لها والعابثين في أوراقه المفهرسة، ومكتبة يوسف ندا ببيته في «كمبيوني» كنز ثمين من المعرفة والمتعة؛ وغرفة جلوسه معرض رقيق للسجاد الحريري الفارسي الأزرق تتداخل فيه ألوان حالمة زرقاء ووردية ورمادية.

ويعلو ذلك كله سقف مزين بنقوش ذهبية من الآيات القرآنية والأدعية. والمكان كله غني بالهدايا والمقتنيات التي تُحيي في النفس ذكرياته عن مصر؛ بلده التي هاجر منها على مضض.. وللضرورة أحكام.

لقد رُسمت ليوسف، خاصة في أمريكا، صورة كائن شرير يضع الخطط للعالم الإسلامي من مسكنه في جانب الجبل، يشبه قليلًا شخصية «دكتور نو» للكاتب الإنجليزي «إيان فلمنج»؛ مبتدع شخصية الجاسوس جيمس بوند، لكن يوسف في الواقع يتمتع بحسّ من الفكاهة أرقى مما لدى أي زعيم مصاب بجنون العظمة، سواء كان من أشخاص الحياة أم من أبطال الروايات الخيالية، ولذلك فإن هذه التشبيهات العبثية تجلب المتعة ليوسف.

لقد عمل كل حياته من أجل انسجام العالم الواحد، ليس عالَمًا مسلمًا أو مسيحيًّا أو ملحدًا، وإنما «العالَم الإنساني» كما يحب أن يسميه؛ فالدين (كما يعتقد بكل حماس) للناس، ملك لهم، وليس ليستخدمه أو تسيء استخدامه الحكومات أو الطغاة، والعالَم الإنساني هو ببساطة عالَم فيه يساعد كل واحد الآخرين، ولا يقتل فيه بعضهم بعضًا. قد تبدو كأنها فكرة مبتذلة أشبه بشريط تلفزيوني مصاحب لإحدى فقرات نشرة الأخبار المسائية، لكنها في الأساس جوهر رسالته، غير أن هناك عقبات سياسية كثيرة يجب اجتيازها والنفوس الكبيرة على المستويين الفردي والوطني يجب التحاور معها، ويوسف من أصحاب النفوس الكبيرة.. وكذلك ينبغي له.

وعلى امتداد حياته تعامل مع زعماء العالم وكبار رجال الأعمال، ودخل في أغلب الأحيان في مفاوضات ساخنة وحساسة كانت تتطلب من كل طرف الثقة في

صدق وذكاء الطرف المقابل وقدرته على التنفيذ، واعتمد ذلك في الغالب على مدى صلات كل منهما وقيمة هذه الصلات.

وعلى مكتب يوسف ندا توجد أرقام هواتف كل أصحاب الشأن في عالمنا هذا، بل وهواتف كثيرين غيرهم كذلك؛ فهناك دفتر واحد احتوى ١٥ ألف اسم ورقم، وبينما كنا نتحدث في شرفة منزله المُطلة على بحيرة «لوجانو»، قال لي من باب تأكيد الحقيقة وليس على سبيل التفاخر: «إنني أستطيع الاتصال بأي مكان، الآن، إذا أردت الاتصال بأكبر أعدائي وأنا جالس معك هنا، فبمقدوري أن أفعل؛ فالصلات موجودة، وقد يكون وسيط الاتصال خاملًا، لكنني أستخدمه عند الحاجة، غير أن هناك أشياء لا أبوح بها ما حييت، من ذلك كيفية عمل شبكة اتصالاتي، لا يمكن أن أبوح بشيء عن الإخوان المسلمين مهما كانت الظروف؛ فنحن لا نتحرك بالطريقة التقليدية لحل المنازعات.. بالقيام باتصالات والوصول إلى الهدف».

«والشرط لِما كنت أقوم به في مجال السياسة كان ألا يعلم به أحد، فلو ظن أحد أنني لا أقدر على كتمان الأسرار لانتفت الثقة فيَّ ولما استطعت القيام بعملي؛ إن السياسة في الشرق الأوسط كلها أسرار، بيد أن الإخوان المسلمين موجودون في جميع أنحاء العالم، ليست المسألة عضوية في الجماعة، وإنما أصبح الإخوان منهجًا فكريًّا».

«نحن جمعية تود كثير من القوى في العالم لو أنها لم توجد، ورغم أني معروف أنني من الإخوان، ليس فقط أنني لا أخفي ذلك بل أفخر به، ولكن وسائلنا في محاولة التوسط بين الدول أو المجتمعات الإسلامية ليست تقليدية، ولا يمكن أن تكون كذلك، وللوصول إلى هذه الغاية يجب أن يكون وسطاؤك محل ثقة في الأماكن التي سوف تتحرك فيها، ولكن ينبغي ألا يُعْرَفوا بأنهم إخوان مسلمون وإلا سيُرفضون في كثير من البلاد العربية».

«على مدى عقود طويلة في مصر، فإن مبارك أو النخبة المحيطة به، كانوا يرون أن أي شخص له صلة بالإخوان لا بد من عزله؛ فكانوا يُسجنون أو يُشنقون».

«احتفظنا بصلاتنا بأشخاص في الظل كانوا بمثابة البُقع السوداء في ارتفاعات لا يكشفها الرادار، ولكن عند الحاجة إليهم يتم إيقاظ هؤلاء الأشخاص، وهذا ما اتبعناه في كل الأماكن التي حظرت نشاط الإخوان؛ كنا نعلم أن هؤلاء الرجال قَبِلوا بنا ولهم نفس أفكارنا ونأمل إذا طلبنا منهم شيئًا أن يفعلوه».

«وفشلنا في ذلك أحيانًا لأننا بالغنا في تقدير إمكانات الأشخاص، ليس درجة إخلاصهم بل مقدار شجاعتهم، فلا يقوى كل واحد على تعريض حياته للخطر، ولا يمكنني لومه إذا رفض. إذا لم نصب في اختيار وسطائنا، فلدينا قنوات أخرى بديلة، وليس من المعلوم أيها يخص الإخوان المسلمين».

ومن الأمثلة على قوة شبكة الاتصالات لدى الإخوان المسلمين ما حدث أثناء الشهور الأخيرة من حكم حسني مبارك في مصر؛ فيوسف ندا له صديق سويسري؛ رجل أعمال سويسري من أصول مصرية على صلة طيبة بنجل مبارك، وسأل الصديق ندا عن سبب استمراره في معارضة مبارك، وقال له متسائلًا: لماذا لا تجد سبيلًا لإقناعه بإدخال سياسات لمنفعة البلد وبإمكانه تطبيقها ببطء؟ إنه سيفعل ذلك إذا أيدتموه علنًا.

ويقول يوسف ندا موضحًا: «المشكلة الكبرى في تعامل مبارك معنا كانت علاقته بالقوى الأجنبية، بما فيها جارته إسرائيل». قلت لصديقي: «أنت مستعد لذلك، لكنه لا يريد أن يسمعنا، وهو لا يريد أن يعلم أحد من الأمريكيين أو الأوربيين أن له أي اتصال مع الإخوان المسلمين، إنه يقتات من الشعار الذي يصفه بأنه العدو الأول للإخوان، والدول الأخرى تؤيده لهذا السبب».

فعاد الصديق يسأل: لماذا لا تقابل جمال مبارك، إذا لم يكن ذلك يفسد علاقاتك بالإخوان؟ فأجابه يوسف بسرور: «أنا واثق من نفسي، والإخوان يثقون فيَّ، إذا وافق على الحضور فسيلقى الترحيب». عندها قال الصديق ليوسف: أمهلني أسبوعين إذن.

ويكمل يوسف: «ولم أسمع منه بعدها أبدًا؛ فلقد ذهب إلى مصر؛ ولم يعد إليَّ مرة أخرى. لم يزرني أبدًا أو يتصل بي، كان بمقدوره الكلام معهم عن السياسة والاقتصاد،

لكـن عندما حدّثهم عـن الإخوان أصبح الأمر مدعاة للجدل، وتوقف الحديث. كانوا لا يريدون حوارًا، كانوا لا يرغبون أن يذكر الآخرون كلمة تفيد أننا نتصل بهم».

لم يعترض يوسف ندا على ما اقتُرِح من ترشيح جمال مبارك ليُنتخب رئيسًا لمصر، بشـرط أن يدخـل جمال الانتخابات كأي مواطن مصري وليـس باعتباره ابنًا للرئيس. «إنه مصري، وله الحق في التقدم للترشيح، مثله مثل أي مواطن آخر، لا أستطيع القول بأنه لا يحق له، ولكن ليس له الحق أن يستخدم نفوذ الحكومة وأجهزتها ليجلس على مقعد أبيه».

للإخـوان المسـلمين شـبكة اتصـالات حـول العالـم، تضم أشـخاصًا مـن أمثال رجـل الأعمال السويسـري صديق يوسـف ندا. ويمضي يوسـف في بيـان ذلك: «كنا أيضًـا قريبيـن من ملوك السـعودية منذ عهد الملـك فيصل في السـبعينيات، كان أحد الإخـوان طبيبًا ماهـرًا، وأصبح الطبيب الخـاص للملك فيصل، فهمـزة وصلنا كانت هنـاك عند أذن الملك مباشـرة إذا احتجنا للاتصال، ولأن أجهـزة الأمن تتحرى دائمًا عـن انتماءات جميـع المقربين من زعمائهم فلم يكن الاتصـال مفتوحًا من عندنا إلى الطبيـب أو مـن عنده إلينا، لكـن الصلة كانت هناك. لم نكن لنتعامـل مع أحد في مثل هذا المكان إذا كان متورطًا في فسـاد أو مخالفًا لطريقتنا في التفكير؛ لأنه يُسـتبعد من جماعـة الإخوان، يجب أن يكون طاهر النفـس والعقل، هذا كل ما في الأمر. نحن لا نغـش أحدًا، لا نسـتطيع أن نطلب من أخ أن يصلي في كنيسـة متظاهرًا بأنه مسـيحي، ليس من المقبول في الإسـلام أن ينكر المرء أنه مسـلم مهما كانت الدوافع. إذا كنت مسلمًا فعليك أن تُصرّح بذلك».

«وهذا ما جعل الضجة في أمريكا حول الرئيس أوباما؛ وهل هو مُسـلِم، أمرًا خاليًا من المنطق. فأوباما صرح بأنه مسـيحي. لا يمكن أن يكون مسـلمًا ويصلي تبعًا لدين آخر غير الإسـلام، الاسـم شـيء والشـهادة شـيء آخر، أرى كثيرًا من أتباع الديانات الأخرى عندما يعتنقون الإسـلام، يُغيّرون أسـماءهم؛ وهذا ليس فرضًا، فمن الممكن أن يكون اسمك «هكتور تومبسون» وتكون مسلمًا، لا يلزم أن تكون محمدًا أو يوسف لتصبح مسلمًا».

«أحيانًا يفعل البعض ذلك مجاراة لما هو سائد، فإن لم يفعلوا فلن يعني ذلك أنهم ليسوا مسلمين بأي حال، هذا جانب من نظرة الإخوان المسلمين إلى الدين».

«إن غالبية المسلمين الذين يجتهدون لفهم دينهم، فيقرءون عنه ويستفتون فيه، ويتحدثون مع الناس حوله سوف يجدون في النهاية أن مفاهيم الإسلام لدى الإخوان المسلمين صحيحة، والذين يفعلون ذلك يقتنعون بأن يكونوا مع الإخوان، علينا أن نعمل جميعًا على توضيح مفاهيم الإسلام الصحيحة؛ لأن أحدًا منا لا ينكر قوة الإعلام التي تستطيع أن تُحِيل الأبيض إلى أسود.. والعكس بالعكس».

وهذا يفسر لماذا قام يوسف ندا - بمفرده على الأغلب، أو مع غالب همت؛ موضع ثقته - بالمهمات التي أُوكلت إليه، كما يفسر بعد ذلك لماذا صار يعرف كرجل دولة الظل للإخوان المسلمين، وهو بكل تأكيد رجل دولة، وخبرته ودبلوماسيته تسبقانه، وكذلك فكره المستقبلي، على الرغم من أن ما يقوله أحيانًا قد لا يتقبله السامع بسهولة.

«الثورات: نحن نقول دائمًا إن العالم شهد ثلاث ثورات فقط: الثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الإيرانية، وأن ما عداها كانت انقلابات وليست ثورات».

«الانقلاب: هو استيلاء عسكري على السلطة، أما الثورة فيقوم بها الشعب، ففي الثورات الفرنسية والبلشفية والإيرانية، تحركت الشعوب وخرج الناس إلى الشوارع. لم تكن انقلابات عسكرية مثل ما قام به عبد الناصر في مصر أو القذافي في ليبيا، ما أقوله الآن لا يوافقني فيه كثير من قادة الإخوان وأنا أعذر حكمتهم، ولكني لا أسامح السياسة التي تُخفي أو تتعارض مع الحقيقة. لماذا يتحدث غيرنا بصراحة ونسير نحن في ركب الصامتين (إن الساكت عن الحق شيطان أخرس)، وقد خُلقت إنسانًا ورغم كل ما واجهتُه في حياتي من اضطهاد وقسوة وظلم ولكن لا شيء من ذلك استطاع أن يحولني إلى شيطان أخرس؛ والفضل والمنة لمن خلقني إنسانًا وكرَّمني وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾».

«هناك أماكن أخرى تتهيأ للانقلاب القادم، لكن الثورة القادمة من المحتمل أن تقوم في المملكة العربية السعودية والخليج، هذه أكثر الدول عرضة لذلك، وعندما

تحـدث ثورة هناك فسـوف يدبر الأمريكيون انقلابًا يُعدون لـه من الآن، إما من خلال أحـد أفراد الأسـر الحاكمة وإما الجيـش وإما الأجهزة الأمنية. فهـم يريدون أن يكون الجالسُ على العرش أحدَ رجالهم ومُسيطرًا على الأمور».

«أصبحـت الأسـر الحاكمة كثيرة الأعضاء بشـكل كبير، وليسـت جميعها منظمة، ولا يتمتـع جميعهـا بنفس الميزات، ونفـوذ بعضها يفوق ما للبعـض الآخر من نفوذ، الأمر معقد للغاية، سـوف يَسـتخدم الأمريكيون هذه الأوضـاع للتفريق بينها وللعودة إلى السـيطرة من جديد. أثناء حكم الملك فهد، نجحت صِلاتي به في إيقاف الحرب بيـن المملكة العربيـة واليمن، وأصلحت الوضع بين السـعودية وإيـران، كما عملت مـع اليمنيين أثنـاء حربهم ولإنهاء نزاعهم مـع إريتريا، حول جزر حنيش وسـقر، كما تحركت في مهام في إندونيسيا وماليزيا وتركيا».

«تحتـاج إلى وسـائل تأخذك إلى صانـع القرار، لم أذهـب لأي مهمة دون إذن من المرشـد العام للإخوان المسـلمين، لم أتحدث إلى أي مَلِك أو رئيس دون أن يعرفوا بأنني عضو في الإخوان المسـلمين، وفي بلادهم.. هم ضد الإخوان المسلمين! ومع ذلك فأغلب رؤسـاء الدول الذين تناقشـت معهم في أمور سياسـية كانوا يعلمون أنني قضيت حياتي كلها داخل جماعة الإخوان».

«في العراق، إذا عُرف انتماء أحد الأشـخاص للإخوان المسـلمين فسوف يقضي فـي السـجن مـدى الحياة أو يُعـدم، وفي المملكـة العربية السـعودية يُحظـر على أي شخص الانتماء إلى الإخوان المسلمين، أما في اليمن فالإخوان يشاركون في النشاط السياسـي، وفي ماليزيا الجماعـة ممنوعة لكنها موجـودة وراء واجهات أخرى، وفي إندونيسـيا، الإخـوان لهم وجود في السـلطة؛ داخل الحكومة، ولهم حزب سياسـي، لكن لا يحمل اسـم الإخوان المسـلمين، وفـي المملكة المغربية، هم حزب رسـمي لكن لا يحملون اسـم الإخوان، غير أنه يجب عليهم أن يُعَلِّم بعضهم بعضًا التسـامح بيـن الإخـوان والنظام الحاكم؛ فهم يتعاونون في أمـور محددة، لكن كل واحد يعرف أن الآخر ليس صديقه المقرب».

ويتذكر يوسف ندا مجزرة حماة في سوريا في فبراير عام ١٩٨٢، ويذكر أن سوريا دولة «عانى فيها الإخوان أحداثًا طويلة دامية»؛ ففي ذلك الوقت أمر الرئيس حافظ الأسد والد الرئيس الحالي بشار بالانقضاض على مدينة حماة التي كانت معقلا إسلاميًّا للسُّنّيين المحافظين، وموطنًا لكثير من أعضاء جماعة الإخوان. فقامت الدبابات والمدفعية بقيادة أخوه الطاغية رقم ٢، واسمه رفعت، بحصار المدينة القديمة؛ الموقع القوي للمتمردين، لمدة ثلاثة أسابيع. وراح ضحية أعمال القتل التي أعقبت ذلك ما يُقدر بخمسة وثلاثين ألف شخص معظمهم من المدنيين، وتعتبر هذه المجزرة «أفظع أعمال القتل التي مارستها حكومة عربية ضد شعبها في الشرق الأوسط الحديث».

واستمر حافظ الأسد يحكم سوريا دون منازع عشرين عامًا بعد هذه المجزرة، وغالبًا ما تتخذ مأساة حماة المرعبة مثلًا على السجل المخزي لانتهاكات حقوق الإنسان في سوريا، وتظهر وحشية عائلة الأسد التي قتلت الإسلاميين في سوريا وكأنها تتخفف من بعض أعبائها اليومية.

وفي أول فبراير ٢٠١٢، كانت الذكرى الثلاثين للمجزرة، فأحياها المحتجون برشِّهم طلاء أحمر في الشوارع يرمز للدماء التي سالت، كما وضعوا الطلاء في الماء الذي تحمله نواعير حماة الشهيرة، وعلى الجدران كُتبت عبارات مثل: مات حافظ وبقيت حماة، وسيموت بشار وستبقى حماة.

وبينما كان المحتجون يسكبون الطلاء كانت الصور المرعبة لجريمة الماضي تُبعث من جديد فسالت الدماء على أيدي رجال النظام الذين أعملوا القتل بين أبناء الجيل الجديد، وتُسيطر الطائفة العلوية على نظام بشار الأسد العلماني؛ وهي جزء من الشيعة. ومعظم ضباط الجيش السوري من العلويين، وهم مقتنعون بأنهم الهدف الأكبر لانتفاضة المتمردين، فيقاتلون قتال حياة أو موت.

وخلال الأسابيع الأولى من عام ٢٠١٢، تحولت مدينة حمص إلى أنقاض؛ كأنها دكان لحّاد، وكأن مبانيها المدمرة أكفان الموتى مرصوصة فيه، وبينما اتسم رد فعل

العالم بالغضب يواصل النظام قتل شعبه، ومن بين الضحايا «ماري كولفن»؛ المراسلة الحربيـة الأمريكيـة المقيمة في بريطانيا، التـي يعتقد كثيرون بأنها قُتلت عمدًا بسـبب التقارير المصورة التي أرسلتها من داخل حي بابا عمرو في حمص حيث لقيت حتفها وبجانبهـا الصحافية الفرنسـية «ريمي أوشـليك» في ٢٢ من فبراير، لقـد أثار الارتفاع الكبير في عدد الضحايا مزيدًا من الإدانات للنظام السوري، لكن العناوين الكبيرة في الصحف لا تؤدي إلى الإقلال من القتل.

بالنسـبة إلـى يوسـف نـدا، أحـداث الماضـي والحاضر سـبب آخـر لينذر نفسـه للمصالحة وليس للثورة: «رِفْعت الأسـد؛ عم الرئيس بشـار الأسـد، كان مسئولًا عن الجيـش فـي ١٩٨٢، وأصدر أوامـره إليه بقصف حمـاة، وبعد القصـف الذي خلف ٣٥ ألـف قتيـل، اقتـادوا آلافًا ممن بقوا على قيـد الحياة إلى السـجون حيث عذبوهم حتى الموت».

ويقول ندا: «واليوم في سوريا أي فرد ينتمي إلى الإخوان المسلمين، محكوم عليه بالإعـدام، ليـس بالسـجن وإنما الإعدام، هذا قانون رسـمي، منذ ١٩٨٢ ليسـت هذه تعليمات.. ولكنه القانون».

وفـي الوقت نفسـه، في ليبيا وتحت حكم القذافي، سـاد قانون الغابـة؛ أثناء الفترة التي قضاها يوسـف في طرابلس تعرف على الدائرة الداخلية للإخوان المسـلمين في ليبيـا، كمـا عرف قادة فصيل آخر انشـق عن الإخـوان وعَمِل مع السـلطات البريطانية والأمريكيـة ضد النظـام الليبي، وقد أفرخ ذلك التعاون ما وصفه يوسـف بأنه «صفقة كريهة»، ويقول يوسف وهو يسترجع في ذهنه الأحداث: «كان ذلك أيام الاضطرابات الكبرى مع حركة «IRA»؛ الجيش الجمهوري الأيرلندي- في شـمال أيرلندا، فقامت الحكومة البريطانية بتسـريب بعض المعلومات إلى القذافي كي يسـتطيع القبض على معارضيـه الليبييـن، كان ذلك جزءًا من اتفاق مقايضة، وفـي نظير ذلك أعطى القذافي البريطانيين معلومات عن الجيش الجمهوري الأيرلندي؛ لأنه كان يزودهم بالسـلاح، ومـا زلت أشـعر بالغثيان من ذكر هـذه الأعمال، ولا أدري كيف اسـتطاع البريطانيون العمل مع القذافي».

ويقول ندا؛ الذي اشتغل عن قرب بالمحادثات الليبية الانتقالية في الفترة التي أعقبت نهاية نظام القذافي في أغسطس ٢٠١١ - إنه يتعجب بنفس الدرجة من مدى العلاقات البريطانية الليبية التي استمرت بعد مصرع الشرطية البريطانية «إيفون فلتشر»؛ ذات الخمسة والعشرين ربيعًا؛ التي قتلتها طلقات من رشاش أثناء احتجاج حدث خارج السفارة الليبية بميدان «سان جيمس» في لندن في ١٧ من إبريل ١٩٨٤، وبعد حصار دام أحد عشر يومًا، سُمح لجميع المسئولين في السفارة بالعودة إلى ليبيا، وأصبح من المعتقد على الدوام أن موظفًا ليبيًّا قد قتل الشرطية «إيفون فلتشر» وأنه أصبح بعد ذلك عضوًا بارزًا في حكومة القذافي.

مرت عقود من الزمان على تلك الحادثة، لكن موت الشرطية «فلتشر» لم يُنسَ أبدًا، وفي عام ٢٠١١، بعد طول لَأْي وعقب انهيار حكم القذافي الذي طال ٤٢ عامًا، كان من أول تحركات الحكومة البريطانية القانونية أن أرسلت مخبرين من إسكتلاند يارد إلى ليبيا في محاولة لجلب المشتبه به في إطلاق النار إلى ساحة العدالة، واسمه عبد المجيد صلاح الأميري، وكذلك من ساعدوه أو قاموا بحمايته.

ويستنكر يوسف ندا شخصيًّا الطريقة التي عوملت بها جريمة قتل الشرطية البريطانية، بقوله: «كان معلومًا مَن قتل من نافذة السفارة الليبية «إيفون فلتشر»؛ لقد قُتلت أثناء أدائها واجبها، وحكومتها تفاوضت من أجل مصالحها التجارية؛ من أجل المال. تجاهلوا حياتها، نسوا أنها كانت تحمي بلدها، وجلس وزراء من الحكومة البريطانية مع قاتل واحد من مواطنيهم».

«وبسبب البترول عانقوا القذافي وقبّلوه وقالوا عنه إنه صديقهم، لم يراعوا أي قيم أو أخلاق أو مبادئ، لقد أعماهم القذافي بالمال، وتلاعب بهم، وهم سامحوه. القاتل يعطيك مالًا وأنت تسامحه بعد قتل أبيك وأمك وأختك وابنك، إعطاء المال لمنع العدالة من أن تأخذ مجراها عمل غير نظيف».

«كان القذافي كالحرباء؛ يغير شخصيته بين لحظة وأخرى، بعض الحكومات أنمته واعتنت به لما لديه من سلطة ومال لكنه كان قاتلًا مثل أي زعيم للمافيا، لقد عمل

مع المخابرات الإسرائيلية؛ الموساد. أعطاهم تفاصيل سفر أحد قادة جماعة الجهاد الفلسطينية واسمه الشقاقي، وقد قُتل عندما غادر ليبيا متجهًا إلى مالطة».

عمل القذافي مع الفلسطينيين ثم مع لبنان، ثم قفز إلى الجيش الجمهوري الأيرلندي، ثم إلى المافيا في إيطاليا، ثم عاد إلى الدول العربية، وعندما لم يُفلح في أي من ذلك اتجه إلى إفريقيا، وكان الزعماء الأفارقة يريدون المال فشجعوه، ثم عاد مرة أخرى إلى الغرب؛ إلى إيطاليا وإلى الأمريكيين. في أي وقت شاء، كان يغير اتجاهه بمقدار ١٨٠ درجة، ولأن عنده البترول، فإن عنده المال؛ يستطيع عقد أي صفقة، ودفع أي فدية.

«عمل القذافي مع الكل. لم يكن هناك قواعد أخلاقية. فمن الذين تلقوا من القذافي أوامرهم: عبد الباسط محمد علي المقراحي؛ الذي أُدين بالاشتراك في تفجير طائرة الرحلة ١٠٣ لخطوط «بان إم» في ٢١ من ديسمبر ١٩٨٨ فوق لوكيربي التي مات فيها وممن سقطت فوقهم ٢٧٠ ضحية».

كان المقراحي أحد رجال القذافي واستمر على ولائه له، وفي أغسطس ٢٠٠٩ أفرجت إسكتلندا عن المقراحي لأسباب إنسانية لإصابته بسرطان البروستاتة القاتل لتعديه مرحلة العلاج (كان لا يزال حيًّا في أوائل عام ٢٠١٢، وتوفي في ٢٠ من مايو ٢٠١٢)، وعند عودته إلى طرابلس استُقبِل استقبال الأبطال، وبالطبع انتصر لقائده، الذي أعطاه الأوامر.

ليبيا غنية بمواردها الطبيعية – عندها وفرة من الغاز وبترول من أفضل الأنواع، وسواحلها ليست عميقة الأغوار مما يسهل الوصول إليها. في الحرب العالمية الثانية خسر القائد الألماني «رومل» المعركة لحاجة دبابته إلى البترول، ومن المفارقات أن أفضل بترول كان تحت الأرض الممتدة تحت قدميه.

شاهد يوسف المظاهرات التي خرجت عندما وصل «رومل» إلى العلمين: «كان جميع المصريين يهتفون: إلى الأمام يا رومل. نعم، كل المصريين كانوا إلى جانبه لأنهم كانوا يرزحون تحت نير الاحتلال البريطاني، كان الناس في مصر والعالم

العربي ينظرون إلى «هتلر» كأنه بطل، وليس دكتاتورًا مجرمًا، كما يعتبره بقية العالم.. وأنا معهم».

«لقد حكم الطغاة مصر منذ أيام الفراعنة منذ آلاف السنين عندما بَنَوْا الأهرام، كان الفرعون معبودًا، وكان المصريون القدماء يطيعونه حتى الموت، اعتاد الناس على حكم الطغاة، ولكن عندما دخل الإسلام مصر وعاش الناس في ظل العدل والمساواة بدءوا يكتشفون أنفسهم، إلى أن فرض طغاة مسلمون أنفسهم عليهم – وبغتة تحول الفراعنة إلى سلاطين».

«كل بلد عربي يحكمه دكتاتور مع اختلاف الأسماء، ربما تختلف طريقة العمل من دولة لأخرى ولكن ما زالت جميعها دكتاتوريات، في المملكة العربية السعودية، أعضاء الأسرة الملكية يجب أن يتمتعوا بميزات أكثر مما يناله المواطنون، كما لو كانوا من السماء ولم يولدوا على الأرض كسائر البشر».

«في قطر، أمير البلاد؛ الشيخ حمد بن خليفة آل ثان، رئيس الدولة، ويدير شئونها. إنها إدارة يد واحدة، ولكن ينبغي أن أقر بأن حقوق المواطنين واحتياجاتهم لها الأولوية عنده، للأسف هذا لا يتكرر في كل مكان؛ ففي شوارع جدة يوجد متسولون – ونفس الشيء في تونس، هؤلاء الطغاة لديهم المال لشراء الأسلحة والسلطة ولكن الناس يتسولون. والله أمر بمساعدة الفقراء والمرضى واليتامى والأرامل، لماذا يختلف التفسير المسلم والمسيحي لهذه الأوامر؟».

«والمشكلة هنا هي نفس المشكلة مع الإرهاب، كيف تفسر القتل بأن تقتطع جزءًا من عبارة وتقول: هذا ما يريده الله. لا يمكن أن تقول ذلك، لست أنت إلهًا؛ إن تبرير الحرب منطقة هائلة للغش، وهي عادة خليط غير مقدس من أشياء كثيرة: طغاة ودين وسياسة ومعتقدات. ثم أضف إلى ذلك القبلية والعادات القبلية المختلطة بالدين. إن العصبية القبلية عند بعض الناس أقوى من الدين، فيصبح الولاء للقبيلة وعشائرها أقوى من الولاء لأي حكومة وطنية».

«عندما يتقاتل رجال القبائل يتبعون أحكام القبلية لا الدين، أكبر قبيلة في أفغانستان وفي شمال شرقي باكستان هي الباشتون (وهي أكبر مجموعة إثنية في أفغانستان)، وهي

تنقسم إلى العديد من المجموعات لكنها جميعًا تنحدر من الباشتون، والسلطة للباشتون، والجناح المتفرع منها هي طالبان [؟!]، وهي شيء حديث، لكنها مرتبطة بالباشتون أكثر من ارتباط أي قبيلة أخرى، وجهتهم الاستخبارات الباكستانية والأمريكيون إلى المدارس التي ظهرت منها وكثرت أيام الاحتلال السوفيتي لأفغانستان.

«إن طريقة التفكير قبلية؛ وأي شخص ليس من القبيلة فهو أجنبي، الباشتون مجتمع مغلق والبقاء معهم صعب جدًّا، قد يتعاملون معك لكن تبقى دائمًا خارج الدائرة؛ أجنبيًّا».

«أحد الإخوان أستاذ جامعي سعودي، آلمته الأحداث في أفغانستان فذهب ليساعد المصابين ومن تشوهت أجسادهم، ذهب للعون وليس للاشتراك في قتال، وكان لديه مال وتلقى تبرعات فأنشأ بعض آبار المياه وفتح ورشة لإصلاح السيارات والأجهزة، كما ساعد أحد المستشفيات الصغيرة والمدارس، واستخدم أحد الأفغان ليساعده بمعرفته بالمنطقة وفي عمله مع الناس وفي بيته، وكان للأستاذ صلات واسعة فاستقدم مهندسين وأطباء، ولم يفعل سوى الخير، ثم اكتشف أن خادمه الأفغاني يحاول أن يُسمّمه، لقد رأى الرجل أن الأستاذ أجنبي ويتعامل مع أشخاص ليسوا من القبيلة، فرأى فيهم الخطر».

«إن القبيلة هي كل شيء بالنسبة له ولمن مثله، لا الدين ولا السلطة السياسية ولا الأمريكيون أو السوفييت، لا شيء من ذلك يهم، لا تستطيع أن تعظهم؛ الدين شيء مهم لكنه ليس كل شيء، العامل الديني موجود لكنه مختلط بالقبلية: لا تستطيع أن تتحدث معهم، أو تحاول إقناعهم بوجهة نظر الدين وحده. إن طالبان لن تزحف على أمريكا أو تغزو أي دولة أخرى، كل ما يريدونه هو أن يحيوا بطريقتهم في أوطانهم وألا يأمرهم أحد بالعيش أو التفكير بطريقة مختلفة».

والهدف الأساسي للإخوان حسبما يرى يوسف ندا هو السلام والعمل المشترك في المجتمع ليس من أجل الإسلام أو الإخوان فحسب، أو من أجل الدولة التي يعيشون فيها وحدها، ولكن من أجل العالم أجمع. «ليس ذلك فقط، ولكن لتحقيق قيمة إضافية، كالتي نشير إليها في الاقتصاديات، ولديَّ كثير من القيم الإضافية التي

اكتسبتها ليس من الإخوان وحدهم ولكن من انخراطي في المجتمعات والشعوب والثقافات الأخرى».

«وثمة أولئك الذين يحاربون التغيير في المجتمع، ولا مناص من تغييره، على أن تدخل التغييرات بمعدل مقبول، يتيح لها أن تعمل. لا يمكن فرض التغيير في مجتمع ما على طرائق للحياة موجودة منذ مئات أو آلاف السنين، لا بد أن تتأنى وتتيح لها الوقت اللازم».

«كما يحاول الإسلاميون المعتدلون أن يعطوا النساء حقوقهن، ويتيحون لهن الملابس الغربية والموسيقى، في المدارس يحاولون إدخال كثير من الأشياء المستخدمة في الغرب مما لا يمنعه الشرع، بيد أن الإسراع في التغيير في المناطق القَبَلية يجعلك تثير في نفوسهم المزيد من الأسباب لمحاربتك، وبقدر إسراعك في محاولة عصرنة المناطق القَبَلية بقدر ما تشتد المعارضة لمحاولاتك؛ فهناك أجيال من العادات والشعائر والأمور الدينية داخلة في المواجهة والسعي للتعجيل بالتغيير ستجعل الناس يزدادون رغبة في الإبقاء على عالمهم القَبَلي، قد يحدث التغيير في مئة عام لكنه لا يتم في خمس سنوات».

«يشعر الغربيون بأنهم متحضرون ويريدون أن ينقلوا هذه الحضارة إلى الآخرين، قارن هذا باحتلال البلاد الإسلامية في القرون الأخيرة التي أعقبت الحروب الصليبية: انتهت الحروب الصليبية في الشام عام ١٢٩١م باسترداد المسلمين لثغر عكا؛ آخر معاقل الصليبيين في المنطقة، واستمرت المحاولات المتكررة للعودة إلى الشرق الإسلامي على مدى قرنين آخرين، ولكنها كلها باءت بالفشل، ولم تستطع أن تنشئ إمارات صليبية كالتي تكونت في الشام إبان الحروب الصليبية الأولى، وأول محاولة لغزو البلاد الإسلامية في العصر الحديث كانت حملة بونابرت على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م؛ أي أن هناك فترة لا تقل عن خمسة قرون بينهما، اتجه الغرب نحو جنوب شرق آسيا والشرق الأوسط والهند: قرون من المحاولات لتغيير الإسلام أو الطريقة الإسلامية».

«ماذا حدث؟ في تلك الأيام المبكرة كان عدد مسلمي العالم ٣٠٠ مليون نسمة، واليوم هناك مليار ونصف من المسلمين، الذي حدث هو أن الجهود المبذولة لتغيير طرق الشعوب في الحياة رسخت جذور هذه الطرق، لقد فشل الغربيون في استئصال الإسلام، وبدلا من ذلك قد يجدون طريقًا للعيش معًا في سلام؛ بأن يتبادل كل طرف ما عنده من خير مع الطرف الآخر؛ بهذه الكيفية يتحقق التعايش، إنَّ تفوق الآخرين لن يغير، ولا يستطيع أن يغير أي مجتمع أو دين».

«لا يمكننا إنكار أن الغرب يفضلنا في أمور كثيرة، وقطعًا في بعض الأمور وليست كلها، أرى ذلك واضحًا في الأسر؛ إذا كنتُ مسلمًا في السادسة عشرة من عمري ورأيت أحد أترابي في الغرب يتعاطى المخدرات أو يسكر ثم يحطم سيارة، فلن أرغب أن أكون مكانه؛ فديني يمنعني من أن أفعل مثله، لا أستطيع القبول بثقافة تسمح للمراهقين السكارى بهذه الأفعال. عندما ترى أحد الآباء يهجر أم طفله ويتخلى عن مسئوليته، فهذا فعل خاطئ؛ في ثقافتي، الرجل مسئول عن كل شيء: ليس بالقانون فحسب وإنما هو أمر من الدين».

«ذهب البريطانيون إلى أفغانستان منذ ٣٠٠ سنة وحاولوا غزو البلاد على مدى خمسين عامًا، وفشلوا، وفعل السوفييت نفس الشيء. وفي ٢٠١٢ يفعل الأمريكيون الشيء ذاته ويَجُرّون الغرب بأجمعه إلى هذا المستنقع. هناك سبيل وحيد للفوز؛ أن تحترم التراث القَبَلي المختلط بالتراث الديني، وخطوة خطوة، تخرج بهم إلى حضارة أفضل».

«القتال والتغيير المفاجئ لن ينجزا شيئًا، ولا التعامل بالمنطق وحده مع إهمال الجذور القَبَلية، وإذا انسحبَت القوات فسوف تبقى المتاعب مئة عام أخرى، لكن إذا أردت الانسحاب وتسوية القضية فعليك أن تشتري الوقت بأن تتصرف كدولة صديقة بين دول الأمم المتحدة، وتعمل معها سويًّا من أجل الإنسانية؛ هذا هو الطريق البديل الذي يحتاج لقدر كبير من الدعم حتى يعمل.. ولكنه سيعمل».

«إن الغرب يرى نظام الحياة لدى القبائل غير متحضر، ورجعيًّا ولا يلائم العصر الذي نعيشه. لا يمكنك إحداث التغيير بواسطة السلاح أو بإقصاء الفصائل «الأقل

تحضرًا» من غيرها، يجب أن تجعل جميع القبائل تتوافق مع عالم اليوم، يجب أن تحترم الدين وأيضًا العادات القَبَلية حتى يغيرها أصحابها بأنفسهم».

«وسوف يلزمهم ذلك، نحن نسافر بالطائرات كما نسافر على الجِمَال أيضًا. مؤخرًا، عرض التلفاز السعودي برنامجًا إخباريًّا مسائيًّا، أذاع فيه شريط فيديو مدته ١٥ دقيقة، يصور بعض الأفغان وهم يلقون الحجارة على الشرطة، ثم يهاجمونهم، وذكر الشريط أن القتال كان مع طالبان وليس الأفغان، والتعقيب على هذه العبارة يجوز بنعم أو لا. نعم؛ لأن الشخص الذي ظهر في مقدمة الصورة كان من طالبان؛ أما لا فلأن كل أفغاني يفكر بنفس الطريقة، سواء كان طالبان أم لم يكن، حتى الذين يتقاضون رواتب من الأمريكيين والبريطانيين والتحقوا بالشرطة الجديدة أو الجيش الجديد».

«في أي وقت يمكنك أن تتوقع حدوث ما وقع بين صديقي الأستاذ الجامعي ومساعده الأفغاني؛ إنهم أفغان، وهم قَبَليون وإن كانوا مسلمين، قد تخرج بهم إلى العالم الخارجي، وتعطيهم عادات جديدة مخالفة لدينهم أو لأفكارهم القَبَلية، ويومًا ما ستكتشف أنك كنت مخطئًا! سوف يكون في الشاي السيانيد وليس النعناع. الطريق السليم أن تكون مهذبًا لتكسب إخلاصهم، لا أن تُكرِههم على شيء يخلق في قلوبهم العداء، وإذا كنت صادقًا في مساعدتهم، فإنهم سوف يتبعونك، وإذا قاتلتهم فسوف يجتمعون معًا ضدك، يجب أن تتبع فكرة: تغيير أتباعك لا بد أن يأتي من عند أنفسهم».

«لن يكون أوباما بل ربما الرئيس الأمريكي الذي سيخلفه هو الذي يقرر إذا كانت الولايات المتحدة ستترك أفغانستان أرضًا محروقة. دمَّر الأمريكيون كمبوديا وفيتنام قبل أن يغادروهما، وسوف يتكرر هذا. إن فيتنام حتى الآن لم تتعافَ من الحرب، سوف تسترد عافيتها ولكن ببطء شديد، التاريخ مملوء بالبقع السوداء».

«تحاور اثنان من الأصدقاء الساسة الأوربيين حول أسباب تورط أوربا في مثل هذه المناطق؛ وتساءل أحدهما عن المنفعة التي تجنيها أوربا من قتالها في أفغانستان، فأجاب الآخر: إن جنودنا يجب أن يتدربوا في قتال حقيقي؛ وهذه فرصتهم للتدريب».

«تخيل؟ هل هذه سياسة؟ هل هؤلاء ساسة؟ لم أصدق أذنَيَّ عندما سمعت ذلك، هل يجب أن يتعلموا القتل؟ هذا تحريض على القتل، وإن كنا نغطيه بلافتات مموهة، نصيحتي لصانعي السلام أن يتوقفوا عن لوم القاعدة على كل ما يحدث، إذا أردتم تنفيذ أجندة خاصة في أي مكان فلا تزجّوا باسم القاعدة لتقوموا بما تريدون؛ فهذا سوف يرتد عليكم بالضرر».

«ينبغي علينا أن نترك بقايا القاعدة يموتون من تلقاء أنفسهم ونحارب بأنفسنا الإرهاب، حاربوا العنف لأنه عنف، لا تستخدموا اسم الإرهاب؛ إنه جريمة، مثل أي جريمة منظمة، حاربوها كجريمة منظمة دون شعارات قد تجعل الناس الذين ليست لهم بها علاقة يتحولون إلى تأييدها؛ إنكم تعطون الناس انطباعًا بأن القاعدة تحارب الظلم: اجعلوا كلامكم عن الجريمة المنظمة، وليس عن الإرهاب أو القاعدة».

«آلة الدعاية الأمريكية ضخمت من شأن القاعدة، وخلقوا عدوًّا حتى يجدوا مَن يقاتلونه، وجمعوا بين القاعدة وطالبان لسبب وحيد؛ فقد طلب الأمريكيون من أمير طالبان تسليمهم أسامة بن لادن، وعندما رفض الرجل الاستجابة لطلبهم بادروا بغزو أفغانستان».

«من البداية أخطأ الأمريكيون في طلبهم تسليم بن لادن؛ لأن القرآن الكريم فيه آية تقرر أن المسلم يجب ألا يُسلّم أي شخص يطلب حمايته، على الرغم من أن الحكم موضع جدال إذا كان قد قتل أحدًا. كان باستطاعتهم أن يسلكوا مدخلًا فكريًّا مغايرًا ويحققوا النتيجة المرغوبة».

«لا تستطيع أن تجعل شخصًا لا يعرف شيئًا عن الإسلام يتحدث مع طالبان، أنت تحتاج إلى خبير؛ فعندما تُصر طالبان على أنهم يتبعون الإسلام، فإنك تستطيع تصحيحهم، سيكون دائمًا ثمة تفسير للتعامل مع الحالة».

«يجب على الحكومات والزعماء أن يتطلعوا إلى المستقبل، ولا تجعلهم الأسباب السياسية ينظرون إلى المكاسب قريبة المدى، التاريخ تاريخ.. عليهم أن يفكروا في التلف الذي سيحدث بعد خمسين أو مئة عام، وليس بعد عشرة أعوام من هذه الحرب».

«استمر احتلال العالم الإسلامي خمسمئة سنة، واستعمل المحتلون كافة الوسائل لاستئصال الإسلام من هذه المنطقة؛ كل الوسائل: المُنَصّرون، الجنود. أتذكر عندما كنت صغير السن في مصر، إذا ارتكب أي أوربي جريمة فإنه يذهب إلى محكمة خاصة، وليست نفس المحكمة التي يَمْثُل أمامها المصريون، وكانت النتيجة دائمًا في صالح الأوربي، وشهدت ذلك بنفسي، وأوجد ذلك عندي مشاعر سيئة، ليس التمييز في المعاملة طريقة لكسب القلوب أو لتجعل الناس تتبعك كقدوة، أو لإحداث توافق بينهم وبينك».

أعتقد أن ما يشير إليه يوسف ندا هنا هو الإدخال المتدرج للديمقراطية الليبرالية؛ وهذا أقل من أن يصنع العناوين الرئيسية في الجرائد أو أعلامًا ترتفع في أيدي الثوار في ثورة حاسمة، ومن المُحَير أنه في الشعوب الفقيرة، حيث لا يتمتع الناس بحقوق متساوية، فإن جاذبية «الرجل القوي» زعيمًا هي إغراء يشدهم إلى فكرة أن الحكام المستبدين هم الأصلح.

لكن يوسف ندا كرَّر لي مرات عديدة ومرات: «هناك أخطار دائمًا في الأعمال التجارية.. وكذلك في الحياة».

الفصل الثامن

المال والإيمان

«رأس المال ليس شرًّا في ذاته، لكن توظيفه الخاطئ هو الشر، وتظل الحاجة دائمة إلى رأس المال بشكل أو بآخر».

مهاتما غاندي

إن يوسف ندا رجل من رجال المال المتمردين، بالإضافة إلى تمتعه بأفكاره الثورية، وهو سعيد بمنحاه النقي، ومركز البحوث الدولي «بيو مانزو» في ريميني في إيطاليا؛ فرع استشاري للأمم المتحدة وهيئة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية قد أثنى على يوسف ندا ضمن تراجم من تلقَّوْا ميداليات الحكومة الإيطالية في عام ١٩٩٢؛ وجاء في هذا الثناء:

«إن يوسف مصطفى ندا من أبرز رجال الأعمال والممولين العرب؛ فقد بنى شبكة تجارة عالمية تربط بين الغرب والدول الإسلامية في إفريقيا والشرق الأوسط، وامتلك خبرة استثنائية في مجال المصارف والتجارة الخارجية، حتى أضحى شخصية معروفة جدًّا في ميادين الاقتصاد والمال والسياسة، ليس في أوربا وحدها، ولكن في البلاد الإسلامية كذلك».

رغم قضائه أكثر من نصف حياته في أوربا، ظل يوسف شخصًا محترمًا ومبجلًا؛ إذ يستشيره قادة الدول الإسلامية بين الفينة والأخرى. أما ما يتعلق بنشاطاته التجارية

في أكثر من خمس وعشرين دولة فإن شركته قادرة على إبرام عقود ذات نفع تجاري واجتماعي؛ مما يبرهن على معرفة يوسف ندا الواسعة بآليات السوق التجارية والقانون التجاري.

ولكونه شخصية بارزة وناجحة جدًّا في مجال الأعمال الحرة العالمية والمال، آمن ندا بتقديم دينه للعالم، إن التزامه التام باتباع دينه وباحترام القواعد المصرفية قد ساهما معًا في حمايته عندما تحطم ما بناه تحت وطأة الاضطهاد والضغط الهائلين؛ اللذَيْن وقعا عليه في مطلع القرن الحادي والعشرين، إلا أنه رغم ذلك كله، لم تهتز أبدًا ثقته بقيمة المصارف الإسلامية، التي تُوفّق بين إدارة المال ومبادئ القرآن الكريم؛ فبموجب قواعد الشريعة الإسلامية، لا يُسمح بتلقي أو دفع فائدة ولا رسوم على القروض، فكل هذا يعتبر ربا، والربا محرم في الشريعة. كذلك استثمار رأس المال في مجالات تتعارض مع مبادئ الإسلام؛ مثل إنتاج وبيع الخمر أو تشغيل دور القمار أو الدعارة.. هو أمر محرم كذلك.

إن المصرف الإسلامي المفترض أن يكون الوحيد بين المصارف العالمية الذي يقدم اليوم بأمان الخدمات بموجب التعاليم الدينية، هناك طرق عديدة لاستثمار رأس المال بعيدًا عن نظام الفائدة، ولكن ينبغي على إدارة المصرف التحكم في ذلك. بعد إسهامه في إنشاء أول مصرف إسلامي في القاهرة بالاشتراك مع الأمير السعودي محمد الفيصل، شعر يوسف ندا أنه مضطر للاستقالة من مجلس الإدارة، ليس لأسباب سياسية فقط، ولكن لأمور فنية أيضًا؛ لقد أصرت الحكومة المصرية على إبقاء نسبة من الأصول في المصرف المركزي كاحتياطي، على أن يتقاضى المصرف الإسلامي فائدة مقابل ذلك، كما كان هناك بعض التعليمات الأخرى التي تتعارض مع مبادئ المصرف الإسلامي.

في عام ١٩٨٨، عندما بدأ يوسف ندا تأسيس مصرفه الخاص «بنك التقوى»، سعى ليتجنب كل الأنظمة التي يمكن أن تُخرجه عن قواعد المصرف الإسلامي، لقد أراد أن يؤسس ما دعاه بمصرفه «النقي»، وذلك بعدما أصبح رجل الأعمال يوسف ندا

الملياردير، وبلغ حجم أعماله ثلاثة مليارات دولار أمريكي، وتوفرت لديه جميع التسهيلات لإنشاء ما يعتقد أنه النظام المصرفي الصحيح والمشرّف.

استعان يوسف بالخبير «بول ليونارد» من «فرش فيلدز بركهاوس ديرنجر» في لندن، والمعروفة باسم «فرش فيلدز»؛ وهي ثاني أكبر شركة محاماة في العالم، من حيث أرباحها، وطلب يوسف ندا من «بول ليونارد» أن يجد البلد الملائم لينشئ فيه مصرفه الجديد وفق تعاليم الإسلام. من البديهي أن معظم المواقع التي اقترحها في البداية كانت في الشرق الأوسط، ولكن أراد موكله أن يكون الموقع خارج تلك المنطقة، كما تم اقتراح جبل طارق بحيث يصبح رئيس الوزراء السابق وكيل المصرف، إلا أن هذا الاقتراح قد تم رفضه أيضًا، فاقترح إنشاءه كبنك «offshore» ليتمتع بالتسهيلات الضريبية المتاحة في جزر البهاما.

إن إنشاء بنك في البهاما آنذاك يمنح له ترخيصًا كي يعمل في أي دولة أخرى، إلا أن المطلوب الوحيد كان دَفْع الضرائب المعمول بها في الموقع الذي يتم اختياره، ولكن ليس على جميع النشاطات المصرفية، كما يتم دفع الرسوم في البهاما. وقبل أن يمنح مصرف بهاما المركزي أي مصرف خارج حدودها ترخيصًا ينبغي أن يُختار مدققو الحسابات من المعتمدين لدى البنك المركزي. وفي حالة يوسف ندا كان المدققون شركة «ديلويت آند توش» للمحاسبات؛ وتعتبر من أكبر ثلاث شركات في العالم في هذا المجال.

لقد كان حريصًا ودقيقًا في الاحتفاظ بمعيارَيْه الخاصين، ألا وهما: اتباع القانون في جميع أنحاء العالم، وكذلك العمل بموجب مبادئ المصرف الإسلامي. ينبغي على المصرف الإسلامي أن يقسم نشاطاته بين التمويل ونشاطات اقتصادية كالصناعة والزراعة والإسكان، إلا أن نشاطات المصرف يمكن أن تأخذ شكل المضاربة أو المرابحة أو الاستصناع أو الاستزراع أو المشاركة أو أي وسيلة أخرى يقبلها الإسلام، كما يمكن للمصرف الإسلامي أن ينشئ قنوات للعمل في مجال التجارة، ويمكنه أيضًا أن يشتري ويبيع أسهمًا وعملات نقدية.

أسس يوسف ندا في سويسرا شركة منفصلة للخدمات لتوجد إجراءات تدقيق حسابات شفافة على الصعيدَيْن الداخلي والخارجي، وحصل على ترخيص لها من مكتب الضرائب في «بيلينزونا» عاصمة مقاطعة «تيسينو» في سويسرا، كانت الشركة تقدم خدمات لمجموعة «التقوى»، تتضمن التدقيق الداخلي للحسابات ودراسات في الجدوى الاقتصادية لمشاريع المجموعة التي تضم مؤسسة تُدعى «مصرف التقوى في البهاما». قال يوسف عن الشركة بفخر واعتزاز: «لقد أنشأتها بطريقة لا تسمح لأحد أن يقول إنها غير قانونية، كل شيء كان موضحًا في السجلات».

لقد كان هذا النمط من الصناعة المصرفية الإسلامية جديدًا؛ يُودِع المستثمرون نقودهم ضمن اتفاق يحصلون بموجبه على ما بين خمسة وسبعين وتسعين بالمئة من الأرباح إن وُجدت. أما إذا حدثت خسائر في أحد الاستثمارات فإن المصرف يكون قد أضاع وقته وجهده، بينما يتحمل المستثمرون الخسائر. تخضع الأعمال لتدقيق داخلي ثم لتدقيق خارجي نهائي، ثم يُعاد تدقيق تقارير المدققين من قِبَل لجنة شرعية إسلامية.

لقد جعل ندا جميع شروطه في غاية من الوضوح: «لقد أصررت في الاتفاق المكتوب على أنه إذا ما أراد أحد سحب نقوده، يجب عليه أن يقدم إشعارًا مسبقًا قبل عام كامل؛ إذ كنت أحتاج وقتًا لأحقق أرباحًا، وكذلك لأن معظم رأس المال كان يُستخدم ليُدر دخلًا، وليس ليُحتفظ به في الاحتياطي، ولا بد من تسييله قبل إعادته، كان لديَّ عقد موحد ينبغي على جميع المستثمرين التوقيع عليه، وإن لم يفعلوا كنت أعيد لهم نقودهم. لم يكن لجماعة الإخوان المسلمين أيَّةُ أموال في البنك، أما كأفراد فلم يزد عدد الإخوان من المساهمين أو أصحاب المضاربات على أكثر من ٥٪ من مجموع المساهمين أو المضاربين».

«في أول إعلان عن أسماء أول المساهمين حدث خطأ بإضافة ثلاثة أسماء هم الأستاذ فريد عبد الخالق وكمال الهلباوي وإبراهيم صلاح؛ كنا سنبدأ بالاتصال بهم لتشجيعهم على المساهمة، ولكن لم نتصل بهم ولم يساهموا، وعندما اكتشفنا الخطأ أعلنا التصحيح في الإعلانات والصحف».

خلال أعوامه الثمانية الأولى، كانت أقل أرباح حققها مصرف ندا تتراوح بين سبعة وثلاثة عشر في المئة، وعن هذا يقول يوسف: «كنت أُدير مصرفًا إسلاميًّا يقوم على الأخلاق؛ أي تحقيق الأرباح للمستثمرين فيه بموجب قوانين شريعتنا، يجب أن لا تستخدم الربا مع الناس، ويجب أن لا نتعارض وما ورد في القرآن الكريم أو السنة الشريفة. إن اقتصاد العالم يقوم على الربا، وكذلك على نشاطات وعقول وجهود الناس في جميع أنحاء العالم، إن الربا هو ذاك الذي يَسلب الناس جزءًا من عملهم وطاقاتهم وإخلاصهم ليقدمه لنخبة من الناس وبعض الآخرين».

«ربما يحصل مالكو أسهم الشركات على خمسين بالمئة على أكتاف العاملين الذين يستخدمون نقودهم لسداد تكاليف حياتهم من سكن وطعام، لا يحصل المستثمرون على نقود مقابل عمل يقدمونه، بل مقابل نقود. إن الإسلام يحرم ذلك، والمسيحية كذلك تحرمه، رغم أن الكنيسة في روما أباحته عام ١٨٣٠ وتم نسيانه، لا يستطيع يهودي أن يأخذ ربا من أخيه اليهودي، ولكنه يستطيع أن يأخذ من الآخرين؛ بناء على قولهم إنها تعليمات سيدنا موسى».

«من المنطقي أنك لا تستطيع أن تربح على حساب عَرَق الآخرين لا لشيء سوى أنك تملك المال، بينما لا يملكه الآخرون، لا علاقة لهذا الشأن بالشيوعية أو الاشتراكية، بل إنها قضية عدالة. بموجب الإسلام، يستطيع أي أحد أن يملك أي ثروة شريطة أن لا يمتص دماء الآخرين أو عَرَقهم.. وما دام يدفع الزكاة للفقراء. الزكاة ضريبة مئوية ثابتة على الثروة والدخل، وباختصار على ما لدى الشخص، هناك شكل آخر للزكاة؛ تلك التي تُدفع في آخر شهر رمضان، إن هذين النوعين من الزكاة لا علاقة لهما بضرائب الدولة، ولكنهما يُدفعان مباشرة لشريحة محددة من الفقراء تشمل الأسرى ثم الجيران ثم الآخرين».

«إن عُمْر الصناعة المصرفية الإسلامية خمسون عامًا فقط، وهي تعمل إلى جانب النظام الربوي الموجود منذ آلاف السنين قبل الإسلام، والذي جاء الإسلام فحرمه، إن نظام المصرف الإسلامي يحتاج إلى وقت كي يتطور ويقنع الناس، ليس المسلمين فقط، أنه في مصلحتهم، وكي يعطوه فرصة. عندما تدرس الأزمة الاقتصادية، التي

تعاقب العالم الآن، وكساد ١٩٣٠ الاقتصادي، تجد أن السبب المحوري هو النظام الربوي؛ لأن المال فقط يجلب أرباحًا».

«في كل اقتصاد نقي المال والجهد هما ما يجلبان المال، هناك النقود والجهد والأرض؛ الأرض وسيلة الإنتاج؛ لقد كانت لأجل الزراعة فقط، ولكنها الآن لأجل إنشاء المصانع ولأجل وسائل أخرى للإنتاج، هكذا لدينا النقود والجهد والوسيلة، وهؤلاء جميعًا يمكن أن يجلبوا الدخل، وليست النقود وحدها التي يمكن أن تجلب النقود على حساب الآخرين.. إن الإنتاج هو الشيء الأخير».

«إذا كانت النقود هي التي تنتج لك بمفردها فسيكون ذلك على حساب عَرَق الآخرين وعلى حساب كلفة وسيلة الإنتاج، يجب على جهد الإنسان أن يقدم الوسيلة المهنية، ويجب أن لا تقدم له بالمقابل ما يكفي لسداد رمقه فقط، وإلا تكون قد امتصصت الباقي كله، ولم تعطه فرصة النمو كما أنك تنمو، أما هو فإنك عندئذ تطعمه لمجرد أن يبقى على قيد الحياة فحسب، وحتى إذا أراد أن يملك المنزل الذي يعيش فيه تحتمت عليه الاستدانة ودفع الفائدة الربوية على ما اقترض، والتي تكلفه أكثر من قيمة المنزل، وذلك حسب عدد السنين التي يستطيع أن يعمل ويشقى خلالها كي يسد الدَّيْن. الشيء ذاته ينطبق على تعليم أبنائه والضمان الصحي وجميع مرافق الحياة الأخرى».

«إنها مسألة مشاركة؛ لا ينبغي للنقود وحدها أن تجلب الأرباح، بل المال والجهد ينبغي أن يجلبا الربح معًا، هذا يعني أنه إذا ملكتَ نقودًا لا تستطيع توظيفها، وأنا أستطيع أن أوظفها لك، فإنني مستعد للعمل؛ أي أنني مستعد للزراعة أو بناء مصنع أو إنتاج سلع، فأنت تقدم المال، وأنا أقدم الجهد.. عندها نشترك في الربح كما نشترك في الأعباء، فهذا أمر تبادلي. بالنسبة للمصرف، كنا نأخذ خمسة وعشرين في المئة من الأرباح ومالك النقود يأخذ خمسة وسبعين في المئة، وعندما يكون المبلغ كبيرًا، كنا نأخذ أقل من ذلك».

«لا يعترض الإسلام على امتلاك أي شخص أو مجموعة أو عائلة للثروة مهما كبر حجمها، ما دامت قد أتت من مصادر نظيفة وقانونية ويدفع ما يترتب عليها من زكاة

واجبة وضريبة، ومن وجهة نظر جماعة الإخوان المسلمين، يجب أن يكون النفع الاقتصادي لطبقة الفقراء ومتوسطي الدخل مقدمًا على المنافع السياسية ضمن النظام العالمي، وهذا ما تريده الشعوب. لقد تصرف حسني مبارك وأمثاله عكس ذلك؛ جاعلين مكاسبهم السياسية والمالية أكثر أهمية بالنسبة لهم من النظام الاقتصادي الذي يهم الشعب».

هناك تهيؤات سادت العالم بأسره بأن جماعة الإخوان المسلمين تريد أن تحكم بموجب الشريعة، بيد أن يوسف ندا يرى من وجهة نظره أن جماعة الإخوان المسلمين تريد أن تحكم على أساس الديمقراطية دون أن يتعارض ذلك مع الشريعة الإسلامية: «هذا هو الفارق، الفارق الكبير؛ عندما تقول: حكم ديمقراطي طبيعي دون التعارض مع الشريعة تكون منفتحًا على تفسير مختلف للديمقراطية، وكذلك على تفسير مختلف للشريعة. إذا رفضنا الديمقراطية المشوّهة يجب أن نرفض أيضًا ما يشوّهون به الشريعة ويريدون منا أن نقبله».

«في القرن الحادي والعشرين يجب علينا أن نقبل بالقانون، ولكن نحكم عليه ضمن ظروف العالم الذي نعيش فيه، لا نستطيع أن نكون منغلقين، ونقول هذا وذاك هو التفسير الوحيد. لا نستطيع أن نكون متقيدين بما كان صالحًا في قرن آخر، أو ما فسره العلماء المخلصون الأمناء في زمن كانوا يركبون فيه الخيل والجمال، لقد غير العلم والتكنولوجيا والزمن العقل البشري؛ فقد تغيرت طريقة تفكيرنا عند تفسيرنا للشريعة الإسلامية. إن الشريعة هي ما ورد في القرآن الكريم وما قاله أو فعله الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفسيرهم هو الفقه، والفقه صناعة بشرية ليس فيها عصمة، وهي عِلم مثل كل العلوم يستطيع كل من يمتلك الكفاءة أن يدرسها وليس فقط من يُسمّون بالفقهاء الذين يجب أن يقبلوا النقد لتفسيراتهم إن وُجد ما يبرره، والفقه هو ما يتوافق عليه الناس في فهم وتفسير الشريعة، لا أحد يستطيع أن ينكر أن رجال اليوم أكثر معرفة من رجال العام الماضي، الفقه لا حدود له وإن كان القرآن نزل في مكة والمدينة الموجودَيْن الآن في دولة معينة فهذا لا يعني أن فقهاء هذه الدولة أكثر علمًا من غيرهم، أو أن الآخرين يجب أن يلتزموا بتفسيرهم، ومنذ نشأة الإسلام لم يكن أفضل وأعلم الفقهاء من هذه الدولة».

«يجب أن تتماشى أقوالنا مع عقولنا ولا نزيل فقط الحواجز الجغرافية ولكن أيضًا العقلية. ويظل السؤال قائمًا: هل يجب أن نتناغم مع عواطفنا وأحاسيسنا، أم أيضًا مع عقولنا وأفكارنا؟!».

«قال ابن رشد: صحيح أن المسلم لا يحق له أن ينكر ما هو معروف من الدين بالضرورة كما قرر علم أصول الدين، ولكنه مُجبر بموجب القرآن الكريم أن يستخدم عقله كي يتعمق في تفسير القرآن الكريم وحججه وأهدافه والتوقيت والظروف. لا نريد أن نكرر ما فعله أربعة أو خمسة أئمة قدماء قبل أحد عشر قرنًا. لقد قال الله عز وجل إنه يجب عليك أن تفكر وأن تكون يقظًا ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾».

«لقد أحضروا أحد اللصوص بعد اعترافه إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وبموجب النص القرآني يجب أن تقطع يده، فسأله عمر: لماذا سرقت؟ فأجاب: كنت جائعًا، ولم أستطع الحصول على عمل ولا طعام، فقدم له الخليفة طعامًا، وسامحه؛ متبعًا روحَ الشريعة، وليس النص الحرفي الذي جاءت به الشريعة؛ لقد تعلم الخليفة الثاني الإسلام من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وكان من أكثر المقربين إليه. وعندما قلت لأحد الفقهاء: لماذا لم تجتهدوا في موضوع العقوبات الجنائية وتخرجوا بدائل لها؟ كانت إجابته: لا يمكن ذلك مع وجود النص، ويمكن فقط فيما لا نص فيه. قلت: إن فيما لا نص فيه لا يحتاج لفقيه أو رجل دين، ومدرسة الالتزام بالنص هي التي تحتاج إلى البحث؛ فالعقول البشرية تغيرت تغيرًا جذريًّا عمّا كانت عليه قبل ألف عام، وإذا تحدثنا بنظرية «التقيد بالنص» وليس «المقصود بالنص»؛ فعلى المسلمين أن يعدّوا للحروب رباط الخيل وليس الصواريخ والطائرات ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾. مثل هذه الإجابات تعيدنا إلى عصر الأشاعرة والمعتزلة، وما يريد السلفيون من تحويل الدين إلى كتل صماء تُلزم المسلم بالإيمان بها حتى لو رفضتها قدرة عقله الذي أعطاه له الله وأمره أن يستعمله للوصول إلى الإيمان. وتظل هذه ساحة تحتاج إلى علم شرعي تحيطه جرأة من أجل مواءمة الإيمان للعقل؛ ولذلك أكرر أنه منذ ١١٠٠عام وكل المسلمين السُّنّة يتبعون أحدًا من أو كل الأئمة الأربعة وتلاميذهم..

ولا مـن جديـد. نحن وقفنـا هناك ولكن الزمـن والعالم لـم يتوقفا وتَبِعَا سُـنّة الله في الكون الذي خلقهما. ومثال آخر على موضوع «إلا فيما فيه نص» هو أنه لمّا اتسـعت الفتوح في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب جاءه الغزاة يطالبون بتوزيع الأراضي التي فتحوها كغنائم حسـب النص، فرفض وقال لهم: إن وزّعتُ عليكم وتملكتموها فسـتأتي أجيـال لا تجد مـا تملكه. ويجـب أن نحافظ للأجيال القادمـة على حقوقهم وأملاكهـم، وأصر علـى رأيه ونفّذه؛ ولذلك أقول: هل من الفقهاء من يدّعي أنه أشـد التزامًا بالشَّـرْع من عمر؟ الأمر ليس فقط النص، ولكن مقاصد الشرع وأهداف النص الواضحـة وليس المسـتترة التي تفتح البـاب للخلاف على المجهـول وترك المعلوم ومصالح البلاد والعباد، وحتى العباد الذين لم يُولدوا وسيولدون في أجيال قادمة».

«وقد قال الشـيخ محمد الغزالـي رحمه الله في كتابه «الموقـع الفكري والمعارك الفكرية»: لقد تجمد الفقه الإسـلامي عدة قرون فلم يتحرك لا دوليًّا ولا دسـتوريًّا ولا عماليًّا كي يسد الفراغ الموجود الآن في العالم الإسلامي. ويُخيل إليَّ أن فقه العبادات قد أصيب بسـرطان فوضوي في بعض الخلايا على حساب الخلايا الصحيحة، وهذا الامتـداد الفوضوي حدث في فقه العبـادات عندما تضخّم إلى حد بعيد بحيث أصبح في باب الوضوء وباب الغسـل مجلدات في أمر كان من الممكن أن يُكتب على ظهر كراسـة، وهذا التضخم جاء على حساب القانون الدستوري والقانون الدولي وقانون المعامـلات والعمل والعمال والقانون الإداري... الأمر الذي جعل الأمة الإسـلامية أفشل الناس في الإدارة».

«وإذا انتقلنـا مـن الشـرع إلى السياسـة، فأخطر ما فيهـا هو خُلق الساسـة لو انعدم فيهم الضمير».

«دعنـي أسـتعين بمـا قاله «شيشـرون»؛ رجـل الدولـة الرومانية وأحد مُشـرعيها: تسـتطيع الأمـة أن تحتمـل حمقاءها وحتـى طموحيهـا، ولكن لا تسـتطيع أن تحتمل الخيانة عندما تأتي من داخلها؛ فالعدو المتربص عند البوابة أهون عليها؛ لأنه معروف ويحمل رايته علانية، ولكن الخائن يتحرك بحرية بين أولئك القاطنين داخل الأسوار، فحفيف همساته الماكرة والخبيثة يتردد صداه عبر جميع الأزِقّة، حتى يصل إلى داخل

قاعـات الحكومـة؛ لأن الخائن لا تبدو عليه الخيانة، فهـو يتحدث بلهجة مألوفة لدى ضحاياه مرتديًا أقنعتهم ومستعينًا بجدالهم، ومحركًا في قاع قلوبهم الخسة القابعة في أعمـاق قلوب جميـع الرجال، فهو يُفسـد روح الأمة، ويعمل سـرًّا دون أن يُعرف في جنـح الظـلام ليقوض أركان المدينة. إنه يلوث الجسـد السياسـي حتى لا يعود يقوى على المقاومة. إن القاتل أقل تخويفًا.. وإن الخائن لهو الطاعون».

«وهذا جزء من المشـكلة والحل كليهما في الوضع السياسـي الراهن، ويجب أن نتجنب انتقاد مجموعة كأوغاد بينما نمتدح شخصًا آخر أو مجموعة أخرى كمنقذين، إننـا لا نسـتطيع أن نُغمـض عينًـا عن أخطـاء أولئـك الذين نؤيدهـم بينمـا ندين ذات الأخطاء التي يرتكبها خصومنا، ليسـت إسـاءة اسـتخدام السـلطة ولا الطائفية حكرًا على مجموعة محددة أو مجتمع بعينه».

«يجب على نشـطاء المجتمع المدني والإعلام، على وجه الخصوص، أن يكونوا أُمنـاء وصادقين فـي تحليلاتهـم، فنزاهتهـم واسـتقامتهم بمثابة البوصلـة التي تحدد مسـار رحلتنا نحو المستقبل في هذه الأوقات العصيبة. يجب على الطبقة المؤثرة في المجتمع – والتي تضم كبار التجار وقادة المهنيين والمتدينين والمثقفين والأكاديميين والمنظمات غير الحكومية باسـتثناء السياسـيين أن تُدين الخداع والظلم بلغة في غاية الصراحـة والوضوح دون لبـس يعتريها، يجب على السياسـيين، خاصةً، أن يجاهروا بصوت مرتفع وقوي مسـتنكرين الأكاذيب المنمقـة والمظالـم والخداع المُرْتكب في حق المجتمعات الآمنة».

ويقـول يوسـف ندا إنـه يتفهم مخـاوف الغرب حول الإسـلام وجماعـة الإخوان المسـلمين، ويضيف أيضًا أنه يجب عليه وعلى جماعة الإخوان المسلمين أن يتابعوا تصديهم للإشاعات الملفقة ضدهم. «بالطبع سيكون هناك مخاوف بعد كل الروايات الكاذبـة التـي اختُلقت ضدهم، كثير من الناس يتحدثون بلغة مخيفة لأن لديهم أهدافًا خاصـة، فبعضهم يضخم شـأن جماعة الإخوان المسـلمين و«العمـلاق». إنهم يَرَوْن فقط العملاق «الشبح».

«هنـاك أنماط مختلفـة للديمقراطية في العالـم، وإذا سـلكنا طريق الديمقراطية، لا يعني بالضرورة أنه ينبغي علينا استنسـاخ أحد الأنماط الموجودة، بل يمكننا أن نتبنى مـا يلائـم مبادئنا، والديمقراطية يمكن أن تختلف في بعـض جزئياتها، ولكن ليس في الأركان بذاتها. إننا لا نريد أن نتخذ لأنفسنا ديمقراطية برجوازية».

«إذا جـاء ملك وأنشـأ ديمقراطيـة على أن يظل هو الملـك والحاكم وصانع القرار الوحيد وصاحب الكلمة الأخيرة، وهو سليل النبل بينما الآخرون أبناء البسطاء، وهو وذريته من بعده دمهم أزرق ودماء شعوبهم حمراء؛ فهذة ليست ديمقراطية بأي حال».

«وفـي دولة صغيرة كقطـر، الأمير رغم أنه يقدم قصارى جهده لأجل شـعبه، لكنه حاكم مطلق، له امتيازات عليهم لكن إلى متى؟ لا أحد يعلم. ورغم أن الشعب يحبه، وقَبِـل منـه ذلك. ولكن هذه هـي الديمقراطية البرجوازية؛ إنها قـد تلائم قطر، ولكنها غير مريحة إذا ما طُبقت في أماكن أخرى، يمكن أن تنجح في دولة ذات تعداد سكاني محـدود كمـا لو كانوا عائلـة كبيرة، ولكـن نجاحها غيـر ممكن في أماكـن أخرى في الأحوال العادية».

«فـي المملكـة العربيـة السـعودية يصل عدد أفـراد السـلالة الحاكمة إلى خمسـة عشـر ألف شـخص، من بين تعداد سـكاني يبلغ خمسة وعشـرين مليون نسمة. نحن وَهُم! المالكون في مقابل المعدمين، السـيد والعبيد الذين يمكن أن يرقيهم ليصبحوا موظفيـن أو ينـزل بهم إلى مسـتوى الخدم أو إلى أدنى طبقات النـاس، ولكن بالتأكيد لـن يبلغوا درجـة الأمراء. أما في الإمـارات فدعك من الخرفان الـذي يخرف بعد أن غـضَّ الطرف عن قتل المذبوح رحمه الله، وأوهم البسـطاء بأنـه يتابع القَتَلة، وعندما أخرسـوه تحول إلـى تبجح آخر ليدفن تواطـؤه وعجـزه، وأراد أن يتبختر مرة أخرى، وعبس وبسر، وبدأ ينطح صخرًا وظن أن تخريف الخرفان يحرك جبال الإخوان، ولـم يردوا عليه ولن يردوا، وهل ترد الجبال إن نطحها الخرفان؟».

«فـي دول أخرى مثل مصر وتونـس والجزائر، لا تصلـح الديمقراطية البرجوازية الزائفـة، والواجـب أن تقـوم بهـا ديمقراطيـات شـعبية، ولا يجب أن نسـمح للفصل

العنصري أن ينشأ. يبلغ عدد سكان مصر ثمانين مليون نسمة، إلا أن أربعين بالمئة منهم أُمّيون، ولا يمكن إلقاء اللوم كله على الدكتاتورية التي جاء بها عبد الناصر، وحكم بها الآخرون حتى أُطيح بحسني مبارك».

قال يوسف ندا: «إنها قد بدأت في مصر في زمن الاستعمار عندما كانت أداة حكم البريطانيين منذ احتلوا البلاد في ١٨٨٢، مرورًا بحكم الملك فاروق حيث ظل مفتاح الحكومة في يد البريطانيين». ثم أضاف قائلًا: «لقد فرضوا ما أرادوا على الشعب، ولكن بأيدٍ ناعمة، أما عبد الناصر والسادات وحسني مبارك فقد فرضوا إرادتهم بقبضة من حديد.. كِلا النظامين شِرّيران؛ لقد عانى تعليم الشعب، ونتيجة ذلك حدث فراغ ثقافي، أما المثقفون الذين عارضوا الاستبداد فأُلقي بهم في السجون، بينما لجأ بعض الأذكياء إلى الصمت، فالذين رفعوا أصواتهم أسكتوهم بطُرق مختلفة؛ بالتعذيب والسجون ومصادرة الممتلكات ومنع توظيفهم أو تخفيض درجاتهم الوظيفية.. وكان الإخوان المسلمون من أكثر أولئك المضطهدين اضطهادًا».

«لقد أغلق البعض أفواههم، وركب البعض الآخر الموجة فخدموا الدكتاتوريين، لقد كانت البلاد منقسمة بين الأميين والمثقفين. بعد خلع مبارك، سيُلقى على عاتق الأميين وأنصاف المثقفين الأعمال الشاقة، أما مَن نالوا فرصة التعليم والثقافة، فسوف يقع عليهم عبء تطوير مصر. ومنهم من سَعَوْا وراء النظام، ففازوا بالتدريب الجيد. إنهم لم يستعملوا ضمائرهم أثناء الحكم الدكتاتوري، لذلك كيف لنا أن نثق بهم؟! هناك فصل عنصري أيضًا؛ فالذين لم يتلقوا التدريب سلبيون. كي ننشئ نظامًا جديدًا، ونطبقه، وكي نحصل على ثمار التخلص من مبارك.. يجب أن يكون هناك ديمقراطية شعبية، ولكن يجب على الجميع أن يعملوا أيضًا؛ وهذا هو التحدي الأكبر».

«بين صفوف جماعة الإخوان المسلمين في مصر آلاف من هيئات التدريس الجامعي، وهناك بين أعضائها حوالي عشرين ألفًا يحملون شهادة الدكتوراه، وهم يعملون خارج الجامعات، وكذلك لدى الجماعة أكثر من مئة وخمسين ألف مدرس في المدارس، إن التعليم حقيقة هامة جدًّا بالنسبة لنا. وقد تَعْجب من رأيي الشخصي:

إن ارتفاع مستوى تعليمنا إلى هذا الحد يُعد نقطة ضعف شديدة؛ وهذا رأيي وليس برأي جماعة الإخوان المسلمين على أي حال».

«عندما بدأنا، كان معظم الإخوان المسلمين فلاحين وعمالًا وطلاب علم، أما الآن فقسم كبير منا من النخبة؛ إما بالعلم أو ببعض المال (الطبقة المتوسطة)، وهذا أمر سيئ. يجب أن نكون في توازن نسبي مع المجتمع، فكي تكون الحركة محبوبة شعبيًّا لا يجب أن تكتفي بإرشاد الناس فحسب، ولكن يجب عليها أن تكون جزءًا منه، يجب أن تكون جزءًا من الشعب كي تشعر بما يشعر به».

«لا أرى أي سبب يبرر خوف العالم من جماعة الإخوان المسلمين؛ إلا أن المشكلة سببها أمران مثيران للجدل؛ أولهما يتعلق بالقضية الفلسطينية؛ فكل مسلم على وجه الأرض متعاطف جدًّا مع الفلسطينيين وليست جماعة الإخوان المسلمين وحدها المتعاطفة معهم، والإخوان مقتنعون مئة بالمئة أن الفلسطينيين ضحايا، أما لو كنتُ أنا قادرًا على دعمهم أم لا، فهذا شأن آخر، ولكن في الحالتين يظل يقيني أنهم ضحايا».

«حتى أولئك الذين ساهموا في خلق إسرائيل، اتخذوا الرأي ذاته في لحظة الحقيقة؛ انظر إلى ما قاله الرئيس أيزنهاور في خطابه الذي بُثّ عبر المذياع والتلفزيون، في العشرين من فبراير ١٩٥٥؛ وكأنه يخاطب كل من جاء بعده من رؤساء الولايات المتحدة: أنا أشعر أنني سأكون غير صادق حسب معايير الإدارة التي انتخبتموني لأرأسها إذا استعملت نفوذ الولايات المتحدة في الاقتراح بأن الدولة التي تغزو أخرى تضع شروطًا للانسحاب منها. وفي فقرة أخرى قال: ولا أعتقد أن خطأ إسرائيل يمكن أن يُتغاضى عنه لأن هيئة الأمم لم تستطع تطبيق قرارها بالتنديد بغزو الاتحاد السوفيتي العسكري لـ«هنجاريا»، وهنا ينطبق المثل الذي يقول: إن خطأين لا يؤديان إلى الصح. يجب أن لا تفشل الأمم المتحدة؛ فأنا أعتقد - لأجل السلام - أنْ لا خيار للأمم المتحدة إلا أن تضغط على إسرائيل كي تلتزم بقرارات الانسحاب».

«كذلك، لاحظ خطاب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية «جون فوستر دلاس» الموجَّه إلى مجلس الشئون الخارجية في السادس والعشرين من أغسطس

١٩٥٥: ما زلنا نأمل أن ترى حكومة إسرائيل أن مصالحها القريبة والبعيدة المدى تكمن في امتثالها للأمم المتحدة. لم نسمع سوى الخطابات، ولكن الضحايا ظلوا ينزفون».

يصر يوسف ندا على أن الإخوان المسلمين لا يدعمون حركة المقاومة الإسلامية «حماس» ماليًّا؛ فيذكر أن «بعض أعضاء الجماعة يتبرعون لتمويل بعض جوانب حياة حركة حماس، فتذهب تبرعاتهم للمشافي والتعليم وإطعام الناس؛ إنها مساعدات إنسانية».

ويقول يوسف: «لقد قُلت مرارًا إنني إذا كنت صادقًا في ديني، فلا يمكن لي أبدًا أن أرتكب العنف.. إلا ما يَسمح به القانون».

«إذا اقتحم أحد منزلي، فعليَّ الاستسلام أو القتال كي أدافع عن أسرتي ومنزلي، بمقدوري أن أقاتل في منزلي ولكن ليس بمقدوري أن أذهب إلى منازلهم كي أقاتلهم؛ هكذا التحقت بالإخوان، ولهذا أيضًا ذهبت كي أحارب بشكل رسمي من خلال الجامعة، وليس من خلال جماعة الإخوان المسلمين فقط.. بشكل رسمي».

«كان علينا أن نحارب لأجل حريتنا، سئلت مرة على إحدى قنوات التلفزيون الأمريكية إذا كنت أوافق على أن يَقتل العراقيون الجنود الأمريكيين في العراق. فقلت لهم: إن كل مَن يقاتل من احتل أرضه فهو بطل. فكرر المذيع السؤال مرات عديدة ليحصل على الجواب الذي كان يريده: هل توافق على أن الفلسطينيين، سواء كانوا على صواب أم على خطأ، يقتلون السكان المدنيين؛ النساء والمُسِنّين والأطفال، بالعمليات الفدائية؟! لقد شرحت له أن ما يقوله الله عز وجل واضح، وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم أنك عندما تكون في حرب – ولم يَستثن من الحكم فلسطين أو إسرائيل أو مصر – يَحرُم عليك قتل الأطفال والنساء والمُسِنّين، عليك أن تقاتل من يقاتلك، ولا يجب أن تقاتل الضعفاء حتى لو حاربوك؛ إذًا يجب أن لا تقاتل الأطفال والمُسِنّين والنساء. أما بالنسبة للتزويد بالسلاح، فلا يمكن للإخوان أن يتورطوا في ذلك، وإننا لا نفعل ذلك فقط، بل إن حماس لا تتوقع ذلك من الإخوان المسلمين، فهم لا يريدون أن يجلبوا أي مشكلة لجماعة الإخوان المسلمين. عليهم أن يجدوا مصادر مختلفة لأجل ذلك؛ لو تورطت جماعة الإخوان المسلمين في

إمدادات السلاح، لاشتعلت حرب لا نهاية لها ضد الإخوان المسلمين، بسبب التأثير السياسي، الذي يتمتع به الإخوان، فهناك كثيرون يريدون الانتقاص منا. إنهم يودون أن يمسكوا أحد أعضاء الجماعة متورطًا بإشعال أي نوع من الحروب، ومثال على ما أقول أنهم يريدون الإمساك بي متورطًا بذلك ليتهموني بجريمة تزويد حماس بالسلاح، لكنهم لم يستطيعوا، ولم يجدوا شيئًا؛ لأن ذلك لم يحدث، ولا يمكن له أن يحدث أبدًا. كان عقلي وأذناي مسدودتين عن كل ما يتصل باصطلاح سلاح. يعتبر الأمريكيون جماعة الإخوان المسلمين عدوهم الأكثر رعبًا؛ لأن الإخوان المسلمين لا يقبلون الوضع في فلسطين، هذا لا يعني أن جماعة الإخوان المسلمين ضد اليهود؛ لأنه من غير المسموح لنا أن نكون ضد اليهود أو ضد المسيحيين أو أي أحد آخر، إننا ندرك ذلك جيدًا جدًّا، ولكننا نؤمن، وأنا كذلك أؤمن، أن الفلسطينيين كانوا ضحايا وما زالوا».

«إنها لعبة بين الأمريكيين واليهود؛ فاليهود يَستخدمون قوة الأمريكيين، والأمريكيون يستخدمون اليهود ليُبقوا الشرق الأوسط تحت سيطرتهم، وفي النهاية يظل الفلسطينيون ضحايا. إن الدعم الدولي لقضية إسرائيل، وإهمال وغض الطرف عن القضية الفلسطينية لهي القضية الأساسية بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين، فكما قلت آنفًا إن كل مسلم في العالم يتعاطف قلبه مع الضحايا الفلسطينيين، سواءً قال هذا أم لم يقل».

«أمامي لغز: لماذا يريد الإسرائيليون أن يكونوا جميعًا في مكان واحد؟ في زمننا هذا، يمكن لأمة بأسرها أن تُسحق بضغط على زر وفي ثانيةٍ واحدة، وربما كان مرتكب الجريمة على بُعد آلاف الأميال يشاهد على شاشة ما ترتكبه التكنولوجيا. إن عداء السامية ضد تعاليم ديننا الإسلامي وضد شريعتنا؛ إنني ساميّ، فكيف لي أن أكون ضد نفسي؟! والإخوان المسلمون أيضًا ضد الفظاعات والوحشية. إن إسرائيل تجعل من نفسها هدفًا مفتوحًا في العالم الحاضر، لو لم يُعْطِ القذافي الغربَ معلومات عن عبد القادر خان (العالِم النووي الباكستاني) لَظَلَّ يصنع أسلحة نووية في السر حتى الآن، وهو ليس العالِم الوحيد؛ حيث لا نعلم ما يجري في شمال كوريا».

«فـي نوفمبـر عام ٢٠١١ قال مفتشـو الأمم المتحـدة إنهم قد اكتشـفوا مجمعًا في الحسكة الواقعة في أقصى شمال شرق سوريا شبيهًا بمصنع تخصيب اليورانيوم الذي خطـط عبدالقادر خان لإقامته في ليبيا؛ وهذا دليل قاطع على علاقة تربط بين مهندس القنبلة الذرية في الباكسـتان وبين سـوريا، لقد أنكر بشار الأسـد باستمرار العلاقة مع خان، قد باع العالِم المنشق؛ الذي ألصقوا به لقب «تاجر الوعيد» لِمَا أوجده من سوق سـوداء للمخططـات والتكنولوجيا النووية، بـاع فيها خبراته لإيران وكوريا الشـمالية وليبيا. لم يتم بناء مصنع خان في ليبيا مطلقًا، ورغم ذلك، عندما أراد القذافي أن يعيد علاقاتـه مع الغرب من خلال تخليه عن البرنامج النووي الليبي رسـميًّا، قدَّم القذافي تفاصيـل الخطـط والمعـدات النوويـة والوثائـق، التـي زوده بهـا العالم الباكسـتاني، للمفتشين الدوليين».

«لقـد سـاد الاعتقاد بأن سـوريا قد تخلت عـن برنامجها النووي فـي عام ٢٠٠٧، على أي حال عندما قصفت الطائرات الإسـرائيلية ما قالت عنه المخابرات الأمريكية إنه كان مفاعلًا نوويًّا في منخفض صحراوي شـرق نهر الفرات، فقد اكتشف أنه أُنشئ بمساعدة كوريا الشـمالية؛ فهو نسخة من منشأة البلوتونيوم في «يونجبيون» التي تنتج المادة الانشطارية المستخدمة في القنبلة التي اختبرتها كوريا الشمالية في عام ٢٠٠٦. إن خان خبير في اليورانيوم وليس البلوتونيوم؛ مما يبرهن على أن سـوريا كانت، مثل الباكستان، تسلك طريقين مختلفين نحو امتلاك القنبلة النووية».

«في عام ٢٠١٢ اسـتمر التفتيش كي يكتشـف ما قدمه «تاجر الوعيد» لسوريا، فقد حصل عملاؤه فيما سـبق على أجهزة الطرد المركـزي المطلوبة لتخصيب اليورانيوم إلـى الدرجة المسـتخدمة في صنع السـلاح النـووي، وكذلك كانوا قـد حصلوا على المخططـات، وقـد قيـل إنه قد تعامـل مع دول أخرى مـن ضمنها الجزائـر والمملكة العربية السعودية».

يرى يوسف ندا أن مستقبل عالمنا هذا هش وضعيف لما يشهده من تعاقب أحداث متسـارعة: «أما الأمر الثاني المثير للجدل فهو استمرار سوء فهم الإسلام الذي سيطر

على البحوث والكتب منذ الحروب الصليبية حتى يومنا هذا. لقد جلست مع قسيس، وتحدثت إليه فاتحًا له قلبي كرجل ملتزم بالدين محاولًا أن أتقبل ما أعتبر أنه قد جاء من عند الله. إنه مسيحي، وجلست معه وتحدثت إليه معتبرًا إياه رجلًا نقيًّا؛ إذ عنده قلب نقي، ثم اكتشفت أنه يعتبرني كافرًا».

«لم أجد هذه النزعة لدى القس فقط، بل إنني وجدتها كذلك عند المتعصبين من المسلمين؛ إننا ورثة تاريخ بدأته الحروب الصليبية، واليوم لدينا أيضًا مشكلة الثروات الاقتصادية في المنطقة حيث توجد المصادر الهامة والرئيسية بالنسبة للعالم. الشرق الأوسط والغاز والنفط جميعًا تشكل لغز حاضرنا وكوابيسه. ما لم تكن الثروة بأيدي المستهلكين، فلن يصبح مستوى عيشهم كما يرغبون».

«إلا أن المستهلكين دائمًا كانوا يأتون من الخارج باسطين أيديهم كي يأخذوا، وليس ليشاركوا، تذكر أيضًا ما قاله رئيس وزراء بريطانيا «كامبل بانرمان» في تقريره حول المنطقة في عام ١٩٠٧: الشعوب في الشرق الأوسط لديهم دين واحد ولغة واحدة... فعلينا أن نفرقهم، ولا نسمح لهم بالحصول على العلم والتكنولوجيا».

«إن وثائق الأرشيف المعاصر تشير إلى مؤتمر «كامبل بانرمان» بهذه العبارات:

خبراء من بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا تمعنوا بالمخاطر التي تهدد الحضارة الغربية، وانتهوا إلى أن أكثر الخطر تهديدًا يأتي من جنوب شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي تقريرهم النهائي خلصوا إلى أن حوض البحر الأبيض المتوسط يُشكل شريانًا حيويًّا للاستعمار؛ إذ يربط الغرب بمستعمراته في آسيا وإفريقيا، إلا أن الشعب في شواطئ جنوب شرق البحر المتوسط يتحد بالتاريخ والدين واللغة، وذلك يشكل تهديدًا للاستعمار الغربي، إلا أنه يجب علينا أن نبقيه ضعيفًا ومجزأ وجاهلًا».

«لقد اعتبرت لجنة مؤتمر «بانرمان» العالَمَ مُقسمًا إلى ثلاث كتل: الأولى لها الحق في التفوق المادي، وهي تتكون من الدول المسيحية في أوربا وأمريكا الشمالية وأستراليا، أما الثانية فهي التي تحيط بالحضارة الغربية، وتتكون من أمريكا اللاتينية

واليابان وكوريا، ويجب تهدئتها وكبحها، أما الكتلة الثالثة فهي الدول العربية والإسلامية، التي يجب أن تظل محرومة من ثمار التكنولوجيا والعلم الحديث».

«مؤخرًا، وفي افتتاحية نَشَرتها جريدة «الأهرام» في مايو ٢٠٠٩ مقارنة بين ذاك الوقت والآن، ورد ما يلي:

يقترح تقرير «كامبل بانرمان» إنشاء دولة في فلسطين تتوافق مع آراء مؤتمر بازل الصهيوني، الذي انعقد في عام ١٨٩٧، وتكرس الفكرة، التي كان «ثيودور هيرتزل» أول من اقترحها، والتي تنص على خلق دولة غربية قوية في الشرق الأوسط. بعد قرن، وفي اختتام منتدى تحالف الحضارات، قال ممثل الأمم المتحدة «يورج سامبايو»: إن المنتدى قد قدم «بصيص أمل» لعالم مختلف. هذا جيد إلى الآن، ولكن بعد ذلك في المؤتمر الثاني لمناهضة الفصل العنصري في جنيف حاربت الدول الغربية بقوة وشراسة توجيه أي انتقاد يمس إسرائيل، حتى بلغ الأمر بالبعض أن اعتبروا مثل هذا الانتقاد يندرج تحت معاداة السامية، وعندما أخفقوا في إزالة انتقاد إسرائيل من المؤتمر، هددت كلٌّ من الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الغربية بمقاطعة المؤتمر. بدأت إسرائيل توبخ رئيسة سويسرا لاجتماعها بنظيرها الإيراني، وغادر سفراء ثلاث وعشرين دولة أوربية قاعة المؤتمر محتجين على كلمة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد. إذًا كم تقدمنا على مؤتمر ١٩٠٧؟ إذًا الأمر لم يبدأ بوعد بلفور عام ١٩١٧؛ حيث هذا المؤتمر كان عام ١٩٠٧».

معلقًا على تقرير «كامبل بانرمان»، قال يوسف ندا: «النوايا هنا تكمن في تقييد الإسلام، ولكن لم يكن العدو هو الإسلام، بل كان العدو من الداخل؛ فالأسوأ جاء من الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفي ذلك الوقت كان كل المشاركين في تلك الحروب يحاولون امتلاك العالم الإسلامي؛ فالبريطانيون أخذوا مستعمراتهم، وكذلك فَعَل الفرنسيون، بينما حاول هتلر أخذها، وهكذا كانت الحرب بينهم، وقد كانت النية، وما زالت حتى الآن مكتملة المعالم، ولكنك لا تعرف متى تحدث الحرب. تظل الحرب حربًا، والرابح فيها يكون خاسرًا، أما بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين، فإن واجبنا أن نتجنب الحرب مهما كانت تكلفتها، وأن نحاول دائمًا

مـن خـلال التعاون تجنبها، وهـذا يعني أننا مسـتعدون لكي نأخذ ونعطـي، وليس أن نملي ونأخذ فقط، وهناك نقطة ضعف تتمثل في: لو كان لدى أي شـخص أو جماعة اتصـالات مـع الغرب أو الأمريـكان بغية مناقشـة أي حلول دون مشـاركة حكومتهم المعنيـة، لنُظِـر إليهـم كخونـة، ولاعتُبـروا عمـلاء، وقُيّمـوا علـى أنهـم يعملـون مع أعداء بلادهم».

«تصبـح الحالة أكثر تعقيدًا وإحباطًا عندما تتهـم حكومة عربية، تعمل مع الغرب، مجموعة كالإخوان المسلمين بالعداء إذا ما حاولوا إيجاد حلول. هل تستطيع أن تعتبر ما حدث في القدس، عندما احتلها الصليبيون، عملًا بشـريًّا؛ عندما غاصت الشـوارع في بحور الدم؟ إن إيقاظ الحرب الدينية عمل خطير جدًّا. عندما يقولون إن المسلمين يريدون اجتياح الغرب، هذا غير طيب، علاوة على أنه خطأ».

«إنني أختار هذه الكلمات بدقة: الإسـلاميون ليسـوا كما يصورون؛ فالإسلاميون ليسـوا من يؤمـن بالعنف أو الإرهـاب، بل هم من التزم بالإسـلام والنقـاء، إنهم ضد العنـف تمامًـا، حتى إننـا لا نتحدث عن غير المسـلمين باسـتثناء أهـل الكتاب؛ أهل التوراة والإنجيل؛ أي اليهود والمسيحيين، فإننا لا نعتبر دينهم غير إلهي!».

«لقـد أُخرِجت كلمة «إسـلامي» عن سـياقها لتعنـي الإرهاب والتعصـب، إلا أنها عندنـا تصـف النـاس المتسـامحين، الذين يعملـون لأجل الإسـلام بطريقـة إيجابية متأثريـن بقناعاتهـم، التـي تعتبر كلمة «إسـلامي» تعنـي الانفتاح علـى الجميع، وهذا مـا نحـن ندعوه بالإسـلامي. لقد ذكرت مرة لشـخصية سياسـية مهمـة: صحيح أنني إسـلامي. فصُدِم، وقال: يا سـيد ندا لم يخطر ببالي أنك يمكن أن تكون إسلاميًّا! فقد اعتقد في تلك اللحظة أنني انتحاري مجنون، إنه الجهل، فمن الصعب أن نتقبل جميع الذيـن يصنفـون كل مَن يتَّبعون ديننا بالإرهابيين؛ كما أن الجغرافية تُعقِّد المسـألة كما يحدث في أمريكا».

«إن الإخوان المسـلمين يبذلون قصارى جهدهم كي يكونوا مسـلمين نموذجيين، ولكنهـم مراقبون ويتم اسـتجوابهم من قِبَـل المخابرات الفيدراليـة الأمريكية. يعامَل

المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة سيئة جدًا، ولا يوجد مبرر لذلك، كما أن ذلك يتعارض مع الدستور الأمريكي، فيجب التوقف عن ممارسة تلك الطريقة، فاليوم تستخدم ضد المسلمين، وغدًا يمكن أن تكون ضد أي أحد آخر».

«لا بد أن يمتثل الجميع للقانون، وأن يعاقب كل من يخرج عنه، وعندما يرتكب أحد ما خطأ لا ينبغي أن يتم انتقاد عِرْقه أو دينه، لقد برهن التاريخ أن الحرب الدينية لا تحقق أهدافها أبدًا، ولكنها تقود إلى إنهاك جميع الأطراف المشاركة فيها، والفارق الرئيسي هو أن الضعيف سيظل ضعيفًا فلن يتأثر، وأما القوي فسيصبح ضعيفًا».

«ليس النازيون وحدهم، بل الرومان أيضًا حاولوا إبادة اليهود إلا أن اليهود ما زالوا موجودين، ثم أراد الرومان أن يفعلوا الشيء ذاته مع المسيحيين، إلا أن الرومان قد تفككوا والمسيحية هي التي بقيت في كل مكان، ثم أرادت المسيحية أن تقضي على الإسلام عبر استعمار البلاد الإسلامية لخمسمئة عام، إلا أن ثلث البشرية تعتنق الإسلام الآن».

يستشهد يوسف ندا بالآية الثامنة من سورة المائدة في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

«يقال إن في الإسلام قانونًا إسلاميًّا، هو الذي يحكم المسلمين، في رأيي أنه لا يوجد قانون إسلامي، ولكن هناك قواعد شرعية تشمل بعض جوانب الحياة، وتبقى الجوانب الأخرى مفتوحة، ومتروكة لضمير الإنسان وحاجاته المتغيرة. تُقدم الشريعة بعض المبادئ الاجتماعية التوجيهية، وتعرف بعض الأخلاق والقواعد دون أن تتدخل ببعض جوانب الحياة التي يمكن أن تتغير، لقد تغير العالم، ولا يُتوقع لقواعد ثابتة قد تم تعريفها من قبل أن تُطبَّق على ظروف ومعرفة وتكنولوجيا وابتكارات لم تكن موجودة عندما وضعت مثل هذه القواعد».

«تبقى أفعال وردود أفعال الفرد متروكة لتقديراته دون أن يخرج على تلك القواعد والمبادئ وفقًا لما يمليه الضمير، لهذا لا يستطيع علماء الدين أن يدّعوا معرفة أو

فهـم العلوم الأخرى والتكنولوجيا كـي يعرفوا أي القواعد الدينية يمكن أن تُطبق. في القـرن الثاني عشـر، اسـتطاع الفيلسـوف ابن رشـد أن يتعامل مع الطـب وعلم الفلك والرياضيات وفق الدين؛ كانت تلك العلوم محددة، ولكن لا حدود لها الآن».

«اليوم، قراءة أي موضوع أو الاسـتماع إليه لا يكفي كي يمكنك أن تفهمه أو تقدم رأيًا حوله؛ يجب أن تترافق المعرفة والاختصاص والممارسـة، وهي كلها أساسـيات فـي عالمنـا المعقد، لا نسـتطيع أن نمارس السياسـة في الدين، ولكـن يجب علينا أن نطبق الدين في ممارستنا للسياسة».

«يمكن للحياة السياسـية أن تكون مليئة بالخداع والنفاق والفسـاد.. لا يستطيع أي دين احتمالها، ولكن إذا ما اسـتُخدم الدين في السياسـة، فيمكن له أن ينقيها، ويقودها نحو النزاهة والنقاء والمنفعة وخدمة المجتمعات».

«تنص الشـريعة على أن كل شـيء حلال باسـتثناء ما هو محرم، وليس كل شـيء محرمًـا باسـتثناء مـا هـو حلال. إن الشـريعة ميسـرة جـدًّا، بينمـا حياتنـا الآن بجميع مكوناتها المتغيرة هي المعقدة؛ لهذا السبب، تتألف الشريعة من قواعد ومبادئ ينبغي على الجميع معرفتها واستخدامها كنقاط تحديد يُعرف بموجبها ما هو حلال وحرام، وهذا في مصلحة الفرد والمجتمع، إلا أن الأولوية للمجتمع».

«يحتـاج الإنسـان أن يكون منسـجمًا مع عواطفـه، وليس فقط مع عقلـه وتفكيره. بموجـب الإسـلام، يحـق للأسـر غيـر المسـلمة أن تنشـأ، وتُطبـق القوانين الأسـرية بموجـب دياناتهـا، وليس بموجب الإسـلام، وهذا مـا ينادي به المسـلمون في البلاد الأخـرى علـى أن يمتثلوا لقوانين تلك البلاد باسـتثناء القوانين الأسـرية؛ إذ يجب أن تُترك لاختيارهم».

«إن الإخوان منفتحون على هذا كله، يوجد في مصر آلاف من أسـاتذة الجامعات ينتمـون لجماعـة الإخـوان المسـلمين، وهناك أكثـر منهم خـارج مصـر؛ إذ اضطُرّوا للهـروب مـن مصـر. في أمريـكا الأكثريـة من الإخـوان متعلمـون جيـدًا، وأحوالهم الاقتصاديـة جيـدة، يوجـد كثيـرون يعملون فـي أوربا، وقـد قَدِموا من شـمال إفريقيا

كالجزائر وتونس. هناك مئة مليون أخ من إندونيسيا إلى أستراليا حتى فنلندا، ومن الصين حتى أمريكا. لا يوجد مكان في العالم ليس لنا فيه من يُلزِم نفسه بأفكارنا، وهم يريدون العيش والعمل مع الآخرين بطريقة سلمية».

«في حياتي كلها، ومنذ كنت طفلًا وحتى قبل أن ألتحق بجماعة الإخوان المسلمين، كنت منفتحًا على أصدقائي؛ فعندما كنت في المدرسة الابتدائية، زاملني فيها أقباط أرثوذكس ويهود، كنت منفتحًا عليهم وكنت وما زلت أشاركهم إنسانيتنا. يختلف الصيني أو الياباني عني، ولكن لا يزال إنسانًا مثلي، فأنا أشاركه أشياء كثيرة جدًّا، أختلف عنه في بعض النقاط؛ أحدها الدِّين، ولكن لا يعني هذا أنه عدوي».

«الكراهية مزروعة عند الطرفين، ولن ينتج عنها سوى الأفعال السيئة وانتشار الأفكار الخاطئة، وستعطي الكراهية لكل واحد الحق كي يرسم لنفسه القوانين التي تناسبه، فيتحول القانون إلى شريعة غاب. لا يوجد ضغط غير محدود دون رد فعل، ونحن جميعًا ندفع الثمن وليس يدفعه طرف واحد».

يعتقد يوسف ندا أن خلطًا كثيرًا جدًّا قد وُظِّف فيما يدعى تيار المعلومات، وأن الحكومات الغربية قد تم تغذيتها بتقارير دعائية كاذبة؛ لقد كُتبت مواد كثيرة كي يتم تضليل صانعي القرار، وكررت عليهم مرات ومرات. بالتأكيد إن الشبكة المعلوماتية – الإنترنت – بمثابة المرض المعدي في مجال الاستهانة بالأفكار، ولا يوجد ترياق له حتى الآن. أصحاب السلطة وصناع الملوك يقرءون ملخصات فقط، فليس لديهم الوقت، وفي بعض الأوقات ليس لديهم حتى الرغبة للدخول في التفاصيل. تشبه هذه الحالة ما ورد في مآسي شكسبير؛ فهي تحاكي قصة «ياغو وعطيل».. فهدف المؤامرة القضاء على عطيل.

«أولئك المقربون من آذانهم يتلاعبون بهم»؛ على حد قول يوسف ندا. «إنهم يستمعون إلى طرف واحد ولا يستمعون إلى طرف آخر. إن تسعين بالمئة مما كُتب عن الإخوان المسلمين ليس صحيحًا، ولا يقود هذا إلا إلى إثارة الاستياء والاضطرابات».

«عندما أراد الشيوعيون دعم العرب، دافعوا عنا، وأصبحنا نتبع اليسار، وعندما أراد الآخرون دعمنا، أصبحنا نتبع اليمين، ثم بدأ اليمين يهاجم الإسلام، فقفز علينا اليسار. إن من يكرهوننا يتقلبون يمينًا تارة ويسارًا تارة أخرى.. من أجل السياسة طبعًا وليس الدين، وبالتأكيد ليس من أجل الإسلام. لديَّ كتب تنص على أن المسلمين لديهم أُمّتان: إما أن تكون دار إسلام وإما دار حرب. هذا غير صحيح، ولكنه موجود في بعض كتب الدين».

«إنهم يقولون إن المسلمين يريدون أن يجتاحوا غير المسلمين باسم الإسلام، ويُغيّروا دينهم أو يُخرجوهم من بلادهم. الإسلام عكس ذلك، ولكن بعض الكتب تصر على هذه التهمة بشكل نمطي ومبتذل، فيأخذ به بعض الناس كحقيقة؛ هذه إحدى مشاكل الإخوان المسلمين؛ أي أنهم يحاولون إزالة كل النفايات التي تلوث الإسلام. يعتقد بعض الجاهلين بالدين أن تلك النفايات هي الدين وليست آراء أولئك المنحرفين. وقد رد راشد الغنوشي على هذا القول بأن الإسلام يقسم العالم إلى دار إسلام ودار دعوة، وليس دار حرب».

«لديَّ هنا كُتب طبعت بمصر في عام ١٩٠٥ حول الإسلام وحول المرأة في الإسلام؛ إنه أمر غير قابل للتصديق، فهم يأخذون سيفًا، ويقتلون به باسم الإسلام. تعليمنا منذ البداية يتركز حول ما قال الله عز وجل، وحول ما فسره الرسول عليه الصلاة والسلام، نعتقد أننا لا نستطيع تغيير هذا، فهي تُملي علينا ما قاله الله عز وجل، ونحن كرجال دين أو سياسيين ليس بوسعنا التدخل لنُغيّر النص الإلهي، فنقول قال الله عز وجل هذا أو ذاك، أو قَصَد هذا أو ذاك. إننا لا نستطيع أن نُبدل كلمات الله عز وجل، ولا أن نفسر كلام الله عز وجل لنبرر أفعالنا. إن مشكلة بن لادن ورجال العنف قد نشأت من ذلك. حتى وإن كانت نياتهم خالصة ولكن أعمالهم وعقولهم التي انحرفت قادتهم إلى القتل العشوائي الذي ذهب ضحيته كثير من الأبرياء، منهم كثير من المسلمين».

«لقد كتبت مقالة في صحيفة مصرية، وكنت واضحًا تمامًا في هذا الشأن. ليس بوسعك تصور ردة الفعل».

«بشكل طبيعي يفهم إخواننا ما قلت، وجميعهم يؤيدون رأيي، أما الآخرون فكم هاجموني! لقد قالوا إنني لست مسلمًا حقيقيًّا! وإنني قد خرجت عن الدين!».

«تؤمن بعض الطوائف بضرب وجَلْد أنفسهم لأجل دينهم، لا دين يقبل ذلك باسم الله عز وجل، إن واجبنا أن نُخفف مناخ الكراهية، ونطفئ نار الكراهية والخوف؛ لأن منهما انبعثت مشاكل كثيرة. يعاملني الجميع معاملة حسنة، إن كان مسيحيًّا أو يهوديًّا أو السيخي أو البوذي أو مَن لم يكن له أي علاقة بأي دين، وأنا أعامل الناس معاملة حسنة فهم يبادلونني الشيء ذاته حيثما ذهبت. إن ردود الفعل التي تصلني على ما يجري في هذه الأيام توضح أن هناك مَن يحاولون تضخيم التطرف».

«إنهم يهاجمون الإسلام لأنه الإسلام كي يمنعوا الناس من مجرد ممارسة دينهم، تبدأ ردود الفعل بأشياء صغيرة هنا، ثم ما تلبث أن تُصَدَّر إلى هناك، هناك نار تستعر في كل مكان؛ فهي حرب ساخنة وليست حربًا باردة. إن لهيب الكراهية مستشرٍ، وما يرد على شاشة التلفاز وفي الصحف قصص حول التطرف ورجم النساء وشنق الناس لارتكابهم المعاصي، والمسلمون يريدون اجتياح أوربا، وهم يحذرون من أن أوربا ستصبح بعد خمسين عامًا قارة إسلامية».

«سألني بعض الزائرين: لماذا تفعلون هذه الأشياء؟ أستطيع أن أفهم لماذا يسألون، فعلى الإنترنت يمكن لمثال واحد أن يشهده مليون شخص في دقيقة أو دقيقتين، إلا أن أولئك المليون يقرءون تلك الرواية دون الروايات الأخرى مما يجعل الصبر مهمًّا. يمكن تغيير وجهات النظر، ولكن فقط عبر الوقت؛ المسلمون موجودون في الغرب وسيظلون في الغرب سواءً أرادهم الآخرون أم لم يريدوهم، إنهم هناك، وسيظلون هناك، لقد خلق العالم لأجل البشرية، وليس لأجل خاصة من الناس ليقيموا في أماكن خاصة بهم، نعم سيكون هناك أناس يتابعون محاولاتهم كي يوجِدوا الخوف والكراهية بين الناس، غير أن الناس قد تداخلوا فيما بينهم كثيرًا، فما عاد منع مجموعة من الناس من التواصل مع مجموعة أخرى ممكنًا، وستظل الشعوب تتنقل من مكان إلى آخر؛ سينتقل الغرب إلى البلاد الإسلامية، والسود سينتقلون إلى بلاد البيض، وسينتقل البيض من مناطقهم إلى أماكن أخرى، فمن السهل التنقل في عالمنا هذه

الأيام، ولا يستطيع المسلمون أن يقولوا للقادمين من الخارج: يجب عليكم العيش في بلادنا وفق طريقة تفكيرنا ومن خلال وجهة نظر ديننا. لا يستطيعون قول ذلك».

«الشيء ذاته ينطبق على الغرب؛ إذ لا يستطيع أهل الغرب أن يقولوا للمسلمين: يجب عليكم العيش بطريقتنا. هذا خطأ، ولا يمكن تطبيقه، فاللغات تختلف، ويجب عليك أن تستخدم لغتهم. زار أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي مصر حيث قابل القنصل الأمريكي بالقاهرة، فاصطحبه إلى المقهى، وطلب القنصل ما يريدانه باللغة الإنجليزية، وعندما عاد عضو الكونجرس إلى واشنطن كتب عن القنصل متسائلًا: كيف لهذا الرجل أن يزوّدنا بالمعلومات الصحيحة التي تستند إليها سياستنا، حين لا يعرف لغة الناس؟! كيف يستطيع أن يفهمهم؟».

«يجب عليك أن تعرف قوانين المكان الذي تعيش فيه وأن تلتزم بها، وهذا أهم من اللغة؛ إذا كان المرء لا يعرف اللغة التي تُعينه على العيش بين الآخرين، فسيدفع هو الثمن وليس الآخرون. أما إذا لم يعرف قوانين المكان الذي يعيش فيه، فالآخرون سيدفعون الثمن معه ولن يدفعه وحده. كل شخص مختلف عن الآخر، لماذا يريد البعض أن يكون الناس نُسَخًا من الآخرين؟».

«إذا ما تحدثنا عن ألواننا البشرية، وليس عن ديننا، وإذا ما نظرنا إلى التاريخ والجغرافية، لوجدنا السود الذين وُلِدوا في إفريقيا لون بشرتهم شديد السواد. في الأمريكتين يوجد لون آخر، وفي الشرق الأوسط لون ثالث. مهما كان السبب، ومهما اختلفت درجات اللون أو تماثلت، فإن لونهم قد انتشر في العالم بأسره. إنهم هناك منذ زمن العبودية، أو قد وصلوا عن طريق التجارة، أو قد تم غزوهم، أو أن الاستعمار غزا بلادهم، فقد انتشرت جميع الألوان في كل مكان حتى أصبحتَ تجد خليطًا في مكان واحد».

«تَنَقّل أبناء الشعوب المختلفة، وستستمر حركتهم، ولا يستطيع أحد إيقافها. ولكن عندما يخرج أحد عن الخط، لا يجب أن ندين كل المجموعة التي خرج منها؛ إذ لا ينبغي لنا الاعتقاد أنهم مثل بعض، أو مستنسخون، أو أن كل مسلم هو بن لادن

أو أيمن الظواهري أو قاتل. إننا جميعًا سواسية، وكلنا بشر. لا تستطيع إدانة مجتمع بأسره لمجرد أن أحد أفراده أحمق أو إرهابي».

«نأتي الآن إلى النقطة الرئيسية؛ ألا وهي صمام أمان البشرية؛ إنها العدالة. عندما يرتكب أحد جريمة، إنه يرتكبها بمفرده ولا يشاركه الذين يعيشون معه، ولا المجتمع الذي ينتمي إليه. إنها من طبيعة السياسة أن يُهاجم الدين.. ولأسباب دينية يتم الهجوم على الاقتصاد.. ولأسباب اقتصادية يتم الهجوم على السياسة؛ بهذه الطريقة تجري الأمور، ويجب علينا جميعًا أن ندرك تلك الحقيقة».

«كان لي صديق؛ مدير مصرف، من النمسا، وعاصر الحقبة التي اضطُهد فيها اليهود في النمسا وألمانيا، لقد قَصّ عليّ كثيرًا من الأحداث، كيف يمكن تبرير معاملة الحكومة لبعض مواطنيها على نحو يختلف عن تعاملها مع سائر المواطنين بسبب الدين؟ بأي حق يفرض على الرجل أن يضع على صدره نجمة صفراء اللون أو علامة على منزله أو متجره ليعلم الناس أنه يهودي؟ كيف استطاعت الحكومة أن تحشد الناس كي يمارسوا مثل هذا السلوك؟ أي مجتمع هذا، وهو يدّعي العدالة؟ في التاريخ القريب فقط نشبت حرب بين المسيحيين، فالخوف والكراهية يمكن لهما أن يخلقا كل شيء».

«لم تكن الحرب العالمية الثانية سهلة، فلقد قُتل أربعون مليون نسمة. هل تعلمنا منها أي درس؟ أصغِ إليَّ: هناك درس واحد فقط؛ يجب أن نتجنب دائمًا الحرب، ولكن هل سنتعلم؟ إن التمييز العنصري والكراهية والخوف سيَعُمّون في يوم ما، وستندلع عنده الحرب، نعم إنه المبدأ ذاته؛ انتَهَوْا من اليهود، ثم تحولوا إلى المسلمين. المرة القادمة ستكون أمريكا وأوربا، ثم الشرق والغرب، ثم المسلمون والمسيحيون».

«لا يوجد عقلاء يفكرون بهذه الطريقة، بل يوجد فقط أولئك الذين يخلقون الكراهية والخوف، والناس يتبعونهم. لقد تبع الناس في ألمانيا هتلر، إن التعليم مهم جدًّا لكل قائد في كل مكان، وليس التعليم الاعتيادي، بل السلام والتسامح. في القرآن الكريم، يتحدث الله عز وجل عن الجنس البشري كأبناء آدم مما يعني أننا جميعًا أسرة واحدة تنحدر من أب واحد، والجميع فيها إخوة وأخوات».

«لا أستطيع أن أضع حياتي وأسرتي ومستقبلي بين يدي أحد لا يفهم كل هذه الأشياء وأنا مُغْمض العينين؛ فالسياسة تأتي بأي شخص من أي مكان. هم يتحدثون عن الغزو، وأن الإسلام قد جاء بحَدّ السيف، وأن الإسلام يريد فرض ذاته على الغرب. إلا أنك لو درست القرآن الكريم، الذي ينبغي على المسلمين اتباعه، لوجدته يُحرّم فرض الإسلام على أي أحد بالقوة».

«لا يعرف الناس هذا؛ إلا أنه وارد في القرآن، ليس مرة فحسب بل مرات عديدة، ومع ذلك فإنك تسمع التحذير في كل مكان حتى من البابا، وهل على المسيحيين أن يصغوا إلى البابا أو المسلمين؟! فعندما يقولها البابا، سيتبعونه بطبيعة الحال، ولكن عندما يقول المسلمون إن هذا محرم في ديننا، هل سيصدق البابا ذلك؟».

«إن الإعلام أقوى من أي سلطة أخرى على وجه الأرض. أين المثقفون؟ وأين الأكاديميون؟ من هم الإخوان المسلمون؟ يجب أن يُشرح هذا حتى يتلاشى الخوف، لم يعد ثمة مبرر لهذا الخوف. أين الخداع؟ هل هو من جماعة الإخوان المسلمين؟ أم من أولئك الذين يستخدمون السياسة في الدين كي يصنعوا الخوف؟ مَن هو المخادع؟ مرة أخرى يجب أن يتم التركيز على العدالة، والعدالة وحدها».

قال يوسف ندا إنه ذُهل عندما سمع ما قاله «باراك أوباما» قبل انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية بأسبوع واحد، فقد قال إنه كان ضد الانتخابات في فلسطين. وأضاف يوسف مندهشًا: «بينما كان يشارك في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية كي يكون رئيسًا عليها، يقف ضد الانتخابات في فلسطين، وفي الوقت ذاته يقول إن الانتخابات أمر أساسي بالنسبة للديمقراطية».

«يجب على الناس اختيار الشخص أو المجموعة التي يريدونها حتى لو انتخبوا الشيطان.. يجب قبول ذلك، ليس الخطأ خطأ الديمقراطية، ولكنه خطأ المنتخبين، إذا كنت تنشر الديمقراطية وتدافع عنها، فعليك أن تقبل النتيجة التي تحصل عليها. هل تريد عبدالناصر.. السادات.. حسني مبارك، أم تريد مصر؟ وإذا خرج عبدالناصر.. السادات.. حسني مبارك عن الخط، فعمّن عساك تدافع؟ إما أن تدافع عن انحرافاتهم وإما أن تترك الناس يختارون شخصًا آخر، وماذا إذا اختاروا أحدًا لا تحبه؟».

«إن إقصاء جماعة الإخوان المسلمين، أو أي جماعة تسعى ليصل صوتها إلى الناس، لن يُنتج شيئًا يبقى في الأرض، أو يستمر. ومنذ زمن العبودية والبعض يرتكبون باسم الدين والديمقراطية ما لا يتصوره العقل. ما عساك تتوقع من عبد بائس؟ أن يحبك؟ أن يحب بلده؟ أن يحب الحكومة؟ أن يتبع القانون؟ إذا كان قويًّا، فسيحارب من أجل العدالة، وإن لم يكن قويًّا، فهذا يعني أن يبقى عبدًا، هل تنتظر شيئًا من عبد؟ إنك لا تستطيع الاستحواذ على قلبه».

«هذا ما يجري الآن تمامًا ضد المسلمين. تمامًا ما يجري لمجرد أن اسم أحد الأشخاص محمد أو محمود، فهم ينظرون إلى الاسم الوارد في جواز السفر، فيعاملونه وفقًا له؛ هذا لن ينقص عدد المسلمين، ولن يمنع المسلمين من أن يكونوا مسلمين، فمثل هذا لم يمنع اليهود من أن يكونوا يهودًا».

في ٢٨ من فبراير من عام ٢٠١٢، أخبر النائب العام الأمريكي «إيريك هولدر» الكونجرس الأمريكي أن وزارة العدل تفكر في إعادة تقييم انتهاكات الحقوق المدنية المُرتكَبة من قِبَل هيئة شرطة نيويورك فيما يتعلق بمراقبة جميع أحياء المسلمين الأمريكيين، رغم ورود تقارير كثيرة تدل على أن هيئة شرطة نيويورك كانت تقوم ببرامج سرية تم إنشاؤها بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية لمراقبة المسلمين، إلا أن النائب العام لم يجد أي ضرورة مُلحة لإعادة التقييم.

لقد أنشأت السلطات الأمريكية قاعدة بيانات توضح أين يعيش المسلمون، ومن أين يشترون موادّهم الغذائية، وأي مقاهي الإنترنت يستخدمون، وأين يشاهدون الألعاب الرياضية، لقد تم التغلغل داخل عشرات المساجد والمجموعات الطلابية، فأنشأت الشرطة ملفات شخصية مُفصلة لمغاربة ومصريين وألبان وجماعات عِرْقية محلية أخرى. لقد امتدت عمليات قسم شرطة نيويورك إلى خارج مدينة نيويورك لتشمل نيوجيرسي ولونغ أيلاند، وإلى كليات في شمال شرق أمريكا. لقد أُبلغ طلاب مسلمون من جميع أنحاء البلاد عن أنهم يُلاحَقون خلسة في الحرم الجامعي.

ويرى يوسف ندا في هذا إثباتًا لحجته؛ وأن أمثال هذه التصرفات تقود إلى المشاكل: «الطبيب العسكري المسلم في «فورت هود» في تكساس في يولية ٢٠٠٩،

الذي قَتل زملاءه العسكريين، لم يكن إرهابيًّا، فهو لم يتبع للقاعدة ولا لحماس، لقد كان فردًا ورأى شيئًا يتعلق بالتعامل مع عرقه أو دينه أو أصله، فلم يقبل ذلك، ثم أصبح مجنونًا، وبدأ يتحول إلى مجرم، ثم قاتِل. أكرر القول، ولكن لسبب محدد: إذا ما ارتكب الفعل فردٌ أو مجموعة أو طائفة، فعليك أن تذهب إلى أصل المشكلة؛ إنه افتقاد العدالة».

«برأيي أن سبب وجود الأديان هو تقويم السلوك البشري، وهناك أشياء كثيرة تشترك فيها الأديان، ولكنك تعود إلى العدالة. عندما تمسّ الإنسانية لدى إنسان فإنها ستستيقظ حتى لو كانت ميتة أو حتى لو كانت في سبات. عندما يتحدث العالم حول الربيع العربي، ويسأل: ماذا بعد؟ الجواب هو: أمل الإنسانية».

«نحتاج لكرة الكريستال كي نرى خلالها مستقبل كلٍّ من مصر وليبيا وتونس وسوريا والعالم كله، إلا أن الأمل يبقى في الإنسانية، ما يجب أن يكون مهمًّا هو الناس وليس السياسيين. كما قلت مرات كثيرة: ربما لا تكون الديمقراطية كاملة، ولكن تبقى أكثر الأشياء كمالًا لدينا الآن. إلا أنك لا تستطيع أن تزرع السلام في وقت بينما تجلب الكراهية من وقت إلى آخر.. يجب علينا أن يفهم بعضنا بعضًا».

الفصل التاسع

حوار خطير

«نحن نعيش على ما نكسبه، لكننا نصنع الحياة بما نعطيه».

ونستون تشرشل، ١٩٣٧

في اليمن الفهم ليس أولوية فحسب بل إنه ضرورة، قد أوجبها عليه جيرانه ورَعَوْها أكثر مما أوجبها اليمن على نفسه أو رعاها، وإذا كنت في المملكة العربية السعودية واتجهت إلى الجنوب الغربي نحو الركن الأقصى من شبه الحزيرة العربية الذي يحده البحر الأحمر من الغرب وسلطنة عمان من الشرق، فسوف تجد نفسك في هذه الدولة الصغيرة التي ابتُلي شعبُها بالفقر والإرهاب والحركات الانفصالية.

اليمن السعيد؛ هكذا سماه الرومان، لكنه اسم فَقَد مدلوله منذ زمن طويل، وحتى مضغ القات لم يعد يجلب لسكانه السرور الوقتي الذي كانوا يشعرون به في ساعات التخزين اليومية عند ممارستهم لهذه العادة القومية، ورغم ذلك، ما زال الآخرون يهتمون باليمن لكونه مدخلًا جغرافيًّا إلى آسيا ذا إمكانات بترولية واعدة.

في بدايات عام ٢٠١١ شهد اليمن احتجاجات تشبه ما حدث في مصر وتونس وتناهض حكومة الرئيس علي عبد الله صالح الذي تغلّب على موجات من المعارضة والسخط طوال حكمه الممتد منذ عام ١٩٧٨. كان صالح رئيسًا للجمهورية العربية

اليمنية (اليمن الشمالي) حتى عام ١٩٩٠ عندما توحد اليمن شماله وجنوبه فأصبح رئيسًا لليمن الموحد.

يوسف ندا لديه تاريخه الخاص مع اليمن ومع الرئيس علي عبد الله صالح الذي أُطيح به في نهاية ٢٠١١؛ فقد ساعد في حل النزاعات اليمنية كما قام بدور في تعزيز العلاقات اليمنية السعودية بما كانت لديه من صِلات بالملك فهد.

والاحتكاك بين اليمن والسعودية كان يدور دائمًا حول الحدود، حول الأرض وبالطبع حول ما يقع أو يسيل تحتها. في عام ١٩٣٤، وقّع حاكِمَا الدولتين اتفاقية الطائف التي نادت بـ«سلام دائم» بينهما، بيد أن إغراء البترول وأهوال الحرب الأهلية وتدخُّل المملكة العربية السعودية الحديثة النشأة في الشئون اليمنية أسفرت جميعها عن صراع داخلي دائم.

أنشأت اتفاقية الطائف الحدود المشتركة بين الدولتين، غير أن الحروب الداخلية في اليمن صعّدت من نزاعها مع الجارة الشمالية، كانت الحرب الأهلية اليمنية شديدة القسوة ومدمرة بالنسبة لليمن الجنوبي، وفي خاتمة المطاف أصبحت الوحدة مع الشمال هي الحل الصعب لكنه الوحيد للخروج من الأزمة. وفي أثناء حرب الخليج أيّدت جمهورية اليمن صدام حسين ووقفت بذلك في الجانب المعاكس للملكة العربية السعودية، أما السعوديون بدورهم، فقد قاموا بمساعدة المتمردين في جنوب اليمن، مما نتج عنه المزيد من الصعاب والحرب الأهلية في عام ١٩٩٤. وفي العام التالي أُعيد إحياء اتفاقية الطائف بشكل رسمي، مع إعادة ترسيم الجزء الغربي من الحدود اليمنية السعودية، ووضع إطار لتسوية الجزء الشرقي المتنازَع عليه من تلك الحدود، وساد السلام لكنه لم يَدُم طويلًا. وبينما كان اليمن يحقق تقدمًا في التوافق مع السعودية، كان يوسف ندا يتعامل مع مشكلة أخرى واجهت اليمن آنذاك.

إريتريا.. إحدى دول القرن الإفريقي، تحيط بها كلٌّ من السودان والحبشة وجيبوتي، وتقع قبالة اليمن والسعودية تحديدًا، ويفصلها عنهما البحر الأحمر في أضيق أجزائه، وفي هذا الشريط المائي الفاصل تقع جُزر حنيش وجبل سقر التي

تتنازع الدول المحيطة حول ملكيتها، وقد ساهم في تفجير النزاع حولها عدد من الأمور من بينها اتهامات بنشاط لعملاء الاستخبارات السعودية ولسوريين متهمين بالإرهاب وأعمال للاستخبارات الإسرائيلية.

وفي عام ١٩٩٥ وبموافقة من اليمن، بدأت شركة ألمانية العمل في إنشاء مجمع فندقي ومركز للغطس تحت الماء في جزيرة حنيش الكبرى، وانتقل جيش صغير من العمال قوامه مائتا رجل من اليمن إلى الجزيرة، وأصاب الحكامَ الإريتريين الذعرُ، فأمروا اليمنيين بالمغادرة خلال شهر واحد – وإلا... عندما انقَضَت مهلة الإنذار الإريتري ولم تنسحب القوات اليمنية أو المدنيون اليمنيون، استخدمت إريتريا الطائرات وكل ما لديها من قوارب صالحة للإبحار، بما فيها قوارب الصيد واتخذوا من إحدى العَبَّارات سفينة قيادة تحمل قوات لإنزالها على الجُزر.

هاجمت القوات الإريترية القوة اليمنية واستولت على الجزيرة بأكملها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وزُعم أن ضباطًا إسرائيليين قد ساعدوا في عملية الغزو، وفي أثناء القتال دَمَّرت نيران المدفعية الإريترية سفينة تجارية سوفيتية بعد أن ظن الإريتريون أنها سفينة حربية يمنية.

جرت هذه الأحداث بينما كان خطر اندلاع الحرب الأهلية من جديد ما زال قائمًا.. كانت ورطة.

وقام يوسف ندا بعمل تاريخي في هذه الأزمة وساعده في ذلك ممثل الأمم المتحدة المتميز «جياندومينيكو بيكو»؛ الذي أصبح صديقًا ليوسف بعدها واشترك الصديقان معًا في تأليف كتاب حول هذا النزاع بعنوان «الوضع السياسي للبحر الأحمر». كان بيكو سكرتيرًا سياسيًّا لمساعد الأمين العام للأمم المتحدة، وقد قام بدور فعال في مهمة إطلاق سراح الرهائن الغربيين في لبنان، كما قام بدور لا يقل أهمية في المفاوضات التي أنهت الحرب الإيرانية العراقية، وقام «بيكو» كذلك بتمثيل الأمين العام للأمم المتحدة في مفاوضات اتفاق جنيف (١٩٩٨) حول أفغانستان، وفي التحكيم بين فرنسا ونيوزيلاند في قضية إغراق الفرنسيين لسفينة «رينبو وارير».

كان الإخوان المسلمون مشتغلين دائمًا - إما بشكل مباشر وإما من وراء ستار - في مشكلات اليمن الطويلة والمستمرة، والتي ما زالت متواصلة في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

اتصل إخوان اليمن بيوسف ندا وبذل يوسف كل ما في وسعه في مساعدتهم؛ لأن أيَّ بلد مسلم، حسبما يقول «هي بلد كل المسلمين؛ وهذا أحد مبادئ الإخوان المسلمين».

أجرى ندا وفريقه دراسة مكثفة حول القضية، مستخدمين الخرائط والوثائق التاريخية والمراسلات القديمة مع المفوضية السامية البريطانية ووزارة الحربية الإيطالية في روما، ووثائق قيمة ذات صلة من متحف إستانبول.

وقال يوسف: «وعن طريق اتصالاتنا حصلنا على صور جوية ووثائق من البنتاجون، كما ساعدني كثير من الأشخاص من منظمة الأمم المتحدة للوصول إلى مواد لم تَعْرف حكومة اليمن كيف تصل إليها، وقد كلفني ذلك عشرات الألوف من الدولارات، لكنني كنت سعيدًا أن أُنفق هذا المال للوصول إلى الحقيقة. اطلعت على كافة التفاصيل، وتتبعت كل المعلومات التي تمكنا من جمعها، ثم قدمنا ملفًّا ضخمًا للرئيس صالح، وكانت هذه المعلومات هي ما يحتاجونه للحصول على حقوقهم».

«احتوى ذلك الملف على وثائق حساسة وفاصلة - تم التثبت منها جميعًا على مستوى حكومي عالٍ - مما أحرز لليمن الملكية التامة للجزر بحكم أصدرته المحكمة الدولية الدائمة للتحكيم في لاهاي».

استطاع يوسف ندا بما له من ارتباطات سابقة مع الحكام السعوديين أن يتعامل مع ممثل الملك فهد ويتعامل مباشرة مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، كما التقى بزعيم الإخوان اليمنيين ياسين عبد العزيز لمدة ساعتين في مطار «هيثرو» بلندن - ثم ركب الطائرة من هناك عائدًا ليُجري محادثات مع ممثلي الملك فهد.

وعن هذا يقول يوسف ندا: «أوضحت المخاوف من أنَّ نُشوب حرب أخرى سوف يدمر اليمن، وتحدثت إلى السعوديين كما لو كنت أصارح نفسي، مقدمًا لهم

اقتراحات. لم يرغبوا في الحديث مع الرئيس اليمني مباشرة لكنهم وافقوا أن ذلك واجب عليّ، فرتب لي الرجل الصالح والسياسي الصامت محمد اليدومي اجتماعًا مع الرئيس صالح في بيته، وكنت لم ألتقِ به من قبل».

«ذكرت الرأي القائل بأن الوضع بين السعوديين واليمنيين حَرِج للغاية وقد يتفجر في أي وقت متسببًا في عواقب وخيمة، وقلت للرئيس اليمني: لقد أبليتم بلاءً حسنًا في الحرب في اليمن الجنوبي، وإن الوقت مناسب الآن لإجراء مناقشات بينما أنت في وضع قوي. وللأهمية القصوى، أوضحت أن لديَّ فرصة للجمع بينه وبين السعوديين لإيجاد حل».

«فأخبرني أنه طول حياته كان مستعدًّا على الدوام للاستماع للآخرين، وأنه لم يرغب في معاداة أحد على الرغم من طرد اليمنيين عقب حرب الخليج، وأنه سوف يجتمع بأي إنسان لحل أي نزاع قد ينشأ في المستقبل. ورتبنا لإجراء المفاوضات. وكانت المشكلة الأساسية هي الحدود التي قررتها اتفاقية الطائف، كانت خطوطها غير واضحة، وطالب السعوديون بإنشاء ممر يصل بين أراضيهم والبحر الواقع جنوب شبه الجزيرة [بحر العرب]، وهذا الممر يمتد من المملكة السعودية إلى بحر العرب مارًّا بين كل من اليمن وعمان، وكانت عمان قد وقّعت اتفاقًا سريعًا مع اليمن لترسيم الحدود بينهما مما أزعج السعوديين – الذين كانوا غاضبين جدًّا– لمنعهم من الوصول إلى بحر العرب» ويضيف يوسف ندا موضحًا: «لن تجد في العالم العربي كثيرًا من المشتغلين بالسياسة أو رجال الأعمال ممن يفهمون كل هذه المشكلات المعقدة، ربما يعلم العاملون في وزارات الخارجية أجزاءً منها تتعلق ببلد كل منهم، لكنهم لا يعلمون التفاصيل التي تشمل البلاد الأخرى».

كان السعوديون يضغطون، وجاءت رسالة من الملك فهد تقول: نحن يجب أن نحصل على ممر إلى بحر العرب، حتى ولو أجّروه لنا لفترة زمنية طويلة. ليست المسافة بعيدة بين أراضي المملكة وبين بحر العرب؛ ففي الجنوب والجنوب الغربي نجد اليمن بأكمله، ومن الناحية الجنوبية الغربية صحراء الربع الخالي التي تطفو فوق بحر من البترول الذي لم يمس حتى الآن. ومرة أخرى أجرى يوسف ندا دراسة عميقة

جيوسياسية وتاريخية معززة بالوثائق والخرائط والمراسلات والاتفاقات وأعطاها محمد اليدومي لعبد الله الأحمر ليقدمها لعلي عبد الله صالح الذي استعملها في المفاوضات الطويلة، لكنها نجحت في تلافي الصراع المسلح وحافظت على مصالح اليمن.

وقد اجتمع الرئيس علي عبد الله صالح مع يوسف ندا وشكره، وبعد ذلك التقى الرئيس مع مسئول الإخوان في اليمن محمد اليدومي، وفي حديث خاص دار بينهما سأله الرئيس: ما هي مطالب السيد يوسف ندا؟ وعندما نُقل ذلك إلى يوسف أجاب قائلًا: «هذه هدية من الإخوان المسلمين».

«إن مصالح البلاد والعباد كانت على الدوام الشاغل الأساسي للإخوان، ولكن هذا ينفصل عن نشاطي في عالم الأعمال. أراد الإخوان في اليمن إنشاء مصرف إسلامي، وأن يعطوا لبنك التقوى خمسة في المئة من الأسهم ندفع قيمتها في نظير مشورتنا المبنية على خبرتنا، ورفضت أن أفعل ذلك. لم أشأ أن أُوجد علاقة مالية لنفسي تلقاء الوساطة التي قُمت بها بتكليف من الإخوان المسلمين.. فإنها كانت في سبيل الله».

وبالنسبة لمن هم خارج الإخوان فإن يوسف ندا يعتقد جدًلا وصوابًا أنه يصعب عليهم استيعاب هذا المبدأ.

نحن نعيش في عالم يبدو جميع مَن فيه يسعون إلى الربح بأي ثمن، ويعتبرون مقايضة المرء بضميره صفقة.

إن الحكومات تتعامل مع الشيطان وتراث ذلك أعظم ما يكون في الشرق الأوسط، إن معمر القذافي وبعض الطغاة أمثاله لم يستمروا في السلطة لسنوات طويلة بفضل دهائهم أو علمهم، ولكن بسياساتهم المحبة للعنف واستعمال مال الدولة في أغراض ملتوية وإجرامية.

كانت المسألة سهلة: أي شخص أو مجموعة تعارضه هم من الإرهابيين، وأي مجموعة تريد أن تأخذ منه سلطته كانوا ينوون خلق قلاع جهادية على السواحل

الجنوبيـة والشـرقية للبحر المتوسـط. وتقبلت واشـنطن ولندن وباريـس وبرلين هذا الخطاب - وكانت الرسالة من ورائه أنه من الأفضل أن تتعامل مع الطاغية أو الشيطان الذي تعرفه.

كانت اللعبة وحشـية، كما كشـفها رحيل نظام القذافي عن ليبيا: لقد عُذّب الشعب وأقيمت له المجازر واستُنزفت ثرواته، وتسربت ثروات لا تحصى من قصور محصنة إلـى حسـابات مصرفيـة ذات أرقام سـرية. وتمكنـت أسـرة الدكتاتور من الفـرار إلى الجزائر المجاورة، ليكون ذلك عاملًا مسـاعدًا على مزيد من عدم الاسـتقرار الدولي والجدل أكثر من كونه عملًا إنسانيًّا.

والضوضـاء التـي يُحدثهـا المتنبئون بثـورة إسـلامية - ويُعبّرون عنها بالاكتسـاح الإسـلامي - يشـيرون دومًـا إلـى ما حـدث في إيـران عـام ١٩٩٧. أما وجهـة النظر الأخرى فتستشـهد بتركيا الحديثة في العقد الثاني من القرن الحادي والعشـرين، لكن هناك ضغوطًا مستمرة على حكم رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان.

ويدعو يوسف ندا دائمًا إلى التسامح والتوازن والوساطة لحل النزاعات، فـ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾، هذا ما نص عليه القرآن؛ ولذا كان ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

إلا أن طِيبة القلب وصفاء العقل لا تمنعانك من أن تصبح مُسـتهدَفًا؛ فبعد الحادي عشـر من سـبتمبر، عندما بدأ الرئيـس «جورج دبليو بوش» «حملتـه الصليبية» أراد أن يحدد هدفًا يجعله نُصب عينيه؛ فكان يوسـف ندا في المركز من لوحة التصويب، لقد قالها بنفسه وسمعها وشاهدها بلايين من المسلمين وغير المسلمين. قال بالنص: إنها حـرب صليبية. وقال أيضًا: إن بنك التقوى هو بنك الإرهاب، وإنه سـيُجوِّع القائمين عليه. وكان ذلك يوم ٧ من نوفمبر ٢٠٠١.

«وأعطـى أوامره بتجميد أصولنا وممتلكاتنا وحسـاباتنا البنكية ومَنعنا من السـفر، ومَنـع دول العالم من السـماح لنا بدخـول أراضيها أو المرور منهـا، وأطاعه العالـم.. واستعنّا بالله، وكان جلَّ وعلا حسبنا وهو الأعلى؛ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾؟!».

الكتاب الثاني

ما لا يُعْقَل

«يَستشهِدُ الشيطانُ بالكتب المقدسة ليُحققَ أغراضه»

وليام شكسبير، تاجر البندقية

الفصل العاشر

الدائرة تتحول إلى مربع

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

الشورى، ٤١ ، ٤٢

في عصر يوم السابع عشر من ديسمبر ٢٠١٠ كانت جذوة الثورة العربية جاهزة للاشتعال، وكما حدث في التاريخ عادة كانت محنة رجل واحد سببًا في تداعي ما أعقبها من أحداث تتابعت في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، فيما يشبة سقوط مئات من قطع الدومينو المصطفة معًا لمجرد سقوط أولها.

ازدادت وطأة القهر على محمد بوعزيزي الشاب ذي الستة والعشرين ربيعًا الذي كان يعمل بائعًا متجولًا للفواكه والخضر ويجر عربته المُحملة بها في شوارع بلدته سيدي بوزيد التي يكتنفها الفقر وتقع على مسافة مئتي ميل جنوب العاصمة التونسية. كانت الشرطة تتحرش به بانتظام في معظم الأيام، على الأغلب لتَحصُل منه على رسوم أو إتاوات أو رشاوى، ونتيجة لأسلوب الوشايات الناجم عن الفساد الأخلاقي المتوطن. في تلك الجمعة من ديسمبر، صادرت إحدى الشرطيات من محمد بوعزيزي بضاعته وقِطَع الميزان التي يزن بها لزبائنه، مقوضة بذلك تجارته تقويضًا تامًّا، وعندما اعترض على ذلك صفعته على وجهه فاتجه إلى مبنى المجلس

البلدي ليشكو ما أصابه، لكنه لم يتلقَّ هناك مساعدة أو مجرد الاهتمام به كإنسان، فما كان من البوعزيزي إلا أن وقف عند البوابات الحديدية الواقعة أمام مكاتب العاصمة الجهوية (المحلية) ورش جسده بمذيب كيميائي للأصباغ وأشعل في نفسه النار.. فكانت الثورة.

لقد ولّد الموت المأساوي لفرد واحد حِراكًا لم يصنعه موتُ الكثيرين من قبل.

وفي الذكرى السنوية لانتحار البوعزيزي اليائس قالت أمه وأخته إن الكرامة أهم من لقمة العيش، ورغم ذلك فإن العجز حتى عن شراء الخبز وغياب القانون عن عالم الأعمال جعل ملايين وملايين من العرب يعيشون حياة البوعزيزي. فالأمر إذن مرده إلى الاقتصاد: لم يستطع البوعزيزي أن يكسب عيشه بسبب الفساد الصغير في البيروقراطية. وضد هذا قد يتَّحد الفقراء، كما يتحدون أيضًا في مواجهة المجموعة المرتشية من الحكام المستبدين المتلبسين بالفساد الأكبر وسرقة بلايين الدولارات.

ولهذا فإن البوعزيزي لم يكن أول الشهداء الذين واجهوا الفساد في الكفاح ضد الحكام المستبدين، ولن يكون آخرهم؛ فألوف وألوف كثيرة وهبوا حياتهم. وفي مطلع عام ٢٠١٢ نشرت الأمم المتحدة قائمة بالمتوفين في الاضطرابات الواقعة في اثني عشر شهرًا مضت. هذه الأرقام متحفظة بالمقارنة بالتقديرات غير الرسمية، ومع ذلك فهي ترسم صورة مؤلمة؛ فالأرقام تتراوح بين ١٥ ألف ضحية في ليبيا إلى عشرات الألوف في المأساة المتفاقمة في سوريا، وبضعة آلاف في اليمن والبحرين ومصر.

وأعداد المصابين في القاهرة مذهلة، عظام كُسرت، ورءوس سُحقت، وأمخاخ وأجساد شُوهت... وغير ذلك كثير، وبعد أن تخلص محمد البوعزيزي من حياته البائسة بعام كامل، كانت الشرطة العسكرية تستعمل الهراوَى المكهربة والعصي في تفريق المعتصمين في ميدان التحرير بالقاهرة، تنهال عليهم بالضرب وتُشعل النيران في خيامهم، رأينا على الإنترنت امرأة يجردها الجنود من حجابها ويضربونها بالعصي وينهالون عليها بالركلات ويدوسون عليها بالأحذية قبل أن يسحلوها على طول الطريق وهي شبة عارية، كانت هذه الصور صادمة ومفزعة، وأشد ما أفزع الكثيرين

وأشعرهم بالخجل كان هذا العدوان المتعمد على كرامتها، وبينما هم يسحبونها على الأرض تعرى نصفها الأعلى، ولم يبق يسترها سوى شادّ للصدر أزرق.. ويبدو أن هذا الانتهاك أصبح رمزًا لاتجاه العسكر إزاء الشعب المصري باعتبارهم سِلعًا في إطار خطتهم الكبرى للحكم.

ومن جديد، كشف بؤس شخص ما المساوئ التي يُجرى ارتكابها على نطاق أوسع؛ فقد أعقب انتهاك الجنود لحرمة الفتاة اعتصامات غير مسبوقة قامت بها آلاف النساء – وشهدت كثيرات منهن بأنهن تعرضن للإساءات وإجراء «فحوص العذرية» عليهن. وأعلن أحد اللواءات المصريين لمشاهدي التلفزيون الأمريكي أن: هؤلاء الفتيات لَسْنَ مثل ابنتي أو بناتكم؛ بل إنهن فتيات يقضين الليل في الشارع، في خيام مع الشباب المحتجين. والجيش مضطر «للتأكد من عدم عذريتهن»؛ لئلا تدعي إحداهن أنه قد انتُهك عرضها.

وفي ١٦ من ديسمبر ٢٠١١ أعقبت موجة من العنف والغضب المرحلة الثانية من الانتخابات التشريعية؛ وهي أول انتخابات حرة منذ عقود، وذلك عندما اقتحمت الشرطة العسكرية الميدان في الفجر، فقتل ما لا يقل عن ١٤ شخصًا وجُرح أكثر من ٣٠٠ في قتال الشوارع؛ وهو ثمن باهظ لتمرد يرفض الإذعان. وبعد ٢٤ ساعة لجأ المحتجون إلى الشوارع الجانبية فرارًا من القوات المرتدية ملابس مكافحة الشغب التي تُدخل الخوف والرهبة في القلوب، والتي كانت تمسك بالمحتجين، وانهالت عليهم بالضرب المتكرر حتى بعد سقوطهم على الأرض.

وقيل لنا إن المرتبطين بالرئيس مبارك المخلوع من داخل الجيش نسقوا عن طريق عملائهم هذا الرد البشع على المحتجين: لم تكن الدوافع وراء الأحداث اليومية واضحة مئة في المئة، فعيناك وآلات التصوير الإخبارية التلفزيونية تسجل ما تراه من تناقضات، لكنها تعجز عن كشف ما يدور في الخفاء من تحالفات، فما تراه ليس دائمًا ما هو كائن، وعدم اليقين هو الشيء الوحيد المُتيقَّن منه؛ فالشباب الليبراليون والثائرون الذين صفق لهم الخبراء المُنظِّرون في كافة أنحاء العالم، قد تعلموا بطريقة قاسية أن المرء باستطاعته إشعال اللهب ولكنه لا يملك النيران، ويكفيك أن تنظر

عبر ميدان التحرير والفوضى التي تسوده وتتعجب: ماذا جلبت شهور الربيع العربي المنصرمة إلى مصر؟ تبخرت النشوة التي عمَّت الميدان، لقد أصبحنا نرى حكمًا عسكريًّا زمام أموره في أيدي رجال حريصين على استيفاء استحقاقهم كحرصهم على الظهور بزيهم العسكري؛ هذا الاستحقاق شجعته أمريكا وبإذنها ورضائها ترسّخ حتى إنه وبعد مرور عدة أشهر على رضوخ حسني مبارك أخيرًا لإرادة الشعب وتخليه عن منصبه كرئيس للجمهورية، قد أصبح الجيش هو المسيطر. ما الذي سيطر عليه؟ لم يكن الاقتصاد؛ الذي ازداد ضعفًا؛ فأموال مصر ومنافعها وسِلَعها الغذائية... كل ذلك كان يتلاشى بسرعة ومعه تَذوِي مصداقيتها، والشيء الذي لم يختفِ كان الاعتقالات التعسفية لمن يُعتقد أنهم أصحاب الضوضاء الاحتجاجية؛ وظلت المحاكم العسكرية أكثر مؤسسات الدولة إنتاجًا: فقد مَثَل أمام هذه المحاكم أكثرُ من عشرة آلاف مُعتقَل.

أما هذه الانتفاضة أو الثورة الشعبية لملايين الناس الذين احتشدوا للاحتجاج في ميدان التحرير في يناير ٢٠١١، فقد حل محلها اعتقاد بأن مبارك قد رحل لكن نظامه وتراثه الدكتاتوري قد بَقِيَا، وبالقطع ظل في الحكومة كلٌّ من خدم تحت إمرته أو كان من معاونيه لثلاثة عقود، وما زالوا يتمسكون بقوة بمزاياهم الهائلة بإمبراطورياتهم الاقتصادية وشبكة النوادي الفاخرة والمساكن والمستشفيات الراقية. كلها كانت جزءًا من بيئة متميزة مصونة بحماية فائقة؛ كقفص ذهبي غير خاضع لأي رقابة أنفق مبارك سنوات طويلة في بنائه من أجل الإبقاء على ضباطه المطيعين سعداء وراضين؛ ليذل بهم شعبه لا ليحمي حدود بلده.

أصبحت قناعة العسكريين أنهم إذا تَخلَّوا عن السلطة بالكامل فسوف يخسرون الحياة الباذخة التي يعيشونها، بل ربما يخسرون حياتهم، وكان ذلك على الدوام حافزًا قويًّا يدفعهم إلى التشبث بأماكنهم والقتال للاحتفاظ بها. وقد احتموا بالانتفاضة الفوضوية الراهنة بعض الشيء، وأثناء الفوضى الصوتية التي عمَّت أَزِقّة القاهرة وشوارعها دخل كثير من الغش والتحايل على الأوضاع المرتبكة.

وفي السنوات المنصرمة من القرن الحادي والعشرين عاش المصريون في دولة بوليسية يسيطر عليها فرد واحد يدعمه العسكريون. لم يستطع أحد منهم التعبير عن رأيه دون خوف من الانتقام، ومع هذا القهر ساد انعدام الشفقة والكفاءة بدعم من الدولارات الأجنبية، وخلق كل ذلك سنوات طوالًا من الإهمال والفساد.

وفي ١١ من فبراير ٢٠١١؛ وبعد ثلاثين عامًا، أُجْبِر مبارك على التخلي عن رئاسة مصر، وسط ترحيب شعبي وبعض الامتعاض الدولي، بدأ احتفال صاخب بالتحرر في ميدان التحرير وعلى امتداد ضفتَي النيل، وبدا كأن النصر تحقق لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي والإسلاميين.. كما بدا كأن الدكتاتورية هي الخاسرُ الوحيد.

وتبادلت العائلات الأحضان في الشوارع؛ وانتُزِع الأطفال من أسِرّتهم ليشاهدوا مناظر وأحداثًا لم يسبق لها مثيل. ومصر، أكبر الدول العربية وأهمها سياسيًّا، وأعمار نصف سكانها الخمسة والثمانين مليونًا دون الخامسة والعشرين، قد أطاحت إرادة شعبها بالطاغية. وأخذ صوت أم كلثوم الذي يعشقه المصريون يتردد من تسجيل قديم كمؤثر صوتي يليق بهذه اللحظة التاريخية: «أنا الشعب، أنا الشعب، لا أعرف المستحيلَ... ».

وأصبحت القوات المسلحة من قادتها إلى جنودها المُشاة جميعهم أبطالًا؛ لقد كان ولاؤهم لمصر لا لمبارك - وادّعَوا أنهم لم يُطلقوا النار على المُحتجين.

هذه النتيجة وهذه القوة الشعبية كان من الصعب استيعابها، حتى من قِبل أولئك الذين شاهدوا شروق الشمس على ميدان التحرير صبيحة اليوم التالي للتنحي، وبدءوا ينظفون الميدان وأيديهم قابضة على مقشات الكنس لا الأسلحة، وجاء اليوم الجديد بواقع جديد في المعادلة الوطنية غير المتوقعة، وكان الوقت مبكرًا أمام معظمهم ليدركوا مدى قسوة المعادلة ودرجة تعقيدها الحقيقية.. بل وهل هي قابلة للحل أساسًا؟!

إن التغيير يحتاج إلى عناية؛ لأنه قد يمسك بتلابيبك كما تفعل المتاهة بمن يضيع في دروبها - أشبه بأروقة ودهاليز مجمع التحرير وحركة الأوراق الخاصة بمعاملات

المصريين بين مكاتبه، فهذا المبنى العتيد في جنوب الميدان يرتفع عشرين طابقًا، وتصطف مكاتب الحكومة في ممراته الموحشة، بأبوابها التي يصعب التمييز بينها، ويصر الكثيرون في القاهرة أن أشباح الموتى التي تسكن المجمع أكثر عددًا من أشباحهم في المدافن الكبرى بالعاصمة.

لقد أدى أول التحديات بين مبارك وبين من أرادوا التغيير إلى وضع العسكر في الوسط بينهما، ومع حُسن ظن الشعب، تسلم المجلس الأعلى للقوات المسلحة (ويُعرف اختصارًا بالمجلس العسكري) إدارة البلاد، وأصبح المشير محمد حسين طنطاوي؛ وزير دفاع مبارك لسنوات طويلة، هو الحاكمَ الفعلي للبلاد وأحدثَ الفراعنة وإن لم يَحمل اللقب، ولكن هذه الطغمة العسكرية التي أعادت تشكيل نفسها وَعَدت بالبقاء في السلطة لحين انتخاب رئيس جديد للدولة.

البيروقراطية الديمقراطية شديدة الوطأة كالكابوس المستمر، لكنها كانت هذه المرة تواجه أيضًا استماتة الجيش في حماية استقلاله والمحافظة على امتيازاته الهائلة. ومضت المحادثات السرية في سبيلها، بينما تكونت أحزاب سياسية جديدة أو أصلحت أحزاب موجودة وانحنت أو تلاحمت مع مجموعة جديدة من الأحكام. عرفَتْ مصر صناديق الاقتراع والحياة البرلمانية من بعد ثورة ١٩١٩ وحتى انقلاب عبد الناصر في ١٩٥٢، لكن قليلًا هم مَن يتذكرون عملية التصويت الانتخابية المدهشة لاختيار ممثليهم من بين المرشحين، وهكذا أدلى الناخبون بأصواتهم في اقتراع حر لأول مرة تعيها ذاكرتُهم الحية ودون أن يعلموا النتيجة مسبقًا، والتي كانت صدمة لهم.. وللنظام.

وكانت الحاجة إلى دستور جديد تَتْبَعه انتخابات رئاسية، وأصر المجلس العسكري بأعضائه العشرين على أن لا يكون للبرلمان الجديد سلطة على مجلس الوزراء، وأن الحكومة المدنية سوف يتم تشكيلها بعد الانتهاء من الانتخابات الرئاسية المتوقع إجراؤها في عام ٢٠١٣. وتجاهلوا ما تغنَّى به الناس في الميدان: «حرية! حرية!»، ولم يتم الإصلاح. وأصبحت قوانين الطوارئ المُستَهدِفة لكافة

صور الاحتجاج، من الشوارع إلى الإنترنت، أشد قسوة وأضيفت لها مواد جديدة، وسُجن النشطاء والمدوّنون، وأصبح استعمال التويتر نوعًا من التحدي.. وتعرضت منظمات المجتمع المدني لتحقيقات رسمية.

وكان رد الفعل مزيجًا من الإحباط والقلاقل التي استهدفت في البداية ما ظهر من فشل المجلس في إدخال الانتقال السياسي، ومع مرور الوقت أصبح ينظر إليه على أنه اعتراض من المجلس العسكري على التغيير، وأن أعضاءه قد ظلوا كما كانوا.. رجالَ مبارك. وتفاقمت الدعوة للتظاهر أمام عناد الجيش، ونُشرت على الإنترنت نصائح بكيفية التغلب على أثر الغازات المسيلة للدموع باستعمال الكوكا كولا لمسح العينين عوضًا عن الماء؛ ورش الخل على الكوفيات والكمامات الورقية – وانتهز الباعة المتجوّلون الفرصة فباعوا أقنعة الحماية من الغاز بجنيهين مصريين للقناع، وعلم الخبراء أن أمرًا سيئًا على وشك الحدوث.

احتشد جمع من الأقباط خارج مبنى ماسبيرو؛ مقر التلفزيون الحكومي في القاهرة؛ حيث وقع هجوم عليهم في ٩ من أكتوبر ٢٠١١، وقُتل نحو ٣٠ شخصًا داست عربات الجيش بعضهم تحت عجلاتها، وناشد التلفزيون التابع للدولة «بالمواطنين الشرفاء» ليدعموا القوات المسلحة، وظهر البلطجية المعتادون مسلحين بالعصي وزجاجات المولوتوف.

بعد صلاة يوم الجمعة ١٨ من نوفمبر ٢٠١١، أصبح ميدان التحرير بؤرة الاهتمام مرة أخرى، وعلى مدى أسبوع تقريبًا اشتبك المحتجون مع قوات الأمن وسط فرقعات عبوات الغاز المسيل للدموع وما ينبعث من غازاتها كأنه ذيول دخانية تملأ الجو وتنشر معها المذاق المر للاضطرابات، وأحاط الضباب معظم العمل مثلما اكتنف النضال من أجل الحرية ذاته، وزاد عدد المحتجين عبر التويتر ورسائل النت، وزادت المشكلات. والغريب؛ وهذا دليل آخر على جنون الاضطرابات، أن الحياة اليومية في الشوارع المحيطة بميدان التحرير استمرت في المحلات ومقاهي الشيشة وسط مهرجان مروري فوضوي.

أرادت الأغلبية السلام والاستقرار وحكومة نزيهة وعادلة، ورغم ذلك، ففي أربعة أيام فقط قُتل ٣٣ شخصًا وجُرح ١٧٣٢، وفي قلب القاهرة خيّمت سُحب من دخان الغاز المسيل للدموع على الجو مضفية عليه مسحة زائفة من الاحتفال والغموض، لكنها مسببة للإعياء التام لمن يستنشقها بعد انتشارها في وسط العاصمة مختلطة بالرائحة السائدة عادة.. رائحة الثراء واليأس.

وعبّر أحد المتظاهرين بوضوح لا يتزعزع عن الارتياب المتزايد نحو الطبقات الحاكمة في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، قائلًا: يقول المجلس العسكري إن لنا الحق في الاحتجاج السلمي، لكنه ما زال يستعمل العنف معنا، إنهم يحاولون قتل الناس، وعندما يمسكون أحدًا يظلون يضربونه، والشرطة تستأجر البلطجية ليقوموا بهذا العمل القبيح.

وتظل مثل هذه الشكوى قائمة، بينما يتضح بشكل كبير - حتى للمتحمسين للربيع العربي في أنحاء العالم- أن تَنحّي مبارك كان رحيلًا رمزيًا.

بدأت إدارة عملية انتقال مصر من حكم عسكري إلى حكم مدني تظهر وكأنها قضية أزلية، وعلى مدى أسابيع كثيرة زاد الإحباط وضوحًا، أصبح ميدان التحرير نقطة التجمع للمحتجين الغاضبين؛ الشباب، الفصائل الإسلامية، بمن فيهم الإخوان المسلمون، والأقباط. وردّت قوات الأمن عليهم بالعنف غالبًا وأعقب ذلك الموت والضحايا والتنازلات، وعلى الرغم من ذلك ففي يوم ٢٨ من نوفمبر ٢٠١١ (بداية الانتخابات التشريعية)، ذهب الناخبون في أعداد كبيرة واصطفوا صابرين في طوابير طويلة في كافة المناطق للإدلاء بأصواتهم في انتخابات مرحلية معقدة.

كانت لحظة قضى يوسف ندا معظم حياته ينتظر قدومها، لكنه لم يكن مرتاحًا، قَلِقًا من أن إبعاد الإخوان المسلمين إلى منطقة الظل في الحياة السياسية عقودًا لم يُمكّنهم من إعداد حزبهم (الحرية والعدالة) للحكم، وبخاصة حكم شعب دمّره سوء الإدارة، واستنزفت اقتصاده الأحداث الجسام في الداخل والخارج، وبهذا يفسر لماذا لم يرغب الإخوان قط في الاستئثار بالسلطة، وإنما سعوا إلى الائتلاف،

وهو يرفض الادعاءات بأن الإخوان يريدون السلطة وليست المسئولية. فاحتكار السلطة ليس حلًّا مطروحًا، بل الأحرى أن تشارك جميع الأيدي في الوصول إلى الطريق المؤدي إلى تحسين معيشة الناس، الذين يعاني الكثيرون منهم معاناة يومية من البطالة وشظف العيش.

كان اعتناء الإخوان بالناس في دوائرهم الانتخابية على الدوام دعامة قوية في بنيان الجماعة، التي تبني رسالتها على الإسلام وتنشرها من خلال المساجد والعمل الخيري. والإخوان المسلمون بكل مَن يتبعها في جميع البلاد المسلمة وأوربا والولايات المتحدة الأمريكية، يقودها مهنيون وأطباء ومحامون وأساتذة جامعيون.

وبعد عقود من الفساد الحكومي، ينظر الناس إلى الإخوان في أوطانهم باعتبارهم قادة شرفاء ذوي مصداقية، ومع ذلك، فإن الاضطهاد المستمر للإخوان قد دفعهم إلى العمل في الظل - وهذا لا يعد أرضية صلبة أو حقيقية للتدريب على الانفراد بإدارة الحكومة.

ومما زاد الأمور اختلاطًا كان ظهور السلفيين المحافظين وحزبهم المتشدد؛ حزب النور. والخط المتشدد الذي يتبعه السلفيون وآراؤهم التقليدية عن المرأة وحقوق المسيحيين أصبحت عناوين الصفحا ت الأولى للصحف، وكذلك نواياهم في منع ملابس السباحة الضئيلة المعروفة بابكيني والخمور، حتى في الشعوب والمناطق التي تعتمد اقتصاديًّا على السياحة، وكان العديدون من السلفيين قد أُطلق سراحهم عقب سقوط مبارك، وظهر حزب النور قويًّا.. مع تشجيع من المملكة العربية السعودية.

وعلى الرغم من أن الإخوان يَفْصلون بينهم وبين حزب النور، فإن أي مشاركة في السلطة بين الفريقين سوف تضغط على الإخوان ليدعموا آراء أكثر تشددًا. ويقول يوسف ندا: «سوف يجب عليهم التعامل مع هذا الأمر؛ هذا جزء من السياسة، جزء من الحياة».

بحلول يناير ٢٠١٢، واكتمال المرحلة الثالثة من الانتخابات أصبح واضحًا أن حزب الحرية والعدالة المنبثق عن الإخوان سوف يكون حزب الأكثرية البرلمانية،

وأصر يوسف ندا على أن مصالح جميع الأحزاب والناس سوف تتمثل في تكوين برلمان جديد وحكومة ائتلاف أو وحدة وطنية.

سوف يحكم الإخوان من الوسط، وينصتون لمصالح الليبراليين المصريين والسلفيين وغيرهم من المحافظين الإسلاميين، وبهذا يقدمون سياسات وسطية ويهدئون الأوساط الخارجية ريثما تعيد مصر ضبط أوضاعها الدولية، ويُهدئون من مخاوف الغرب إزاء فورة الإسلاميين المتشددين، تلك المخاوف التي كانت لفترة طويلة ذريعة أساسية للابتزاز من قِبَل الطغاة.

كان مبارك وطغاة العالم العربي لسنوات طويلة لا يسمعون لأسئلة الغرب حول الاستبداد وحقوق الإنسان ويزعمون أنه إذا لم يُسمح لهم بالاستمرار في السلطة فسوف يستولي عليها الإسلاميون، وقد تورطت أمريكا والآخرون في اللعبة، أما إسرائيل؛ القضية الكبرى، فلم يتحدث عنها أحد، والآن أصبح الإسلاميون القوة الصاعدة.. وعلى الغرب أن يبدأ حوارات جديدة بالمرة.

بحلول يناير ٢٠١٢ كان البيت الأبيض يبحث علنًا عن علاقات أقرب وأوثق مع الإخوان المسلمين، وآنذاك كانت هناك محادثات على مستوى عالٍ تدور بشكل غير علني لعدة أسابيع بينما تخلى الرئيس أوباما عن عداء دائم تجاه الإخوان الذين كان يعتقد أنهم يعارضون مصالح الولايات المتحدة معارضة غير قابلة للتغيير.

وستثبت صعوبة هذه الدبلوماسية في سنة الانتخابات الرئاسية الأمريكية، بل كان ذلك بالنسبة للولايات المتحدة «تحولًا تاريخيًّا في السياسة الخارجية»، لقد حازت حكومات مصر الاستبدادية على تأييد الإدارة الأمريكية الكامل فترة طويلة بما في ذلك المعونة العسكرية الأمريكية في ٢٠١١ ومقدارها ١,٣ بليون دولار. وهذه المعونة السنوية ستكون من أشد الموضوعات حساسية عندما تتغير السلطة في مصر.

في العاشر من ديسمبر ٢٠١١، اجتمع السناتور «جون كيري» رئيس لجنة العلاقات الأمريكية الخارجية بالكونجرس، والمرشح الرئاسي السابق، مع أعضاء الإخوان المسلمين في القاهرة، وفي ١٨ من يناير ٢٠١٢ اجتمعت «آن باترسون»

السفيرة الأمريكية في مصر بالمرشد العام الدكتور محمد بديع وكبار قيادي الجماعة في مركزها العام بالقاهرة. وفي الوقت ذاته كان الرئيس الأسبق «جيمي كارتر» في مصر لمراقبة الانتخابات.

ويرى يوسف ندا في حضور «جيمي كارتر» وفي تعامل أمريكا السياسي مع الإخوان موقفًا ساخرًا للغاية؛ فالرئيس بوش الابن أطلق على ندا اسم «رئيس بنك الإرهاب»، والآن يُحيّي الرئيس أوباما الجماعة التي عمل تحت لوائها ندا كل حياته تقريبًا. وبحذره المعهود نصح بأنه ينبغي على العالم «أن ينتظر ويرى ما سيحدث».

عَكَس تغيير السياسة حقيقة ما أظهره الإسلاميون من وجود في صناديق الاقتراع وإقرار بأن الإخوان المسلمين يريدون ديمقراطية عصرية وحرية الناس والأسواق، وهم الذين طالما احتقرهم السياسيون الأمريكيون المتنفذون، وسَلَقهم المعلقون التلفزيونيون بألسنة حِدَاد، ومَثّلت ظاهرة حزب النور غير المعروفة تحديًا آخر للإخوان المسلمين، وليوسف ندا الذي عمل دون كلل، وغالبًا ما خاطر بحياته من أجل إنهاء عقود من الموت عاشها بنفسه.

وهو يعي بدقة العقبات الدولية في الطريق بما في ذلك إسرائيل وحماس والقضية الفلسطينية وإيران، وفي جدالهم غير الناضج صور السياسيون الأمريكيون الإخوان المسلمين بأنهم من أفرخوا الوحوش الإرهابية أمثال تنظيم القاعدة. والحقيقة أن القاعدة والإخوان حركتان متضادتان تمامًا؛ فالقاعدة تحتقر الإخوان لنبذهم العنف، والإخوان بدورهم يفصلون أي عضو في جماعتهم يشترك في أعمال الإرهاب أو القتل أو يشجع عليهما، ولكي يربط البعض بسهولة بين الجماعتين، ذكروا أن بعض الإرهابيين مثل أسامة بن لادن زعيم القاعدة الراحل وأيمن الظواهري أقرب أعضائها إليه كانا يومًا من الإخوان.

إن اتجاه الإخوان المسلمين الغاضب نحو إسرائيل يعكس غالبية الرأي العام في مصر، ويُعد عقبة في طريق التفاوض خاصة مع كفلائها الأمريكيين، يقول البعض إن إسرائيل ليس لها الحق في الوجود، والبعض الآخر يرى الحل في قيام دولتين.. لكن

يوسف ندا يعتقد أن هناك طريقًا ثالثًا، على أساس الاقتناع بـ«أننا جميعًا بشر».. ومن ثَمَّ فلا بد من التسامح.

ومن المؤكد أن الانتخابات الحرة التي تمت في ٢٠١١، بعد خمس سنوات من نجاح حماس في الانتخابات الفلسطينية، أظهرت أن الناخبين يريدون حكومات يقودها الإسلاميون، وقد فاز حزب العدالة والتنمية بالأغلبية في الانتخابات العامة المغربية، كما فاز في تونس حزب النهضة بزعامة راشد الغنوشي؛ الصديق المقرب ليوسف ندا، وقد قدم يوسف نصائحه للقادة الجدد عندما زاروه في بيته في يناير ٢٠١٢ عقب اشتراكهم في الاجتماع السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس بسويسرا، ثم تمت أطول انتخابات وأعقدها وأكثرها أهمية في مصر، وفيها حصل حزب الحرية والعدالة على ٤٧ في المئة من مقاعد البرلمان الذي سادته الأحزاب الإسلامية؛ فحزب النور الذي لم يمضِ على تأسيسه سوى أشهر قليلة، فاز بخمسة وعشرين في المئة من المقاعد تقريبًا، وجاء ائتلاف الأحزاب الليبرالية متأخرًا في المركز الثالث، ويرى بعض المراقبين أن الإسلاميين كانوا مدعومين بأموال السعودية (لحزب النور)، وقطر (للإخوان المسلمين)، وأنهم نجحوا عن طريق «شراء» الأصوات. ويقول البعض إنهم ابتزوا المواطنين الأميين (٤٠ ٪ من المصريين لم يتلَقَّوا تعليمًا) بحملة شعارها: «كن مسلمًا صالحًا وأعطنا صوتك»، والواقع لم يثبت أكثر تلك الاتهامات، ويؤكد يوسف ندا أن الإخوان لا يمكن أن يقبلوا تمويلًا من غير أعضائهم، والعلاقة المالية بين الجماعة وأي دولة أو منظمة غير أفرادها تُعتبر عندهم ليس فقط من الممنوعات، بل من المحرمات، ومن يستعمل اسمهم في الحصول على مال من غير الإخوان لا يمكن أن يكون أمينًا.

وبوضوح نادى عبد المنعم الشحات؛ وهو من أكثر مرشحي حزب النور السلفي صراحة إلى تقنين السلفية، مما أثار غضب المعتدلين المصريين؛ باعتبار السلفية تفسيرًا متزمتًا للإسلام من وحي الفكر الوهابي المتبع في المملكة العربية السعودية، وذكّرت أقوال الشحات الناس بطالبان أفغانستان عندما نادى بتغطية تماثيل مصر الفرعونية أو تكسيرها باعتبارها شِركًا، والإسلام يُحرم الشرك تحريمًا قاطعًا، كما

أغضب الشحات كثيرًا من المثقفين بمهاجمته روايات نجيب محفوظ لأنها كُتب «تدعو إلى التهتك والدعارة والإلحاد».

وقد أفقدته هذه التصريحات مقعد دائرته الانتخابية في دورة الإعادة، عندما تكتل الليبراليون والشباب والأقباط وراء منافسه حسني دويدار المرشح المستقل المدعوم من الإخوان.

شكّل الإخوان المسلمون الذين حَظَر النظام نشاطهم أجلًا طويلًا جزءًا من المسار السياسي الرئيسي في مصر، ولما كانت مصر حاملة لواء العالم العربي، فقد قام إخوان مصر بنفس الدور بين الإسلاميين العرب المعتدلين، وقد أحنق هذا الكثيرين ممن اعتقدوا أن الأصوات الغاضبة والعالية لليبراليين العلمانيين المحتجين في ميدان التحرير سوف تؤثر على صناديق الاقتراع، لكن الماضي، وخاصة في مجتمع عريق كهذا، سيكون له بصمات على مستقبله.

لم يتقدم الإخوان المسلمون إطلاقًا بمرشح رئاسي ولم يَسْعَوا إلى السيطرة على الحكومة، كان هذا اختيارًا سياسيًّا حذرًا، واعتبره يوسف ندا كارثيًّا؛ لأن الواجب الصعب كان إصلاح الاقتصاد البائس وحل مشكلات الفقر العام والبطالة التي كانت بداية لحركة الاحتجاج، وكان المسيحيون والأقلية الليبرالية، وكثيرون في الغرب، يتحدثون غاضبين عن فكرة فرض قوانين الشريعة والقيود الاجتماعية. وجادل الإخوان المسلمون في أنهم على الرغم من ثقافتهم إلا أنهم حزب شامل.

ومع محاصرة الليبراليين للسلفيين، شك القليلون من أن كِلَا الطرفين قد ينمو على حساب الإخوان الواقفين في الوسط، أضف إلى ذلك ما رَأَوْه على شاشات التلفزيون في الأوقات التي تكثر فيها المشاهدة من تَخَلّي أتباع الأنظمة القمعية التي بدأت بعهد عبد الناصر عن أقنعتهم التي ارتَدَوْها لعشرات السنين، وفي كل ما حدث عبر الشهور الماضية الطويلة، اتضحت تمامًا قوة التلفزيون والحواسيب ومواقع الاتصال الاجتماعي؛ فقد بث التلفزيون أحداث الصحوة العربية، وعلى مدار أربع وعشرين ساعة يوميًّا دخلت مشاهد الاحتجاج والانتقام منها إلى جميع البيوت في العالم عن طريق أجهزة التلفزيون أو/ و شاشات الحاسوب الشخصي، واستخدم

يوسف ندا التلفزيون ليقدم وجهة نظره، وسبقه في ذلك صديقه المقرب الشيخ يوسف القرضاوي، الذي قضى معه بعض الوقت في السجن؛ أُدْخِل القرضاوي السجنَ بسبب انتمائه للإخوان المسلمين وهو حمو ابنة يوسف ندا الصغرى حسناء المتزوجة من الدكتور محمد يوسف القرضاوي، والشيخ القرضاوي شخصية عظيمة التأثير في العالم السُّنّي، وغالبًا ما يتم الاستشهاد به كمرشد روحي لتغيير الاتجاهات والأنظمة في العالم العربي، وهو مصري وحصل على الجنسية القطرية، ويقيم في الدوحة عاصمة قطر حيث يدير مؤسساته الخيرية والشرعية، وهو الضيف شبه الدائم لبرنامج «الشريعة والحياة» الحواري الذي أنشأه في قناة الجزيرة، مما يجعله على تواصل مباشر مع جمهور كبير تصل أعداده إلى الملايين كل أسبوع، ورسالته هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ويوجه الحركة الإسلامية بوجوب أن تتخذ مسارًا وسطيًّا وتتجنب أوزار التطرف، ويرفض الأفكار التي تطلب من الدول التي تعتمد على السياحة أن تفرض على زوارها الالتزام بالقواعد الإسلامية في اللباس، واقترح على حزب النور السلفي أن يتبنى فكرًا جديدًا: «قلت للإخوة السلفيين إنهم يخوضون أول تجاربهم السياسية، وعليهم أن يتعاملوا باعتدال مع الناس، وأرجو أن يفعلوا ذلك».

ومع ذلك فقصة حياة يوسف ندا تُظهر بوضوح تام أنه لا يوجد على الإطلاق شيء مضمون مئة في المئة.

في مقابلة إعلامية أُجريت في نهاية ٢٠١١، قال الشيخ القرضاوي إنه على الغرب «أن يفكر كيف يتعامل مع الإسلام، بينما لا تستطيع إسرائيل أن تواصل سياساتها المبنية على القوة، الدول ماضية في صحوتها، وحيثما يصل الإسلاميون إلى الحكم فسوف يتعاملون بحِكْمَة مع الغرب وإسرائيل، لكنهم لن يقبلوا بالظلم. إن إخواننا الأتراك تمكنوا من خدمة بلادهم وصُنْع نهضة اقتصادية واجتماعية، لقد تغلبوا على العلمانية في هدوء، وأصبحت تركيا مثالًا للوسطية، ونموذجًا تستطيع البلاد العربية الاستفادة به». وهذا عين العقل.

وعندما سُئِل يوسف ندا عن سبب مشكلة صديقه؛ فالشيخ القرضاوي ممنوع من الدخول إلى الولايات المتحدة، أجاب ندا بكلمة واحدة: «حماس».

إن الولايات المتحدة اعتبرت الشيخ القرضاوي شخصًا غير مرغوب فيه، وذلك لتأييده العمليات الاستشهادية الفلسطينية ضد إسرائيل، على حين استنكر الشيخ وأدان الهجوم على أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر وأيد إحدى الفتاوى التي تسمح للمسلمين الأمريكيين بالقتال من أجل وطنهم، حتى ولو ضد دولة مسلمة، لكنه أصرَّ على أن الهجمات الفلسطينية لها مبرر شرعي، واعترض على طالبان بهدم تمثال بوذا، وقد انقسمت الآراء حول هذه الفتاوى.

إنها معضلات مثل تلك التي أنفق يوسف ندا حياته في مواجهتها وفي الحوار والتفاوض حولها، إنها جمع المتضادين وحل عُقَدهم وفلسفة مصائرهم، إنه الجمع بين أن تكون سياسيًّا.. لكن أيضًا رجل دولة معًا؛ حيث لا يوجد في الشرق الأوسط شيء سهل؛ إنها ثقافة تحتفظ سجلاتها بقرون من الولاءات والمكائد والصفقات حول الحدود والأراضي والملوك والرؤساء.. وتفسير كل ذلك عند من يمسك بزمام السلطة.

غادر الشيخ يوسف القرضاوي مصر بعد أن رحل عنها يوسف ندا بثلاث سنوات، لكنه عاد إلى القاهرة ويزورها أكثر من مرة كل عام. وفي فبراير ٢٠١١؛ بعد رحيله بخمسين عامًا تحديدًا، ذهب إلى ميدان التحرير ليصلي بالناس، وسط هتافات الجماهير المتحمسة. يقول الشيخ القرضاوي: «كل ممنوع مرغوب، ونحن الإسلاميين كنا على الدوام ممنوعين؛ لقد حُورِبَت الدعوة والحركات الإسلامية واضطُهِدت، لم تنل حظها ولم يُفسح لها مجال، والآن وقد أُزيح الطغاة فلا شيء يمنع الإسلاميين من أخذ مكانهم الحق في قلب المجتمع».

ما عليك سوى أن تشاهد أخبار المساء حتى تعلم أنه ينبغي أن يُفعل شيءٌ من أجل إيقاف المجزرة، ومن خلال جهود أفراد من أمثال يوسف ندا يظل الحديث قائما وفي طياته الأمل رغم استمرار القتل، ولنتذكر دائمًا أنه لا يوجد شيء صافٍ تمامًا لا

تشـوبه شـائبة، إن الدخان والمرايا تعترض طريق الشمس المشرقة في أغلب الأحيان مما يُخفي الفهم السليم؛ كما كانت تفعل به التمائم في قديم الزمان.

أدرك الإسـلاميون العقلانيـون بسـرعة أنهم يسـتطيعون تحقيق أفضـل التأثير عن طريـق صناديـق الاقتراع، فالسـلفيون الذيـن ظلوا طويـلًا يعتبرون التصويت رجسًـا مـن عمل الشـيطان، أصبحـوا الآن، على مضـض، يعتقدون بتردد بأنـه أملهم الوحيد لتعزيز وجهات نظرهم، وهناك بعض الأتباع المخلصين، ومن بينهم علماء دين، ممن يريدون إعادة إنشـاء أشكال سياسـية من القرون الوسطى: هذا الفكر العقيم في القرن الحادي والعشرين يثير البلبلة ولا يفضي إلى شيء.

وبطبيعـة الحال، فإن هنـاك المتطرفين الذيـن يقعون على جانبَـي الخط الفاصل، ومازالـوا يعتقـدون أن الصـراع وحده سـوف يأتي بالحـل. وأهل التعقل في الشـرق والغـرب قَلِقون ويـزداد قلقهم مع وقـوع الهجمات في نيجيريا فـي نهاية عام ٢٠١١ وفي ٢٠١٢ وما صاحبها من أعمال العنف حتى بين المسلمين.

تغيرت أشـياء كثيرة منذ الحادي عشـر من سـبتمبر، ولعل أبرز ما ظهر في الساحة هو نظرة المتزمتين السـابقة للسياسـات الديمقراطية: لن تصبح مسـلمًا غير صالح إذا أدليت بصوتك لتنال حقوقك وتعيش في بلد تسمح لك بذلك، وإذا كان ثمة شيء ما فهمـه الشـباب المتظاهر أثناء «الصحوة» العربية فهمًا تامًّـا؛ فهو أن العالم الرّحْب قد ضاقت وانكمشـت أبعاده، ولن يسـتطيع الطغاة بعد الآن أن يُخفوا أو يُغطوا فظائعهم بمزيد من الفظائع؛ فرسـالة هاتفية قصيرة أو تويتر كفيلة بإعلام العالـم كله بما يحدث فـي أي مكان، ومـا يحدث فيه يهمنا جميعًا، وكذلك ما لـم يحدث.. لأنه بدون التغيير والفهم لن يأتي الغد الذي يشغلنا أمره.

إن نجاح الإسـلاميين في صناديق الانتخابات أذهـل الرأي العام الدولي وصَدَمه، وفـي الرابـع من يناير ٢٠١٢، ذكـرت صحيفة نيويورك تايمز فـي اندهاش: «الإخوان المسـلمون أكبر قوة سياسـية فـي مصـر»، وكان بإمكانها القول: «وفـي أماكن أخرى كذلك». وطيلة عقود من الزمان عُوقب الإخوان على انتمائهم ومعتقداتهم، ولو احتد صوت يوسـف ندا هنا فالسـبب هو ما عاناه الإخوان: «إن الإخوان المسـلمين ليسـوا

جماعة صغيرة غير مهمة، إنها حركة دولية وتمثل أكبر جماعة إسلامية في العالم، ولا يمكن تحجيمها حسبما يرتأي نظام ما أو يحب».

الإخوان المسلمون منظمة إسلامية تستنهض الجميع بأعمالها وفكرها، وسوف تُظهر الطريق وتبين كيف سيسير عالمنا، وهذا الفهم العميق للإخوان المسلمين هو أهم ما في الأمر، وسوف تكون النزاعات بين الطموحات الدينية والنواحي العملية لبناء وإعادة بناء الأمم واقتصاداتها مسارًا محفوفًا بالأخطار كحياة يوسف ندا. وكيفما كان شعورك إزاء الربيع العربي فإن الشرق الأوسط يتغير سريعًا، في الصيف والخريف والشتاء، متحركًا نحو السنوات المقبلة. والإخوان المسلمون خرجوا عن القيود المفروضة عليهم، خرجوا من الأزقة الضيقة للسياسة التي أكرههم القهر على السير فيها. والنظام العالمي يتغير مع تغير العالم ذاته.. ولا يملك غير ذلك.

الفصل الحادي عشر

صَيْفٌ هِنْدي

«كل عضو من الإخوان المسلمين في العالم أجمع يؤمن بأن عليه واجبًا من أجل تطبيق المعنى العام للآية الكريمة ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾».

يوسف ندا، ٢٠١١

القاهرة، يولية ٢٠١١

قُتل أحد أبناء أمل زين العابدين برصاص شرطي، ولها ابن آخر حبيس سجن حربي، كهذا الذي كان يضم آلاف الأعضاء من الإخوان المسلمين في عقود سابقة ومنهم يوسف ندا. ولم يعد هذا السجن قابعًا في الصحراء كما كان في الماضي، بل أصبح داخل مدينة القاهرة التي زحف العمران على الصحاري المحيطة بها حتى أصبحت دولة أكثر منها مدينة؛ إذ فاق عدد سكانها ١٨ مليون نسمة يحاولون أن يجدوا لأنفسهم مكانًا يعيشون فيه. كانت السيارات تسير ببطء شديد في الشارع وتتقارب من بعضها البعض بشكل يكاد يصل إلى حد التلامس. تقف تارة وتتحرك أخرى قبل أن تقوم بحركات مباغتة للإفلات من الزحام ليستعيد المسير وتيرته البطيئة مرة أخرى.

وعند ميدان التحرير كان الطريق مغلقًا عند أحد جوانب الميدان حيث تنتشر فِرَق الأمن والذين بَدَوا وكأنهم أعضاء في فرقة موسيقية غربية ناشئة، كانوا يتفحصون

هويات السائقين ويفتشون عن متفجرات داخل السيارات، وكان معي مَن أعتبره حارسي الشخصي؛ حسام، من الإسكندرية وعمره ٢٣ عامًا، وهو نفس عمر يوسف ندا حينما قادوه إلى القاهرة.

كان حسام متوترًا ويعضّ على شفتيه وهو يجيب عن أسئلة هؤلاء الناس، لم يكن هناك أثر لأي قوات أمنية أخرى، فلا جنود ولا شرطة. وقال لي: إذا جاءت الشرطة إلى هنا فلن تسألنا أي أسئلة، ثم أشار بيديه في تشبيه للمسدس مصوبًا إياه تجاه رأسه قائلًا: طاخ طاخ طاخ. وأضاف: كثير من أصدقائي قُتلوا أو جُرحوا من دون تمييز، ولا نزال ننتظر أن يحقق المجلس العسكري مطالبنا، وربما يصيبنا الرصاص قبل أن يتحقق ما نصبو إليه.

تعرض نجل أمل زين العابدين للضرب والاعتقال أثناء مظاهرة خرجت في ذروة الغليان للمطالبة بالتغيير؛ لأن ما يُسمّى بالربيع العربي لم يحقق أحلام الديمقراطية والسعادة بين عشية وضحاها، وتستطيع وأنت تتابع هذه الظروف أن تتفهم حالة الغضب والإحباط التي أصابت الناس والتي عبّرت عنها أمل بقولها: «لقد تعبت، لم تُحقق هذه الثورة شيئًا لنا، لا أريد مالًا أو أيًّا من هذه الأمور، أريد العدالة وحدها.. العدالة». كانت أمل زين العابدين تُعبّر عما افتقده المصريون خلال الحكم العسكري لمصر، وهو شيء أساسي كما عرفنا من يوسف ندا. لقد افتقد المصري معنى العدل تحت الحكم العسكري، سنوات طويلة غيّرت الكثير وانطفأ بفعل الإهمال بريق أمجاد ماضيه، وتزايد عدد السكان في تدافع وغير تخطيط إلى ٨٥ مليون شخص، نسبة كبيرة منهم أميون ومعظمهم فقراء.

كانت الحشود هائلة في ميدان التحرير مع بداية العطلة الأسبوعية في السابع من يولية ٢٠١١، تتحرك من محطة مصر (التي غير عبد الناصر اسمها إلى محطة رمسيس عام ١٩٥٥) إلى الميدان الشهير الذي فاض بهم مثل النيل في موسم الفيضان. عانت هذه الجموع من المشاكل الجانبية للثورة كالتأزم الاقتصادي والفتنة الطائفية وازدياد معدلات الجريمة، مع قلة الدخول. وتستطيع أن ترى الإحباط مستشريًا بشدة بينهم. وقد شاركت في هذا التجمع الأحزاب السياسية الكبرى بالإضافة لجماعة الإخوان

المسلمين، ولم تطفُ على السطح في هذا اليوم الخلافات السياسية بينهم حول الدستور والانتخابات... إلخ. وأخبرتني طبيبة أطفال تُدعى شيرين إبراهيم، ٣٣ سنة، قائلة: لم يسمح النظام القضائي للجمهور حتى اليوم بأن يشهد محاكمة مبارك التي تم تأجيلها، وحتى الوزراء المتهمون بالفساد تمت تبرئتهم، الناس لم يصبحوا جزءًا فاعلًا بعدُ في هذا المشهد.. لم يتغير شيء.

في هذه الأثناء كان نجلَا مبارك بالإضافة لمسئولين رفيعي المستوى قد أُلقِيَ القبض عليهم ومنهم وزير الداخلية المكروه حبيب العادلي؛ والذي حُكم عليه بالسجن لمدة اثني عشر عامًا بتُهم تتعلق بالفساد، غير أن محامي بعض هؤلاء المتهمين قد وجّهوا اللوم للنيابة متهمين إياها بالسعي لتحميل موكليهم المسئولية كاملة بشكل تعسفي، وفي مقابل هذا الادعاء كانت وجهة النظر الأخرى التي تشجب غياب الإدانة لمن قتلوا ٨٤٠ متظاهرًا باستثناء أحد أمناء الشرطة حُكم عليه غيابيًّا بتهمة القتل. واستشعر البعض في تأجيل القضية المتهم فيها العادلي بقتل المتظاهرين بأنه دليل على عدم رغبة المجلس العسكري في إدانة الأجهزة الأمنية؛ وهو أمر يصفه الصحفي هاني شكر الله بقوله: «إنهم يَخْشَون إن عاقبوا هؤلاء الناس، فإن الأجهزة الأمنية ستنهار، وستقوم بعض الأجنحة فيها بأعمال تخريب وهو ما أثبتوا القدرة على القيام به، ويرى الجيش أن مصر ليست بحاجة إلى عدالة انتقالية».

كما يؤمن كثير من الضباط في الحقيقة بالحاجة إلى استدعاء تراث الحكام المُتَفرعنين؛ فقد كثر الحديث في القاهرة والإسكندرية عن الحاجة لقائد «قوي»؛ وهو ما يعني زعيمًا كجمال عبد الناصر أو أنور السادات أو حسني مبارك. ويكمن التفكير الواقعي، أو بالأحرى الساخر، في أن القرن الحادي والعشرين لا يحتاج لرئيس قوي بقدر حاجته لشخصية مقبولة على نطاق شعبي واسع قدر الإمكان تعمل كواجهة للحكم العسكري من وراء الستار.

كانت الانتقادات تتوالى ضد سياسات الحكومة وتتشابه إلى حد كبير مع تلك الانتقادات التي طالت حكومة النظام السابق الذي قامت عليه الثورة؛ فمحمد سيد الذي قُتل في ٢٩ من يناير ٢٠١١ قد أُجّلت قضيته ثلاث مرات، وتقول أسرته إنهم

تلقَّوا عرضًا بمبلغ ١٦ ألف وخمسمئة دولار مقابل التنازل عن القضية، وهو ما رفضه سيد عبد اللطيف والد محمد قائلًا: «نحن ننام في الشارع وأطفالنا يلتحفون التراب.. وقاتل ابننا ينام في بيته».

في مثل هذه الأجواء من شهر يناير عام ٢٠١١ انضم الإخوان المسلمون للمظاهرات التي رفعت شعار الوحدة بين الثوار الشباب الناشطين في الإنترنت والليبراليين والقوى اليسارية والعلمانية، ولأول مرة منذ ستين عامًا عقد الإخوان المسلمون مؤتمر الأخوات المسلمات في القاهرة، وكان خيرت الشاطر؛ نائب المرشد العام، أحد المتحدثين فيه، ووعد بالمزيد من تمثيل النساء والتحرك باتجاه توفير مواضع قيادية للنساء داخل الإخوان المسلمين.. إن الزمن يتغير.

وعلى الجدران في شوارع القاهرة كانت اللافتات تنادي الناس أن: اخرجوا للشوارع يوم الثامن من يولية.. الثورة مستمرة. ويقول بيان لائتلاف شباب ثورة الخامس والعشرين من يناير: مطالب الثورة لم تتغير منذ يومها الأول. مضيفًا: لم يكن مطلبنا هو إزاحة النظام القديم فحسب، ولكن بناء دولة يستطيع فيها الناس أن ينعموا بالحرية والكرامة ودور القانون والعدالة الاجتماعية. وكانت كلمة الكرامة هي أكثر الكلمات تكرارًا في القاهرة، كانت على قمة الأولويات، ويبدو أنها أساس الإنسانية جمعاء، تلك الإنسانية التي تَستعصي على البيع والمساومة ودراسة جدوى شديدة التعقيد. ومهما اعتقدت في آراء يوسف ندا من حيث اعتدالها ومصداقيتها من الناحية الأكاديمية، فإنها غالبًا ما تجرفها عاصفة من الآراء المضادة والخائفة، وليس مصدرها الساسة والمحللون الغربيون فحسب.. لكن من داخل عالمه الإسلامي كذلك. وكان السؤال الرئيسي الذي يطرح نفسه هو: هل مثاليته هي الحقيقة؟ أم أن الحقيقة أنه مثالي؟!

هل هناك من يُفضلون الصراع لضمان استمرار قوتهم في هذا العالم ذي الدوافع المريبة؟! هل تحارب كل جماعات العنف من أجل قضية ممسوخة، أم أنهم مجرد عصابات يمارسون الشر من أجل الربح؟!

في الحادي عشر من سبتمبر تعرَّضَت الولايات المتحدة لهجوم على برجَيْ مركز التجارة العالمي في نيويورك، وخلَّف الهجوم من الضحايا ما زاد على ثلاثة آلاف شخص، وهي أرواح لا يمكن تقديرها بثمن، بالإضافة لغيرهم من الملايين الذين قُتلوا في الحروب على مدار قرون مضت، كيف يمكننا أن نقيّم الحياة الإنسانية؟ إن أي محاولة للإجابة عن هذا السؤال تنتزع القلوب من بين الضلوع وتفقد فيها الكلمات معانيها، لكن أحداث سبتمبر أشعلت حربًا ثقافية.. حربًا من اللوم.. حربًا يحار فيها المرء ويتساءل: مَن يستطيع أو يضمن الفوز فيها؟

لقد تعرض يوسف ندا لانتقاء شخصي من الرئيس الأميركي السابق جورج بوش ليصبح «ممول الإرهاب» من خلال بنك التقوى؛ هذه المؤسسة المصرفية الإسلامية التي أسسها بعناية لتعمل وفق قانون وممارسات البنوك الدولية، وفي يوم من الأيام جاء ليوسف ندا اتصال هاتفي من الولايات المتحدة من صديق سويسري يدعى «فيكتور كوشر» كان يُعد كتابًا بعنوان: «قوائم الإرهاب»، حيث كان يحقق في توابع الموقف في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. تحدث «كوشر» بصوت خفيض قائلًا: سيد ندا، أنا في نيويورك وقابلت كثيرًا من السياسيين وأناسًا في الأمم المتحدة وفي الإدارة أيضًا وقالوا لي بشكل واضح بأنهم يستهدفونك لتكون عبرة ووسيلة تخويف للأثرياء المسلمين كي يُحجِموا عن تمويل جماعات العنف.

لقد تعرضت حياة يوسف ندا وأعماله للإيذاء الذي امتد ليشمل مساعديه وموظفيه؛ ففي لحظة تشعر وكأن الدنيا قد دانت لك، وفي لحظة أخرى ترى كل أبواب العالم موصدة في وجهك. كان مقتنعًا بأن كثيرًا من وكالات الاستخبارات في العالم استهدفته عندما عُرف أنه مُفَوَّض العلاقات الدولية بجماعة الإخوان المسلمين، وكانت لديه دائمًا قائمة بشخصيات نافذة تريده مقتولًا، وكان يعتقد أيضًا بأن الهجمة عليه وعلى بنكه وإمبراطورية أعماله تستهدف ربط الإخوان المسلمين بالإرهاب، وقال لي: «ليس سرًّا أنني عضو بجماعة الإخوان المسلمين، إنه شرف عظيم لي في الحياة، وأدعو دائمًا لمن كان سببًا في ارتباطي بهذه الجماعة». واستطرد مضيفًا: «إن الإخوان أيديولوجية تنتشر في كل مكان، ولا يمكن لأحد أن يوقفها إلا إذا

استطاع مصادرة الأفكار أو اغتيالها.. قد يحاولون، لكن الأفكار غير قابلة للمصادَرة أو الاغتيال، فهي تسكن في العقول، لا يستطيعون حصارها أو تقييدها. وعلى مدار سنوات من الكفاح فقد فيها كثير من الناس أرواحهم وتعرضوا للسجن وفقدان منازلهم ويُتِّمت أطفال ورُمّلت نساء وتفسخت أُسر، لكننا على الدَّرب ماضُون».

لقد سبقت التحركات ضد يوسف ندا وضد أعمال بنكه هجمات الحادي عشر من سبتمبر. إنه رجل عميق التفكير وليس مصابًا بجنون العظمة أو يقفز إلى استنتاجات معينة بسبب أدلة ظرفية. ويرى أن القلق المستمر من الإخوان المسلمين، سببه سوء فهم هدفها السلمي، ويؤكد على استحالة منع الأيديولوجيا. ولأن الجماعة نشأت كفكرة أيديولوجية فإن بقاءها مضمون؛ وهذا ما يجر عليها متاعب كثيرة، لأنك إن لم تستطع التحكم في الفكرة فلن يمكنك التغلب عليها، ولا يزال يوسف ندا على قناعة راسخة بأنه وبنك التقوى والإخوان المسلمين ليسوا الهدف النهائي من الحملة التي شُنت عليهم لربطهم بالإرهاب وتمويل الإرهابيين، بل جزء من استهداف أي تقارب بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والديانات الأخرى. وأشار إلى أن الاتهامات سِيقت ضد الحركات الإسلامية الأخرى قائلًا: «إن الإخوان المسلمين هي كبرى الحركات الإسلامية ولا يمكن لفكرتها أن تموت، يمكن للأطفال أن يتيتموا وللنساء أن تترمل، لكن لا تستطيع أن تقتل الفكرة. إن الإرهابيين يلوون أعناق النصوص لخدمة أجندتهم، والإخوان المسلمون يُدينون الإرهابيين؛ فالدين الذي نؤمن به لا يُقر ما يفعلونه باسمه. نريد أن نجتثّ الكراهية من قمة الأولويات ونتحدث بسلام، فقليل هو التفكير العقلاني منذ اندلاع أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أميركا، وبالطبع فإن إزهاق أرواح الأمريكيين ليس أكثر بُغضًا من قتل أي نفس إنسانية، وهو عمل يتنافى مع كل ما أؤمن به، وكما يقول الله في كتابه العزيز: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾».

وأضاف ندا قائلًا: «لقد كان الأمريكيون دومًا يعتقدون بأنهم في مأمن من أي سوء وهم على تُرابهم الوطني قبل أن تقع هذه الهجمات الدموية على نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من سبتمبر لتبرهن لهم أن ثقتهم في هذا الأمن كانت مَبنيّة على

وهــم؛ لقد تحطم الحلم الأمريكي وقاموا بالرد بشــكل عشــوائي، ولــم يكن هناك مَن يوقفهــم. إن أوربــا كافحت الإرهاب لعقود- هــل تتذكر بادر ماينرهــوف، وبريجاتي روســي ومنظمة إيتا الانفصالية، وكاســا نوســترا، والجيش الجمهوري الأيرلندي؟- وكل ذلــك لم يُقــوّض حياة الأوربيين؛ لقد اتخذت الحكومــات هناك من الإجراءات الخاصــة المســتمرة مــا كفــل اســتيعاب الإرهــاب ونجحــت في ذلــك، لكــن عندما يحــدث شــيء في الولايات المتحدة، فإن العالم كله ظــل يدفع ثمن ذلك.. منذ وقتها وحتى الآن».

«لقد أشــعل الحادي عشــر من ســبتمبر فتيل حركــة معادية للإســلام، وقد تعرض اليهــود لظلــم من هذا النوع فــي الماضي وتغلبوا عليــه بمرور الوقت، وهــو ما يتكرر بشــكل بشــع مع المســلمين في القرن الحادي والعشــرين، إنها عجلة تدور ولا يعلم أي منــا مــا تخبئه الأيام لنا. لا بد من أن نحقق توازنًا في الحياة من أجل تحقيق تعايش أفضــل، فــلا بــد أن يكون ولائــي للبلد الذي أعيــش فيــه، وأن أحترم القانــون، وأقبل بقــرارات الأغلبيــة لأن هــذا واجبي. لكن لي حق كمســلم في أن يكون لي مســجدي وأن أتّبــع تعاليم ديني، وهو أمر غير ســهل، فسويســرا وهي أكثــر البلاد تحضرًا منعت بناء المآذن. (في عام ٢٠٠٩، وافق الشعب بأغلبية ٥ ,٥٧٪ في الاستفتاء على إدخال تعديل دستوري يمنع بناء المآذن)».

«لقــد اســتلهم الخليفــة الخامــس في الإســلام معاوية بن أبي ســفيان شــكل مآذن المســجد الأموي في دمشــق من بُرج كنيستها، ولأول مرة في التاريخ جعل دور عبادة المســلمين والمســيحيين في البلد المســلم متجاورة، وظلت هكذا على مدار التاريخ دون أن يعتــرض منــا أحد. كان هذا حتى أتت سويســرا المســيحية فــي القرن الحادي والعشرين لتمنع بناء المآذن. من المفيد أن نعرف أن أطول تمثال يجسد المسيح ليس في القدس أو برلين أو لندن أو باريس أو روما.. بل في إندونيســيا ذلك البلد المسلم، لم يقولوا يومًا: أزيلوا هذا التمثال من هنا فنحن لسنا مسيحيين. فهذا السلوك ليس من شِــيم مَــن يتهمونهم اليوم بالتطــرف والتعصب. ومع ذلك نجد هــذا المنع للمآذن في سويسرا وهو دليل التعصب والتطرف ورفض الآخر، ويزرع بذور الكراهية بينما نريد العمل على تحقيق السلام».

ويرى ندا أن الملايين الذين فقدوا حياتهم في الحروب التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر يُمثلون وصمة عار في جبين عالمنا المعاصر ويضيف: «إن الحياة الإنسانية لا تُقدر بثمن، وحين تُرتكب جرائم انتقامية فأنت بذلك تخلق فلسفة غير إنسانية. وعندما نَشر صَدّام أكاذيبه وقام بغزو الكويت بناء عليها، وُصف بالإجرام وبأنه الغازي الذي يجب أن يُوقف عند حده، بينما عندما كذب «جورج بوش» بشأن امتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل، لم يسأل أحد عن مدى حقه في نشر الموت وتدمير العراق. أو تفجير المساجد ولصق التهمة بالسُّنّة أو الشيعة وجعلهم يرتكبون المجازر بحق بعضهم البعض. لا أحد يتحدث عما فعلته أميركا حين قَتَلَت وأشعلت الحروب.. يتحدثون فقط عما ارتكبه صَدّام».

«لقد كان الإخوان المسلمون أول ضحايا صدام؛ فقبل أن يستهدف الشيعة استهدَفَنا، لقد ضرب صدام أحد القوارب الأمريكية في الخليج ورد الأمريكيون بغزو العراق. من المهم عندي أنني عادل وأُقَدّم الحقائق، لا يجب أن أدافع عن الخطأ، بل يجب أن أعترف به وأسعى لتصحيحه، إذا كان تاريخنا قد شهد فترات إدارة سيئة فيجب أن أتقبل اللوم». وابتسم ندا قبل أن يُكمل: «لسنا ملائكةً لا نعرف سوى الصواب».

أشار ندا أيضًا إلى خطة الإخوان المسلمين لإصلاح النظام الانتخابي ووضع الإخوان في برلمان مصر الديمقراطي وأضاف: «قالوا بأننا لن نُرشح أو ننتخب امرأة أو شخصًا مسيحيًّا لمنصب الرئاسة، ولم أوافق على ذلك؛ فكل إنسان حر في اختيار من يراه الأصلح ورَفْض غير ذلك؛ الديمقراطية تقتضي أن تُصوت لمن تريد، وهي نقطة استغلها أعداؤنا للهجوم علينا قائلين بأننا ضد النساء والمسيحيين، ولسنا ضدهم، فكل إنسان من حقه أن يخوض الانتخابات والأمر متروك للناخبين للتصويت مع أو ضد؛ فكلهم مواطنون، فيجب أن يكون هناك من يُمثل الأقلية ويدافع عن حقوقها، ويجب أن يشعروا بأن البرلمان قائم على أساس المواطنة».

«قالوا إن وجهة النظر الشرعية أن الولاية العظمى فقط هي التي لا يتولاها النساء أو المسيحيون، أما ما عدا ذلك من المناصب فيمكنهم أن يتولوها، وكان الخليفة من

الناحية التاريخية هو الذي يعين ولاة البلاد، وأرى أن هذا لا يمنع أن يكون هذا الوالي امـرأة أو مِـن أتباع ديانة أخرى، فهو ليس شـخصًا مرسـلًا من قِبل الله أو رسـوله، هو بحكم موقعه يعمل كمُحكّم، كقصة ابن الوالي (عمرو بن العاص) الذي ضرب صبيًّا مسـيحيًّا بالسـوط، فقال له عمر بن الخطاب (بعدما ردّ للمظلوم حقه): متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

«لا توجد طبقية دينية في الإسـلام، والخليفة لم يكن هو السلطة الأعلى، إنما كان مُحكِّمًـا بيـن الناس إذا اختلفوا ليرجّـح مَن منهم على صواب ومَـن على خطأ، وهذا لا يعنـي أنه نبي مرسـل مـن عند الله، أو يتمتع بنفـس مكانة البابا الذي له سـلطة عليا ورأيـه يجب أن يكـون مُطاعًا دائمًا أو يملـك مَنْح صك الغفران ويحدد مَن سـيدخل الجنـة، فليس لدينا في الإسـلام أيٌّ من هـذا، لا أعتقد أن هناك نصًّا يمنع المرأة أو مَن يتبـع دينًا آخر مـن تولّي المناصب العليا، ويجب إعادة النظر في الحديث الذي يُعتمد عليـه في هـذا الخيار وهو «لن يُفلح قوم ولّـوا أمرهم امرأة»؛ ولعله أُخِذ من سـياقه أو تَعرّض لحالة خاصة وتمسـكت به المجتمعات الذكورية السـابقة لتنفرد بالولاية؛ إنه أمـر جرّ علينا مشـاكل عديدة، وعلى كل الأحوال فإن الولايـة العظمى ليس لها مكان الآن لأنـه في الديمقراطية ليس هناك شـخص يمثل السـلطة العليا الـذي يأمر فيُطاع، بل على العكس، لقد تم تقسـيم السـلطة إلى ثلاث سلطات، هي التشريعية والتنفيذية والقضائية، وحتى في الأنظمة الرئاسية أو البرلمانية فهناك قيود قانونية لا تُمكّن رأسَ السـلطة أن يكـون مطلقًا، أو أن يُصنَّف بأنـه ولِيّ الأمور، فالضوابـط المفروضة عليه فـي الديمقراطيات تُلزمه بمرجعية الشـعب، ولا تُلزم الشـعب بمرجعيته.. بل تُمكّن الشعب من عزله، فكيف يُسمَّى موقعه بالولاية العظمى؟! إن من سُمّوا بالخلفاء (بعد الأربعة الراشـدين) سواء سَـمَّتهم شعوبهم أم فُرضت عليهم التسـمية بأنهم خلفاء أو سـلاطين أو أباطـرة أو حُكّامًا لا يمكن شـرعًا تبرير إعطائهم اللقب الشـرعي للولاية العظمى. مرة أخرى.. ما زلنا نكرر أن آراء الأئمة الأربعة الذين تُوفّي آخرهم في نهاية القـرن الثالث الهجري، وعاشـوا في عصـور الإمبراطوريات العربية التـي بُنيت على المُلك العضوض المتوارث، وعاملوا المسـلمين، ومنهم هؤلاء الأئمة، بكل ما ينفي

المساواة بين الحاكم والرعية كما أمر الإسلام وكما فرضته الديمقراطية، لا بد من مراجعتها وتنقيتها مما لا يلائم الدين في عصورنا، ومَن سيأتون بعدنا أيضًا عليهم أن يفعلوا ذلك.. وقد تطور البشر وابتدعوا نُظمًا تُلغي الموقع الذي يُصنَّف بالولاية؛ سواء الصغرى أم الكبرى، فلماذا أقحموا المسميات المنقرضة وأحيَوْها ليصفوا بها ما لا تنطبق عليه، ويقرروا قرارًا يقذف بهم بعيدًا عن عصر العقل، ويعيدهم إلى عصر النَّقْل؟!».

«كان النبي صلى الله عليه وسلم مؤيَّدًا من قِبل الملاك جبريل عليه السلام، وحتى الخلفاء الأربعة الذين أَتَوْا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رَشَّح كلٌّ منهم مَن سيأتي بعده ممن كانوا معه، وبعد ذلك أصبح الحُكم ينتقل إما عن طريق الوراثة وإما عن طريق الاستيلاء، وهو أمر سالت في سبيله دماء كثيرة. لقد تمكنوا من بناء إمبراطوريات كبيرة، لكنهم كانوا يعيشون حياة مُرفَّهة.. وشعوبُهم تعيش في فقر، ولا يوجد سبيل لوقف هذا الظلم سوى كسر هذه القوة وتقسيمها إلى سلطات أقل، وتُعطَى الشعوب حق نزع السلطة منهم وتغييرهم، وهذه نظرية تنسف فكرة الولاية العظمى - وحتى فكرة الولاية نفسها- وتفتح الباب أمام تفسيرات متعددة، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسئول عن رعيته»».

«إنني أتكلم بحرية وأجد حتى مشكلة مع مصطلح العلمانية الذي يعارضه الإخوان وكل الفصائل المرتبطة بالدين؛ فأنا لا أعارض العلمانية، ولكنني ضد جزء منها؛ إن «باري كوسمين»؛ الأستاذ بمعهد دراسة العلمانية في المجتمع والثقافة، صنف العلمانية الحديثة إلى نوعين: العلمانية الناعمة، والعلمانية الصلبة؛ فطبقًا لـ«كوسمين» فإن العلمانيين المُتصلّبين يرون أن الأفكار الدينية غير مشروعة من الناحية المعرفية، ولا يدعمها العقل أو التجربة، بينما ترى العلمانية الناعمة أن هناك استحالة في الوصول إلى الحقيقة المطلقة؛ ولهذا ينبغي الأخذ بمبدأَيِ الشك والتسامح، كقيم أساسية وحاكمة، حين نتناقش حول العلم والدين».

«أوافق على هذا الطرح وسيرفض كل أتباع الديانات طرح العلمانية الصلبة لأنها تُنْكر الروح وتخاطب العقل فقط، فالعلمانية الناعمة أكثر تسامحًا، وأنت لا تستطيع

أن ترفض روح الإنسان وأخلاقياته، حتى ولو علق بها بعض الشك أو القصور في الإيمان؛ وهذا الطرح لا يتعارض مع الإسلام. ويرى ابن رشد أنه يجب الفصل بين الدين والفلسفة، ويقول بأن أصحاب الإيمان سعداء ومقتنعون اقتناعًا كاملًا بدينهم كحقيقة مطلقة، حتى ولو لم يصلوا بعقولهم إلى كنه الإله. ولكن وجود أناس لا يؤمنون بالله، لا يعني أن الله غير موجود. أتباع الديانات يؤمنون به والعلمانيون يؤكدون بأنهم لم يجدوا أي دليل على وجوده؛ ولهذا فإنهم لا يستطيعون القبول به».

لقد عرَّف الإنجليزي «جورج هوليوك» المبادئ الأساسية للعلمانية عام ١٨٩٦ بقوله: «إنها تحسين هذه الحياة باستخدام الوسائل المادية، والعلم هو قدر الإنسان، فهو خير يسعى للخير، حتى وإن كان هناك خير آخر أم لا؛ فالخير في الحياة الحالية هو خير.. والخير في أن نطلب هذا الخير».

«ولا يعارض الإخوان المسلمون هذا المفهوم الناقص، لكنهم يضيفون إليه ويكملونه لأنه ناقص: «إن تحسين الحياة يكون باستخدام الوسائل المادية والأخلاقية؛ فالفكر الديني يجعل استكشاف قوة العلم واستخدامها لإعمار الأرض أمرًا ضروريًّا؛ فالخير أن تسعى للخير. وسواء أكان هناك خير آخر أم لا، فنحن أيضًا نؤمن بأن الخير الموجود في الحياة الدنيا هو خير، وأننا سوف نكافَأ على فعله لاحقًا بخيرٍ مضافٍ، وقد يكون أضعافًا مضاعفة، وهو أمر طيب أن تسعى لنَيْل الخيرَيْن».

«إننا نقبل نظريتهم وأكثر منها، والعلمانيون يرفضون مساهماتنا التي أراها إضافة مميزة لِما يعتقدون».

«ولا يوجد سبب يدعو للنزاع عندما تستطيع أن تتعاون على أرضية مشتركة، ولا يجب أن نفكر أو نتصرف كهؤلاء السلفيين الذين يُطبقون الأمور العقائدية بشكل صلب حتى حين يتعلق الأمر بشيء من صُنع الإنسان ولم يرد ذكره في القرآن الكريم أو الحديث. لا بديل عن العيش والتفاهم المشترك في العالم المعاصر».

«عندما شعر مبارك بأن قوته مهددة، قام بتشجيع السلفية الصارمة للانتشار في ربوع مصر؛ أراد أن يزرع مشاكل بين السلفيين والإخوان المسلمين. وكانت سياسة «فَرِّق تَسُد» والتشجيع على الترويج للفكر المتشدد الذي تنفر منه أغلبية الناس».

«وعندما انتقدتُهم في صحيفة المصري اليوم، بدلًا من أن يجيبوا عن أسئلتي ويدخلوا في نقاش قام أحد قيادات السلفية بالهجوم عليَّ شخصيًّا قائلًا: يوسف ندا، هداك الله أو قصم ظهرك. بهذه العبارات تفوّه القيادي الداعية».

«كنت أناقشهم في فكرهم الذي يُلزم المرأة بأن ترتدي النقاب وتبدو وكأنها شبح يتحرك في الطريق وتُعَامل كأنها مخلوق ناقص يُفرض عليه ولاية الرجال الناقصين وكأنها ولاية عظمى. وقلت أيضًا: إن ثقافة الإخوان أن نساءهم يرتدين الحجاب، وإن نقاب المرأة ليس من ثقافة الإخوان، وقد ظهر أخيرا قلةٌ نادرة من عائلات بعض الإخوان اللاتي يتنقبن وهن يُمثّلن شظايا الغزو الفكري السلفي في صفوف الإخوان، وإنها موجة ضعيفة عابرة سوف تنقرض مهما كانت صفة أزواجهم في صفوف الجماعة، ومن أراد التوسع في هذا الموضوع عليه بالأجزاء الستة التي متّنها العالم الفاضل عبد الحليم أبو شقة رحمه الله وسماها «تحرير المرأة في عصر الرسالة»».

«وتحدثت أيضًا عن مسألة تكفيرهم للشيعة، وشرحت لهم أن الشيعة مثل السُّنّة مع بعض الاختلافات في ممارسة العبادات. وعن هجومهم على اليهودية والنصرانية، وقلت: إن علينا أن نحترمهم لأن القرآن أمرنا بقبول هذه الديانات، فإذا ارتكب شخص مسيحي أو يهودي أخطاءً، فلا يعني هذا أن نعتبر هذا الدين عدوًّا لنا؛ فالدين شيء وأتباعه شيء آخر، فإذا كان هناك بعض المسلمين المجانين يلوون أعناق نصوص الإسلام على غير صواب ويخطئون، فهذا لا يعني أن الإسلام على خطأ؛ وهذا ما ينطبق على المسيحيين واليهود في تعاملنا مع دينهم أو مع أديان غيرهم». يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

والمعنى نفسه يتكرر في الآية ٦٩ من سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

«إن غيـاب النقـد الذاتي هو من أوجُه القصور فـي ثقافتنا، بالإضافة إلى عدم قبول التفكير المختلف واعتباره شَقًّا للصف. أنا أعتقد أن النقد مهم جدًّا للجماعة والمجتمع لتحقيق الإبداع وتجنب الأخطاء ولتنمية الأفكار والمعايير الجديدة. ويرْأَس الإخوانَ المسـلمين المرشـد العام المُنْتَخب من أفضل المرشـحين لهذا المنصب، فإن أخطأ، وهو بشـر يُخطئ، فـلا يجب أن تتحمل الجماعـة كلها هذا الخطـأ؛ ولذلك ينبغي أن يُنبَّـه دومًـا لأخطائه كي يسـعى لتصحيحها، وهذا أمر لا يَعيبه، بل العيب أن يُسـمح له بالمُضيّ قُدمًا مع أخطائه».

«عندمـا انتخـب الصحابـةُ أبا بكـر الصديق؛ أول خليفة للرسـول صلـى الله عليه وسـلم، قال: «إني وُلّيت عليكم ولسـت بخيركم، فإن أحسـنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّمونـي». والذيـن يدافعون عن وضع قيود على النقـد يقولون إنه لا يجب أن يكون علانية لأن في ذلك تقويضًا للوحدة والسمعة. وأنا أقول إنه إن كان هناك شيء يستحق نقـده لا نـراه نحن فقـط ولكن يراه أيضًا غيرُنـا فهل الأفضل أن يرى غيرُنـا أننا انتقدنا الخطأ وصححناه أم الأفضل أن يُنظر إلينا على أننا نمالئ الخطأ ونخفيه؟ النقد سوف يُوسّع من دائرة الحوار لتقديم أفضل الحلول النابعة من أكبر عدد من العقول، فالقائد شخصية عامة وعليه أن يستمع للناس، وعلى الجميع أن يسمع بعضهم بعضًا».

«ويجب السـماح لأصحاب الخبرات أن ينقلوا معارفهم، وفي نفس الوقت يجب أن يتمكن الشـباب من طرح أفكارهم وفهمهم وما تعلمـوه، عليهم أن يُقدّموا آراءهم في إطار من الوحدة والاحترام، فإذا قَبِل الجيل الجديد الديمقراطية والتزاماته الدينية فعليـه أن يعطي الكلمة الأخيرة لمن انتخبوهم صُنّاعًا للقرار، وبعد اتخاذ القرار فعلى الجميع أن يقبل به وينفذه حتى ولو خالف رأيه؛ فهو عضو في جماعة وعليه أن يطبق قراراتها، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن «يد الله مع الجماعة»، و«إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»».

«ولا يوجـد فـي التعاليـم الإسـلامية حَجْـر على عقل المسـلم يوقفه عـن الإبداع فـي تفسـير الديـن وهو ما ينطبق علـى المعرفة التي تُكتسـب بمضي الوقـت، وعندما كان الخليفـة عمـر بن الخطـاب يخطب في المسـجد قاطعته امرأة لتخبـره أنه أخطأ،

وشـرحت وجهـة نظرها، فقال عمر للحضور: «امرأة أصابـت وأخطأ عمر». ولم يقل لها ما سـمعتُه من أحد رجال الدين بحدّة وهو يناقش عالمًا آخر مُسـلمًا ملتزمًا وأيضًا فَـذًّا فـي علم الفضاء وقـال له: ليس من حقـك أن تتحدث في الديـن لأنك لن تفهمه قبـل أن تـدرس علومًا كثيرة؛ النحو والصرف، وعلـوم الحديث، والأصول والفروع، والفقه المقارن وأسـباب التنزيل، والناسـخ والمنسـوخ، وعلوم فقهية كثيرة، واذهب واقـرأ سـنن ابن داود، وبداية المجتهـد ونيل الأوطار، واللؤلـؤ والمرجان، والمغني، واختلاف الفقهاء، والبخاري ومسـلم... وظَلَّ العالِمُ الديني يسـتعرض ما درس وقرأ باستعلاء ولم يفعل ما فعل عمر بن الخطاب على الملأ في رده المتواضع على المرأة في المسجد. فرد عليه عالم الفضاء وقال له: لقد عقّدتم دين الله المُيسّر، لم أحْتَج في عبادتي أكثر من كتاب بسيط كتبه عالم مثلك اسـمه سيد سابق رحمه الله بتكليف من الإمام حسـن البنا؛ والكتاب هو فقه السُّـنّة، أما إيماني بالله فزادني به علم الفضاء أكثر من كل ما ذكرته من الكتب، وهناك مَن قرأها مثلك ثم اعترض على حقيقة أن الأرض كرويـة وتـدور - واعتمد على تفسـيره للآيـة ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾- وقال: لو كانت كروية وتدور فإن الواقف إذا دارت به وجد رأسـه أسـفل وقدمه أعلى وانقلب، يا شـيخي نحن البشـر نحتاج للعلم المفتـوح الذي وَهَبَنا الله العقـول لتتزود به ومنه، وسخّره لنا في كل مناحي الحياة مطعمًا ومغلفًا بالإيمان الذي يزيده العلم ولا ينقصه حتـى ولـو لم نقرأ الكتب والعلوم التي ذكرتهـا الآن والتي تفيد مَن كان وضعه مثلك، عملـه وتكليفـه أن يتفقه لينـذر قومه إذا رجعوا إليه بتواضع وليس باسـتعلاء؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾».

«ليس فقط مثال قول الخليفة عمر بن الخطاب، بل الرسـول عليه الصلاة والسلام عندما أَمَرَ قُوَّاته في ساحة المعركة بإعادة الانتشار سأله أحد جنوده: هذا المنزل الذي نزلتـه منـزل أنزلكـه الله؟ فأجابه: بـل منزل نزلته للحـرب والمكيدة. فقـال الجُندي: يـا رسـول اللـه إن هذا ليس بمنزل، ولكن سِـرْ بنا حتى ننزل على أدنـى ماء يلي القوم ونغوِّر ما وراءه من القُلُب (الآبار)، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه فنشـرب ولا يشربون.

فرد الرسـول صلى الله عليه وسـلم: لقد أشـرتَ بالرأي، وفعل ما أشـار به الجندي؛ فحتى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يُؤلَّه».

وفـي الحقيقة فإن يوسـف نـدا على دراية بالأضواء المسـلطة بشـكل متزايد على الإخوان المسـلمين مع التغيرات السياسية الجارية في العالم الإسلامي وبالتفسيرات المختلفـة للإسـلام نفسـه. ويقـول: «أعـرف أنـك تسـتغرب لمـاذا لـم تجتمـع كلمة المسـلمين بعد أكثر من ألف عام ولا يسـتطيعون الاتفاق على كل شيء؛ إنهم يتفقون في بعض الأمر وأعتقد أنهم في النهاية بشر».

«لقـد كان لـدى المسـلمين أربعة أئمـة مهمين خـلال القرون الثلاثـة الأولى التي أعقبت ظهور الإسـلام، وقدموا تفسـيرًا وشـروحًا لتعاليم القرآن الكريم والسُّنّة، وقد اختلفـوا في بعـض القضايا؛ وهو مـا أدى إلى انقسـامات وظهور المذاهـب، لقد قام هـؤلاء الأربعـة بعمل هام وصعب للغاية، وكان عليهم أن يرتحلوا بين بلدان الشـرق الأوسـط للاسـتيثاق من روايات وردتهم عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، كان عمـلًا شـاقًّا اقتضى قطع مسـافات شاسـعة وجهد شـهور وسـنين، واليـوم يمكننا أن نحصـل علـى المعلومة في سـاعة واحدة، أو حتـى ثانية من الوقت. إننـا نقدر الجهد الذي بذلوه، ولكن هذا لا يعني أن نتجمد عند حدود ما قدموه لنا».

« وهنـاك بعـض الأمـور الهامة لأنها تشـكل حواجز منيعـة بين الشـرق والغرب؛ مـن أكثرهـا إثـارة للجدل مسـألة العقوبات علـى الجرائم وتفسـير القانـون الجنائي، والسـؤال الحيوي الثاني هو موقف الإسلام من المرأة، وحقوق النساء. فالقرآن يقول إن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ وهي أفضليات تتعلق بنصيب الرجل ضعف حقها في الميراث وبالقدرة العضلية والبنية الجسـدية للرجل، وبالتركيب البيولوجي للمرأة في الحيض والحمل والولادة، لقد وهب الله العقل والروح لكل من الرجل والمرأة».

«وفـي القاموس العربي نجد معاني متعـددة لكلمة القوامة؛ ومنها الدعم والتقوية، والرجال اختاروا التعريف المناسـب لجنسهم وجعلوه سلاحًا لإنكار مساواة النساء،

وأغمضوا العين عن صلة ذلك بالتعبير القرآني ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، درجة الضعف في الميراث، واعتبَروا أن معنى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ تعني السيادة، رغم الوضوح العام أن من أسباب إعطائه ضِعفها في الميراث له مقابلة في واجب الإنفاق الذي يقع على الرجل وحده».

«والقرآن الذي نزل باللغة العربية يُعد مرجعًا لهذه اللغة، ولا يستطيع الرجال الإفلات من التزاماتهم الواردة في الصياغة اللغوية التي وردت فيها مسألة القوامة في القرآن، والتي تشير بأن عليهم واجبات ثقيلة تزداد أعباؤها بقدر ما يزداد تمسكهم بتعبير القوامة، ولهم عليهن درجة في الميراث لتمكينهم بأعباء الإنفاق المفروض عليهم، وليست درجة في أمور غير محددة؛ الأمر الوحيد الذي حدد أن له درجة أكثر في الحقوق هو الميراث، أما التعبيرات المكررة من نقص العقل والدين فيجب المراجعة من الصحة والتوقيت والأسباب والزمن... وخلافه، ولا يجب التعميم والتضخيم والانزلاق في النهاية إلى العنصرية والظلم والتحقير والاستعباد، أما موضوع الشهادة فهو من الواجبات وليس من الحقوق لأن وزر الخطأ فيه كبير، وتدور حوله نظريات كثيرة عن العاطفة وغيرها ولا يعني هذا: «التفوق»؛ لأن الله لم يَقُل إن الرجال في مرتبة أعلى من النساء، لكن على الرجال مسئولية توفير الدعم والرعاية للنساء والعائلة وتحمُّل كافة النفقات، فإذا كانت المرأة تملك عقارًا أو تربح دخلًا من عمل لها فهذا مالها الخاص وليست ملزمة بالإنفاق منه على الأسرة، وإذا أعطى الرجل شيئًا للمرأة فلا يحق له أن يسترجعه مرة أخرى، فلا أستطيع عند الغضب منها أو الحاجة الشديدة للمال أن أطلب من زوجتي أن تُعيد إليَّ بيتًا كنت قد وهبته لها».

«وعلى الرجل أن يحمي الزوجة من أي شخص يريد أن يؤذيها، وليست عليها مسئولية حمايته، وإن لم تتحقق هذه الأمور فهذا يعني أنه لم يقم بواجبه، والقوامة غير متحققة في أيامنا هذه، وهناك آيات كثيرة في القرآن تتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة في كل الأمور، واليوم تخرج النساء للعمل؛ وبالتالي فإن فكرة التفوق في الظروف المعاصرة باتت مُعرَّضة للتمحيص، التفوق مسألة تتعلق بالعصرنة.. وليس

أمـرًا دينيًّـا، ومع ذلك فإنني أرى أن حقوق المرأة التي تنادي بها اليوم منصوص عليها كلها في الإسلام.. بل وأكثر».

«ويخطـئ الذيـن يُفسـرون ديننـا من أجـل وقف العصرنة فحسـب، ليسـت هناك مشـكلة مع العقول القديمة لكن المشـكلة مع طريقة التفكيـر القديمة، لا بد من ضخ أفكار جديدة، فإن لم نُضِف شيئًا جديدًا للحياة فلسنا أحياء، وإن كُنّا أحياء فنحن أعباء على الحياة؛ لأن هذا واجبُ كلِّ إنسان».

«وقد وصَّى الرسـول عليه الصلاة والسلام على الجيران حتى سابع جار.. فهؤلاء كالعائلة، واليوم علينا مسـئولية تجاه جيران أكثر، ويقودنا الحس السـليم إلى التكيف مـع كل جوانـب الثقافة، وخير مثـال على هذا هو الانتفاضات التـي اندلعت في مصر عام ٢٠١١؛ فقد خرج المصريون بمسـلميهم ومسـيحييهم إلى الشـوارع وفي ميدان التحريـر للمطالبـة بحريتهـم، رغـم أن البابا أيـد مبارك، ولكـن الجماهير المسـيحية انتفضـت لحُريتها ومصريتها، مثلها مثل الجماهير المسـلمة؛ فهم شـركاء في الوطن. كانوا يعارضون حسـني مبارك وحكمه العسـكري بسـبب الفسـاد، وهذا أمر جليّ في تفسيرنا لديننا، فينبغي أن لا نسمح للفاسدين بحُكْمِنا وتدمير الاقتصاد».

«وتقـول التأويلات السـعودية ويتبعها السـلفية، بنـاء على العقـول القديمة والتي حاولوا نشـرها أثناء الاحتجاجات ضد مبارك في الشـوارع: إن الرسـول عليه السلام قـال بأن طاعة ولي الأمر واجبة ولو جلـدك أو صلبك أو أخذ مالك، واليوم لا يتخيل أحـد بـأن الديـن يأمـر بقبول مثل هـذا القـول؛ وإلا فإن أي عاقل سـيترك هـذا الدين ويبحث عن دين آخر، وأي صاحب عقل جديد سيفعل نفس الشيء، وقد ثبت أن هذا الحديـث غير موصول وسلسـلته مقطوعة، والواقع أنه أيضًا يتناقـض مع آية يأمر الله المسلمين فيها بعدم طاعة الذين يفسدون في الأرض. إن مَن جَلدك أو صَلبك أو أخذ مالك هو مفسـد وليس بمصلح، والله يأمرك بعدم طاعته، فهل يمكن أن يأمر الرسول عليه السلام بما يخالف ما أمر الله به؟ حاشا لرسول الله الذي لا ينطق عن الهوى».

«وقـد ذهـب بعـض العلماء إلى تبرير التفسـيرات السـعودية، ولكنهـا لا تخدم إلا الطغاة والمسـتبدين. ويـرى الإخوان المسـلمون أنه من الخطأ طاعـة الطغاة، وهناك

مجموعات أخرى مستمرة في فهم المسألة بذات العقول القديمة لأنهم مدعومون من قِبَل الطغاة من أجل نشر هذا المبدأ: لا تعصوهم؛ فعصيانهم عصيان لله».

«يجب أن نذكّر بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي أن قولهم المتعارض مع القرآن غير منطقي، وحتى أبو حنيفة لم يَسْلم من الهجوم عليه عندما أصدر فتواه بالخروج على الحاكم الفاسد ولو بالسلاح».

«وهناك تعبير شهير بين المسلمين؛ وهو جزء من شعارات الإخوان القديمة، وهو أن الموت في سبيل الله أسمى أمانينا. ونحن نقول: ليس فقط الموت في سبيل الله، بل الحياة في سبيل الله أيضًا، وقد وضّح هذا المعنى الشيخ الغزالي رحمه الله. وهؤلاء الشباب الذين قُتلوا في ميدان التحرير وهم يواجهون حكم مبارك ماتوا في سبيل الله لأنهم لم يَقْبَلوا وحشية الدكتاتور؛ لقد دافعوا عن حقوقهم، ونحن نقبل ذلك، وتستوي لديهم الحياة والموت في سبيل الله».

الفصل الثاني عشر

حيرة الحكمة

«لا يمكن أن يوجد شـيء اسمه حكمة بدون حرية الرأي، ولا يوجد شيء يسمى الحرية العامة بدون حرية التعبير».

بنيامين فرانكلين، ۱۷۲۲

النقـاش حـول مقاصد الإسـلام وأهدافه يصـل إلى أسـخن درجاته عندمـا يتركز حول أحكام الشـريعة، فعلى مدى القرون فسّـرها العلمـاء والفقهاء وأعملوا عقولهم فيهـا، لكن ما يُقلق أقسـامًا كبيرة مـن المجتمع هو خوفها من أن الإسـلاميين يريدون أن يفرضـوا أنواعًـا مـن الأحـكام اسـتنبطها الفقهـاء منذ أكثـر من ألف عـام على كل إنسـان فـي كل مـكان وزمان أن يلتزم بها، ومع ذلك فإن يوسـف ندا يشـير إلى أنه في العالم الإسـلامي كسـائر مناطق الدنيا، يمكن للقوانين التي أنشـأها الإنسـان أو التي أوجدهـا الدين أن تسـتوعب أي حالـة من الحالات؛ فهناك من السـعة والمرونة ما لا يعلمه الكثيرون.

«وهناك نقطة يتحدث عنها الكل: الإسـلام ضد الديمقراطية. في رأيي أن هذا غير صحيح بالمرة، فليسـت هنـاك ديمقراطية واحدة، بل أنواع مختلفـة من الديمقراطية؛ فالديمقراطية في سويسـرا ليسـت كتلك التي فـي إنجلترا؛ فالديمقراطية السويسـرية تقول إن الكلمة الأخيرة هي للشـعب عن طريق الاسـتفتاء، وهـي كذلك في إنجلترا،

ولكـن عـن طريـق البرلمـان. فالديمقراطيات متعـددة ومتنوعـة، وثمة نقـاطُ ضعف تعتريهـا لكنهـا تحـاول تصحيحهـا. لمـاذا لا يُسـمح للمسـلمين أن يهيئوا لأنفسـهم طريقتهـم الديمقراطية؟ ولمـاذا ينبغي عليهم أن يبـدءوا بديمقراطيات الآخرين، وألا يصنعوا ديمقراطيتهم الخاصة بهم؟».

«إن الهجوم على الشـريعة الإسـلامية يتعاظم مع مرور الوقت، ليسـت المسألة أن المسـلمين يريـدون تغييرهـا، بل إن هنـاك آخرين يريدونهـم أن يقولوا إنهـا غير قابلة للتغييـر. إن الخوف من اسـتغلال الشـريعة مقدم علـى اعتبارها نظامًـا يمكنه التكيف مع القرن الحادي والعشـرين، والهجوم على الشـريعة يأتي مـن أربع جبهات: النظام الاقتصادي، وحقوق المرأة، والمواريث والحدود، وأسباب مشروعية الحرب».

«هـذه الأمور تُثير أسـئلة وأزمات؛ ففـي مجال الأعمال تُحَرِّم الشـريعة الربا: على حيـن أن النظام المصرفـي العالمي الراهن يقوم على الربا، وحتـى في الديمقراطية لا تجد نظامًا واحدًا للمواريث، فَلِمَ لا نقبل نظام المواريث الإسلامي؟».

«ونعـود إلى المبدأ القائل بمسـئولية الإنسـان، فتفوق الرجل واجـب أكثر مما هو حق، وعندما تحلل هذا التفوق فسـوف تجده خـواءً، إنه مجرد تعبير اصطلاحي دون قـوة حقيقيـة، وإذا نظرنا من وجهـة النظر المادية فإن الرجل يضحـي من أجل المرأة، والعكـس ليـس صحيحًـا، وحتـى التعبيـر الاصطلاحي الـذي يحمل أكثـر من معنى اختاروا ما يناسـب تقاليدهم وفكرهم ومصالحهم من المعاني وأوقفوه هناك، وادّعوا أنه لا يحتمل إلا ما يقولون، واتهموا مَن ينادي بالمعاني الأخرى بالمروق».

«والتفسـير الجديـد للعقوبـات في الإسـلام تدعمه نصـوص من القـرآن الكريم، وسـلوك النبـي صلـى الله عليـه وسـلم، والخلفـاء؛ فالعقوبات في الإسـلام ليسـت للعقاب، وإنما هي لمنع الفرد من الإضرار بالمجتمع. ونحن باعتبارنا مسـلمين علينا أن نتبع كلام الله وكلام الرسول، وأي شيء عدا ذلك فهو من صُنع البشر».

«نحن نؤمن بأن الله سـبحانه وتعالى أرسـل إلى النبي صلى الله عليه وسـلم وحيه ليعلمه الأحكام التي يريد منا اتباعها، فاكتسـب النبي شرعيته من الله، لكن من جاءوا

بعـده وانشـغلوا بحفظ هـذا أو ذاك، كل ما جاء بعد القرآن والسُّـنّة مـن أقوال هي من اجتهاد البشـر، ولنا الحق في مناقشـتها، ولنا الحق في تغييرهـا، وإذا كانت النصوص تحتاج إلى تأويل، فنحن أحرار في تأويلها كما فعل مَن سـبقونا، بعد أن نتسلح بالعلم والأدوات التي تمكّننا من ذلك؛ فهم لم يحتكروا ذلك خالصًا لهم».

«وقـد نجـد في الإسـلام طُرقًا لتغييـر العقوبـة التقليديـة إلى طريق أخـرى يمكن أن تصـل إلـى الهدف لكـن بطريقة مختلفة، قد تكون قاسـية، لكن خاليـة من الانتقاد والقناعـات المتعـارف عليهـا، ويتوقف الأمر علـى عقول الناس للوصول إلى شـيء جديـد، دون اتبـاع الماضي. ينبغي تحقيق مقاصد الشـريعة ولكن بوسـائل مختلفة لا تتعارض معها».

«نحـن نقبل أننـا عندما نَذكـر العقوبة، فهـذا يعني القانـون، الهيـكل القانوني، إن مـا أعتقده أنا والإخوان المسـلمون هـو أن القانون يجب أن يُوقف مـا نعتبره جرائم، قـد تقول أنت: هذه ليسـت جريمة. هذا شـأنك، ولكن لنا طريقـة تفكيرنا المبنية على التعاليم الإلهية. وهذه هي طريقة تفكيرنا».

«فالديمقراطية ما زالت تنمو، إنها لم تتوقف، أنا لا أقول ديمقراطية إسلامية، وإنما أقول ديمقراطية وحسـب، وهذا ما نطالب به في مصر - نحن نقبل الديمقراطية، لكن بشـرط ألا تتعارض مع مبادئ الإسـلام؛ لأن الأغلبية العظمى من السـكان مسلمون، فإذا أقمت نوعًا من الديمقراطية يناقض عقيدتهم، فلن يتقبلوها».

«ونحـن لا نبتعـد عن ذلك إذا قلنا ما لا يتعارض مع مبادئ الإسـلام، عندئذ يجب أن تكون لديك الأدوات السليمة لتأويل هذا الإسلام الذي لا تريد التناقض معه».

«يجـب ألا يحتكـر أحـدٌ التأويلَ؛ هـذه نقطة هامـة للغاية، إذا قلنا عن شـيء إنه لا يتعـارض مع مبادئ الإسـلام، وليكن الديمقراطية على سـبيل المثـال، وقَبِلَت بذلك الأغلبيـة، فهذا الشـيء يصبح القانونَ، سـيقول البرلمان الجديد: هـذا الأمر يتعارض مـع ذلـك. هم أحرار في أن يقولوا هذا، وسـوف يقول شـخص آخـر: إن كلاهما غيرُ

صحيح، وليس يتعارض. وعلى كلٍّ منهم أن يقدم الدليل ويقنع الأغلبية، هذه هي الديمقراطية، ولا يجب أن يحتكر أحدٌ الحقيقةَ بمفرده».

«وهنا ينبغي أن يكون لديك نظام خاص للحكم على التأويل وشرحه لأولئك الذين لا يمتلكون الأدوات اللازمة للتبين من أنه موافِق أو مخالف للإسلام، فرجل الشارع لا يستطيع أن يفعل ذلك، والمسلمون لا يعيشون بمفردهم في هذا العالم، وإنما يشاركون فيه مجتمعات وديانات أخرى، فكيف يَسْلُكون إزاءهم؟ وكيف سيعاملونهم ويَقْبَلون معاملتهم إياهم؟».

«لم يحافظ الإغريق أو الرومان على التزاماتهم مع الشعوب الأخرى؛ فالبابا نيكولاس الرابع أعلن أن الاتفاقات مع غير المسيحيين لاغيةً ولا قيمة لها، وأرسل لملك «هنجاريا» لينقض معاهدته مع السلطان مراد الثاني، وقال له: العهود التي تُعطَى للكفار لا قيمة لها؛ وقد رَخّص لأتباعه بنقض اتفاقهم مع الأتراك (السلطان مراد) لأنهم يَتّبعون دينًا مختلفًا، أما الإسلام فلا يرضَى بهذا؛ في الإسلام إذا لجأ عدوك إليك طالبًا حمايتك، وكان له عدو فطلب منك تسليمه إليه فيجب عليك ألا تسلمه إليه؛ يجب أن تحميه من عدوه حتى وإن كان هو أيضًا عدوك أو على غير دينك».

ويشرح يوسف ندا هذه النقطة قائلًا: «خُذْ مثالًا؛ حالة أسامة بن لادن عندما اتخذ السودان مقرًّا له، ورفض السودانيون مطالب الأمريكيين بتسليمهم إياه، لم يكن السودانيون يحتكمون هنا إلى الشريعة في الحكم، لكنهم في هذه المسألة اعتمدوا عليها لتبرير موقفهم؛ فأسامة كان هناك عندما طلبه الأمريكيون، وعند ذلك أتاح له السودانيون إمكانية الهرب، اعتمد السودانيون على مبدأ في الإسلام يوجب عليهم عدم تسليم إنسان لعدوه إذا جاءهم هذا الإنسان طالبًا منهم الحماية».

«إن القاعدة أساءوا فَهم الإسلام وتحولوا إلى قتلة، وقد خرجت تصرفاتهم عن الدين عندما أصبح كثير من ضحاياهم من المسلمين، بل ضد الإنسانية جمعاء ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. هذا ما أعتقده؛ والسبب هو أن أكثر قتلاهم هم مسلمون، لكن السودانيين استخدموا نقطة

جيدة من مبادئ ديننا، وهذه معضلة حساسة لأولئك الذين لا يجب أن يتجادلوا معها بضميرهم ودينهم، ولا يرون هذا الظرف إلا أبيض أو أسود، وأنا أفهم ذلك، لكننا يجب أن نتحلى بالصبر واللباقة كي نحل المعضلة برمتها، ونصل إلى التوازن بين الفكر المتشدد والفكر الأكثر تكيفًا مع عالم اليوم، الذي نعيش فيه بتجديد الفقه مع الالتزام بالشرع».

«نحن نعيش في عالم من الفوضى الأخلاقية، والأسئلة والتحديات أمامنا هائلة، ولكن يجب ألا نتجاهلها، يجب أن نتغير مثلما يتغير العالم ويدور، ويجب ألا نتمادى ونتوسع في توسيع ترجمات الثوابت بحجة الورع فنُضَيّق على المؤمنين ما وسّعه الله، أو ما قال عنه إنه يسوءكم».

«بدأت جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨؛ بنواة صغيرة من سبعة أفراد في مدينة الإسماعيلية الواقعة على قناة السويس، والتي كان يتولى أمرها الفرنسيون، ثم حل محلهم البريطانيون عندما احتلت بريطانيا مصرَ، وفي تلك الفترة كافحت الجماعة من أجل البقاء، ثم تعرضت في فترات لاحقة للحظر والاضطهاد».

ويرى يوسف ندا أنها «تجمع إنساني يسري عليه من مراحل النمو والتطور ما يسري على الإنسان، كانت تمر بفترة أشبه بما يمر به الإنسان من مراهقة، لم يكتمل نضوجها في أول نشأتها، ولا يمكن أن تُحاسِب البالغ على تاريخه وتصرفاته عندما كان مراهقًا، وسُميت هذه المرحلة من عمر الإنسان بالمراهقة لأن تصرفاته وتفكيره فيها يختلف عنها في مرحلة نضجه، والتجمعات الإنسانية لا تختلف عن الإنسان؛ وهو المكون الأساسي فيها». ويُكمل يوسف ندا قائلًا: «وكل جيل يمر كانت تنمو عملية إنضاجه في كل اتجاه؛ كان مؤسسها الأستاذ حسن البنا مُدرسًا، وكان أعضاؤها الأوائل من العمال والعاملين بشركة قناة السويس، ثم التحق بهم في السنوات الأولى عدد كبير من الطلاب ثم من طلاب الجامعة، ومع تقدم العمر زاد نضج حسن البنا وزاد علمه وخبرته، ومع التوسع في عضوية الجماعة أصبح بها العديد من أساتذة الجامعات. الأجيال الجديدة تختلف. تذكّر المعاملة القاسية لسنوات طويلة عندما

كان على الإخوان أن يدافعوا عن أنفسهم؛ كان عليهم دائمًا أن يفكروا كيف يُدافعون عن أنفسهم».

«أنا أحس بمشاعر أولئك الشباب الذين أوذوا أو قتلوا وهم يحاولون الفوز بحريتهم في مصر أكثر من أي مكان آخر، وانتابني شعور باليأس عندما نزل الناس إلى ميدان التحرير في القاهرة، وحلقت فوقهم إحدى المروحيات ثم تبعتها إحدى المقاتلات التابعة للجيش، وحتى الآن لم يُناقَش هذا الأمر، ولكنه أخطر مما نوقش من القتل بالدبابات والرشاشات، ومن أجل مصر وحقوق الشهداء يجب على مَن يتمتعون بثمار الحرية ألا ينسوا الشهداء والمعوقين الذين دفعوا حياتهم ودماءهم ثمنًا لهذه الحرية، يجب أن يُعاد التحقيق في أمر هذه الطائرات. التمثيليات الهزلية الركيكة التي يقوم بها المدّعي العام الذي يعلم كلُّ مصري أنه كان من أكبر الآلات التي استعملها مبارك في إذلال هذا الشعب وأحراره الشجعان بإرساله بعض الأسماء للمحاكم بقضايا تافهة وقرائن أتفه لذَرِّ الرماد في العيون. لقد أعطى الوقت والإمكانيات للقتلة واللصوص أن يفلتوا من عذاب الدنيا، فهل سيفلت هو وهم من حساب الآخرة؟ وهل هذا الإفلات في الدنيا سيستمر أم سيرسل لهم الله من يقتص منهم بالقانون الذي اخترقوه وتخطَّوْه وتلاعبوا به؟ ليس الأمر رحمة وتسامحًا؛ إنها دولة وشعب وبنية أساسية لمجتمع القانون الذي يحذر الظالمين ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾».

«لديَّ صديق دهسَتْ ابنَه إحدى الدبابات فهشمت جانبًا من وجهه، وقد زُرت الشاب في المستشفى في لوسيرن وفيينا مرتين وما نمت ليلة إلا ورأيت وجهه وإصاباته، وما يقلقني ليس معاناته الرهيبة هو وغيره فحسب، وإنما أن تفضي هذه المعاناة إلى لا شيء؛ فبعد طرد مبارك، ألم يكن قادة جيشه هم الذين خلفوه، مَن الذي جعلهم قادة؟ من الذي اختارهم لمناصبهم؟ إنه مبارك. ما أساس اختيار هؤلاء الأشخاص؟ الولاء.. الفساد، هل يمكنك أن تتخيل أن أصحاب الولاء للدكتاتور الذين يعيشون في بذخ وتمت ترقيتهم من قِبَل نظام فاسد يستطيعون إعطاءك ما تتوقعه؟!».

«أنا أعيش الآن خارج مصر وأستطيع أن أنظر وأحكم بالمنطق وليس بالعاطفة، لقد مر أكثر من عام ونصف على أحداث يناير ولم يحدث شيء، ما الذي كان الناس يتوقعونه؟ هل كانوا يظنون أن الجنرالات ملائكة؟ وأنهم سيُعطون الناس ما يطلبونه؟ عندما تَحْكُم بخبرتك ومعرفتك، وفي وجود الحقائق وشواهد التاريخ، ينبغي أن تقول: لننتظر ونرى».

عندما تولى مبارك السلطة بعد مقتل السادات، التقى يوسف ندا في مكة المكرمة بأحد مستشاريه؛ محيي السعيد حماد؛ كان طبيبًا برتبة لواء في الجيش، وكانت زوجته الفاضلة أستاذة جامعية في الزراعة وتُدرس في جامعة البنات بالرياض، وعندما قابله يوسف ندا في مكة المكرمة قال له: «تستطيع أن تُغير تاريخ مصر وأن تقدم أفضل عمل لبلدك وشعبك». فتساءل محيي: «وكيف يكون هذا؟»، فأجاب ندا: «لأنك تستطيع الوصول إلى أذن الرئيس». إن له مستشارين سياسيين، لكنهم يلعب أحدهم ضد الآخر، أما أنت فلستَ من رجال السياسة؛ ولذا فعندما تقول شيئًا سياسيًّا في لحظات ضعفه الصحي فربما يستمع لك أكثر مما يستمع لهم».

كانت المشكلة مع السادات أن يديه مُخضبتان بالدماء؛ فقد قتل بعض الأشخاص وجاء أشخاص غيرهم وانتقموا منه وقتلوه، أما مبارك فلم تكن في يديه دماء حين جاء إلى السلطة، فهذا الرجل يستطيع أن يبدأ عهدًا جديدًا بين الحاكم وبين الشعب، نحن نفهم أن الحاكم لا يستطيع أن يُحقق جميع آمال الشعب؛ فهناك أوضاع دولية.. وهناك موارد محدودة».

«لكن إذا انفتح مبارك على الشعب ولم يتعامل معه بقبضة حديدية فبمقدورنا أن نطلب من عمر التلمساني مرشد الإخوان أن يُسيّر مظاهرة من مليون أو مليونين من الناس تتجه إلى القصر الجمهوري لتُقدم قائمة بمطالب الشعب، ويمكن أن تُنَاقَش هذه القائمة سلفًا، ويمكن للرئيس أن يقرر تنفيذ بعض مطالب الشعب على الفور، أما البعض الآخر .. وبخاصة الاقتصادي، فيقول إنه يحتاج إلى وقت، فلا يمكن تحقيق كل شيء دفعة واحدة، وبإمكانه أن يَعِد بالنظر في بقية المطالب والأمر بما يمكن

تنفيذه منها في الوقت الملائم، ويوجه الإعلام لتفسير الأسلوب الجديد للرئيس الجديد في علاقته بالشعب».

«وبهذه الطريقة يبدأ التعاون بين الحاكم والشعب، فالنية الحسنة موجودة وله من وسائل الإعلام ممن يقنعون الناس بما منعه من تنفيذ بعض المطالب ولا يكون ذلك بالأوامر أو التناحر أو القوة، هذه فرصة يجب انتهازها بدلًا من اللجوء إلى الطرق الاستفزازية لإسكات الشعب».

فأجابه حماد: «من الأفضل أن تكتب له ما تريد وسوف أوصله إليه»؛ فذكَّره ندا بما يُقال عن مبارك إنه لا يحب القراءة، لكن حماد أصر على رأيه فقال ندا: «حسنًا، سأكتب». واتصل ندا بالأستاذ عمر التلمساني لأخذ الموافقة، وأرسل له صورة ما كتب في ثلاثة أرباع الصفحة مع الحاج حسني عبد الباقي عضو مكتب الإرشاد الذي كان في مكة من أجل العمرة، وبارك الأستاذ عمر الخطوة. وسلم ندا الرسالة لمحيي السعيد حماد، وقال له: وإذا احتاج الأمر فأنا مستعد للمجيء، فوافق محيي السعيد حماد قائلًا : «سوف نلتقي هنا ثانية بعد شهر واحد في نفس المكان لنرى ما يحدث».

وعندما التقيا للمرة الثانية، قال محيي السعيد حماد ليوسف ندا: «لقد أوقعتني في مأزق!»، فطالعه ندا بنظرات حائرة حتى شرح حماد كيف أن مبارك قال له: «هل أنت مجنون؟ هل تريد مني أن أقابل عمر التلمساني «بتاع» الإخوان المسلمين! هل تعلم ماذا سيقول السفير الأمريكي والسفير والإسرائيلي عندئذ؟ هل تعلم ما النتيجة عندما يَعرف الأمريكيون والإسرائيليون بأنني قابلته؟ وأنت تريد مني أن أقابله علنًا!».

ويعلق يوسف ندا على ذلك قائلًا: «هذه هي طريقة مبارك في التفكير، وكان هذا بعد شهرين فقط من توليه السلطة، فسرها كما تشاء، لقد رويت لك القصة كما هي. شرحت للرئيس باختصار وتركيز: إن يديه نظيفتان من الدماء، ومن السهل جدًّا أن يُصبح محبوبًا من الناس؛ بأن تكون لديه الوسائل للحوار معهم عوضًا عن استفزازهم – هذا ما ذكرته في الخطاب؛ إنها بداية عهد جديد، وهو جاء كبطل وليس حاكمًا، لم أقل دكتاتورًا – أنت بطل ولست حاكمًا فقط».

«لكنه لم يرغب في إغضاب الأمريكيين والإسرائيليين، وهو يعلم أن الاجتماع المقترح سيفعل ذلك، لقد مكث في الحكم أوقاتًا طويلة، وكان حصوله على تأييدهم أكبر همه، ويعتبر الأمريكيون والإسرائيليون الإخوان المسلمين عدوهم الألد، ويرجع ذلك لسبب واحد: أن الإخوان المسلمين لا يقبلون بالوضع القائم في فلسطين، ولكننا لسنا ضد اليهود أو ضد غيرهم – نحن لا نؤيد هذه الأوضاع، ونعتبر الفلسطينيين ضحايا وأصحاب حق».

يقول يوسف ندا: «ومن المؤلم أنه في لحظة من لحظات تسجيل فصل من تاريخ الجماعة في سلسلة «بلا حدود» المشهورة بمنشئها ومقدمها الإعلامي الفذ أحمد منصور ذكرت هذه القصة، فخرج علينا عضو من مكتب الإرشاد فيه رعونة وتسرّع وسفّهني وكذّب ما ذكرت، وذكر بفخر أن له صلة بمستشاري مبارك السياسيين؛ وهم الباز والفقي، ولم يخطر بباله أن هذه الخطوط هي للتنفيذ وليست للتخطيط، وأنها السد الذي يوقف الحوار، وهذا هو السبب في اختياري مستشار مبارك الطبي لنقل الرسالة، ولم يستوعب الأخ عضو مكتب الإرشاد في هذا الوقت أن أهم أبجديات السياسة هي طرح رؤى غير معتادة متضمنة طرق توليد القناعات بها وإخراجها».

«وتدَخَّل العالمان بالأمور؛ وهما المرشد ونائبه رحمهما الله، برسالتين لأحمد منصور وكتب له المرشد الأستاذ مصطفى مشهور: إن الأستاذ يوسف ندا مُفوّض العلاقات السياسية الدولية للإخوان المسلمين هو محل الثقة والاحترام، وإنه التزم في كل ما أورده بالحلقات التي تذيعها له قناة الجزيرة بالدقة والأمانة والصدق. وكتب الأستاذ مأمون الهضيبي نائب المرشد: إن ما ورد بموقع «إسلام أون لاين» منسوبًا إليَّ بخصوص الحلقات التي تذيعها قناة الجزيرة للأستاذ يوسف ندا مفوض العلاقات السياسية الدولية للإخوان المسلمين في برنامج «شاهد على العصر» وقع به تحريف بحقيقة ما تحدثت به، وأؤكد أن الأستاذ يوسف ندا التزم الصدق والأمانة والنزاهة في جميع ما أورده. ونُشِرت رسائلهم، ولم أعلق من طرفي وكأن الأمر لا يتعلق بي».

«أما هـذا الأخ فلم يعِ الدرس ويتخلص من رعونته حتى جاءته نوبتها مرة أخرى بعد أكثر من عشر سنوات فقذفته خارج الجماعة، واغتر وغُرر بغيره وخسر فيها أشرف انتماء قضى فيه أشرف سنوات حياته».

«لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي أُواجَه فيها بالتسرع والرعونة من عضو مكتب إرشاد يخرج عن المنظومة ويستعمل ألفاظا وأسلوبًا لا يليقان بالمكتب الذي ينتسب إليه، ولكن حدث مثل ذلك من قبل أثناء محنة ١٩٦٥ من أرعنٍ آخر، ولست في حِل من ذكر التفاصيل حيث كانت في حلقة ضيقة، ولم تكن في وسائل الإعلام، وكانت في وقت محنة، وقد توفاه الله الذي أسأله أن يغفر له ويحشره مع الصالحين. المرة الثالثة والقريبة عندما تحدثت في الإعلام عمّا رُبيت عليه في صفوف الجماعة خلال ٦٣ عامًا من فكر عن حِجاب المرأة، وعدم تكفير الشيعة كطائفة من طوائف المسلمين ولو اختلفنا معهم في بعض الطقوس والمفاهيم التعبدية والتعقيدات السياسية الظالمة التي استُعمِل فيها الدين والتيارات السلفية سواء السُّنّي منها أم الشيعي لإثارة المعارك بين المسلمين، وعرضت كتابي على مرجعي وهو المرشد الأستاذ محمد مهدي عاكف؛ هذا الجبل الصامد الشامخ الذي كان لنا قدوة في ثباته وفهمه وتفانيه، وظل أحد الحصون المنيعة التي حافظت على أعمدة الجماعة وفِكرها وتنظيماتها خلال المحن المتتالية من جهاد وسجون وسِرّ وعَلَن وصِدَام ولِين.. في داخل مصر وخارجها. فاعترض المرشد على بعض ما كتبتُ وشطبه، وأجاز نشر الباقي، وفجأة ظهر مِن مكتب الإرشاد مَن نفشت لحيته من آثار اختراق فكري سلفي منغلق في وسطية فكرنا المعتدل، وادّعى أن فكره هو فكر الجماعة وفكر مكتب الإرشاد، وأنا لم أدَّعِ ذلك، ولكن تحدثت عما رُبيت عليه في الجماعة التي شرفني الله بالتربية فيها قبل ولادته، أو لعله وقتها كان يمص أصابعه، واستعمل ألفاظًا فيها سب وتحقير واستعلاء اعتاد الناس أن يسمعوها من المتنطعين ذوي الفكر واللسان السلفي المنغلق والمتطاول؛ ولا عجب فهو ناتج من نتوآت محاولة الغزو السلفي للجماعة، وختم قوله باسمه وأنه عضو مكتب إرشاد الإخوان المسلمين، وكاد أن يخلق فتنة فكرية وسياسية وَأَدَها إعلان مكتب الإرشاد بالقول إنه لا رأيي ولا رأيه

يمثلان رأي مكتب الإرشاد، وأنا لم أدّعِ أن رأيي هو رأي المكتب، ولكنه ادّعى ذلك. أنا أعود لهذا الموضوع لتثبيت قواعد تنظيمية؛ وهي أن أي عضو مكتب إرشاد أو ناطق باسمه يجب ألا ينسب رأيه الشخصي للمكتب ويورطهم جميعًا بحدود أفقه أو علمه إلا أن يكونوا قد اجتمعوا على هذا الرأي، وحتى عندما يختارون أحدهم ليكون الناطق باسم المكتب يجب عليه أن يكون أمينًا ولا ينطق برأيه هو؛ فهو ينطق بما أملاه عليه مَن ينطق باسمهم، وليعلم - إن لم يكن يعلم - أن مَن رضينا أن نَنْعَتهم بأنهم أعضاء إرشادنا ليسوا أعلمنا وليسوا أتقانا، وأنهم ليسوا آباءنا أو ملوكنا، ولكنهم اخْتِيروا ليسترشدوا بعد الشريعة بآرائنا ليمثلونا بها وينظمونا بها، وكما هو واجب علينا أن نلتزم بها فعليهم أن يلتزموا بها، وأن موقعهم يفرض عليهم التواضع وليس الصلف الزائف، وأن لله العزة ولرسوله وللمؤمنين.. وليس لهم وحدهم. إن التواضع وتجنب الاستعلاء ضرورة من ضرورات القيادة الصالحة ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾».

«أما من يشق الصف بالإصرار على رأي يخالف رأي الجماعة فلا يستحق أن يكون فردًا فيها، والنصيحة لها أسلوبها الشرعي مع مراعاة ما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة».

«وقد حارت قواعد الجماعة من التخبط في البيانات التي يُصدرها هذا الناطق باسمهم؛ فمرة يُصدر بيانًا ثم يصدر عكسه، أو ينكر قوله، أو تُبذل محاولات لتبريره وتزيينه فتزيده قُبحًا».

«إن هذه الوظيفة رغم أهميتها يجب أن تُحدَّد معالمها مِن المكَلِّف إلى المُكَلَّف بها، والانفلات محتمل في كل الأوقات.. ولكن لا يجب السكوت عليه بالمجاملات».

«الجماعة مؤسسة وليست ضيعة، والناطق باسمها يجب ألا ينطق باسمه أو فكره، أو بما يرى، ويجب أن يُحدَّد له ما يقول؛ فهو ناطق وليس مقررًا أو راسمًا لسياسة، أو مقرر فتوى، وبوضوح أكثر.. هو صوت سيده».

«لـم يكـن الأول ولن يكـون الأخيـر من الفُـرَادى الذيـن يهجرون واحـة الظلال المؤمنة، ويهيمون في صحراء الأنا».

«أن تختلـف فـي الرأي أو حتى في المزاج مع أي أخ مهما كان موقعه في الجماعة فهذا شـأنك وحقك، ولكن أن تسفّه الجماعة وتنتفخ أوداجك بالهجوم عليها فهذا ما لا يمكـن التغاضي عنه، ومهمـا كان موقعك أو علمك فلن يملك أي مخلص فيها إلا أن يعرض عنك ويلوذ بجماعته ويندد بعدم وفائك ولو دعونا الله ليغفر لك».

«ثم جاء مرشـد الانفتاح الأستاذ محمد عاكف؛ أطال الله في عمره ووهبه الصحة والقوة، وقال قولته المشـهورة: إن كل منتسـب لهذه الجماعة هو ناطق باسـمها، فإن أخطأ صححنا خطأه وأعلنا الصواب».

«وأنـا لا أتفـق مع هـذا الرأي الذي قـد يؤدي إلـى البلبلة وتناقـض التصريحات، وما زلت أدعو لضرورة وجود هذا الموقع مع تحديد صلاحياته».

«وكانت لي تجربة مريرة مع المتحدث باسم المدعي العام الفيدرالي السويسري؛ واسمه «فيدرر»، حينما صرح بعكس الحقيقة وقال إن مكتب المدعي العام الفيدرالي وجـد أدلة تُثبت تمويلنا للإرهـاب، وأخطرت وزير العدل وذهبـت للمحكمة العليا، ولم يهدأ لي بال حتى أُجبر على ترك وظيفته، وذهب ليعمل راعيًا في كنيسة بقريته».

«القـول بأن هذه الانتقادات العلنية تُضعف الصف وتُوجد البلبلة هو قول سـاكني الكهوف ومناضلي الحركات السـرية والطـرق الصوفية وضحايا الأنظمة الدكتاتورية الذيـن يتحتـم بعد تعافيهم مـن الابتلاءات التي تعرضـوا لها أن يمـروا بمرحلة إعادة تأهيـل ليتواكبـوا مع المتغيرات الإنسـانية العلميـة والدولية، بل وحتى المسـتجدات من المفاهيم الشـرعية التي تكون قد حدثت وهم تحت الأرض أو في السـجون، وقد مررت أنا من قبل بهذه المرحلة».

«العالم الآن مفتوح لا يخفى فيه شـيء، وقـد كانت التعليمات والأخبار تَصِلُنا في نشـرة سرية يسـتغرق وصولها أيامًا، بل أسـابيع، وفي بعض الأحيان شـهورًا، إلا أنها الآن تصل بلمسة أصبع على زر وكأنها جنُّ سليمان الذي أحضر عرش بلقيس».

«هناك ضرورة لمناقشة الأخطاء لتفادي تكرارها، وليس للتنديد بفاعليها؛ فنحن مؤسسة عامة مَن يسمع عنّا يقيمنا بعقله المحايد؛ إن كان محايدًا، أو يتصيد السقطات إن كان مغرضًا؛ ولذلك يجب أن نعلن الصوابَ والخطأ عندنا، ولا نتهم الآخرين بالصمم والعمى، وحتى مَن كان بيننا واختلّ يجب علينا أن نحاصر خلله.. ولو دعونا له بالهداية».

«أعود إلى فلسطين.. إنهم شقّوا الشوارع وأنشئوا الطرق حولها من كل جانب، وزرعوا المستوطنات في أراضي الفلسطينيين، هذه ليست بلدًا ولا دولة، كيف تحدد أن هناك دولتين؟ لا يمكن، في نظري يجب أن يكون هناك ترتيب، ليس دولتان منفصلتان؛ دولة واحدة فيدرالية بها ولايتان وحقوق متساوية ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية. يجب أن يبدأ الناس في العيش معًا، ومع مرور الوقت سوف يعتادون على العيش معًا، وفلسطين بوضعها الراهن عار على الإنسانية؛ إنهم يُنشئونها بطريقة خاطئة، طريقة لن تكتمل أبدًا، أنت تقول لتكن دولتين، ثم تأخذ الأرض وتُمزقها إلى قطع، أنت لا تعطيهم الماءَ ولا تقول إلى أي دولة منهما يذهب، إذا كان ثمة نوع من المساواة فقد يمكن القبول بها».

«إذا قَبِلت بالظلم مرة فسوف تقبله في كل المرات، ليس فقط مع عِرْق واحد أو بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة جغرافية واحدة، إما أن تقبل بالظلم وإما أن ترفضه، العدالة لا تتجزأ، فإما أن تُوصِف الحالة بالعدالة وإما بالظلم.. ليس هناك نصف عدالة؛ إنه اصطلاح لا يقبل التجزئة. يوجد أكثر من نوع من الوحدة الفيدرالية، الدولة الواحدة هي الحل؛ أعطوا «الفلسطينيين» أسباب الحياة، اعتبروهم مواطنين. من أهم الأسباب التي تجعل ولاء الإنسان لبلد ما أن يعطيه هذا البلد حقوقه؛ هذا ما أجده هنا في سويسرا».

«هؤلاء الفلسطينيون مخلصون لوطنهم كل الإخلاص، حتى لو لم يُعطَوا كل شيء، فهناك على الأقل مستوى للبداية، هناك فرصة أمام كل واحد ليثبت وجوده، لا ليعاني من التمييز ضده لأنه فلسطيني أو يتعالى لأنه يهودي».

«كلاهما مصاب، وكلاهما يحتاج إلى العدل، أحدهما يحتاجه أكثر من الآخر، إحدى الضحيتين ضحية لطرف ثالث، والضحية الأخرى ضحية للضحية الأولى، ما علينا.. لكن الأول ضحية أيضًا. إما العدل وإما الظلم، فليس هناك نصف عدلٍ. هناك كثير من الأمور في السياسة لم تأخذ حظها من الاهتمام».

«في جنوب إفريقيا ما زال الظلم موجودًا؛ لأن واحدًا ينحني للآخر، واحد قَبِل أن ينحني والآخر تنازل عن بعض الأشياء، انظر أين كان مانديلا وأين هو الآن؟ وماذا كان يفعل قبل ذلك؟ أي إنسان يريد العيش في سلام عليه أن يفهم هذا المصطلح «الحل الوسط»، لقد قبل مانديلا بالحل الوسط، ورغم ذلك فأمريكا تضع شرطًا في هذه المنطقة؛ وهو أن الإسلام يجب اضطهاده، بإمكان الأمريكيين أن يربحوا أكثر إذا لم يمسوا قيم المسلمين وعقائدهم، حتى إذا كان هناك بعض المسلمين يُحرفون تفسير الإسلام فإن تصحيح هذا الانحراف من شأن المسلمين».

«إذا استُخدم الإسلام المحرّف في جرائم فيجب على الغرب أن يحاربوا هؤلاء كما يحاربون أي جريمة، لكن لا يحشرون الدين كله وجميع أتباعه في سلة واحدة ويميزون ضدهم ويحاربونهم. إن التفاسير المنحرفة للإسلام حولنا في كل مكان، وليس غير المسلمين وحدهم من لا يُحبون هذا الإسلام المشوه، فنحن لا نحبه إطلاقًا، نحن ضده، وحتى في صفوف الإخوان هناك البعض ممن تختلط عندهم أفكارنا مع رواسب من تفسيرات الفكر السلفي الذي تعمد ساسته أن يغزوا به الفكر الإخواني في معاقله بعد أن فشلوا في منافسة الإخوان في كسب العقول والقلوب».

«أنا لا أتحدث عن علمنة الإسلام، ولكن ما أعنيه هو عصرنة الطريقة الإسلامية في التفسير وليس علمنة الإسلام، والعيش في الوقت نفسه في القرن الحادي والعشرين».

«لقد عشت كل حياتي أحاول مساعدة الناس بقدر ما أستطيع، كنت حذرًا جدًّا، كنت متبعًا للقوانين واجتهدت في المساهمة في اقتصاديات عدد من الشعوب، لم أرتكب شيئًا ضد أمريكا، أو ضد أي قوة في أي مكان باستثناء عبد الناصر والقذافي،

وعلى الرغم من أنني أقول إنه من المباح أن تَستخدم العنف ضد شخص ما إذا كنت تدافع عن حياتك أو وطنك، فإنني شخصيًّا لم أستخدم العنف في نضالي ضدهما».

«انظر إلى تاريخ الإخوان المسلمين ليس فقط في مصر بل أيضًا مع الحكام في الشرق الأوسط، في عام ١٩٨٢ في سوريا هاجمت قوات النظام مدينة حماة، وفي خلال ساعات قَتلت ٣٠ ألف شخص، وقبل ذلك وبعده ظلت تحكم سوريا دولة بوليسية، وحتى بعد الثورة التي أعقبت الربيع العربي».

«كلنا ضحايا الآلة الإعلامية، ونحن بين حجرَيِ الرحى؛ فالناس العاديون، المطيعون للقانون قد حُصروا بين رجال الإرهاب المجانين والحكومات الدكتاتورية المستفزة من قبلهم».

«يرون خطر الإسلام والقاعدة، هذا «الشبح»، ماثلًا في كل مكان، وكلما رأَوْا أناسًا يُصلون، يظنون أنهم من القاعدة أو إرهابيون، أنت تعرف رأيي في القاعدة؛ إنهم قتلة وخارجون عن الدين؛ لأن أكثر قتلاهم هم من المسلمين وهم ضد الإنسانية جمعاء؛ هذا ما أعتقده، لكنهم ليسوا كثيرين، وهم ليسوا عمالقة، هم مُهرّجون مجرمون».

«وبسبب هؤلاء الناس الذين لا قيمة لهم، تهاجم السلطات العالمَ كله، وتُعامِل كلَّ واحد في المطارات معاملة المجرمين. قال «جورج بوش»: إما أنك معي وإما أنك ضدي. وقد تبعه الجميع. لماذا يقبل العالم هذا التصنيف؟ أولئك الوزراء والحكومات وأجهزة الأمن في كل دولة، كيف يتعاونون في هذا الأمر؟!».

«لقد جعلوا من شبه المستحيل على الناس المعقولين أن يسافروا حول العالم لتسيير أعمالهم دون أن يجتازوا حواجز الإذلال الأمنية التي لا نهاية لها، ولا عبرة لما وضعوه من قيود؛ فالذين ينوون الشر سوف يجدون لأنفسهم طريقًا، والذين أُضيروا في الحقيقة هم الناس الطيبون الأبرياء المُسالمون، كما أن القيود والتعليمات التي فُرضت على عالم الأعمال تساهم في صعوبة الوضع في الأسواق المالية؛ مما يتسبب بدوره في إثارة المشاكل والمسائل القانونية».

«إن منسقي الاتحاد الأوربي يُصدرون الكثير من القوانين التي يَصعب تنفيذها في هياكل مصرفية معقدة، ولسوء الحظ لا تملك البنوكُ في أيامنا هذه النقابات المدافعة عنها، وتُلام البنوك على تمويل الإرهاب وعلى البؤس الاقتصادي في العالم».

«والسياسيون قد أرهبتهم الحكومة الأمريكية فأصبحوا يتبعون تعليماتها دون تبصر، وأي واحد يعارض سوف يفقد وظيفته أو يرسلون له خادمة في فندقه تتهمه بسلوك جنسي مشين. إن سرعة تدوير المال هي أهم عامل تستخدمه البنوك لمساعدة الاقتصاد، ولتتمكن من إعادة إدارة خسائرها وديونها السيئة خلال المال الساخن، وعندما تتباطأ الحركة سينكشف كل واحد.. كما لا يمكن تجنب الانهيار».

«لقد اختفت الطرق الجيدة والشريفة للحياة، ولممارسة الأعمال كنت أسير في فيينا؛ مقر بعض عملائي المهمين، وبالمصادفة رآني أحدهم فصاح: قف! ياسيد ندا نريد أن نناقش بعض الأعمال، تعالَ. وكنا قريبين من أكبر بنك تعاملت معه في ذلك الوقت وهو «كريديتانشتالت»، دخلت البنك وعند أول مكتب رتبوا لنا الاجتماع في غرفة خاصة، مزودة بالشاي والبسكويت، لم يسألنا أحد عما يُثبت هويتنا، لقد رآني مدير البنك وكان هذا كافيًا».

«الآن آلات التصوير مخبأة في جميع الأماكن، وقضبان الصلب مقامة على النوافذ؛ إنها عدوان على الأشخاص وليست حماية لهم، سر الحماية هو الوقاية الصامتة، لماذا لا ندرسها ونستخدمها؟ هل أنتظر حتى يهاجم اللصوص البنك ثم أقبض عليهم؟ إذا أنت أحكمت أساليب الوقاية فلن يهرب أحد، هذا يشبه تبرير الاعتقال والتعذيب غير القانونيَّيْن؛ إنك لا تستطيع إيقاف مؤامرات هؤلاء الأشخاص السيئين دون الحصول على معلومات منهم بأي طريقة تقدر عليها. نعم، نحن نريد حماية المجتمع من الجانب الآخر؛ الجانب المظلم، لكن هؤلاء الأشخاص بشر ويجب ألا يُعذب أي إنسان، هذا أمر محرم قانونًا.. ولكن سيستمر حدوثه؛ أشياء كثيرة جَدَّت في قيم عصرنا وقَرْنِنا».

«منذ يومين عُرض في التلفاز فيلم من سوريا، رأينا فيه بعض المتظاهرين وقد قُيدت أيديهم خلف ظهورهم وأُلقوا على وجوههم في الشارع، ورأينا البعض الآخر

وهـم يُضربـون علـى ظهورهم، وتحـرك أحد هؤلاء الرجـال فأصابته طلقـة نارية في رأسـه.. طـاخ! مَن الذي يتحدث عـن التعذيب؟ أين هو؟ هل حقيقـي أن العالم يمنع التعذيـب؟ لمـاذا يُغلق كلٌّ إنسـان فـي العالم فمه؟ لمـاذا لا يتحرك أحـد؟ كل واحد يعرف، كل واحد يرى ذلك، لكن ما من أحد يفعل شـيئًا؛ لأن الذين يسـتطيعون إيقافه يفعلونه بدورهم».

«ماذا عما يسمى في القانون الدولي بمبدأ «international jus cogens»؛ وهو عدم التسـامح القانوني تحت أي ظرف، والذي ينـص على أن القانون الدولي وأمم العالم ومجتمعاتـه تقـول إن التعذيب والرق غير مسـموح بهما على الإطـلاق، هذا القانون القوي قد وُضع لينص على أن هذه الأشـياء من المفروض ألا يُسـمح بها بأي وسـيلة أبـدًا، لكنـه لقي تجاهـلًا، وهذا التجاهـل ينقض معاهـدة فيينا، والذيـن يفعلون ذلك يزعمون أنهم يسـتخدمون التعذيب لسـبب؛ وهو الحصول على معلومات من مجرم أو سياسي مطلوب لمنع وقوع جرائم؛ وأسباب التعذيب هذه مشهورة في التاريخ».

«إذا قَبِلْـت هذه الأعذار كأسـباب، فلماذا إذن حظـروا التعذيب؟ لا تحظروه إذن، لا تقعـوا فـي النفاق، إذا كنتـم تعتقدون في ضرورتـه فلا تكونوا منافقيـن وتصرخوا: هـذا سـيئ، هـذا غير إنسـاني يجـب إنهـاؤه، ونضـع الاتفاقـات ونوقـع المعاهدات موضع التنفيذ».

«إنني أرى كيف تُضرب الجياد في السباق بالسياط، فما الفرق؟ هذا حيوان والآخر إنسـان، هل هناك فرق هنا؟ لقد أوصلوا الإنسـان لدرجة الحيوان، إن كنت ترغب في هـذا، فلمـاذا تنافق وتمنع هذا السـلوك؟ أو علـى الأقل تقول بأنه مسـموح في بعض الحالات وممنوع في أخرى؟ أتفَهَّم أنك تعزل المجرم بسجنه كي لا يؤذي المجتمع، أتفهـم أنك تجـد طريقة، لا أريد أن أقول لعقابه، ولكن لعزله عن مكان قد يُسـبب فيه ضررًا، لكن أن تعذبه!! هذه المشـكلة تخص الأمريكيين أكثر مما تخصنا، وأكثر مما تخـص العالـم كله؛ لأن تاريخهم وتاريخ الجرائم التـي ارتكبتها الإدارة الأمريكية في كل أنحاء العالم يعرفه القاصي والداني».

«مـن الغريـب رؤية ما جرى مـن تغيير؛ كنت فـي أعمالي أختلط بكثيـر من رجال الأعمـال والبنوك الأمريكيين، وعندما كنت أسـافر للولايات المتحدة أو لأي مكان، ويصـادف أن يجلـس شـخص أمريكي فـي المقعد المجاور لـي في الطائـرة ونتكلم سـويًّا، كنت أشعر بأن هؤلاء الناس طيبون ومطلعون ويستحقون احترامي، الآن يبدو الحديث مع الأمريكيين كما لو كنت تتكلم مع وكالة الاسـتخبارات الأمريكية (سـي آي إيه) أو مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي)».

«لقـد تحطمت سـمعة بلد مهم جدًّا في العالم، بلـد كان يمكنه أن يغير العالم نحو الأفضل، لكنه أصبح ذا سـمعة سيئة. إن أي رئيس يأتي لن يسـتطيع النفاذ إلى داخل هذه المنظومة في الولايات المتحدة، سواء كان رئيسًا جمهوريًّا أم ديمقراطيًّا، أستطيع أن أقـول ذلك لأنني أوشـكت على المـوت، والآخرون قد لا يسـتطيعون قوله؛ فمن المهم أن أسجل هذه الشهادة».

«إن المعلومات، أو بالأحرى الأكاذيب، التي تصل إلى مسـامع الرئيس الأمريكي وأعضاء الكونجرس بشكل يومي تشير إلى أن الإخوان المسلمين قادمون لغزو أوربا وأمريـكا والعالـم الغربي، وتُصور المسـلمين في مجملهم كعدو دائم بسـبب دينهم، أعطنـي عقـلًا آخر لأفهـم لأن عقلي غير قـادر على اسـتيعاب أنك تقبـل كل الأديان والعقائد ولكن تمارس التمييز ضد ربع سـكان الأرض وتهينهم بسـبب وصمك لهم بأنهم مسلمون، ماذا تنتظر منهم بعد ذلك؟ ماذا يحدث الآن؟!».

«لقـد بـدءوا الأمـر بقولهم إن هنـاك بعض المسـلمين غيـر الصالحيـن، لا بأس، كأي شـجرة بهـا بعض الثمار الفاسـدة، ثم تحـول الأمر إلى كل المسـلمين، ثم تطور إلى الإسـلام ذاته، وأخـذ يتصاعد تدريجيًّا، إنهـا قنبلة موقوتة، علينـا أن نحافظ على المسـلمين ونحافـظ على العالـم من الآن فصاعدًا، وربما تسـأل السـؤال الأزلي عن البداية.. البيضة أم الدجاجة؟ وتنسـى أن معظم الحروب المأسـاوية التي اندلعت لم يكن سـببها المسـلمين، فلماذا إذًا يدين الناسُ دينَ ثلث سـكان الدنيا بسـبب عصابة قوامها نحو ألف شخص من تنظيم القاعدة أو غيره، إن أفضل طريقة للعيش هي بداية إيجاد طريق للتعايش السـلمي في العالم بغـض النظر عن اللون أو الدين كما ورد في

ميثاق الأمم المتحدة، ولم يتبع هذا الطريق بعد، لكنه الطريقة التي يمكن أن نعيش فيها بسلام، وليس هناك غيرها، ولا بد أن يتحول التمييز إلى تعاون».

«كانت البداية سيئة؛ أولًا كان عندنا اليهودية ثم جاءت بعدها المسيحية، لكن اليهود لم يقبلوا المسيحية، وتلا الاثنين الإسلام الذي لم يرحب به اليهود ولا المسيحيون ولم يعترفوا به، على الرغم من أن الإسلام قَبِلَ بهما معًا؛ لم يقبلهما فحسب بل احترمهما لأنهما دينان من عند الله، ونحن علينا واجبات تجاه المؤمنين بهذين الدينين؛ وعلينا واجبات نحو من يعتقدون في هذين الدينين؛ فعلينا أن نحمي شعائرهم وأن نحترم التزامهم بممارستها، وأن يَحْيَوا وفق دينهم».

«بعض الناس يهاجمون لفظ الجلالة (الله) أو يسخرون منه، هل نستطيع، نحن المسلمين، أن نهاجم يسوع (عيسى ابن مريم عليه السلام)، لا يمكن أبدًا؛ فهو نبينا وليس نبيكم وحدكم، أنتم تقولون إنه ابن الرب، ولكننا نحترمه كما نحترم محمدًا، وموسى كذلك هو نبينا وليس نبي اليهود فحسب».

«كل أولئك نحن نشهد بأنهم رسل الإله، واحترامهم واجب علينا، ولا يكفي احترامهم بل يجب علينا أن نحميهم أيضًا، وعلى الرغم من أن الأديان الأخرى قد دخلت عليها بعض التعديلات التي لا نقبلها: فاحترام عقيدة الآخرين مبدأ أساسي لدينا، وإذا توقفنا عند الاحترام فأنا عليَّ واجبات نحوك بينما ليس عليك واجبات نحوي؛ فأنت تعتبرني كافرًا، وأنا أعتبرك مؤمنًا ولكن بغير ديني، رغم تغييرك لعقيدتك أحيانًا؛ المسيحيون يؤمنون بالإله الأب والابن وروح القدس، ونحن نؤمن بالإله الواحد الأحد، وإيماننا لا يعني أننا لا نحترم عيسى عليه السلام، بل نحن نحترمه أعظم الاحترام؛ وليس هذا كل شيء، بل إن عدم إيماننا برسالته يعني أننا غير مسلمين، وفي أول القرآن الكريم في أوائل سورة البقرة، نقرأ هذه الكلمات: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾».

«مَن الذين يقودون العالم؟ إنهم أولئك الذين لا يعلمون شيئًا عن الإسلام، وليس في أذهانهم سوى صورة عن الإسلام ترجع إلى زمن الحروب الصليبية، ترسخت في العقول عبر التاريخ، ولسنوات طويلة درس الأطفال هذا فأصبحت حقائق بالنسبة

لهـم، فهم يكرهون الإسـلام قبل أن ينظروا فيه، وعبـر القرون أدت هذه الأوضاع إلى بنـاء جـدار بيننا، لكنك عندما تتعامـل مع أصحاب العقول النزيهـة تجد أنهم يبحثون كيـف يصنعـون السـلام، فهم يعلمون أننـا يجب أن نتعايـش معًا في احتـرام، كما هو مكتوب في دينهم، هذا الجدار ما زال قائمًا، ويجب أن نُغير من توجهاتنا».

ويقـر يوسـف ندا بأن هنـاك الآن مشـكلة «ضخمة» داخـل المجتمع المسـلم في بريطانيـا، عند المزج بيـن الدين والتقاليد: «أغلبية المسـلمين فـي بريطانيا جاءوا من الهنـد وباكسـتان، أمـا المسـلمون من الشـرق الأوسـط أو الشـرق الأقصـى أو أوربا فيشـعرون بأنهم مختلفون عمن جاءوا من الهند وباكسـتان؛ فالمسـلم في تونس مثلًا قد لا يكون متحمسًا لسماع درس أو موعظة من شيخ متحجر ورجعي من السعودية، لكن بريطانيا تمتاز بتعدد الثقافات المختلفة، والديانات المختلفة».

«راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة، عاش مهاجرًا في لندن ٢٢ عامًا، ثم عاد إلى بلـده تونـس بعد الثورة، وحكى لي أنه ذهب إلى المسـجد القريب مـن بيته في لندن، فوجد الإمام الذي يُفترض أن يكون أعلم الناس لا يسـتطيع قراءة القرآن، كان شـرحه للآيـات خطـأً، وكان نطقـه ولغته مُشوّشَـيْن، لـم يفهـم الدين الـذي كان يُعلِّمه، وكان الإمـام مسـلمًا بِنْغاليًّا، وماذا عـن البريطانيين؟ أنـت تجد بعض المتشـردين في مترو الأنفـاق، ومناظر سـيئة كثيرة، فهل هذه إنجلترا؟ كلا، ليسـت هـذه إنجلترا. ولكن ما تراه شـيئًا من داخلها، ولا يعني أن البلد كلها بهذا الشكل، ففيها الجامعات والكنائس والساسـة الكبـار، لكن الصحـف والكتب تُركز على الأشـياء السـيئة. بالتأكيد أفضل شيء هو إيجاد حل للمشكلة، لقد شخَّصنا أعراض المرض الموجود، وعلينا أن نُركز على البحث عن وسـيلة للتعايش وتَجنُّـب التمييز الاجتماعي، وبعدئذ نَثِب قُدمًا نحو التعـاون، ومنـه نقفز إلى الحب ثم نقفز في النهاية نحو السـلام، نحن نتفق على ذلك، فمن أين نبدأ؟ هل رئيس الوزراء يسـتطيع أن يفعل ما يسـتطيعه عامل في مصر؟! مَن لديه قوة أكبر للتغيير؟ لقد خُلقت مشـكلةٌ كبيرة، ليس في أوربا أو في الشرق الأوسط وحدهما.. ولكن في العالم أجمع».

«والآن، نحن في أوربا، لا أقصد المسيحيين أو الأوربيين.. بل المسلمين، لدينا مشكلة، وهذه نقطة هامة للغاية. الحياة في أوربا ليست كالحياة في الشرق الأوسط؛ حيث يعمل الناس ثم يعودون ليروا أُسَرَهم وينعموا بروحانياتهم. أما في أوربا فماكينة الإنتاج تَستهلك الناس، كل واحد في عمله من الصباح الباكر، وعندما يعود إلى بيته لا يقضي فيه سوى ساعة أو ساعتين قبل أن ينام.. وزوجته تعمل أيضًا، ربما يرى أحدهما الآخر مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع؛ وأحيانًا في الشهر، والأطفال يذهبون إلى المدارس وحدهم. كنت ذات مرة في مطعم هنا، وكنا في الليل، وكان أحد الأولاد في نحو الثامنة من عمره جالسًا إلى مائدة قريبة، كان وحده وعلى ظهره حقيبته، وبدون أن يسأل جاءه النادل مُحْضِرًا له طعامه، وبدأ الولد يأكل، وعندما انتهى أخذ يقرأ في كتاب، وبعد نصف ساعة تقريبًا جاءت أم الولد وقَبَّلته ثم أخذته إلى البيت لينام؛ هذه الحياة الأُسَرية تختلف تمامًا عن الحياة الأُسَرية في الشرق الأوسط».

«لا أقول هذه أفضل أو تلك أفضل، ولكن أقول إن المسلم الذي يأتي إلى هنا عليه أن يعيش هذه الحياة، عليه أن يعمل ليل نهار، وعندئذ تضطرب نفسه ويريد أن يذهب فيصلي حتى يبقى متصلًا بالله، أو بدينه أو على الأقل ليُطَهّر أو يُشْبع ما بداخله؛ فيذهب إلى المسجد، ويذهب لصلاة الجمعة».

«ويستمع إلى خطبة الإمام، لكن مَن هو الإمام؟ هل هو متعلم؟ هنا تكمن المشكلة، ليست مشكلة للمسلمين وحدهم بل للبلد الذي يعيشون فيه، إذا كان الإمام في مسجد ما يدعو للكراهية.. فهي الكراهية إذن، وإذا دعا إلى الثورة فهي الثورة عندئذ، وقد يعظ أحدهم من كتاب يحتوي على تفسير أو رؤية للدين تتعارض مع الإسلام الصحيح».

«ونتج عن ذلك أن وُجِد في بعض المساجد مَن يدعو للكراهية وبعضهم – ولا أريد أن أستخدم الكلمة، لكنها أكثر الكلمات شيوعًا – إرهابيون، وهذا أقام جدارًا بين المسلمين وبين البلد الذي يعيشون فيه وبينهم وبين سائر الأديان الأخرى، وهذه الأنشطة لا تمر دون ردود أفعال؛ فالدولة المضيفة لا تَقدر على أن يكون من بين سكانها أو مواطنيها أو ضيوفها مَن يهاجمونها في دور العبادة الخاصة بهم».

«ومن أجل تعديل هذا الوضع، عنَّت لبعض السياسيين فكرة؛ وهي أنه من الأفضل إعداد الأئمة محليًّا بحيث يستطيع الإمام تمثيل الإسلام، وفي الوقت نفسه لا يتخاصم مع المجتمع، والفكرة جيدة، لكن كيف يتم تنفيذها؟ إذا رُؤي أن إنتاج نوعية جديدة من الأئمة يخدم السياسيين الذين يريدون احتواء المسلمين، فهذا لن يكون مقبولًا وسيجلب الكراهية للدولة والحكومة».

«هذه الخطة ذات حدَّين في نظري، فهي مهمة، لكنَّ المسلمين هم من ينبغي عليهم أن يختاروا أولئك الذين يألفون طريقة الحياة الأوربية ونُظمَها، ليدرسوا الإسلام، عندئذ يستطيعون أن يكونوا الجسر الذي يربط بين الاثنين، وفي الوقت نفسه يحافظون على عقيدة الذين يريدون المحافظة على عقائدهم. أئمة لم تصنعهم ثقافتهم القديمة، لكنهم مهيئون للعيش مع الآخرين، هذا هدف من أهدافي؛ أن أجنب المساجد من الغثاء حتى لا يكون موضوعًا للحديث فيها أو أن يصدر منها».

«استمع لهذه القصة عن كيفية وصول أحد الأئمة إلى مكانة أن يُعلم الناس ما هو الخير وما هو الشر، ما هو الحق وما هو الباطل، وكيف نعيش حياة طاهرة: أراد رجل فقير الحصول على عمل، فذهب إلى المسجد، وظل هناك يأكل ويشرب.. وينام، ووجد في المسجد مكتبة فصار يمضي وقته في مطالعة كتبها، لم يستطع التعمق فيما يقرأ لكنه اكتسب بعض المعلومات، وعندئذ اعتبره البعض إمامًا، اعتبروه صاحبَ علم، ومن ثمَّ يستطيع أن يقول ما الصواب وما الخطأ، ما الذي يقبله الإسلام وما الذي لا يقبله.. واتبعوه، وفجأة أصبح هو القانون الشرعي، إن الأغلبية متدينون، لكنهم لا يعلمون الكثير عن الطرق السليمة لممارسة الإسلام في حياتهم اليومية، فإحدى السيدات تذهب للمسجد لترى إذا كان بإمكان الإمام التوسط بينها وبين زوجها، وشخصان يحبان بعضهما ويريدان الزواج، لكن لا توجد وثائق وهما لا يريدان الوقوع في الزنا، وهما يريدان الزواج وفقًا للنظام الذي حُدِّد قبل أن يعرف المسلمون أرشيف سجلات الولادة والزواج والطلاق وأسلوبه؛ يختصر في وجود شاهدين ويعقد لهما الإمام. وفي المقابل يجب أن يكون الإمام شخصًا قادرًا ومتخصصًا، وعلى قدر جيد من التعليم، إذا كان سلوك الإمام مقبولًا من الآخرين

فسـوف يتبعه الجميع، وأنا لا أخشـى إمامًا كهذا.. فعلى العكس، سوف يحمل رسالة التعايش والسـلام بين الثقافات والأديان المختلفة إلى الجيران في الأحياء والأطفال في المدارس، نحن بحاجة لمثل هذا الإمام».

«إن تأهيـل الإمـام حسـب مـا يراه مَـن هم ضد الإسـلام وتأهيـل إمـام آخر ممن يجهلون الإسـلام، كلاهما سـيدمر الجانبين، ولو أراد صُناع القرار أن يُشـكلوا الأئمة حسبما يعتقدون فل يُقبل ذلك أبدًا، سيكون ذلك مضيعة للوقت وسيشجع على مزيد من الكراهية، فالمسـلمون الآخرون سـيظنون أنهم يريدون اختراق الإسـلام بواسطة هؤلاء الأئمة».

«وسـواء أردتَ أن تُغيـر دين هؤلاء النـاس أو تعلمهـم التعايش السـلمي فهل أنت تريدهـم أن يصبحـوا صورًا مستنسـخة منك؟ أو أنـك تريد النـاس أن يحترموا جميع المبادئ المشتركة للإنسانية؛ الولاء للبلد وحمايتها وطاعة القانون، واحترام الآخرين، ومسـاعدة الجيران، وخدمة المجتمع؟ ماذا تريد أكثر من هذا؟ عَلِّم أولادك أن طريقة حياتك ليست هي الطريقة الوحيدة للحياة، وأن القديم والجديد قد يمتزجان معًا».

«ابنـي الأكبـر لديه صديقان؛ في سـنوات طفولتـه ودراسـته كان اجتماعيًّا وأغلب أصدقائه لم يكونوا مسلمين بسبب المكان والظروف التي مررنا بها. وإحدى بناتي لا تؤمن بالزيجات المرتبة من قِبَل أهل الزوجين، لكنها ساعدت مرة على تزويج إحدى صديقاتهـا مـن حفيد وكيلي الملاحي؛ كان الشـاب وسـيمًا، معتدل القـوام، جامعيًّا، ويدير أعماله الخاصة. قالت لي ابنتي: أبي، لِمَ لا تحاول إقناع هذا الشاب وصديقتي بأن يتزوجا؟ فأجبتها: لكنها مثلك لا تؤمن بالزواج المُرَتَّب مسبقًا. فقالت ابنتي: نعم، لكنها حاولت بنفسـها الزواج مرتين وفشـلت. فماذا نفعل؟ فقررت أن أرى الشـاب؛ واسمه روبرتو، ولما كنت لا أحسن اللف والدوران فقد دخلت في الموضوع مباشرة:

- روبرتو، متى ستتزوج؟
- عمي يوسـف، لديَّ رفـيقة (جيرل فريند) قد مضى على معاشرتنا ثلاث سنوات، لكننا لم نتزوج.

- هل أتى الوقت لكي تتزوج أم ستظل مثل المراهق؟
- أعرف فتيات كثيرات يا عمي.
- أعلم ذلك، لكن ربما تُفضل الزواج من واحدة تعرف عائلتها، وتعرف أنها متعلمة تعليمًا طيبًا، سأحاول أن أرى إذا كانت تناسبك، سوف أُرتّب عَشاءً يجمع بينكما.
- أنا لا أؤمن بهذه الطريقة.
- لكنها قد تفلح، لماذا لا تجرب؟».

«وقد تزوجا، ولديهما طفل الآن، انظر كيف فهِمَت ابنتي فلسفة أخرى، هذه هي حياتنا اليوم؛ نحن قوم مشغولون، لكن يجب أن نخصص بعض الوقت ليرى بعضنا بعضًا، لا نَضُر أحدًا، ونستمع إلى الطيبين والعقلاء».

«إن القس ليس رسولًا لله، والله وحده الذي يغفر الذنوب وليس القس، نحن نؤمن بأننا على صلة مباشرة بالله والله يقبل من يلوذ به ويعود إليه، وفي القرآن الكريم آية تقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾؛ حقًا.. ما يفعل الله بعذابنا؟! ألسنا لنا نحن - بالأحرى - أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: ماذا سنجني من عذاب الآخرين عوضًا عن أن يساعد بعضنا بعضًا؟!».

«أكتب الآن وقد تخطّيت من عمري ٨١ عامًا قضيت منها أقل من ثلاثين عامًا في مصر، إن خصمنا منها الطفولة والمراهقة يمكن أن نقيمها ١٥ عامًا، وعشت في الغرب ٥١ عامًا، وأحمد الله أنني لم أتخلَّ عن ثقافتي الأصلية، بل تمسكت بها وأضفت إليها وأصبحت متعدد الثقافات، وأحمد الله أن مكّنني من نقلها إلى ذريتي التي لم تحيَ في منشئي، لم أحيَ في الغرب على هامشه، ولم تكن علاقاتي مقيدة بمن لا يخالفونني في الثقافة أو الدين، بل كنت منفتحًا على كل من عرفت أو قابلت أو عاملت، خالطوني في بيتي وخالطتهم في بيوتهم، عاملتهم ماديًّا واجتماعيًّا، وناقشتهم ثقافيًّا وعقائديًّا، وسمعوا مني عن ديني وسمعت منهم عن دينهم، وصححت قدر استطاعتي ما جهلوه منه أو شُوّه لهم منه؛ كان بعضهم يطلب وساطتي لنزاع عائلي أو مادي، وكنت أجاملهم في مناسباتهم الاجتماعية أو العائلية.. وكانوا أيضًا يفعلون».

«صحيح أن دخول الأجهزة الحديثة وما تكمله من وسائل الاتصال والتواصل سدت ثغرة في إمكانيات البشر للتواصل مع بعضهم، ولكن تعبير العالم الافتراضي يُعتبر تصويرًا لحقيقة الفرق بين التواصل المباشر بين البشر والتواصل عن طريق الأجهزة مهما بلغ حد تقدمها؛ إن الصورة النمطية في عالم الشرق عن الغرب تحمل كثيرًا من السلبيات الظالمة، وأخرى رغم صحتها.. ولكنها مُضخمة، أنا أتحدث عن البشر ولا أتحدث عن الحكومات أو السياسات، فنرى الصدق والأمانة والنظافة، والعطف على الصغير والضعيف، والدأب في العمل والالتزام بحقوق الغير وحريتهم، وتجنب أذى الغير؛ وباختصار ما يتعلق بقواعد الإنسانية؛ لا يعني هذا أننا لا نرى كثيرًا من التفسخ الأسري أو المعايير المختلفة في الجنس والفكر السياسي والمالي المبني على امتصاص موارد الدول الضعيفة وغيره مما يدل على عُمق سم الاستعمار ووحشيته».

«زادت أعداد المسلمين في الغرب وتناسلوا، وتجذرت أجيال منهم لا تعرف لهم وطنًا إلا الذي يعيشون فيه، وُلِدوا فيه وتعلموا فيه، ويعملون فيه، وتزوجوا فيه وأنجبوا فيه، ويختلطون ويتعاملون مع مَن فيه، ومن المضحك المؤلم أن يأتي لهم المحاضرون من الشرق يحملون ألقابا علمية؛ الدكتور فلان خريج جامعة فرنسية أو بريطانية أو أمريكية أو ألمانية، وعنوان محاضرته: «كيف نربي أولادنا في الغرب؟»، سألت أحدهم؛ وكان قد أمضى عشر سنوات في أمريكا حتى حصل على الدكتوراه، سألته: كم عائلة أمريكية زُرتها في منزلها، ولِكم مرة؟ وكم عائلة أمريكية زارتك في منزلك ولكم مرة؟ وكم حفل زواج أمريكي حضرته؟ وكم جنازة أمريكية سِرت فيها؟ وكم أمريكي حضر جنائزكم؟ وأولادك.. كم من زملائهم يأتون لهم في المنزل؟ وكم هم يذهبون إليهم؟ وهل لجأ لك أمريكي أو لزوجتك لتساعدوا في حل خلاف في عائلته؟ وهل لجأتَ لإحداهن لتقنع زوجتك بالسعادة معك إذا ضجرت؟ و و و و... وأخيرًا كيف كنت تقضي هذه السنوات العشر؟ الإجابة عن السؤال الأخير ترد على كل الأسئلة، حيث كنت قد بدأته بها فقال: لقد حصلت على أعلى الدرجات في كل سنين دراستي، وكنت لا أضيع دقيقة من وقتي، وكنت أذهب من البيت إلى الجامعة،

ومنها إلى المكتبة، وأبدأ من السابعة صباحًا حتى العاشرة مساء، وفي نهاية الأسبوع نتزاور أنا وبعض الإخوة المسلمين، وبالطبع أغلب من أتزاور معهم من بلادنا».

«على القارئ أن يُجيب: هل هذا الدكتور يعرف كيف يتحدث عن كيف نربي أولادنا في الغرب، مع فتاة وُلِدَت في الغرب، وتزوجتْ في الغرب، وأنجبتْ في الغرب؟! وهل يلمس ما يلمسه مراهق أو مراهقة وُلدوا في الغرب وعاشوا فيه ودرسوا في مدارسه واختلطوا بمن في سِنّهم؟!».

«رغم الدكتوراه التي يحملها فإن حديثه عمَّا لم يمارِس ولا يعرف لا يختلف عن حديث الإمام المزيف الذي تحدثنا عنه».

الفصل الثالث عشر

أشباح وهمس

«بعد خبرة طويلة في عالم السياسة، لم أجد أن الجهل يُقيم صروحًا متينة للنقد».

هارولد ماكميلان؛ رئيس الوزراء البريطاني، ١٩٥٧

لا يزال يوسف ندا يحدق كل يوم بذهول في صحيفة «كوريرا ديلا سيرا»، ويستصعب قبول ما تُروجه عن نفسها من أنها من أعرق الصحف في إيطاليا وأكثرها مصداقية؛ فهي الصحيفة ذاتها التي نشرت ذلك التحقيق الذي لا يزال يسبب له إزعاجًا؛ كان هذا يوم ١١ من نوفمبر ١٩٩٧، ويمكن أن تجد أجزاء مبعثرة من هذه القصة على أكثر من ٢٥٠ ألف موقع على شبكة الإنترنت.

هي الحكاية التي وصفها واحد من أعرق السياسيين في أوربا، وكأنها قادمة من كتاب لـ«كافكا»؛ ذاك الكاتب الشهير بكتاباته المرعبة، هذا السياسي هو «ديك مارتي»؛ المدعي العام السويسري السابق ورئيس اللجنة القانونية في الجمعية البرلمانية بمجلس أوربا، وأحد المدافعين المعروفين عن حقوق الإنسان في العالم، والذي قال: للأسف، هذه حقائق حدثت في القرن الحادي والعشرين بدولة عضو بمجلس أوربا، وتحت رعاية الأمم المتحدة، التحقيق كتبة الصحفي «غويدو أوليمبيو»، واشتمل على كل الشائعات التي حيكت بعد ذلك حول يوسف ندا وغالب همت؛

صديقه ونائبه في بنك التقوى، وكان ندا قد تعرض لهجوم شخصي لكونه عضوًا بجماعة الإخوان المسلمين، ووصل الأمر للنشر في عدة كتب أن المخابرات النازية جندته خلال الحرب العالمية الثانية، وأنه كان يعمل ضد البريطانيين، وساعد الحاج أمين الحسيني مفتي القدس لدعم هتلر، رغم أن ندا كان يبلغ من العمر تسع سنوات فقط خلال الفترة الزمنية المذكورة، سألته: وماذا كان رد فعل الناشر والمؤلف حين صححتَ لهم هذه المعلومات؟ أجاب باسمًا: «غيروا فقط تاريخ ميلادي ليجعلوني أكبر قليلًا؛ ولأصبح جاسوسًا في سن الخامسة عشرة».

أما الصحفي الذي وُلد في ألبانيا؛ وهو مندوب الجريدة في تل أبيب «غويدو أوليمبيو»، والذي بلغ من العمر ٥٤ عامًا في ٢٠١٢، فقد قال في محكمة بميلانو عام ٢٠٠٢، إنه أدلى بشهادته أمام جلسة عن تمويل الإرهاب أمام مفوضية الخزانة والأمن بالكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٦، وإنه ذكر اسمَيْ يوسف ندا وغالب همت في هذه الجلسة. وأضاف أن لديه صِلات بمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي «إف بي آي»، وفي مقاله المذكور بصحيفة «كوريرا ديلا سيرا» ذكر أن بنك التقوى ويوسف ندا داعمان لمنظمة فلسطينية مسلحة؛ هي حماس، وبعض المجموعات الأخرى، وأنهما مسئولان عن تمويل كثير من الجماعات الإسلامية المسلحة، وكان هذا التقرير هو الشرارة التي أشعلتْ حربًا بِلا هوادة ضد ندا وبنك التقوى، ووَصم البنك بأنه صندوق للإرهابيين، وتلقفت وسائل الإعلام التقريرَ، فضلًا عن رجال أعمال وآخرين انضموا لهذا السيرك.

كتب «أوليمبيو»؛ الذي عمل مراسلًا للصحيفة من تل أبيب، إن بنك التقوى تبرع بسبعين مليون دولار أمريكي لحماس، وافترض أن البنك هو المصدر الرئيسي لتمويل هذه الحركة، وأضاف أيضًا أنه يمول أعضاء بحركات إسلامية أخرى كالنهضة التونسية والجماعة الإسلامية في مصر والجبهة الإسلامية للإنقاذ والجيا بالجزائر، كما زعم أن البنك تبرَّع بقيمة خمسين مليون ليرة إيطالية لحماس بطريقة غامضة، وأن هذه المؤسسة المالية هي الآلة المالية للأحزاب الإسلامية وبقدرات خيالية، وقال

أيضًا إن ندا عيَّن غالب همت ليرعى شئون حماس وبقية المجموعات الإسلامية ومنها الجماعة الإسلامية.

وقد أقام ندا وهمت دعوى قضائية ضد «أوليمبيو» في ١٩٩٧ أمام المحاكم الإيطالية؛ وهي القضية التي استمرت أربعة عشر عامًا لتدين هذا الصحفي في ديسمبر ٢٠١١. ولا يسمح القانون الإيطالي بإقامة الدعوى ضد صحيفة «كوريرا ديلا سيرا» لأسباب تقنية، وكان على «أوليمبيو» أن يدفع تعويضًا يبلغ عشرات الآلاف من اليورو لكليهما بسبب الأضرار التي لحقت بهما، وقام ندا بالتبرع بنصيبه من هذا التعويض.

كان يوسف ندا على دراية بهذه الحملة التي تُشن ضده وضد الإخوان المسلمين خلال سنوات إقامته في أوربا، وخاصة ما هو ظاهر منها وما هو بعيد عن الأنظار، ومع هذا بدأ مشروعاته التجارية بشكل علني ومفتوح، وكان يعقد اجتماعات في منزله بـ«كمبيوني» بسويسرا، والذي كانت تحيطه في بعض الأحيان هالة من السرية وإجراءات الأمن، وكان ذلك يعود فقط إلى الشخصيات الهامة من زائريه؛ فبعض الدبلوماسيين والزعماء كان يصل على متن طائرة خاصة أو مروحية، وكانت تتخذ بعض الاحتياطات للحيلولة دون استهدافهم، وكان يتم استصدار رخص من أجل هبوط الطائرات الخاصة في مطار «لوجانو» أو لتأمين حماية لزعيم قومي.

فإذا خُطف أو قُتل أحد من زواره هؤلاء وهو في منزله فسيتصدر الخبر صحف العالم، وستكون مأساة شخصية ليوسف ندا وللإخوان المسلمين؛ ولذلك كان يرسل سيارات مصاحبة لسيارات زائره ويُصر على أن يقود سيارة زائره بنفسه؛ ليكون بجواره إن حدث أي شيء، ورغم ذلك لم يحمل يوسف ندا سلاحًا، لا هو ولا أيٌّ من مساعديه رغم أنه يمتلك سلاحًا شخصيًّا مُرخصًا.

في عام ١٩٨١، جهز العقيد القذافي؛ العدو اللدود ليوسف ندا، فرقة اغتيال استهدفت معارضين ليبيين بالخارج، وبالفعل قامت بقتل اثنين منهم؛ محمد مصطفى رمضان في لندن، والخضيري في ميلانو، وتمكنت الشرطة من القبض على أحد القتلة ووجدت معه قائمة المستهدفين، وكان يوسف ندا من بينهم، ثم زارته الشرطة الإيطالية ونصحته بأن يمتلك رخصة سلاح؛ وهو ما قام به بالفعل، وتم شراء مسدسين

من «كومو» وأوصلَتهم الشرطة إلى منزله حيث احتفظ بهما في خزانة، وظلَّا طَوال عشرين سنة من دون أي استخدام؛ ولذلك كان مصدومًا حين هاتفه أحد أصدقائه المصرفيين من «لوجانو» في ١١ من نوفمبر ١٩٩٧ ليخبره عن تحقيق الصحيفة الذي يُورِد أنه متورط في تمويل الإرهاب.

ويسترجع ندا بذاكرته ما حدث قائلًا: «سألني إن كنتُ قد قرأتُ ما نُشر عني بصحيفة «كوريرا ديلا سيرا»، فأجبت بالنفي، فقال إن عليَّ أن أقرأه وأعطيه لمحاميّ كي يتخذ الإجراءات القانونية بحقهم، ومن هنا بدأت الحكاية؛ لقد انتشرت هذه الأكاذيب في كل مكان سواء أكان الأمر بسبب الكراهية، وعن علم أم دون علم، وسواء كان مبعثه عَملًا مدفوع الأجر لمحاصرة الإسلاميين أم عملًا نابعًا من خلفية سياسية أو مالية، وهل هو من أجل أهداف مهنية شخصية أو لصالح بلدانهم أو لهؤلاء الذين مثَّلهم «أوليمبيو» في أمريكا ليُدلي بشهادة زور».

وأضاف يوسف ندا: «إنها تُهم ملفقة، ولم يستطع أحد أن يُثبت عكس ما أقوله؛ لأن هذه ببساطة هي الحقيقة، لكن كذبتهم كانت تكبر وتكبر وهي تتدحرج ككرة الثلج، وكان الأمر مدبرًا بحيث أُذيع في كثير من الأماكن، وكان مُضلِّلًا ويُعاد بشكل متكرر، وتُنسج حوله قصص وصلت إلى مرحلة هسترية، وكان الحديث حوله يذكر وكأنه أمر مُسلَّم به خاصة من قِبل المسئولين وفي الولايات المتحدة والبيت الأبيض والكونجرس».

كما أشار إلى أن: «وزارة الخزانة الأمريكية نقلت هذه الأكاذيب حول دعم بنك التقوى لحماس بسبعين مليون دولار أمريكي، رغم أن رأس مال البنك خمسون مليون دولار أمريكي فقط، هذا فضلًا عن أن أكبر المراجعين الحسابيين في العالم يدققون في أعمالنا وهم «ديلويت آندتوش»، وهؤلاء ليسوا عميانًا ويقومون بالتدقيق ومراجعة كل حساباتنا، وكل التقارير تذهب إلى البنك المركزي في الباهاما؛ وهؤلاء أيضًا لا يغضون الطرف عن أي مخالفات، لكن الصحف التي نقلت كلام «أوليمبيو» في تلك الصحيفة الإيطالية لم تُجْرِ أي لقاءات مع هؤلاء المحاسبين والمراجعين».

وقال ندا أيضًا: «وكالة الأنباء الفرنسية أوردت خطأ بأن «كوريرا ديلا سيرا» ذكرت أن ستين مليون دولار أمريكي حُوّلت إلى بنك التقوى كمساهمة دولية من فروع

البنك في مالطة ولوجانو لتذهب في نهاية المطاف إلى أسامة بن لادن والقاعدة، وفي الحقيقة كان هذا تحويرا لما ذكَرَتْه «كوريرا ديلا سيرا»، وليس ذلك فقط ولكن لم يكن لبنك التقوى أو أي مؤسسة من المجموعة فروع في مالطة، ولم أذهب إلى هناك مطلقًا، وفي «لوجانو» فإن منظمة التقوى للإدارة لم تتلقَّ أي أموال فيما عدا المحوَّلة من بنك التقوى الرئيسي، ولم تقم بأي تحويلات فيما عدا النفقات ورواتب العاملين، وأجرتْ وكالة الأنباء الفرنسية حوارات مع كل قادة حماس وقالوا إن كافة المزاعم الواردة في المقالة لا أساس لها من الصحة، ولم تكن حماس تعرف أصلًا بوجود بنك بهذا الاسم، لقد أوضحنا في نفينا لما ورد في الصحيفة أن كل هذه المزاعم الواردة بحق يوسف ندا ونائبه غالب همت ومجموعة التقوى وبنك التقوى غير صحيحة وملفقة ولا أساس لها مطلقًا، وقد نشروا هذا النفي ولكن بشكل مختصر».

وفي ٢٥ من نوفمبر ١٩٩٧، تسلَّمَ ندا رسالة من رئيس تحرير وكالة الأنباء الفرنسية «فرانس برس» تقول: بالإشارة إلى نفيكم لما ورد بمقالة صحيفة «كوريرا ديلا سيرا»، ستجد فاكسًا يُورِد مراسلاتنا، وقد وضعناه ضمن أخبار الوكالة يوم الثلاثاء ٢٥ مصحوبًا بفاكس آخر وارد من القدس ويحمل نفي حركة حماس، وقد تم إرسالهما إلى نفس المشتركين الذين وصلهم الخبر الأول في ٢٠ من أكتوبر، وقمت بنفسي بإخبار بعض مشتركينا المهمين بهذه المعلومات، كما تم إرسال نسخة باللغة العربية لمشتركي الوكالة على أساس نصكم العربي، أتمنى أن تكون القضية قد سُوِّيت لما فيه مصلحتنا المشتركة. مع خالص تحياتي.

إيف دو سان جاكوب؛ رئيس تحرير

وفي نوفمبر من هذا العام أيضًا، تلقَّى يوسف ندا اتصالًا من «ريتشارد لابفيرييه» من قناة سويس روماند؛ وهي القناة السويسرية الناطقة بالفرنسية، وكانوا يرغبون في الحديث معه لمتابعة ما ورد في مقالة الصحيفة الإيطالية، لكنه بسبب دخوله في منازعة قضائية مع الصحيفة وكاتب المقال، لم يقبل الحديث مع القناة.

وفي وقت لاحق من ذات الشهر أيضًا وقعت حادثة الأقصر الشهيرة حيث قُتل اثنان وستون شخصًا على أيدي إرهابيين من منظمة «طلائع الفتح»، استهدفوهم في معبد الدير البحري؛ وهو من أشهر المعالم السياحية بالأقصر، حيث تَنكَّر ستة

مسلحين في هيئة قوات للأمن قبل أن يَشنوا هجومًا على السائحين استغرق ٤٥ دقيقة، وقُتل كثير من السائحين السويسريين وصبيّ بريطاني في الخامسة، بالإضافة لأربعة يابانيين كانوا يقضون شهر العسل.

بعد أشهر من وقوع هذه الحادثة التي وصفها ندا بأنها هجوم إرهابي بربري غير إنساني، عرضت قناة «سويس روماند» فيلمًا وثائقيًّا من إعداد «ريتشارد لابفيرييه» والذي أورد صورًا لا علاقة لها بالموضوع حول هجوم الأقصر وهجمات أخرى؛ كان تكرارًا للاتهامات الواردة بصحيفة «كوريرا ديلا سيرا» بالإضافة إلى مقابلات أخرى، وقام «لابفيرييه» بتحويل الفيلم بعد ذلك إلى كتاب، وقد استخدم «أوليمبيو» هذا الكتاب في المحكمة كدليل لتبرير مقالته الأصلية على أساس أن المعلومات في الفيلم والمقالة يستندان إلى أصل مشترك.

ويعد يوسف ندا عمل «لابفيرييه» من قبيل الأوهام، ومنها هذه الافتراءات النازية، من أنه كان عضوًا في الاستخبارات العسكرية الألمانية (أبفير) عام ١٩٤٠ وعَمِل لحسابهم في مصر خلال الثلاثينيات؛ وهي معلومات استخدمها مؤلف آخر عام ٢٠٠٢ هو «كيفين كوجان»؛ الذي وصف يوسف ندا، المولود في ١٩٣١، بأنه كان عميلًا نازيًّا خلال الثلاثينيات، وظهرت في هذا الفيلم المدعية العامة الفيدرالية السويسرية «كارلا ديل بونتي»؛ والتي كانت المدعية العامة أيضًا في محاكمة «سلوبودان ميلوسوفيتش» لجرائم الحرب بالإضافة إلى دكتور «أورس فون داينكن»؛ القائد العام للمخابرات السويسرية، وتم سؤالهما: لماذا لم تفتحا قضية ضد يوسف ندا وبنك التقوى بعدما ورد من أحداث بالفيلم؟ وكلاهما أجاب بأنه لا يوجد دليل ملموس لفتح قضية.

وفي ٢٦ من مايو ١٩٩٨، تحدث ندا هاتفيًّا مع مكاتب هؤلاء المسئولين الحكوميين الذين ظهروا على التلفزيون وطلب مقابلتهم، وتم ترتيب ذلك من خلال رسالة فاكس يوم ٢ من يونية، وقالوا ببساطة إنه لا يوجد دليل في الفيلم يدعوهم للتحقيق مع يوسف ندا أو بنك التقوى، ومع ذلك سعى الدكتور «فون داينكن»

للحصـول علـى معلومات في تحقيق كان يجريه عن اثنين من التحويلات المشـكوك فيهـا، وتعاون بنك التقوى مع فريقه وتبين للجهـات الحكومية بأن كل الأمور قانونية وتسير على ما يرام.

وعلـى خلفية حـادث الأقصر، سـافرت المدعيـة العامـة السويسـرية «كارلا ديل كونت» إلى القاهرة لترأس التحقيق.

ولـم يكن مفاجئًا أن تشـير حكومة مبارك إلى يوسـف ندا على أنه شـخص إرهابي خارج عن القانون، وفي أول يونية ٢٠٠٦ كانت المدعية العامة في حوارها مع صحيفة «كورييري ديل تيتشينو» السويسرية بخصوص حادث الأقصر قد أكدت على أن هناك معلومات وردت متعلقة بيوسف ندا وعلاقته بالإرهاب، وقمنا ببحث الموضوع لمدة ثلاثين يومًا، ولـم نجد أي صلة ليوسـف ندا بالمسـألة، ثم قررنا أن تكون المدة واحدًا وثلاثيـن يومًـا كي لا نُبقـي حجرًا على حجر في هذه القضية، واسـتدعينا يوسـف ندا وتحدثنـا معـه، وخلصنـا إلى أنه لا صلة ليوسـف نـدا ولا لبنك التقـوى بالإرهابيين، لقد أخذت هذه المسـئولية على عاتقي ولـم أجد أي إشـارة، كنا دقيقين جدًّا، وتأكدنا أن يوسـف نـدا وبنكـه التقـوى لا علاقة لهمـا بالإرهـاب بتاتًا بتاتًـا بتاتًـا؛ أي كرَّرتها ثلاث مرات.

بعض هذه المعلومات ظهرت على موقع يوسـف ندا لوقت طويل، لكن مضمون مقالـة الصحيفة أُحيط باسـتمرار بالبيانات، كان مفهومًـا إلى حد ما، كما احتوت قصة «أوليمبيـو» على مكونات طبخـة التوقعات والمبالغات كالنظام المصرفي وشـبكات الإرهابييـن وخلفية جنة جزر الباهاما والجبال السويسـرية والاندهاش المسـتمر مما يجري حقيقة في إمارة «ليختينشتين».

ولإثبـات أنـك إذا كررت شـيئًا لبعض الوقت يمكـن أن يتم التسـليم بأنه حقيقي، وجد يوسـف ندا نفسـه في موقف مؤسـف كشـخصيات الروايات البوليسية للكاتب الإنجليـزي «جـون لو كاريـه»، ولـم تنته قصته عنـد هذا الحد؛ فمزيد مـن الفصول لم يُرْوَ بعد.

الفصل الجديد كان مع الولايات المتحدة؛ إذ يقول ندا: «في ٩ من ديسمبر ١٩٩٩ توقفت في مطار أطلنطا قادمًا من «زيورخ» وأنا في طريقي إلى ناساو في الباهاما، لم أذهب إلى ضباط الهجرة الأمريكيين، لكنهم أتَوْا إليَّ وأوقفوني، ولم يسمحوا لي بالصعود إلى الطائرة المتجهة إلى «ناساو»، ووضعوني على متن الطائرة السويسرية العائدة إلى «زيورخ»، وعندما سألتهم عن السبب طلبوا مني الاتصال بأقرب قنصلية أمريكية، ونظرت إلى جواز سفري الإيطالي فوجدتهم قد كتبوا عليه هذا الرقم «217.4'6'A7811 5412 ATC 212 '0'».

«اتصلت بالقنصل الأمريكي بميلانو بتاريخ ١٥ من ديسمبر وطلبت مقابلته، وحين التقاني أخبرني بأن عليَّ أن أطلب استصدار تأشيرة وأحضر له جميع ما كتبَتْه الصحافة عني مترجمًا إلى اللغة الإنجليزية، بالإضافة لوثائق عن بنكي ووثائق مصرفية وحساباتي البنكية وحسابات بنك التقوى وأوراق تسجيل الشركة. أطلقت ضحكة وقلت له: أتريدني أن آتي إليك بنصف دستة شاحنات؟! كل ما أريده هو أن يُرفع اسمي من على قوائمكم. لم أكن أدري ما حدث، فربما كان هناك خطأ أو معلومات غير صحيحة، لكنني قدمت على تأشيرة، وبعد أربعة أشهر؛ في ٢٧ من إبريل ٢٠٠٠ تلقيت خطابًا يفيد بأنني غير مؤهل بموجب البند 212'a"3"b والذي ينص على أن أي شخص غريب انخرط في أنشطة إرهابية أو كان عضوًا في منظمة إرهابية أجنبية أو يمثلها فهو شخص غير مقبول، وكان من الممكن أن تكون الاتهامات التي ساقتها الصحيفة الإيطالية من أنني أمول منظمات إرهابية تُشكّل أساس رفضي تحت هذه البنود، وربما أُوكّل محاميًا في الولايات المتحدة للتعامل مع دائرة الهجرة».

«طلبت مقابلة القنصل الأمريكي مرة أخرى وطلب مني أن أتقدم للحصول على تأشيرة جديدة؛ لأن هذا هو الإجراء الرسمي، وإن رفضت فلن يستطيع مساعدتي، تركته وأرسلت خطابًا أشرح فيه مسألتي له ولدائرة الهجرة الأمريكية من أجل توثيق الموضوع من الناحية القانونية، وقلت في الخطاب: ما يقلقني ليس زيارة الولايات المتحدة أو أي بلد آخر، أريد فقط رفع اسمي من هذه القوائم، وأنا مستعد للمثول أمام أي تحقيق رسمي أو غير رسمي للإجابة عن أي أسئلة تُفضي لرفع اسمي، وبعد

شهرين؛ وفي ٢٣ من يونية ٢٠٠٠، تلقيت إخطارًا من أطلانطا بأن ما حدث معي كان بتعليمات من المقر الرئيسي في العاصمة واشنطن، وأن خطابي قد أُحيل لهذا المقر».

في ٣ من سبتمبر ٢٠٠٠، أرسل ندا خطابًا آخر يطلب ردًّا على رسالته السابقة، وبعد سبعة أشهر؛ وفي ٨ من فبراير ٢٠٠١، تلقى الجواب: كنتَ تسأل عن الشخص المناسب لتتصل به وتناقش معه الأمر، وهذا الشخص هو القنصل الأمريكي في بلد إقامتك، شكرًا للفت نظرنا تجاه قضيتكم وإعطائنا الفرصة لمساعدتك.

بدأ يوسف ندا اتصالاته مع القنصل الأمريكي في ميلانو، وفي ٣٠ من مارس ٢٠٠١ أعطاه نُسَخًا من المراسلات بينه وبين وزارة العدل الأمريكية، ورد عليه بعبارة قصيرة على ورقة صفراء تقول: لا يمكن اتخاذ أي إجراء آخر حتى تتقدم بطلب جديد للحصول على التأشيرة. فما كان من ندا إلا أن استجاب لطلب القنصل وتقدم للحصول على تأشيرة جديدة في ٢٢ من مايو ٢٠٠١، وفي ١٣ من يونية من العام نفسه أرسل فاكسًا للقنصل لتحديد موعد لأنه لم يرد لا على الرسالة ولا على استمارة التأشيرة، ولم يرد أيضًا على الهاتف؛ ولذلك قرر الانتظار.

ويقول ندا: «ماذا عساني أن أفعل؟ لم أتفاجأ بالكفاءة الأمريكية، هل يدرك هؤلاء الناس ما يقومون به؟ فلا شيء يُنْجَز بسرعة أو بدقة، إنه مثال لكيف تسير الأمور بشكل خاطئ، وكيف يمكن للبيروقراطية أن تخلط الحقائق وتدمرها».

لقد كان وقع مزاعم انخراط يوسف ندا ومجموعة التقوى في تمويل الإرهاب كبيرًا عليه وعلى أعماله؛ فقد كان يكفي أنه بنك إسلامي لدقّ ناقوس الخطر والذعر من شيء مجهول، وكان هناك حسابات المضاربة التي تُمَكِّن العملاء من الاستثمار وفقًا للشريعة وطبقًا لأحكام الإسلام.

عندما أسس يوسف ندا بنك التقوى عام ١٩٨٨، راعى في إنشائه القواعد القانونية مراعاة متشددة، وكان مطلوبًا أن يُدْخِل في مجلس الإدارة في منظمة التقوى للإدارة مواطنًا سويسري الجنسية، وقام بهذا الدور الصحفي السويسري الذي اعتنق الإسلام «أحمد هوبر»؛ ويقول ندا إن ما يعرفه عنه أنه شخص جيد، «ولكن ظهر وسط

الشائعات أن «هوبر» كان لديه تاريخ من التأييد اللفظي لهتلر، ولا علاقة لي بآراء الآخرين السياسية، ولكنه كان رجلًا أمينًا وشجاعًا وملتزمًا بدينه وفخورًا به. ولم يتخلَّ عنَّا وقت الشدائد، وعندما طُلب منه أن يكتب طلبًا لحذف اسمه من قوائم الإرهاب التي وُضع فيها بسبب علاقته بنا رفض أن يكتب، وقال إنه شرف لي أن أكون في قوائم أعداء جورج بوش، ولا أريد أن يُمحى عني هذا الشرف».

«كان من المؤلم أن يُنشر أن «فرانسوا جينود»؛ عضو مجلس الإدارة لبنك آخر في جنيف كان قد أدار مرة أصولا للنازية بعد الحرب العالمية الثانية، ونشر يوميات «جوزيف جوبلز»؛ وزير الدعاية في عهد هتلر، وموَّل الدفاع عن «إيخمان» عندما اختطفه الموساد من أمريكا الجنوبية وشحنته إلى إسرائيل لمحاكمته التي انتهت بإعدامه؛ وهو صديق لأحمد هوبر، حتى وإن كان يوسف ندا لم يقابل «جينود» أبدًا.

أيضًا كان «أحمد نصر الدين» أحد مؤسسي بنك التقوى وعضو مجلس إدارته هو إريتري الأصل كان له مشروع مع شركة مجموعة بن لادن للمقاولات، وكان قنصلًا فخريًّا للكويت «ميلانو»، ومؤسس المركز الإسلامي في «ميلانو»، ورئيس الجالية المسلمة في «تيتشينو» جنوبي سويسرا، وكان أعضاء إدارة بنك التقوى الآخرون غير يوسف ندا ونائبه غالب همت وأحمد نصر الدين هم زغلول النجار ومنّاع القطان وحلمي عبد المجيد، ولم يخفف من القصص التي حِيكَت حول البنك وجود العالم الجليل الشيخ يوسف القرضاوي ضمن المؤسسين، بل زادتها.. وأُضيفت إليها، وعلى الجهة المقابلة كيف يمكن تخيُّل أن يكون هناك ستة من المساهمين في البنك مرتبطون بأسامة بن لادن ومنهم أختاه هدى وإيمان بن لادن وأخوه غالب بن لادن، والجميع من أصحاب الأعمال المحترمين، ولكنهم في نهاية الأمر ضمن أفراد العائلة، وهو أمر لم يساعد بالطبع مهمة تحسين العلاقات العامة، وخاصة أن يوسف ندا كان يدرك أن هدف الحملة هو ربط جماعة الإخوان المسلمين بالقاعدة، وكان يخشى أن يُتهم باختراق القانون، وتُلصق به تُهم جنائية وليست سياسية.

وكانت المخابرات الإيطالية قد قامت بالتحقيق في أمور البنك منذ عام ١٩٩٦ حين تم تفجير مقر القنصليتين الأمريكيتين في كل من نيروبي بكينيا وفي دار السلام

على بُعد ٤٥٠ ميلًا منها بتنزانيا، كل هذا نُشر في تحقيق صحيفة «كوريرا ديلا سيرا» في ٧ من نوفمبر ١٩٩٧، وكانت الأسابيع والشهور التي تلت هذا الأمر صعبة على ندا الذي عَمِل بِجِد لتأسيس ما يعتبره نظامًا مصرفيًّا أخلاقيًّا، وزاد من الطين بلة الأزمة المالية التي ضربت دول جنوب شرق آسيا.

وكانت الدعاية الرهيبة ذات أثر سيئ للغاية، وهو ما يُشير له يوسف ندا بقوله: «تردد صدى هذا الموضوع في كل مكان، وانهالت علينا الاتصالات والمراسلات من عملاء البنك وحاملي الأسهم ومؤسسات مصرفية ومالية يسألون جميعًا عن تأثير هذا الموضوع، وكان هناك تسارُع لسَحْب الودائع وإغلاق لحسابات المضاربة وتأجيل وإلغاء للصفقات، وتجفيف للتحويلات الجديدة».

يقول ندا: «من المعروف في مجال البنوك أن الشائعات والتقارير الإعلامية السلبية ضد أي بنك بغضّ النظر عن حجمه تعني بداية النهاية للبنك، وكانت الكارثة الموازية هي تلك التي ألمّت بجنوب شرق آسيا؛ حيث انهار الاقتصاد وأسواق المال، وكانت استثماراتنا هناك تبلغ ٥٠٠ مليون دولار أمريكي تقريبًا».

«لم يشهد البنك خسائر قبل ذلك، وكما قلت فقد كنا نوزع معدل الربح الذي تحققه المضاربة بنسبة ٧ إلى ١٠ في المئة.. بل وأكثر، وقد بلغت نسبة سحوبات العملاء مع نهاية ١٩٩٧ قيمة إجمالية ٣٦ مليون دولار أمريكي، ومع نهاية ١٩٩٨ بلغت القيمة ١٠٠ مليون دولار أمريكي؛ كانت الخسارة فادحة ووافَقَت اللجنة الشرعية والجمعية العمومية والإدارة على تنفيذ شروط المضاربة المنصوص عليها في العقود ووقف السحوبات حتى يتم تسييل أصول المضاربة من أجل تحديد مَن خَسر ماذا، وكما قلت منذ اليوم الأول لإنشاء البنك؛ فسياستنا هي التأكد من أن كل العملاء يوقّعون على العقود، والمذكور فيها أنهم يعلمون أنهم يتعاملون مع بنك التقوى في الباهاما، وهو المسئول عن مرابحاتهم، وأن إدارة البنك في سويسرا تقوم فقط بالمراجعات الحسابية الداخلية ودراسة جدوى المشاريع وليس أنشطة بنكية، وأيضًا جميع شروط المضاربة الأخرى وأهمها أنه في حالة الأرباح فإن صاحب حساب المضاربة يُصرف له ٧٥٪ من الأرباح والبنك يكون نصيبه ٢٥٪، أما في حالة الخسائر فإن البنك يخسر

جهده ومصروفاته وصاحب الحساب يتحمل كل الخسائر، ولم نتردد في رفض وإرجاع أي مبلغ لصاحبه إن لم يوقِّع على عقد المضاربة وشروطها».

«وعندما أصبحت الخسارة حتمية، رفض أقل من خمسة من ضمن آلاف العملاء للبنك الانتظار لتسييل أصول المضاربات؛ للتهرب من خصم الخسائر، وقام اثنان منهم بمطالبات في سويسرا ضد شركة إدارة التقوى هناك لتجنب تطبيق شروط المضاربة التعاقدية مع البنك، وتم إحالة هذا الطلب للسلطة المختصة؛ وهي المفوضية الفيدرالية البنكية السويسرية التي قامت بالتحقيق في القضية، وعينت شركة «برايز ووتر هاوس كووبرز» لفحص أنشطة ووثائق وعقود وحسابات إدارة التقوى، وبعد انتهاء التحقيق أعطتنا المفوضية شهادة بأن الأمور كلها سليمة، وطلبت منا تغيير اسم الشركة فقط، وأصبحت بعد ذلك تحت اسم ندا للإدارة، بعد ذلك رَفَع أحدُ الذين رفضوا قبول الخسائر دعوى مدنية ضد البنك أمام المحكمة العليا في الباهاما التي رفضت دعواه وحكمت لصالح البنك، ولا يوجد بنك في العالم ليست لديه منازعات مع عملائه؛ ولهذا يوجد قسم قانوني في كل بنك».

«وكانت هذه هي الدعوى الوحيدة التي واجهتنا خلال عملنا الناجح على مدار ١٣ سنة، وللأسف كان اسم الذي أقام الدعوى مُلفِتًا للانتباه، لأنه كان غالب بن لادن شقيق أسامة رحمه الله. وكان معروفًا أن عائلة بن لادن ليس لديها أي صلات مباشرة مع أسامة بن لادن بعد أن تبرأت منه، ولم يُعتَبر أي من أفرادها إرهابيًّا؛ فأعمالهم ما زالت تزدهر، وكلهم أشخاص محترمون مهذبون متعلمون، لكن مشكلتهم تكمن في اسم العائلة الذي يحملونه، والناس يذهب خيالها كل مذهب كلما سمعوا هذا الاسم، والكثيرون يكتبون ويتحدثون عن العائلة وعني، ولا أدري في الحقيقة ما هي أهداف هؤلاء المهاجمين أو حقيقتهم؛ هل هم جواسيس أو عملاء لحكومات؟ لا أدري، أنا منفتح على كل إنسان وأتكلم بصدق دائمًا.. هكذا أنا، وكان عليَّ أن أدافع عن نفسي، هذا كل ما في الأمر، لا يهمني ما يفعلونه ضدي ولحساب من، قطعًا لديهم أجندة خاصة، لكن أي أجندة؟ لا أدري؛ فأنا لم أقابلهم أبدًا. لا أعتبرهم مهمين جدًّا، لكن بالفعل لقد سكبت اتهاماتهم الزيت على النار».

«ولم ننهزم واستعنا بالله، واقتنع بعضُ رجال الأعمال بقُدرتنا على النهوض مرة أخرى وضخوا أرصدة جديدة في حسابات مضارباتهم، وبدأنا في تحقيق بعض الأرباح ظهرت في ميزانية نهاية عام ٢٠٠٠، ثم هبطت صاعقة ١١ من سبتمبر».

«توقف كل شيء ومُنِعنا من السفر وجُمّدت أموالنا وممتلكاتنا، وعُيّن مصفٍّ للبنك، ومهمة المصفي أن يحصل على ويسيل أصول البنك ويسدد خصومه، وكانت أهم أصول البنك اعتمادات مستندية من بنوك العملاء والشركات لبضائع شحنّاها، ومعروف أن الاعتمادات المستندية تذكر البنوك فيها أنها صالحة للدفع إن سُلّمت المستندات في خلال مدة محددة من تاريخ الشحن، كانت بضائع وآلات متنوعة، ولم نستطع الحصول على المستندات أو متابعة ما حدث للبضائع أو الآلات، ولا أحد يرد على استفساراتنا، وسقطت مواعيد التزامات البنوك بانتهاء صلاحية مستنداتها؛ الأمر الآخر أننا كنا أعطينا ضمانات بنكية لتنفيذ مشاريع أخرى وتسليم بضائع، فلما جاءت الأحداث وتوقف العمل ولم نستطع التنفيذ والتسليم سُحبت الضمانات وسدّد المُصفي كل الخصوم، ولكنه لم يستطع تحصيل الأصول، وكان خائفًا وعلى عجل بما عليه من ضغوط سياسية فأنهى التصفية حسب القانون وقدم تقريره عنها للبنك المركزي ولسجلات الدولة التي شطبت البنك من سجلاتها في ٩ من يناير ٢٠٠٤، وهذا هو الإجراء القانوني العادي في التصفية. كنت أنا وغالب همت أكبر المساهمين وأصحاب أكبر حسابات المضاربة، وبذلك أصبحنا أكبر الخاسرين، وربحنا أول جولة ضد المدعي العام الفيدرالي السويسري في ٣٠ من مايو ٢٠٠٥ عندما التزم بغلق التحقيقات وإعلان أنه لم يجد شيئًا يُدِيننا، فتقدمنا فورًا بقضية مطالبة بالتعويضات التي لا بد من إثبات كل رقم فيها للمحكمة، ورغم أننا كنّا محاصَرين وممنوعين من السفر، والشركات والبنوك والموظفون لا يردون علينا ويرفضون أي اتصال بنا إلا أننا استطعنا أن نُكمل ملفًّا ببعض خسائر البنك التي تسببت فيها التحقيقات الظالمة، وبلغت الأرقام التي تمكنا من جمع مستنداتها من المصفي وغيره ٢٤٠ مليون دولار، وقدمناها للمحكمة التي جاء حكمها كارثيًّا لا مجال للطعن فيه، حيث رُفضت القضية وقالت إن بنك التقوى انتهت تصفيته عام ٢٠٠٤

وهو غير موجود، وليس من حق أحد أن يقاضي باسـمه، ورغم أني لا أجد سـببًا ألوم فيه نفسـي على الأذى الذي أصاب المساهمين والمضاربين؛ فلم تكن تنقصنا الخبرة ولا العلم، ولا الأسـواق ولا الاتصالات، ولا السـمعة الحسـنة ولا الطاقة، ولا ركَنّا إلى الراحة أو الإهمال، ولم نكن هواة جددًا في الأسـواق، ولم نغامر أو نتهور، وكل من يعرفنا وسـاهم معنا يعرف ذلك، واحتسـبت ذلك عند الله؛ فلم تكن المرة الأولى أن يُهدم ما بنيته، ولكن ما آلمني هو الشظايا التي أصابت المساهمين والمضاربين في البنك، ونسأل الله أن يعوض كل من تضرّر في هذه الخسارة قبل أن يعوضنا».

«وطُويت صفحة بنك التقوى وطُوي معها كفاح سنين طويلة وأرصدة المساهمين والمضاربيـن، وكان رصيدي أنا وغالب همت يمثـل ٦٥٪ منها، وما زلت على قوائم الأمم المتحدة، وأيضا القوائم الأمريكية، وأملاكي وحسـاباتي مجمدة ومحرمًا علي مغـادرة القرية التـي أقيم فيها؛ وهـي «كمبيونة»، ومسـاحتها كيلو متـر مربع ونصف، وتراكَمَـت علينـا فواتير الضرائب والمحامين، ولم يكن هناك بُدٌّ من بيع بعض أملاكنا المسجلة بأسماء بعض العائلة منذ السبعينيات بأسعار أقل من ربع قيمتها؛ فليس هناك مُشترٍ فدائي إلا أن يكون هناك ما يغريه».

«ليس الأمر بجديد، وليسـت المرة الأولى التي أَهبط إلى الصفر وأصعد إلى أكثر من بليون، ولكن هذه المرة كنت في هذا الوقت قد بلغت ٧٥ عامًا».

«يا الله، الحمد لك والشكر لك والنعمة لك، رب لا تدعني إلى عدو ملَّكْتَه أمري؛ فأنا عبدك وابن عبدك، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي!!».

وعلى موقع الإنترنت الذي يحتفظ يوسـف ندا لنفسـه فيه بحق الرد على منتقديه، الذين كانوا عنيفين في العادة، كتب يقول:

«إذا قيل إنني مهندس.. فهذا صحيح.
إذا قيل إنني رجل أعمال.. فهذا صحيح.
إذا قيل إنني بنكيّ.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني رجل صناعة.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني أعمل في التطوير العقاري.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني سياسي.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني متحرك.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني ديمقراطي.. فهذا صحيح.

إذا قيل إنني اشتراكي.. فهذا صحيح.

وإذا قيل إنني إسلامي.. فهذا صحيح».

«أما إذا قيل إنني إرهابي أو أُموِّل الإرهاب أو كانت لديَّ أي صلات مع الإرهاب فهذا خطأ وخداع وتضليل، وهذه أمور تتعارض مع إيماني وديني وكل ما أؤمن به».

وكانت هذه هي العبارة الأخيرة التي ما فتئ يوسف ندا يكررها مرات عديدة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر عندما أصبح متورطًا في إرث هذا اليوم الفظيع من الهجمات على مدينتَيْ نيويورك وواشنطن عندما توقف العالم عند البعض وتغير عند ملايين آخرين، كان هذا عندما انقلب العالم كله رأسًا على عقب وتسمَّرنا جميعًا ونحن نرى إعادة صياغة قواعد لعبة القوى الدولية، عندما بدأ الرئيس الأمريكي «جورج بوش» ما سماه الحرب على الإرهاب وحربه الصليبية، وكان يوسف ندا يمثل إحدى الإصابات في صفوف المدنيين جراء هجمة «جورج بوش»، وكان عليه أن يعرف مصيره على الطريقة الحديثة من شاشة التلفزيون.

كان في مكتبه الأنيق ببناية في المركز التجاري بمدينة لوجانو السويسرية عندما سمع في الأخبار ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر، وعندما علم حقيقة ما وقع في هذا اليوم أدلى بتصريح للصحف يُعرب فيه عن خالص تعازيه، ويُعبر عن قلقه من هذا السلوك الإجرامي لهذه الهجمات الوحشية، وفي المقابل تم اتهامه بأنه يحاول التغطية على أعماله البنكية الإرهابية بالإدلاء بمثل هذه التصريحات.

وفـي خـلال أيـام قليلة من هجمـات الحادي عشـر من سـبتمبر تم توزيع أسـماء المشـتبه بهـم على كل البنوك فـي العالم، مع توجيـه بالإبلاغ عن أنشـطة تتعلق بهم. تفحـص بنـك التقوى القائمة ولـم يجـد فيها ما يمكن الإبلاغ عنـه، ولكن وجد بعض التشـابه في أجزاء من الاسـم أو العائلة، وامتثلوا لهذه الأوامر وقدموا الوثائق المعنية للبنـك المركزي في الباهاما الذي سـلَّمها بدوره للمدعي العـام هناك قبل أن يوصلها إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي «إف بي آي».

ثم كان أول الغيث قطرة قبل أن ينهمر؛ ففي ٢١ من سبتمبر؛ أي بعد هذه الهجمات بعشرة أيام فقط، عرف يوسف ندا أن وزارة العدل السويسرية والشرطة تلقَّوْا طلبًا من الولايـات المتحدة للمسـاعدة القانونية فـي التحقيق في مجموعة التقـوى، انتاب ندا القلق لكنه حافظ على هدوئه، فما الذي يدعو رجلًا بريئًا للخوف؟! لكنه يبدو بالنظر لما ستئول إليه الأمور، كان الخوف مجرد مقدمة لكوابيس أخرى قادمة.

تلقى يوسف ندا اتصالًا هاتفيًّا بتاريخ ٢٩ من أكتوبر ٢٠٠١ من القنصل الأمريكي في روما يذكره بأنه قدم طلبًا كتابيًّا لواشنطن لرفع اسمه من على أي قوائم عدم دخول أمريكا، وعدم ربطه بالبند ٢١٢ a و ٣ b الذي يربط بينه وبين الإرهاب، وتمخض هذا الاتصال بترتيب لقاء بينه وبين عميل لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي «إف بي آي»؛ ويدعى «جون كوسـنزا» بمقر القنصلية الأمريكية في ميلانو بعد ذلك بعدة أيام، وعندما وصل يوسـف ندا طلب منه أحدُ الحراس بغلظة أن يقف في الصف بالشارع. أخبره بأن لديه موعدًا بالداخل لكنه أصر على أن ينتظر، فقال له: «قل لـ«كوسـنزا» إن يوسف ندا لا يقف في صفوف المتسولين». وانصرف.

اتصل عميل الـ«إف بي آي» عدة مرات بيوسف ندا ليعتذر له عن سوء الفهم الذي جـرى، وأنه تم تحديد موعد آخر للقاء «كوسـنزا» وعميلة أخـرى مقيمة في روما هي «ليندا فيتي». يقول ندا: «أخذت معي صورة من الملف الذي سلمته للبنك المركزي، وشرحت لهم نقاشاتي مع القنصل الذي طلب مني إحضار مستندات تتطلب شاحنات لحملها، وقلت لهم إذا كان هذا الرجل لا يعلم عن الأمور المالية أكثر من راتبه وقسط

بيته وطعامه وثياب زوجته، كيف له أن يفهم الوثائق المالية لمصرفي؟ وكيف يمكنني إحضارها له؟ هل أحضر له عدة شاحنات؟».

«سألوني عما نُشر في صحيفة «كوريرا ديلا سيرا»، وأسئلة أخرى عني وعن التقوى ومركز ميلانو الإسلامي والسيد نصر الدين؛ كانوا يريدون معرفة معلومات عن أسرتي وأنشطتي كسياسيٍّ أو مصرفيٍّ، كان واضحًا أن لديهم معلومات مسبقة من جهة أو شخص ما، وبدَوْا وكأنهم يتحدثون وفق نص مكتوب، وكان هذا مجرد بداية لما يمكن أن نسميه موسم التصيد. ففي ٥ من نوفمبر ٢٠٠١، اتصل بي «مارك هوسينبول» من مجلة «نيوزويك» الأمريكية وسألني عن السيد نصر الدين ومسجد ميلانو، وطلب مني اسم محامينا ورقم هاتفه، اتصل به فعلًا وأخبره عن حديثنا ولم يكن دقيقًا، وعندما أخبرني المحامي بهذا طلبت منه أن يرسل له تصحيحًا رسميًّا لمحادثتنا وتحميله المسئولية عن أي تغيير، وفي اليوم التالي اتصلتُ بـ«جون كوسينزا» وأخبرته عن هذه المكالمة».

«وفي ٦ من نوفمبر، وصل السيد نصر الدين من المغرب، وذهبت بصحبة عمر ابنه لمطار «مالبينسا» بميلانو لاستقباله، وفي طريقنا للعودة إلى «لوجان» بسويسرا استوقفتنا الشرطة الحدودية السويسرية في «كياسو»؛ كانوا يعلمون بتحركنا، واصطحبونا إلى مرآب (جراج) سيارات وقاموا بتفتيش كل جزء في السيارة، واستغرق الأمر ساعتين، وعندما وصلت البيت اتصلت بمحاميَّ الخاص وطلبت موعدًا للقائه في الصباح».

وفي اليوم التالي كان يوسف ندا على موعد جديد مع القدر؛ حيث سارت حياة الصبر والتفاني التي عاشها في اتجاه آخر يفوق الخيال، وبدا أن الحرب الصليبية التي أعلنها «جورج بوش» أصبحت حربًا شخصية ضد يوسف ندا، واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتم سؤال ندا عن مفتاح الملجأ النووي في منزله!!

الفصل الرابع عشر

الحملة الصليبية

«كل دولـة، فـي كل مكان، عليهـا الآن أن تُقرر؛ إما أنكـم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين».

الرئيس بوش الابن، خطاب الجلسة المشتركة للكونجرس، ٢٠ من سبتمبر ٢٠٠١

كان يوسـف نـدا لا يـزال منزعجًـا كل الانزعـاج مـن حادثـة الحـدود الإيطاليـة السويسـرية عندما غادر فيلًّا ندا في «كمبيوني» الإيطالية السـاعة الثامنة والنصف من صبـاح السـابع من نوفمبر ٢٠٠١، وبدأ قيادة سـيارته هابطًا الجبـل متجهًا إلى مكتب محاميه في «لوجان»، ومن هناك اتصل هاتفيًّا بمكاتبه لكن لم يرد أحد عليه.

فاتصـل بغالـب همت علـى هاتفه الجوال، لكنه كذلك لم يـرد، وفي غمار حيرته، اتصـل يوسـف ببيـت غالـب حيـث ردت عليـه هادية ابنـة غالـب، وقالـت هادية إن البيـت يعـج بالمخبرين يجوسـون فيـه، كما يحيـط غيرهم به مـن الخـارج؛ كأننا في مؤتمر للشرطة.

وسمع يوسف على الهاتف شخصًا يأمرها بالكف عن الحديث بالعربية والتحدث بالإيطالية وحدها، وأخبرته أن أباها قد غادر البيت غير أنهم لم يسمحوا لها بمخابرته، واتصـل يوسـف ببيته فوجد الحـال هناك هو نفس مـا عليه بيت غالـب همت، وأخذ شـرطي السـماعة من الخادمة وسأل يوسـف عن مكانه، وخلال دقائق أصبح يوسف

ومحاميه على موعد مع «كلود نيكاتي»؛ نائب المدعي الفيدرالي السويسري في مكتبه في «لوجانو» الساعة الثانية بعد الظهر.

كان «نيكاتي» رجلًا بيروقراطيًّا، وكان على مكتبه ملف مفتوح، وطَرح الأسئلة المعتادة: الاسم، وتاريخ الميلاد، اسم الأب والأم، والعنوان والمهنة. ثم بدأَتْ فقرات الاختبار المالي:

- س: ما هي الأعمال التي تقوم بها شركة التقوى للإدارة في لوجانو؟
- ج: التدقيق الداخلي للشركة الأم؛ بنك التقوى، ودراسات جدوى لمشروعاتها.
- س: من أين يأتي دخل الشركة؟
- ج: من الشركة الأم؛ بنك التقوى.
- س: بأي عملة يَدفع البنك للشركة؟
- ج: بالدولارات الأمريكية.
- س: ماذا تفعل بالدولارات؟
- ج: أدفع نفقات الشركة.
- س: لا، أنت تُحوِّل الدولارات إلى العملة السويسرية، فماذا تفعل بالفرنكات النقدية؟
- ج: نحن لم نسحب نقدًا أبدًا، نحن ندفع المرتبات والنفقات من خلال البنوك ومقابل الفواتير، وكل فرنك سويسري تم دفعه عن طريق البنك، وتم تسجيله في الحسابات، ومن ثَمَّ خضع للتدقيق والمراجعة.

ثم أخرج «نيكاتي» بيانًا برصيد التقوى للإدارة في حساب لدى بنك «ديل جوتاردو»، وقد وضع تحت التفاصيل المختلفة خطوطًا بالحبر الأحمر والأزرق والأخضر، ثم واصل استجوابه ليوسف:

- س: هل بيان الرصيد هذا يتعلق بشركتك؟

- ج: نعم.
- س: هنا يمكنك أن ترى ٢٠٠ ألف دولار وصلت ثم تم تحويلها إلى فرنكات سويسرية وصُرِفت ثم خُصمت؛ وها هنا مبلغ آخر: ٣٠٠ ألف دولار، وهنا ٥٠٠ ألف دولار... وهكذا دواليك، ماذا فعلت بكل هذه المبالغ؟

ظل يوسف هادئًا، ثم أجاب:

- ج: هل تفهم في المحاسبة؟

انزعج «نيكاتي» بشكل واضح؛ فهو المدعي العام للاتحاد السويسري، وغمغم بحدّة: ماذا تعني؟

فأجاب يوسف: «إذا كنت تفهم المحاسبة، فبإمكاني أن أشرح لك، أما إذا لم تكن تفهمها فكيف أستطيع ذلك؟». وواصل يوسف ندا قوله له: «إذا نظرت إلى هذا البيان لوجدت في أعلاه مكتوبًا أنه حساب بالدولار الأمريكي، وعندما يُحوّل أي مبلغ إلى الفرنكات السويسرية فيجب أن تخصمه من حساب الدولار، وتضيف قيمته بالفرنكات في حساب الفرنك السويسري؛ فتحويل الدولارات إلى فرنكات يقتضي الخصم من حساب الدولار، ولكنه لا يعني صرف الفرنكات نقدًا أو اختفاءها».

- س: هل هذا يعني أن الشركة لها حساب آخر مع نفس البنك، لكن بالفرنك السويسري؟
- ج: بالطبع لدينا.
- س: وإذا سألت بنك «ديل جوتاردو»، فهل سأعثر عليه؟
- ج: نعم، بطبيعة الحال.

وقال يوسف ندا إنه تساءل مرات عديدة عن التهمة الموجهة أو قد تُوجّه إليه؛ فكانت إجابة «نيكاتي» الدائمة بنفس الكلمات: سوف تعرف فيما بعد.

وواصل يوسف ندا روايته عن الاجتماع بقوله: «سجّل الرجلُ مناقشتنا في محضر الاستجواب، لكن بأسلوب انتقائي مختصر، ولكن الأسئلة والأجوبة التي ذكرتها الآن كُتبت كما هي، وأدركت أن الرجل المسئول عن التحقيق في حالتي يفتقر لمعرفة الأمور المالية، وحتى مبادئ المحاسبة، وتذكرت القنصل الأمريكي الذي ليس لديه علم أو حتى فهم بالأمور البنكية، ولا يتجاوز علمه المالي حدود مرتبه والشئون الداخلية لبيته».

«وعلى الرغم من ذلك، كنت أتوقع أن يضم فريق التحقيق العامل مع «نيكاتي» خبراء ماليين ومصرفيين ومحاسبين قادرين على الفهم وكشف واكتشاف أننا ضحايا أشخاص غير متميزين أو مؤهلين لأي عمل مهم، وهأنذا مرة أخرى: في نفس الموقف المؤسف، إنهم يقلبون في أيديهم أوراقًا.. بيد أنهم لا يستوعبون ما فيها».

«وفجأة، انشغل عني السيد «نيكاتي»؛ إذ همس أحد مساعديه في أذنه بشيء، فنظر إليَّ قائلًا إنه سيوقف الاستجواب الآن، وسوف يواصل التحقيقات في يوم آخر، وطلب مني الرجوع إلى بيتي لأفتح خزينتي وأفتح له كذلك الملجأ النووي (كل البيوت المبنية حديثًا في سويسرا يجب أن يكون بها مخبأ نووي بمقتضى قانون المباني)، وكانت مفاتيحهما معي».

«رجعت إلى بيتي ومعي محاميّ لأجد بالمنزل نحو عشرين رجلًا وامرأة من الشرطة؛ بعضهم يرتدي الزي الرسمي والبعض الآخر في ملابس مدنية، وقد تعامَلَتْ زوجتي معهم باقتدار، رغم أنها كانت وحدها، ولم يكن معها سوى أفراد قلائل من الخادمات عندما اقتحمت الشرطة البيت، وكانت معهم خريطة بالأماكن التي سوف يداهمونها: بيتي، وبيت غالب همت والمكاتب. أماكن سَلَّطت الكشافات أضواءها عليها».

«أصبحت مكتبتي مبعثرة، والكتب في كل مكان ملقاة على الأرض، كان ثمة ضباط من خمسة بلاد مختلفة، وسمعت لهجات أمريكية ولغات إنجليزية وإيطالية وألمانية سويسرية وعربية، وهتفت بالإيطالية بصوت يعلو على ضوضاء المتحادثين وكلامهم: هذه تصرفات مليئة بالتجاوزات القانونية».

«كنت أرى هذه المداهمة مليئة بالأخطاء، وغير سليمة، وجاء الذي رأيته يهمس في أذن نائب المدعي العام، وانتحى بي جانبًا ليقدمني إلى أحد القضاة الإيطاليين الذي حضر مع المداهمين ليقنن ما كانوا يفعلونه، وقال لي أمام القاضي: كل أفعالنا التي تعتقد أنها مليئة بالثغرات هي قانونية. فأجبته: أرى أن المسألة سوف تستغرق وقتًا كي يُثبَت قانونيتها من عدمها؛ وقد اتضح مع مرور الوقت أن ملاحظتي كانت أدق عبارة وأصدق تعليق ذُكرا في ذلك اليوم».

في عصر ذلك اليوم، وبينما كانت قوات الأمن تحيل بيت يوسف ندا إلى ما يشبه سوق الخردة، كان الوقت صباحًا في العاصمة الأمريكية واشنطن، وظهر الرئيس «بوش» على التلفاز ليقرن اسم يوسف ندا وبنك التقوى بتمويل الإرهاب، وتوعَّد الرئيس بأن أمريكا سوف «تجوّع» كلًّ من لهم علاقة بالتقوى، وأعطى حديثه انطباعًا بأنه: بنك ما في مكان ما، وهو وصاحبه كلاهما يصعب على الناس في ولاية «أيوا» تهجئة اسميهما، ناهيك عن نطقهما، ومهما كانت فكرته من وراء ذلك فقد كانت الرسالة واضحة كالشمس».

(وصف رجال النيابة السويسريون بيت يوسف ندا في «كمبيوني» الإيطالية، الذي عاش فيه أكثر من ثلاثين عامًا، الملجأ الفاخر والبعيد عن الحياة الصاخبة - بأنه «وزارة خارجية» الإخوان المسلمين، وزعموا أن يوسف ندا كان له دور أساسي في إنشاء فروع الإخوان المسلمين في أوربا وأمريكا من حيث إدارتها ودعمها ماليًّا).

اتخذ الرئيس «بوش» نيابة عن الولايات المتحدة موقف المحارب المتباهي بعضلاته: وفي هذا الموقف لم يراعِ الحساسيات أو العواقب التي قد تؤثر على الآخرين ممن لم تكن لهم علاقة، وبعد الحادي عشر من سبتمبر أعطى الرئيس «بوش» لمكتب التحقيقات الفيدرالي جميع الصلاحيات التي تكاد تتطابق مع ما منحها إياه الرئيس «فرانكلين روزفلت» عقب الهجوم على «بيرل هاربور» منذ ستين عامًا.

والسؤال هو: هل كانت ملاحظات الرئيس بوش والتصرفات الأمريكية بصددها هجومًا شخصيًّا على يوسف ندا ومجموعة بنك التقوى التابعة له؟ أم أنه كان يقصد

الإخوان المسلمين؟ لقد دافع يوسف ندا عن نفسه، وعن معتقده ضد أكثر المتناقضات شذوذًا، وما زال يفعل ذلك، في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين: قرنوا اسمه بفظائع لا يمكن أن يوافق عليها أبدا، ناهيك عن أن يشترك فيها.

ويعود يوسف ندا بذاكرته قائلًا: «عندما تَحدَّث رئيس الولايات المتحدة بتلك الطريقة لم تكن هذه مشكلة ليوسف ندا وحده، بل قد تَحدث لأي شخص آخر، كيف يمكن للمرء أن يثبت براءة نفسه؟ بموجب هذا التوجه أنت مذنب حتى تتمكن من تبرئة نفسك، كان واضحًا كل الوضوح من التعبير الذي استخدمه «جورج بوش» عندما بدأ عدوانه على العالم الإسلامي أنه وضع دينًا في مواجهة دين آخر، كما وضع السياسة في مواجهة ذلك الدين كذلك؛ «حرب صليبية». وبالطبع فإنه عندما يقول: «بعض الإرهابيين»؛ فنحن جميعًا نقبل هذا التعبير لأننا كلنا مستعدون لمحاربة الإرهاب».

«لا ينبغي أن يلقي أحد باللوم على الإسلام؛ بن لادن لا يمثل الإسلام في شيء، إن «جورج بوش» مسيحي، ولكن المسيحية لم تجلب الحرب أو الموت إلى العراق وأفغانستان، كِلا الطرفين استخدم الدين لتبرير أفعاله، في حين لم يكن للدين موضع فيما حدث».

«وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم يعد أحد في الغرب يتعامل مع أي شيء يتعلق بالمسلمين بنفس الطرق التي كانت متبعة قبل تلك الأحداث، لقد تحدث الرئيس «بوش» بعد أن قال إنها حرب صليبية وتحدث رئيس الوزراء «توني بلير»، ثم قالا إن الحرب ليست ضد الإسلام. قالا هذا، بيد أننا رأينا التصرفات التي مضت مخالِفة لهذه التصريحات والقوانين الجديدة التي ما فتئت تَصْدُر باستمرار؛ كلها استهدفت المسلمين أو مَن ينتقل من بلاد إسلامية».

«بعض الجامعات رفضت قبول طلاب ليس بناءً على مؤهلاتهم الدراسية، وإنما بسبب أسمائهم؛ أسماؤهم مسلمة: محمد وأحمد وعليّ... وغيرهم، وثمة قوانين تستهدف الأجانب، وكلمة «أجانب» فضفاضة للغاية، وبدلًا من القول بأن الحرب ضد الإسلام، قالوا إن القوانين ضد الإرهاب، ويعتقد الإخوان المسلمون

أن العمليات الإرهابية التي تؤذي الأفراد المسالمين والبلاد التي يعيشون فيها تُعَد انحرافًا عن الإسلام، وهي غير مقبولة، حتى لو كنت في حرب فليس من حقك أن تقتل طفلًا أو امرأة أو شيخًا.. أو تحرق زرعًا».

«على أي أساس نوافق على الإرهاب؟! إن الخوف هو من الإسلام وليس الخوف منا، فهل نُغيّر ديننا؟ إن الإسلام هو أقوى شيء يملكه الناس؛ من يَقبله ينبغي أن يكون قويًّا».

قال ندا إنه عندما جرى التحقيق معه بعد مداهمة بيته في السابع من نوفمبر ٢٠٠١ كان أشبه بما حدث له في مصر قبل عقود مضت عندما سئل عن اسمه واسم أبيه وأمه وعنوانه.

«لم أرتكب خطأً.. لكنهم سجنوني، لقد تعودت على أن تعاملني الدكتاتورية معاملة غير قانونية، لكن الصدمة كانت أن يتكرر معي هذا في سويسرا».

«في هذه المرة صادروا أوراقي، وأوقفوا عمل بطاقاتي الائتمانية، وجمدوا كل حساباتي البنكية وأملاكي، ووضعوني تحت الإقامة الجبرية في مساحة قدرها ٦ , ١ كيلومترًا مربعًا في «كمبيوني»، كل ذلك لم يكن لمدة يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، ولكن لثماني سنوات، دون أن يوجّهوا إليَّ اتهامًا واحدًا فقط، أين كان القانون؟ أين ذهبت الديمقراطية؟ هل كانت تلك سويسرا الديمقراطية؛ الدولة المشهورة بالتزامها بالقانون وحقوق الإنسان؟!».

«كل التهم ضدي لا أستطيع ارتكابها ولم أرتكبها قط، كنت بريئًا وبمقدوري أن أرفع رأسي عاليًا، وقد رفعته عاليًا على الدوام، لكنهم استمرءوا الاستمرار في إهانتي، كانت التحقيقات دائرة في كل مكان، وقد استحثت أمريكا هذه التحقيقات، ولم يكن الرئيس «بوش» وحده الذي عبر عن هذه الحرب؛ ففي وقت لاحق وأمام مجلس الشيوخ وقف «خوان كارلوس زاراتيه»؛ نائب الأمين المساعد لوزارة الخزانة، والمسئول عن التحقيقات في الإرهاب، والذي أصبح بعد ذلك المسئول الأول عن الإرهاب في البيت الأبيض، وأدلى بشهادة ضَمّنها أمورًا حولي لا يمكن تصديقها،

وقد نَقل معظمها عن صحيفة «كوريرا ديلا سيرا»، وأضاف أنني أعطيت شخصيًّا أموالًا لأسامة بن لادن في أواخر سبتمبر ٢٠٠١».

«السيد «بوش» وأمريكا وبقية العالم يفتشون هذا الكوكب الأرضي بحثًا عن بن لادن! وببساطة وعفوية أخرج أنا لأعطيه في يده المال نقدًا! هم لا يستطيعون العثور عليه ولكنني أقدر على ذلك وأرسل المال مع الريح ليتساقط على رأسه حيثما كان.. لا تسألني كيف، فأنا لا أعلم!!».

«ومنذ فترة طويلة، حاولَتْ قوى بعينها أن تربط بين اسمي وبين الإرهاب، كان هناك علامات تدل على ما يفعلون، ولكنني أهملتها؛ لأنني اعتقدت أنني ليس لديَّ ما أخشاه حيث إنني لم أرتكب أي خطأ، بعض الأشخاص والهيئات - وبالقطع مخابرات مبارك - كانوا يحاولون أن يخططوا شيئًا ضدي وضد الإخوان المسلمين».

«كل الأنظمة الفاسدة تستخدم نفس الطرق، نفس التكتيك للانتقام ممن يستهدفونه إذا لم يتمكنوا من اغتياله؛ باختراع أكاذيب تلطخ بها سمعة مَن تستهدفه، وتنشرها حتى تصبح كالحقائق. كل ذلك أصبح مألوفًا لديَّ حتى بدأت الأحداث تنكشف».

وفي بيت غالب همت المجاور لفيلَّا ندا في «كمبيوني»، وجد المحققون السويسريون أوراق البحث التي أذاعوا صيتها السيئ وأطلقوا عليها اسم «المشروع»، وفي البيئة الملغومة التي سادت الأسابيع والشهور التالية للحادي عشر من سبتمبر، اقتنص من يعتبرهم يوسف ندا دعاة الهدم هذه الأوراق المكتوبة بالعربية، وغير المعنونة والمؤرخة بالأول من ديسمبر ١٩٨٢، وأصبحت كالبيدق يتقدم موكب المؤامرات والاتهامات في وسائل الإعلام كافة.

ومن هؤلاء المراسل الصحفي السويسري الفرنسي «سيلفان بيسون»؛ الذي تسربت هذه الأوراق من المحققين السويسريين إليه بشكل غير قانوني، وهو الذي أطلق عليها اسم «المشروع»، وسماها خطة الإخوان المسلمين الاستراتيجية لغزو الغرب، وزعم في مقالات له لاحقة أن الخطة كانت في كتاب؛ هو النموذج للاستيلاء الإسلامي على الغرب بقيادة الإخوان المسلمين.

والنـص العربي الأصلي يخلو من أي ذكر للإخوان المسـلمين، ولكنهم قالوا إنها مشـروع الإخوان المسـلمين؛ وهو بهذا الشـكل يتصور أفكارًا مفصلة لتطوير حركة إسـلامية دوليـة، واشـتمل علـى ١٢ نقطـة رئيسـية، أُذيعت فـي التقاريـر المتضاربة، وفيها ما يلي:

القبـول بمبدأ التعـاون المؤقت بين الحركات الإسـلامية والحـركات القومية في المجال الأوسـع على أرضية مشـتركة مثل الكفاح ضد الاسـتعمار والتبشـير والدولة اليهوديـة، بـدون الاضطـرار إلى تكوين تحالف؛ وهذا سـوف يتطلـب، على الجانب الآخـر، صِلات محدودة بين بعض القادة، على أسـاس ما تقتضيه كل حالة، وبشـرط أن لا تتعـارض هـذه الصلات مع الشـريعة؛ بيـد أن المرء لا ينبغـي أن يعطيهم عهودًا أو يجعلهم موطن ثقته، مستحضرًا في ذهنه أن الحركة الإسلامية يجب أن تكون أصل ما يتخذ من مبادرات أو توجهات.

ورأى يوسـف نـدا أن الهسـتريا التـي ثـارت حـول هـذه الأوراق التـي سـموها «المشـروع»، منتهـى التزييـف والتضليل، كانت القصـص المنقولة عنهـا لا تتفق مع ما قالتـه الأوراق، لقـد تلقيـت عبر السـنين الكثير والكثير من الرسـائل عن السياسـة والديـن، وتلقـى غالـب همت أمثالها، واليوم تصلنا هذه الأشـياء عن طريق الإنترنت، ويمكن التخلص منها ومحوها بضغطة زر، أما في تلك الأيام فكانت تصلنا عن طريق البريد، وكنا نضعها جانبًا ما لم يكن بها ما يُشوّق، وقد تشدق السيد «بيسون» بأن هذا هو المشـروع السـري للإخوان المسـلمين، لكن لا.. لم يكن لهم به شـأن؛ إنما كان مشروعًا كبيرًا للسيد «بيسون»؛ وقد ربح من ورائه المال.

«أليسـون بارجيتر»؛ من علماء كمبردج، تبحث في الإسـلام السياسي والأصولية، وأدلت بشـهاداتها كخبيـرة في بعض قضايا الإرهـاب أمام محاكم أمريـكا والمملكة المتحدة، وقد زارتني وكان لي معها حديث طويل، ولـم تسـتثرها ما سمي بـ «الوثيقة» التي أثارت «سـيلفان بيسون»؛ فقد قالت عنها ما يلي: «على الرغم من المزاعم، فهذه الوثيقـة قائمة مملـة بالأمنيات، ويبدو أنها في الأسـاس تعبير عـن النوايا التي تعكس تفاؤل تلك الفترة».

واستمر «الإعصار» كما يسميه يوسف ندا في هبوبه؛ غالب همت الذي أدار المركز الإسلامي في ميونيخ لأكثر من ربع قرن مع التأييد من قِبَل صديقه وشريكه شعر بأنه مضطر للاستقالة من رئاسة المركز بعد اتهامه مع يوسف ندا بالتعامل البنكي مع القاعدة، لقد نُسجت الكثير من الأوهام حول هذا المركز الذي وصف بأنه مركز لتفريخ العدوان الإسلامي، وقد تركه همت عام ٢٠٠٢؛ أي بعد الحادي عشر من سبتمبر بفترة.

وردت قصة «مسجد ميونخ» في كتب مختلفة مستقاة من «استخبارات سياسية» من لدن السلطات الألمانية، وتمكَّن مؤلفو هذه الكتب من الاطلاع على ملفات القسم الخاص (الاستخبارات)، إلا أن يوسف ندا يرى المسجد بريئًا من كل هذا: «عندما التقيت بغالب همت لم يكن المسجد موجودًا بعد، وصل المهاجرون المسلمون إلى ميونخ من الاتحاد السوفيتي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفشلوا في إنشاء مسجد، وعندما وصل غالب همت اجتهد لبناء المسجد الذي كانوا في حاجة إليه، عندما تكون غريبًا عن المكان تحتاج إلى وقت كي تكتسب أصدقاء، وبالنسبة للمسلمين فإن المسجد مكان يلتقون فيه كالحرم الجامعي عند الطلاب».

كان غالب همت أول مؤسسي المركز الإسلامي، وقد بذل من أجله جهدًا كبيرًا وسنوات طويلة، لم يكن الأمر سهلًا حينئذ، ولم يتحسن كثيرًا في القرن الحادي والعشرين، فالحصول على تصريح أو ترخيص ببناء مسجد في مدينة أوربية ربما يستغرق سنوات كثيرة حتى إن سُمح به، على الرغم من أن بعض المساجد التي أنشأتها المملكة العربية السعودية قد لا يُقابل صعوبات كبيرة، كمسجد روما المبني حديثًا على سبيل المثال.

ويعتقد يوسف ندا أن الأمر يرجع جزئيًّا للشر المترتب على دعايات أشخاص أمثال «سيلفان بيسون»: «قرأت تقريرًا حول موقف الاتحاد الأوربي تجاه الإسلام في أوربا، إنهم يعتقدون فيما قاله «بيسون»؛ وكأنه من الكتاب المقدس، وأن الإخوان المسلمين يريدون غزو أوربا، لا أفهم كيف يقبل أي عقل مهما كان غباؤه مثل هذا الكلام!!».

«ليس فيما قيل عني شيء واحد صحيح، ولكن من قالوا كانوا من أصحاب الصوت العالي والنفوذ، وكانت لديهم أجندة لنشر مزاعمهم في كل مكان وكانوا قريبين من آذان صنّاع القرار في الغرب. أصدر الأمريكيون توجيهاتهم للمدعي الفيدرالي السويسري والشرطة السويسرية بالشروع في تحقيقاتهم، وعندما فتحوا ملفًّا كانوا مستميتين في العثور على سبب لما فعلوه؛ لقد أقروا بذلك، لقد قالوا إنهم كي يجدوا سببًا فليس بمقدورهم إلا الفبركة».

«أنا أتحدث عن ٢١ من سبتمبر و٢٤ من أكتوبر ٢٠٠١؛ حيث كتب البوليس الاتحادي السويسري: على الرغم من أن هؤلاء الناس مثقلون بتقارير الاستخبارات والإعلام، وبالمعلومات مِن وكالات الاستخبارات، فقد اتصلنا بالدول كبيرها وصغيرها ولم نستطع العثور على شيء ضد ندا أو همت».

«عندما بدأ المدعي الفيدرالي تحقيقاته، تباهى بأنه خصص عشرين في المئة من العاملين في مكتبه، وعشرين في المئة من المحققين بالشرطة المحلية والفيدرالية، للعمل في قضيتنا وحدها، تصور خُمس قوة شرطة الدولة والمدّعين العامّين! وعندما بدأ التنقيب كانت بدايته الطبيعية في سويسرا، ثم طلب المساعدة القانونية من دول كثيرة، ولم يستطع أن يجد شيئًا يُثبت ما قيل له، فقال لي: أين حسابات البنك؟ ولكنني من اليوم الأول قدمت كل المعلومات؛ من اليوم الأول أجبت عن جميع الأسئلة، والأوراق والحسابات كلها أخذوها، والتقوى للإدارة كانت رسميًّا تراجع حسابات بنك التقوى، والحسابات كانت في مقر الشركة وأخذوها، إن مجموع ما أخذوه - كما قال المدعي العام للصحف- مَلأ أربع سيارات نقل».

وفي النهاية، رأى أن كل المعلومات، وكل «الأدلة» التي قدمها الأمريكيون، والتي طُلب منه أن يجد «البينة» عليها لم توجد، حتى تُخلق قضية لم يكن ينبغي إثارتها بادئ ذي بدء، فالأمريكيون لم يعطوه شيئًا يعتمد عليه، وأيضًا حاولوا اتهامي بممارسة النشاط المصرفي دون ترخيص؛ فالوثائق كانت هناك تثبت العكس».

«وشكا المدعي السويسري من غموض المعلومات التي زوده بها الأمريكيون. في إحدى الاستجوابات التي أجراها معي الأمريكيون اتهموني بعدم التعاون معهم

لأنـي، بزعمهم، لا أزودهـم بمعلومات عن تورطي، كأنهم يريـدون مني أن أعطيهم غير الموجود؛ وهو بينة على أني ارتكبت خطأً ما».

«وفي رسـالة من المدعي السويسـري إلى الأمريكيين قال لهم إنه «أكثر من مستاء ومحبط» لعدم حصوله على معلومات منهم؛ معلومات مفصلة عني وعن بنك التقوى وصِلاتنا المزعومة بتمويل الإرهاب كانوا قد وعدوه بها أثناء زيارته إلى واشنطن».

وقـال: «كل المعلومـات لدينـا تأتينـا منكـم»، وكانـت لا تسـاوي شـيئًا، قالوا إن السـلطات في البهاما لا تتعـاون معهم، لكن المحققين الأمريكيين اسـتولوا على كل ملفاتنـا من السـلطات في الباهاما، لم يأخذوا صورًا مستنسـخة وإنمـا أخذوا الوثائق ذاتهـا، اسـتولوا عليها من هنـاك، لكنهم قالـوا: «لم يتعاونـوا معنا فـي البهاما»، حتى الكـذب لم يتقنوه؛ ولذلك تحدتهـم المحكمة أن يقدموني للقضاء إن كان لديهم أدلة علـى اختراقي لأي قانـون وأن يغلقوا التحقيقات في موعد أقصاه ٣٠ يومًا؛ فاضطُروا لإغلاقها وإعلان عدم وجود أدلة».

«وزعـم الأمريكيـون أن لنا ارتباطـات خاصة بالقاعـدة، وأننا سـلَّمنا إليهم أموالًا نقدية! نقدًا! وبالغوا في تخيلاتهم فقالوا إنني نقلت أموالًا إلى الأردن، والمرة الوحيدة التـي ذهبـت فيها إلى الأردن كانـت توقفًا عابرًا (ترانزيت) في عمـان، في طريقي إلى بغداد لمقابلة صدام حسين أيام غزو الكويت، كما زعموا أيضًا أنني مولت خطة لقتل السُّياح أثناء الاحتفال بالألفية الجديدة في الأردن.. وكان هذا هراءً أكبر».

«واتهموا بنك التقوى بتقديم المسـاعدة المالية إلى خضر أبو غوشة وأبي مصعب الزرقـاوي، وهنـاك تقرير مـن المخابـرات الأردنية أننـي مولت الزرقـاوي كي يفجر مهرجان الألفية، وقال مصدر يُفترض الوثوق فيه إن أسـرة أسـامة بن لادن اسـتثمرت أمـوالًا ضخمة في التقـوى، وقد اختفت هذه الأموال في ظروف مريبة، ولعلها ذهبت إلـى أخيهم، وأُدرجت هـذه المزاعم في تقارير التحقيقـات، كان غالـب بن لادن أخو أسـامة قد اسـتثمر في بنك التقوى مليون دولار تقريبًا، وعندما أعلن البنك عن وجود خسائر في جنوب شرق آسيا حاول استرداد ماله قبل الموعد المحدد في العقد، وأقام دعوى قضائية ضدنا في المحكمة العليا في البهاما؛ ورفضَت المحكمة دعواه».

«لم يكن الأمر سرًّا، لكن التقرير الرسمي حوَّل هذه القصة إلى تمويل للإرهاب، هذه المعلومات الوهمية ترددت في ردهات مجلس الشيوخ الأمريكي وفي أذنَيِ الرئيس، وأعتقد أن كل ما حدث لي كان لأنهم أرادوا أن يربطوا من خلالي بين الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة، كانت هذه نيتهم دائمًا، وهذا ما كان في الملفات التي وُضِعت على مكتب الرئيس الأمريكي وقادة الكونجرس، بل وعدد من قادة العالم الآخرين، هذه هي المعلومات التي تصرفوا على أساسها».

«المُكاتبات بين وكلاء النيابة السويسريين والمسئولين الأمريكيين ذكَرت أنني والسيد غالب همت كان مشتبه في اشتراكنا في «منظمة إرهابية»، وزعم «أنهما على وجه الخصوص دفعا أموالًا إلى منظمة إرهابية وهي القاعدة من عام ١٩٨١ إلى عام ٢٠٠١». وهنا ذكروا «منظمة إرهابية»، وفي مكاتبة أخرى ذكروا أننا كنا نمول القاعدة، على حين أن القاعدة لم تكن ظهرت إلى الوجود في عام ١٩٨١؛ حيث أول نشأتها كان ١٩٨٨، فكيف يقولون هذا؟».

«قال المحققون في مراسلات تبادلوها إنه لم توجد أدلة، وكان عليهم الاعتماد على التوقعات، وفيما يتعلق بتمويل الإرهابيين، قالوا: «إن موقف التحقيقات حتى الآن لا يشير إلى أي شيء من ذلك، وعلينا أن نفرق بين الافتراض والواقع». وفي مراسلة أخرى جاء أنه طبقًا للمعلومات والوثائق لديهم، يوجد سبب للشكوك حول قيمة التحريات».

«وفي يناير ٢٠٠٢، أرسل وزير الخزانة الأمريكي خطابًا إلى السلطات السويسرية ادعى فيه أن يوسف ندا ومستشار الحكومة السعودية علي بن مسلم قد قدّما «خدمات استثمارية غير مباشرة» لتنظيم القاعدة، واستثمروا أموالًا لحساب بن لادن، وسلَّما مبالغ نقدية لتنظيم القاعدة عند الطلب». وقال الخطاب إن «المساعدة» استمرت حتى أواخر سبتمبر ٢٠٠١».

«كان علي بن مسلم الذي تُوفي بمرض السرطان عام ٢٠٠٤ في أحد فنادق جنيف يعمل مستشارًا بالديوان الملكي السعودي بمرتبة وزير، ويحمل جواز سفر دبلوماسيًّا، وكتبت الشرطة السويسرية أنه كان له صيت في عقد الصفقات المالية خلال

الثمانينيات والتسعينيات، ومنها محاولة لاحتواء سوق الفضة العالمي، والوساطة في صفقة بعدة بلايين من الدولارات بين الحكومتين السعودية والفرنسية».

ويعلق يوسف على هذا الادعاء قائلًا: «ذكر الخطاب المُرسَل من وزير الخزانة الأمريكي إلى المدعي السويسري أنني وعلي بن مسلم كنا نمول الإرهاب، وكان علي دبلوماسيًّا سعوديًّا ومستشارًا للملك فهد، وكنت أعرفة وعلى صلة به، لقد اختاره الملك ليكون همزة الوصل بينه وبيني».

«لا أستطيع أن أؤيد ما ذكروه عن علي بن مسلم، ولا يمكن أن أعرفه على وجه التأكيد، ومن متابعتي له ولمنصبه قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون مثل ما قيل عني؛ فهو كان وثيق الصلة بالأمير تركي؛ رئيس المخابرات في عهد الملك فهد أثناء الحرب بين الاتحاد السوفيتي والمجاهدين الأفغان، وكان الأمير تركي والـ«سي آي إيه» يتعاونان على مساعدة المجاهدين أيام الاتحاد السوفيتي، وذكروا أن علي بن مسلم كان يمولهم، ربما – أنا لا أدري- كما قالوا إنه شجع الصفقات العسكرية بين المملكة العربية السعودية وفرنسا، وحصل على عمولات قدرها سبعون مليون دولار، ربما حدث هذا، لكن لم يكن لي شأن به، ولكن هذا ما قرأته في تقارير المدعي العام بعد أن أغلق القضية بأمر المحكمة (القانون السويسري يسمح لمن حُقق معه وأغلق ملفه بدون تقديمه للمحكمة لعدم وجود أدلة أن يطّلع على الملف ويصور ما يريد منه، وقد فعلت ذلك وعندي ٢٠٠٠ وثيقة تقريبًا صوَّرْتُها من الملفات).

«كانت علاقاتي بعلي بن مسلم تنحصر في التواصل مع الملك فهد، ومحاولة حل المشكلات مع إيران والسوفييت والأفغان واليمن، كانت له أعماله التجارية ولم أكن أعرف شيئًا عن أنشطته؛ كان ثريًّا، وتُوفي في أحد فنادق جنيف، كنت أعرفه ولكن لم تكن لي أي صلة بأمواله أو نشاطه، لقد أخذ المحققون بعض الحقيقة من هنا وبعضها من هناك وصنعوا منها سَلَطة رديئة المذاق».

«كما ذكَرَت الخزانة الأمريكية أنني كنت أعمل مع ممدوح محمود سليم الذي قالوا إنه أحد مؤسسي القاعدة، وقد أُلقي القبض عليه بالقرب من ميونيخ عام ١٩٩٨، ولم يكن لي أبدًا أي اتصال به أو بأي شخص من جماعته، ولم يكن عضوًا في جماعة

الإخـوان، بل لـم أسـمع عنه إلا منهـم، وقالوا إن لديهم معلوماتهـم التي تفيد بأنه كان لديه خط ائتماني من بنك التقوى على أحد بنوك دبي، كما قالوا إنه سـحب أموالًا من بنـك في دبي على هذا الحسـاب، والحقيقة هي أنه لم يكن لنا حسـابات مع بنوك في دبي، وإن كان هذا الزعم صحيحًا فلماذا لم يَذكروا اسـم بنك دبي؟ ولماذا لم يقدموه للمحاكمة أو يضعوه في قوائم هيئة الأمم السـوداء وقائمتهم السوداء؟ ولم يكن لدينا قط أسـماء أو حسـابات سـرية في بنك التقـوى، لكن الخزانة الأمريكيـة تقول إن ثمة حسابات سرية في بنك التقوى لا يمكن لأحد الاطلاع عليها؛ هذا محض هراء، نحن لم نستطع السحب من أحد بنوك دبي؛ لأنه ليست لنا أي صلات بالبنوك هناك، لكنهم سـألوني عنها وألحّوا في السـؤال ليروا إذا كان هناك شعرة من الحقيقة فيما لديهم من معلومات، أنا لم أسمع اسم ممدوح محمود سليم من قبل أن يذكره لي المدعي أبدًا، ثـم قـرأت الأوراق التي جاءت من الولايات المتحدة، وأشـارت إلـى أن المعلومات أُخِذت من سجناء تحت الإكراه».

«وأنا أفهم تلك الأمور، فقد شاهدت مثلها عندما كنت معتقلًا في السجن الحربي؛ كانـوا يمزقون جسـد المسـجون بالسـكين حتـى ينطق بما يريـدون أن يقولـه؛ وليس بالحقيقة، وكان السجناء يقولون ما أراده سجّانوهم ليتخلصوا مما يعانونه من آلام».

«وزعـم تقرير آخر أن جِنسـيتي مـزورة، وكانت لديَّ الأوراق مـن محكمة العدل التـي تُثبت أنها لـم تكن كذلك، كانت الاتهامات تحوم حولـي طَوال الوقت، وما من شيء يجعلها تهدأ، لقد تحديتهم آنذاك، وأنا الآن أتحدى أي إنسان أن يثبت أحد هذه الاتهامات، أو أن يثبت أني اخترقت أي قانون في أي مكان في العالـم».

«كان المسـئولون السويسـريون يعملـون فـي كل الأوقـات لصالـح الأمريكيين. «دافيـد كين»؛ كبير المحققين الأمريكيين المشـتغلين بحالتي جاء إلى بيتي هنا، وكان معـه أربعة رجال؛ أحدهم من «إدارة التحقيقات العامة الإيطالية والعمليات الخاصة» (DIGOS)، والثاني من «هيئة المعلومات والأمن العسـكري» (SISMI)، والثالث من «شرطة الأموال»، والرابع من الشرطة العادية».

«أنـا لا ألـوم أمريكا أو الأمريكييـن، ولكنني ألوم حكومة «بـوش»؛ فكل أعمالهم كانت سيئة، وكانت مبنية على احتمالات وفبركات.. وليس على حقائق».

«واستجوبني السويسريون حول جميع «الإسلاميين» في كل مكان، وعن جنسيتي وكيف حصلت عليها، وعن أسـرتي، وعن ثروتي، وعن كل شـيء، لكنهم لم يذكروا لي كلمة واحدة عن حماس؛ لأنهم يعلمون أن لا شأن لي بها إطلاقًا».

«شـعرت بالشـفقة إزاءهم، كانوا موظفين مدنييـن مهنيين يحاولـون أداء عملهم، عمل أُملِي عليهم، ولـم يسـتطيعوا أن يرفضوه، كان عليهم الامتثال للأوامر وتنفيذها؛ اذهبـوا فاصطـادوا، اذهبوا فنقِّبوا، لا تحرزوا شـيئًا، لكن يجب أن تجدوا شـيئًا ما. لم يتمكنـوا مـن وضع أيديهـم على أي دليـل يدعم مزاعمهـم؛ لأنها كانت غيـر حقيقية أصـلًا، ومـا زالت القصـص المختلَقَة تنتشـر من خـلال الصحف والأفـلام والتلفاز والكتب والإنترنت، والتقارير الأمنية والشهادات أمام لجان الكونجرس الأمريكي».

«إن القاعدة لديهم بمثابة الشبح، وقد صنعوا من الشبح وحشًا مخيفًا؛ كلها خيالات جامحة، وتحول الأمر الآن إلى مشكلة كبرى لا تقتصر على أوربا وأمريكا وحدهما؛ فبعد كل هذه الدعايات المسمومة أصبح بعض الناس عندما يرون المسلمين يُصَلّون يعتقدون أن عملًا رهيبًا على وشك الحدوث.. الإرهاب قادم».

الفصل الخامس عشر

إفلاس الحرية

«أنـا لا أرى كيـف يمكن الفصل بيـن الإيمان والقيـم الأخلاقية، أنا أيضًـا لا أعتقـد بأنـك يجب أن تكـون مسـيحيًّا لتمارس هـذه القيم في حياتك الخاصة أو وظيفتك العامة».

الرئيس جيمي كارتر، ١٩٧٦

في ١١ من سـبتمبر ٢٠٠٢، بعد أربعة أيام من مداهمة منزله، سافر يوسف ندا إلى لندن ليُسجل سلسلة من المقابلات مع قناة الجزيرة والتي أجراها معه أحمد منصور؛ الإعلامي الفذ صاحب المهنية والدقة، واجتذبَت المقابلات انتباه أكثر من ٤٠ مليون مشـاهد فـي مختلف أنحـاء العالم، وأُذيعـت على عشـر حلقات؛ مدة الحلقة سـاعة كاملة، وكانت تُكرر ثلاث مرات في الأسبوع.

اعتقـد يوسـف أنه ينبغي عليه الدفاع عن نفسـه على الملأ بعـد التهجم على حياته وحرياته أيضًا على الملأ، وظل هادئًا رابط الجأش. كانت التجربة اختبارًا لشخصيته؛ فطَوال فترة التحقيقات أُضيرت سمعة يوسف ندا وأقرب المرتبطين به، وفي يناير ٢٠٠٤ تمت تصفية بنك التقوى وخَسِـر المسـتثمرون أموالهم، وكانت عقود المضاربة التي وقّعهـا كلُّ مَـن له حسـاب مضاربة مع بنك التقـوى تنص بوضـوح وصراحة على أن الخسائر كلها إن وُجِدت يتحملها صاحب الحساب، ولا تُخصم مصروفات أو أتعاب للبنك، أما في حالة الأرباح فإن نصيب صاحب الحساب منها ٧٥٪ والبنك ٢٥٪.

أما يوسف فقد خسر شخصيًّا ٣٥٠ مليون دولار، بيد أنه يقول مطمئنًا: «الحمد لله؛ لقد عوملت في الأغلب معاملة طيبة؛ باستثناء ما لقيته في لندن عندما ألقت «اسكتلاند يارد» القبض عليّ؛ فبعد مقابلتي مع الجزيرة عُدت إلى فندق هيلتون في لندن، لكن باب غرفتي لم ينفتح، فنزلت إلى الاستقبال حيث طلب مني الموظف الانتظار قليلًا، وبعد نحو خمس دقائق أعطاني بطاقة جديدة لأفتح بها باب غرفتي، وعند خروجي من المصعد وجدت أمامي مجموعة من الرجال سألني أحدهم: هل أنت السيد ندا؟ فهززت رأسي قائلًا : نعم. فقال أحدهم: نحن من «اسكتلاند يارد»، وأنت مقبوض عليك يا سيد ندا».

«وعندما سألت عن السبب أخبروني بوجوب الذهاب معهم إلى غرفتي أولًا، كان عددهم خمسة، وبدءوا يفتشون غرفتي، طلب مني أحد رجال القسم الخاص أن أحمل حقيبتي، كنا في شهر رمضان، فقلت إنني يجب أن أذهب إلى الحمام أولًا لأنني أريد أن أصلي، فأمروني أن أترك باب الحمام مفتوحًا، وعندما انتهيت من الصلاة أمرني مرة أخرى: أحضر حقيبتك. فأجبته: لا، إذا أردت إحضارها فأحضرها بنفسك؛ إنني في عمر والدك، إذا كنتَ لا تريد حملها فألق بها من النافذة أو اتركها ولا تأخذها. كانت عباراتي جافة، لكن الفكرة وصلته وحملَها».

«ثم أخبرني بأنه ليس مسموحًا لي الوجود في إنجلترا. فقلت له: أنا آسف، لكنني أوربي، وأعتقد أن لندن في إنجلترا وإنجلترا جزء من أوربا. فقالوا: لا، إنجلترا هي إنجلترا؛ وأنت غير مسموح لك الحضور إليها، إن اسمك على قائمة الأمم المتحدة، وكل الدول الأعضاء في هيئة الأمم يجب ألا تسمح لك بدخولها أو المرور عبر أراضيها».

«وأخذوني إلى قسم الشرطة حيث أحْصَوا ما كان معي من مال وأخذوه وسائرَ أغراضي ووضعوا الجميع في كيس بلاستيكي، ثم وضعوني في زنزانة، وعندما دخلتها انتابني شعور غريب.. غاية في الغرابة».

«كان في الزنزانة ما نسميه أريكة عليها مرتبة بلاستيكية، كانت الزنزانة أفضل من زنزانتي بالسجن الحربي في مصر، وكان معي مصحفي، فأخذت أقرأ فيه، ثم حاولت

أن أنـام بعـد ذلك، لكـن الزنزانة كانت بـاردة جدًّا.. شـديدة البـرودة؛ فطرقت الباب وطلبـت بطانيـة، ومرت عليَّ خمس عشـرة دقيقة وما زلت متجمدًا مـن البرد، كانت البطانيـة رقيقـة كالورقة، وطلبت بطانية أخرى، لكنها لـم تُغير من الأمر شـيئًا، وعندما طلبـت للمـرة الثالثـة قال لي: ها هـي الثالثة، لا تسـألني المزيد، فلم يعد لـديَّ بطانية أخرى كي أعطيك إياها».

«وبعد حوالي ثلاث سـاعات فتح الشـرطي الباب وأخبرني أنه من حقي أن أُجري اتصـالًا هاتفيًّا بأي شـخص في أي مـكان، لم أرغب في إزعاج الإخـوان والأصدقاء في لندن، لم أود أن يأتوا إليَّ في السـجن، ولا أن يُعرِّضوا أنفسـهم لأي مضايقات أو شـبهات؛ إذ لم أكن متأكدًا من حقيقة ما يدور حولي، ففضلت الاتصال بغالب همت فـي «كمبيونـة» وأخبرته بما حـدث، وقام غالب همت بالاتصـال بالإخوان في لندن؛ الذين كلفوا أحد المحامين بتولي الأمر».

وبعـد أن تحدث المحامي إلى «اسـكتلاند يارد» عاد إلى يوسـف نـدا قائلًا: ليس لديهم أي شيء ضدك، لكنهم سوف يقومون بإبعادك عن البلاد اليوم، لا يستطيع أحد أن يسألهم لماذا، وهم لا يريدون التصريح بالسبب، لكنك إذا بقيت ولم تغادر فسوف يضطرون إلى التصريح بالسبب، أما إذا أبعدوك فلن يستطيع أحد أن يسألهم.

يقـول نـدا: «اخترت أن أغادر لنـدن؛ كان اسـمي موضوعًا على القائمة السـوداء للأمم المتحدة، جميع أصولي المالية تم تجميدها، وكذلك تحركاتي قُيدت، وأعاقوا حياتي عن المسير قُدُمًا».

الفصل السادس عشر

راحة باردة

«القاعدة ليست سوى جملة اعتراضية، من أكثر ما يمكن الاستغناء عنه في تاريخ الإسلام والعالم العربي، وهي ليست ذروة فيه، ولكنها محض نتوء تافه».

جين بيير فيليو، عشرة دروس من الانتفاضة الديمقراطية، ٢٠١١

بينما كانت عاصفة الاتهامات تحدق بيوسف ندا عَبّر الرجل عن رأيه في القاعدة وقائدها ذائع الصيت؛ أسامة بن لادن، ولم يَلْقَ هذا الرأي شعبية كبيرة، وأصر على أن القاعدة ليست جماعة إرهابية متماسكة، وليست منظمة كبيرة، ولكنها مجموعة صغيرة من المجانين الذين يُبرّرون أفعالهم الخالية من الرحمة بالاستشهاد بإسلام من الصنف الذي يُرَوِّجوه، ويقول يوسف ندا أيضًا: «إن ثقافة العنف الذي أُطلِق عليه الجهاد عند بعض السلفيين ما هي إلا ثقافة التخلف والجهل مع تسلط الأمراض النفسية والمعيشية للبحث عن أسلوب التنفيس الأعمى عن معاناة جذورها مختلفة».

«هل يُعقل أن يُفكّر إنسان بمسدس أو كلاشنكوف أو حتى مدفع أو بعض المتفجرات أن يهزم قوة منظمة من الجيش أو الشرطة لهم ما لهم من التدريب والمعدات والإمدادات والتمويل، وعلى دراية بكل المواقع بالبلاد وكل الفعاليات، بل على دراية بالبيئة وطريقة التفكير والثقافة، وبيدها الإعلام لتغيير المفاهيم وباليد الأخرى قوة غير متعادلة؟!».

«إن هذه الأفكار مردها الجهل والأمراض النفسية والعصبية، وقد يصاحبها أيضًا المعيشية، مُزجت بمزيج من انحراف الفهم الديني فسعت إلى الانتحار وهي تظن أن هناك بارقة أمل في الوصول إلى تغيير أفضل.. أو إلى الجنة».

ويوسف ندا يعتقد أيضًا أن ما يسمى بالجهادية الدولية «international jihadism» قد تم تصنيعها كمدخل جديد في «الحرب الساخنة»، لتملأ الفراغ الذي تولَّد بعد تفكيك الاتحاد السوفيتي، إن «جيش» القاعدة والخطر الذي يشكله قد بُولِغ فيه مبالغة ضخمة، كانت وجهة نظر مثيرة للجدل، في حين شن الرئيس «بوش» حربه على الإرهاب، أما «الخبراء»؛ في شئون أفغانستان وإيران والعراق، وكل بلاد الشرق؛ الذين كانوا إلى وقت قريب يعرفون عن العربية أنها نوع من القهوة فحسب، فبدءوا نشاطًا محمومًا من النصح والإرشاد وفرض التعليمات وقواعد جديدة للسفر ولتحويلات الأموال وإجراءات البنوك.

ورغم عدم رؤيتهم للقاعدة في أي مكان، بدأ خبراء الاستخبارات يرونها في كل مكان؛ مما أدى إلى الغزو الأمريكي الإنجليزي للعراق؛ بناء على دليل متهافت ومتعجل، بل ومفبرك إلى حد كبير عن امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وعلى «ملف كاذب» قدمته الحكومة البريطانية، وقد نَجَم عن كل ذلك إيجادُ منطقة جديدة للقتال يتلاعب فيها الشرق بالغرب والعكس بالعكس، وحربٌ استنزافية كارثية مدمرة في العراق وفي أفغانستان.

وانتاب يوسف ندا قدر ضئيل من الراحة؛ إذ ثبت أنه كان مصيبًا.. وإن تم ذلك بعد أكثر من عشرة أعوام، وكثيرون في الغرب قَبِلوا الآن بالأخطاء التي لا نهاية لها والتي ارتكبتها حكوماتهم أثناء سعيها لفهم ظاهرة الجهاديين.

وما قامت به الحكومة الأمريكية عبر العالم قد صاحبته قصص وحكايات، تم التحقق من بعضها، واتهامات بارتكاب الفظائع وانتهاك حقوق الإنسان، ومناقشات حول «الحرب على الإرهاب» وتحويل أمريكا المشبوهين بالإرهاب من معتقلاتها إلى دول أخرى للتحقيق معهم باستخدام التعذيب.

وفي عام ٢٠٠٢ أنشأ «جورج بوش»؛ الابن، المعتقَل الموجود بالقاعدة البحرية الأمريكية في جوانتنامو باي بجزيرة كوبا؛ ليعتقل فيه خارج دائرة القضاء من يشتبه في أن له علاقة بالإرهاب، وما زال المعتقل يعمل بعد مرور عشرة أعوام على إنشائه على الرغم من وعود «باراك أوباما» الانتخابية السابقة بأنه سيغلقه، لقد تضاءل بشدة دور أمريكا كشرطي عالمي، ولم يفلح كل ذلك في إزالة مشاعر الكراهية وعدم الثقة نحوها، وثمة حيل قذرة؛ في الشرق والغرب، يقوم بها أصحاب المصالح المحسوبة والمرتزقة لإبقاء الوضع الراهن.

إن المعلومات والدراسات والتعلم بعقلية منصفة، والأحداث الثورية لعامي ٢٠١١ و٢٠١٢ مع ما حدث في ماليزيا من عودة زعيم المعارضة أنور إبراهيم بعد تبرئته، أظهرت للجمهور ولواضعي السياسات أن غالبية المسلمين غير عنيفين مهما افتُري عليهم، ويستطيعون إحداث تغييرات جذرية في عالمهم دونما عنف، لقد بُذلت جهود مستميتة لإبعاد أنور إبراهيم عن القيام بأي دور في سياسات بلده، حتى ٩ من يناير ٢٠١٢ عندما برَّأت ساحته المحكمة الماليزية العليا بعد محاكمة استمرت أحد عشر شهرًا في كوالالمبور في دعاوى مفبركة بتصرف جنسي مع أحد العاملين عنده لإبعاده عن الساحة السياسية لتظل التروكيا المسيطرة عليها مستمرة فيها، وكان أنور إبراهيم يخوض الانتخابات محاولًا انتزاع مقاليد الحكم في ماليزيا من رئيس الوزراء نجيب عبد الرزاق ومن قبله من محاضر محمد.

وأنور علي نفس نهج صديقه يوسف ندا؛ ندا يرى أن جميع البشر متساوون، وأنور يرى «أننا جميعًا أولاد آدم»، ويقول إن نموذج قيادته لماليزيا يشبه ما يجري في تركيا، ويقول إن لديه نفس الآمال في ديمقراطية إسلامية كالتي يرجوها رئيس وزراء تركيا؛ رجب طيب أردوغان، كما يقول قائد ماليزيا المقبل: «أنا أتحدث عن «الربيع الماليزي»، لكن طريقنا سيكون عبر الانتخابات».

هذا الاتجاه نحو عالم التعايش في سلام معًا، يحيا ويترك غيره يتمتع بالحياة، لكن هناك مهمة كبرى وهي أن تجعل الناس يتناقشون عوضًا عن إصدار أحكام فورية..

وجولة في فضاء المدونات في شبكة الإنترنت تُظهر مقدار الغضب ومرجل الكراهية والنقص الحقيقي في الفهم.

ورغم هذا؛ فما زال الأمل موجودًا؛ كان يوسف ندا يحدثني عن ذلك في بيته بسويسرا واستدرك قائلًا: «لكننا الآن ما زلنا ندفع ثمنًا باهظًا، أولئك الذين قُتلوا، والذين أُبيدوا، الذين فقدوا عقولهم أو أجسادهم أو الاثنين معًا، ماذا يمكنك أن تفعل يا سيد «تومبسون»؟ أنا ما زلت على قيد الحياة، هنا في بيتي أجلس معك، مليونان من البشر فقدوا أرواحهم في العراق؛ الأرامل واليتامى والمشوَّهون، هؤلاء الناس ماذا تقول لهم؟! وقد يكون أكثر من ذلك في أفغانستان».

نعم؛ من الصعب أن تجد إجابة، أمور تدعو لليأس، وبسبب كل الأحداث السياسية التي جرت حوله ورمت ظلالها على حياته، أصبح يوسف ندا مُشتت البال، وخائفًا أحيانًا من مساعدة بعض المحتاجين، أطلعني على ملف من حاسوبه يحتوي تفاصيل حالة من هذه الحالات؛ امرأة أمضى زوجها عشر سنوات في أحد السجون المغربية بتهمة الإرهاب، ونصحها بعضُهم أن تتصل بيوسف ندا، وكتبت الأسرة إلى «ميشياين آن ماري كالمي ري» (أصبحت عام ٢٠٠٧ ثاني امرأة تتولى رئاسة الاتحاد السويسري)، لكنها أرادت تَدَخُّلًا مباشرًا.. والآن جاءوا إلى فيلَّا ندا.

وقال ندا: «كانوا يعرفون أن لي صلات مع شخصية من الأسرة المالكة في المغرب، وفي السابق كان أسلوبي أن أُجري بعض التحريات ثم أحاول المساعدة، لكن الآن أصبحتُ حريصًا للغاية، أي واحد يستطيع أن يأتي ليراني، رجلًا كان أو امرأة، عربيًّا أو أوربيًّا؛ أنا لا أُغلق بابي أمام أحد».

«جاءت زوجة السجين وطلبت مني أن أتدخل، لكنني لم أستطع؛ فربما كانت له صلة بجماعة إرهابية، وربما كان بريئًا.. أنا لا أدري، ولست أنا مَن يَقدر على الحكم، لو كنت في أيامي الخالية لفعلت ما بوسعي حتى ولو لم أكن أعرفهما، لم يعد الأمر الآن كما كان.. لا مقارنة».

هذا الحذر الشديد مفهوم، في عالمنا اليوم مَن ذا الذي يعلم عواقب تصرفاته؟ وما هي الجريمة؟ وأصعب من ذلك.. ما هي جريمة الكراهية؟ وأثناء الفترة التي عاشها

يوسف ندا وهو مُصنّف بالمصرفيّ الإرهابي، صاغ وجهة نظره بهذه الطريقة؛ إنها انعكاس لما انتابه من ضيق بالغ؛ لأن العدالة التي أراد للعالم أن يطلبها كانت للأسف الشديد غائبة في قضيته.

أظن أن كلماته تُبين مدى معاناته من المعاملة التي تلقاها، وتُبين كم آذاه أن يرى القيم التي اعتز بها تتقوض من حول كل شيء عمل من أجله، وكل شيء أحبه.

يقول يوسف ندا: «أنا أدرك وأقبل بأن التعاون القانوني بين الأمم مهم لحماية العالم من الجرائم المنظمة؛ ومنها الإرهاب، وتقديم مرتكبيها إلى العدالة، وأرفض التعاون على الظلم لأسباب سياسية؛ لأن هذا يخلق الخوف والكراهية؛ وكلاهما بذور العنف والإرهاب، هل من العدل والإنصاف أن تتهم شخصًا ما دون بَيّنة، لكن بناءً على معلومات متهافتة وخاطئة؟ أنا توقعت أن يُطبَّق المبدأ القائل بأن كل إنسان بريء حتى يَثبُت أنه مذنب، اعتقدت أنك عندما تدافع عن العدالة فإنك تدافع عن نفسك، وأنك عندما تحمي القانون فإنك تحمي نفسك، وأن الذين أؤتُمنوا على حماية العدالة لا يمكن التسامح معهم إذا ارتكبوا ظلمًا، في أي حالة من الحالات، ولا يمكن للظلم أن يتبوأ مقعد العدالة، والعدالة لا تتغير بتغير اللون أو العِرْق أو الجنسية أو الدين، إن الفارق الأساسي بين المجتمع المتحضر والمجتمع البدائي هو أن أولهما منشغل بحماية حقوق الآخرين، إن القانون قد وُضِع لينظم الحدود بين الحقوق والواجبات، والعدالة لا يكفي وجوب تطبيقها فحسب بل يجب أن يُشاهَد هذا التطبيق أيضًا».

«وكما قلت؛ قابلت المحققين من وزارة الخزانة الأمريكية، ومن مكتب التحقيقات الفيدرالي، ومن وكالة الاستخبارات المركزية، ومن مكتب المدعي الفيدرالي السويسري، ومن طاقم الشرطة؛ وأكدت لهم جميعًا أنهم كانوا مُضَلَّلين، وأنني لم أُذنب في شيء، ولم يريدوا أن يُقروا أبدًا بأنهم قد تورطوا في سلسلة من المعلومات والاتهامات المُضلّلة، وكذلك بأنهم؛ أفرادًا وأجهزة، عجزوا عن تقديم دليل واحد يدينونني به».

«وعلى الرغم من تحفظاتي على سلوكهم، إلا أنني لا أشعر أنهم أعداء لي؛ أنا أعتقد أنهم مهنيون محترفون يمارسون واجباتهم، كل تحقيقاتهم معي كانت حول نشاطاتي التجارية والسياسية والدينية، وعن صِلاتي.. وحتى ضرائبي. ولا شيء يتعلق بالاتهام الأوّلي المزيف؛ بتمويل أسامة بن لادن أو تنظيم القاعدة، أو الخاطفين أو حماس أو الإرهابيين».

«إنني عشت وعملت ٤٢ عامًا في سويسرا تمتعت خلالها بالحب والمساواة والتسامح واحترام البشر والحيوانات والطبيعة والقيم، تمتعت بإخلاص وصداقة أطباء ومهندسين ومحامين ومُشرّعين ومصرفيين وسياسيين ونشطاء، رجالًا ونساء، من البلد التي تمثل القمة وخلاصة القيم الإنسانية».

«وأُجْبِرت على تصفية بنكي وشركاتي، ونُزعت مني كل حقوقي الإنسانية، وثروتي وصحتي، وشَهّرتْ بي وسائل الإعلام في أرجاء العالم، ومُنعت من التنقل، ولم يُسمح لي بالسحب من أموالي لدفع ضرائب، أو أتعاب المحامين أو تأمينات صحية، بل إن النقود التي كانت في جيبي قد صادرَتْها شرطة لندن بطريقة تُشْبه النشالين في رواية «ديكنز» الشهيرة «أوليفر تويست»؛ كل هذا جرى بأمر من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة».

«تنص الأمم المتحدة على أن الذين يجب فرض العقوبات عليهم يتم تحديدهم وفقًا لقرار مجلس الأمن رقم ١٢٦٧، وكذلك المرسوم السويسري الفيدرالي الصادر بتاريخ ٣٠/ ١١/ ٢٠٠١، وهم: طالبان، والقاعدة، وأسامة بن لادن، والإرهابيون، ومن له صلة بهم أو ساعدهم أو موَّلهم. ولم أكن أيًّا من ذلك! ولا علاقة لي بأي جهة مما ذُكِر آنفًا، لقد ضلل البعضُ السويسريين والأمريكيين لأسباب خاصة بهم، واستمر ذلك حتى طال التضليلُ الرئيسَ الأمريكي نفسه وصنَّفَنا في ٧ من نوفمبر ٢٠٠١ بممولي الإرهاب، وبعد أحداث ١١ من سبتمبر شملت منظومة الدفاع الأمريكية كشف وتصنيف كل من يشتبه فيهم حيثما كانوا وبدون أي تمحيص».

«إن إدراج اسمي على القائمة جرَّدني من كافة حقوقي الإنسانية، حرية العمل والتنقل والتملك والعلاج، كما جردني من سمعتي، وجعل العالم أجمع يعاملني

كمجرم وإرهابي، إن لديهم القدرة على التدمير لكنهم يفتقرون دومًا إلى الشجاعة لإصلاح ما سبَّبوه من دمار».

«لقد أثبتت المحكمةُ الفيدرالية السويسرية المدعي الفيدرالي لتركه ملف التحقيقات مفتوحًا لفترة زادت على ثلاث سنوات ونصف بدون أن يواجهني بأي تهمة، وبدون وجه حق أو سند قانوني، وبدون الإحالة إلى المحاكمة؛ ولذلك اضطُروا لإغلاق الملف والتحقيقات كلها والتصريح بأنهم لا يملكون دليلًا».

«إن الدولة الوحيدة في العالم التي قامت بالتحقيق معي كانت سويسرا، لم تكن إيطاليا، ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية، وفي ٢٣ من أكتوبر ٢٠٠١؛ وهو بداية النظر في التحقيقات، اعترف السويسريون بأن التحريات التي تمت في دول كثيرة قد ثبت عقمها، وفي ٧ من نوفمبر، طلب المدعي السويسري الفيدرالي من بعض الدول أن تفتش منازلنا ومكاتبنا وتصادر كل الأوراق وترسلها إليه، وبعد خمسة أيام نَسَّق فريق العمل السويسري الأمريكي المشترك أعماله ضدنا مع الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وليختينشتين والبهاما والمملكة المتحدة وألمانيا والنمسا والمملكة العربية السعودية».

«كل هذه الدول داهمتْ منازلنا ومكاتبنا، واستولَت على وثائقنا وجمَّدت أموالنا، كانت هذه الأخبار تُذاع في كل القنوات التلفزيونية الدولية، وبعد هذه التحركات، أعلن الرئيس «بوش» بنفسه أسماءنا متهمًا إيانا بتمويل الإرهاب، واضعًا إيانا على القائمة الأمريكية الخاصة للإرهابيين، كما أمر بأن نُضاف إلى القائمة المماثلة التي وضعتها الأمم المتحدة».

«وبداية من ٧ من نوفمبر ٢٠٠١ إلى ٣١ من مايو ٢٠٠٥، أجرَوْا الاستجوابات، واتصلوا بالعالم كله، وتحرَّوْا عن جميع البنوك والهيئات ذات الصلة بنا، وفحصوا كافة صلاتنا السياسية والمالية والإسلامية، وعلى الرغم من كل هذه الجهود التي بذلوها والأوقات التي أنفقوها لم يجدوا أي دليل على أي صلة أو تمويل، أو حتى صلة فكرية بيننا وبين الإرهاب، أو طالبان أو أسامة بن لادن أو القاعدة، وفي تقاريرهم

الداخلية الدورية أقروا مرارًا بنقص الأدلة، وأول مرة اقترحوا فيها إغلاق الملف كانت في ١٩ من أغسطس ٢٠٠٣».

«قام السيد «خوان كارلوس زاراته»؛ من كبار موظفي الخزانة الأمريكية بعدة زيارات إلى سويسرا أثناء تلك السنوات لمتابعة التحقيقات، ولم يرغب في إغلاق الملف، وعقب إحدى زياراته في عام ٢٠٠٤ ذكر أن وكلاءه يعملون مع السويسريين، وبعدها بقليل أعلن المدعي السويسري «كلود نيكاتي» إعلانًا غير صحيح بأنه «قد وُجدت أدلة كافية على تورطنا في تمويل الإرهاب»».

وفي ٣١ من مايو ٢٠٠٥، امتثلوا لحكم المحكمة الفيدرالية، وأغلقوا الملف بقولهم لا توجد أدلة، وفي اليوم التالي أعلنوا في وسائل الإعلام أن الملف لم يُغلق بعد، ولكن تم تعليقه فقط، وما زلت لا أعلم كيف يُفسَّر هذا التناقض، وبعد يومين من إغلاق الملف، ذكرت وزارة الخزانة الأمريكية أن «التدابير الإجرائية» لا تؤثر بأي حال على توصيف يوسف ندا بأنه داعم للإرهاب، أو على تجميد أصوله المالية، ولم يتوقفوا عند ذلك: «فالولايات المتحدة لديها أساس قوي من الأدلة بنَتْ عليه توصيفي، واستطردت الخزانة قائلة: إننا ملتزمون بالتأكد من أنه لن يتمكن من دعم شبكات الإرهاب، وأن أصوله لن تقع في أيدي الإرهابيين».

«والدليل المذكور لم تحصل عليه السلطات السويسرية أبدًا رغم أنها ظلت تطلبه باستمرار، وقد دعمتْ أمريكا قرارها بوضعي على قائمتها بزعمها أن الأمم المتحدة قد أدرجت اسم يوسف ندا على قائمتها السوداء؛ ولم يذكروا أن قائمة المنظمة الدولية قد كُتبت بالضغط من الأمريكيين أنفسهم».

«خوان كارلوس زاراته»؛ الوكيل المساعد لوزارة الخزانة الأمريكية كرر الادعاءات ضد يوسف ندا وبنك التقوى في شهادة أقسم عليها اليمين أمام الكونجرس الأمريكي في ٢ من فبراير ٢٠٠٢، وبعد ذلك بشهر واحد، كتب يوسف ندا إليه عن طريق المدعي السويسري معارضًا لأقواله وطالبًا دليلًا يؤيدها؛ واستجابة لذلك كتب المدعي السويسري الفيدرالي إلى «خوان كارلوس زاراته»، قائلًا: شعرت بالإحباط الزائد عندما تسلمت رسالتكم؛ إنها لم تعطني معلومات أكثر مما عندي، وما بها من

تفسيرات هو من باب التعميم، وتفتقد إلى الأدلة التي تمكنني من استخدامها في مواصلة تحقيقاتي.

ولنعرف لماذا غضب يوسف ندا من شهادة «خوان كارلوس زاراته»؛ التي يعوزها الدليل، أمام النواب الأمريكيين، يكفي أن نقرأ ما تضمنته من الادعاءات التالية:

١ ـ إن ٦٠ مليون دولار أمريكي تُجمع لأجل حماس من كافة أنحاء العالم سنويًا كانت تُودع في حساب لدى بنك التقوى.

٢ ـ إن فرعي منظمة التقوى للإدارة في مالطة ولوجانو تلقيا أموالًا من الكويت والإمارات العربية المتحدة لصالح أسامة بن لادن.

٣ ـ إن الأردن اتهم بنك التقوى بأنه يمول شبكة ترتبط بأسامة بن لادن وتخطط لهجمات إرهابية ضد أهداف غربية وسياحية أثناء احتفالات الألفية.

وعلى مستوى التفاصيل، عندما أعوز الدليل وزارة الخزانة الأمريكية، ووجهت مثلًا بأن التقوى لم يكن لها أبدًا فرع في مالطة، جاء ردها الكتابي كما يلي:

«إن المعلومات التي بُحْنَا بها ليست محسوبة بحيث تستوفي معايير الأدلة المتبعة في التحقيقات الجنائية أو المقاضاة في الولايات المتحدة الأمريكية أو في سويسرا؛ فإشارتنا لما ورد عن الستين مليون دولار التي تجمعها حماس كل عام من حملات جمع المال وتحولها من خلال بنك التقوى، قد أقمناها على أساس تقرير نشرته الـ«بي بي سي» في ١٧ من أكتوبر ١٩٩٧، ونص هذا التقرير على أن قرابة نصف دخل حماس السنوي من جمع الأموال قد ضاع، ونَقَل التقرير ذلك عن صحيفة «كوريرا ديلا سيرا». واستمرت رسالة الخزانة الأمريكية تقول، أما من حيث إن المعلومات التي قدمناها طيّه لا تجيب عن بعض الأسئلة المحددة التي وجهتموها، فنحن حاليًا لا نملك معلومات يمكن البوح بها وتجيب عن أسئلتكم، والمعلومات المتاحة فيما يتعلق بفرع بنك التقوى في مالطة قد استقيناها من تقارير إعلامية نشرتها وكالة الصحافة الفرنسية «أجنس فرانس برس» في ٢٣ من سبتمبر ٢٠٠١، و«إنديجو

بابليكاشنز» في ١٦ من مارس ٢٠٠٠؛ تلك التقارير وصَفت التدفق العام للتمويل من المشتركين فيه إلى أسامة بن لادن عبر فرعي بنك التقوى في مالطة ولوجانو».

هذه «العبثية» التي شابت إجابة وزارة الخزانة؛ وهي تجميع تحرياتها من قصاصات الجرائد – قد أثارت غضب يوسف ندا فقال: «إن دليلهم لا يعدو نفثات قلم مسموم في مقالات إعلامية؛ «خوان كارلوس زاراته» لم يكن الوحيد الذي أدلى بشهادة كهذه أمام النواب الأمريكيين؛ ففي ٢٦ من يونية ٢٠٠٣ في مجلس الشيوخ كرر المستشار العام بالخزانة «دافيد أوف هاوزر» الاتهامات نفسها التي لا أساس لها، وفي ١٨ من مايو ٢٠٠٤ أدلى «ستيفن إميرسون» بشهادته أمام لجنة الخدمات المالية بالمجلس، وكرر فيها المعزوفة نفسها؛ وكأنهم جميعًا لاعبون بنفس الأوركسترا.. ترتفع نغماتهم في أوقات معينة».

«ينبغي على أعضاء الكونجرس والشيوخ باعتبارهم حراس الديمقراطية أن يتحروا ويطهروا السجلات التي أصبحت الآن مصدرًا يُرجع إليه، وأنا ممنوع من السفر للشهادة أو تقديم وثائقي في الولايات المتحدة الأمريكية». ويستطرد ندا قائلًا: «من المعروف أن أحد واجبات الجواسيس جمع المعلومات من وسائل الإعلام وتحليلها، لكن رجال الاستخبارات يجب أن يكونوا أذكياء. في حالتي، تسربَت عمدًا أخبار الأقلام المسمومة؛ ومن خلال ضغط سياسي وليس بمهارة حرفية.. لقد اعتمدوا على أشباح وتأثروا بمرض العداء للإسلام، انحرفوا عن طريق القانون والعدالة، والتقطوا الشائعات واعتبروها حقائق يُعتمد عليها».

«لقد قيل لهم تكرارًا إن الاتهامات لا أساس لها، لكنهم استمرءوا ظهورهم في الإعلام ومباركة كبار الموظفين لهم، كانت لديهم القدرة على الإيذاء وافتقروا الضمير والوجهة السليمة في عملهم، لم يعلم المحققون شيئًا عن المحاسبة أو البنوك، ومع ذلك بدءوا التحقيق فيهما، لم يعلموا شيئًا عن الجغرافيا لكنهم تجاوزوا حدودها، لم يعلموا شيئًا عن التاريخ لكنهم بدءوا التحقيق في قضايا تاريخية، لم يعلموا شيئًا عن الفِرَق الطائفية لكنهم شرعوا في التحقيق في علاقاتها، لم يعلموا شيئًا

عن الإسـلاميين، لكنهم أخذوا يحققون في واحدة من أهم فصائلهم، لم يعلموا شـيئًا عن الإخوان المسلمين ومع ذلك بدءوا التحقيق مع أحد مُسِنّيهم».

«وعندما استعانوا بمن يَجْبُر نقص معلوماتهم ضللوهم، كان خبراؤهم يعلمون أكثر منهـم، لكن المواد ذاتها كانت سـطحية، وكان ثمة أجندة وراءها، وانتشـرت الأجندة حول العالم، وتم التعامل مع حالتي دوليًّا على الرغم من أنها أُديرت سويسريًّا بإملاء ودعـم من الخزانـة الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي؛ طلبـوا العون من البهاما وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا وفرنسـا والنمسـا وليختينشتين والسـعودية ومصر وسوريا والأردن والكويت وتونس والسـلطة الفلسـطينية والإمارات العربية المتحدة واليمن وإسبانيا والباكستان وأفغانستان وماليزيا... وغيرها فيما أعلم».

«لم أشـعر أن العالم ضدي، كان وضعًا قاسـيًا بدنيًّا وعاطفيًّا؛ أن تعيش حياة طويلة تحـاول أن تفعل فيهـا الخير ثم ينهار كل ذلك من حولك دون أن ترتكب أي خطأ من جانبك! لا دليل، لا حقيقة، أمر أحزنني، أحزنني كل الحزن، ولكني لم أشـعر باليأس في أي لحظة، كنت كلما ذكرتُ الله ازددت صلابة وثِقة وعِنادًا، وماذا عن كل الآخرين الذين لم يسـتطيعوا صد الهجوم عليهم أو تم تدميرهم قبل أن يسـتطيعوا صده؟ هناك فارق بين المزور والكذاب والغشـاش، لكنهم جميعًا يشـتركون في الخصلة نفسـها؛ في انعدام الشـرف، وهذا قد يتسـبب في ضياع الصحة أو الثروة أو الحقوق الإنسـانية فـي الحيـاة والكرامة والاحترام؛ هذا بالضبـط ما أدى إلى الحرب فـي العراق، حيث فقـد مئات الألوف أرواحهم ويواجه أمثالهم المصير نفسـه، لقـد دُمّرت البنية التحتية التي اسـتغرق بناؤها عشـرات السـنين: مرافق الماء والمجاري والكهرباء والمدارس والمستشـفيات والشـوارع والموانـئ والمطارات، كل مـا يحتاجه النـاس للحياة في القرن الحادي والعشرين».

«كل ذلك بسـبب «ملف كاذب»؛ كما سـماه الإعلام البريطاني، جاء فيه أن صدام حسـين لديه أسلحة دمار شامل؛ مما يشكل خطرًا على العراقيين وعلى العالم، وأعاد ذلك سبعة وعشرين مليون عراقي إلى العصر الحجري».

دمرت الاتهامات والتقارير الصحفية بنك يوسف ندا وشركاءه وأعمالهم التجارية، لكن ما أسماه «السلطتين الكفؤتين؛ لجنة البنوك السويسرية الفيدرالية ومحكمة البهاما العليا» أوقفتا الإجراءات الموجهة ضدهما على أساس عدم وجود قضية.

في ٢٤ من أكتوبر ٢٠٠١، كتبت الشرطة الفيدرالية السويسرية إلى نائب المدعي الفيدرالي تقول إنهم لم «يستطيعوا العثور على أي صلات محددة بيننا وبين أي منظمة إرهابية تؤكد ما في التقارير الإعلامية»، إلا أن التحقيقات مع يوسف ندا في سويسرا استمرت أربع سنوات، وفي عام ٢٠١٢ ما زال يطلب العدالة لتصحيح «الخسارة المعنوية التي أصابته على المستوى العالمي والمحلي معًا».

والأمر كله مَرَدّه إلى العدالة: «فأنا أريد أن يسترد كلٌّ منا ما انتُزع منه»، هذا ما قاله يوسف ندا بحرارة، واستأنف حديثه: «إن حقوقنا بموجب القانون السويسري تتماشى مع حقوقنا وفقًا لإعلان الأمم المتحدة الخاص بحقوق الإنسان؛ والذي وافقتْ عليه وأكدته الجمعية العامة للأمم المتحدة والتزمتْ به أوربا وسويسرا، وأنا أوافق على أن العالم كله يجب أن يتعاون في محاربة الإرهاب، ولكن حتى تكون هذه الحرب مقبولة يجب أن تكون قانونية.. لا يمكن أن تكون بظلم الأبرياء».

أثار هذه المسألة «بيتر ماورر»؛ المندوب الدائم السويسري لدى الأمم المتحدة، في خطابه أمام مجلس الأمن، كما أشار إليها وزير العدل السويسري «كريستوفر بلوخر»، عندما التقى مع «جون أشكروفت» الذي كان أول مدعٍ عام في عهد الرئيس «بوش» وساعده في وضع سياسات مناهضة الإرهاب المتبعة بعد ١١ من سبتمبر، ويلاحظ يوسف ندا أنه رغم ذلك «لم يُفعل شيء»؛ ما زال الإرهابيون البرابرة يسلبون بقسوة ممتلكات الأبرياء وحقوقهم وحياتهم، ولا يجب أن يُجر المجتمع المتحضر عند محاربتهم إلى اتباع نفس سلوكهم المجرد من الرحمة.

«ويجب مراجعة آلية القوائم السوداء قانونيًّا وبدقة، كما يجب استخدامها دون إتاحة الوسائل أمام الحكومات الشمولية أينما كانت للتخلص من خصومها السياسيين بوضع أسمائهم على تلك القوائم دون مبرر، أسماؤنا وُضعت على القوائم

بدون دليل يُقام ضدنا، والمعيار المستخدم في حالتنا لم يُتح دفاعًا عادلًا عن قضيتنا، ولا سبيل للاستئناف، ولا طريقة للحصول على تعويض عن الخسارة التي أصابتنا في صحتنا ومعنوياتنا ووضعنا الاقتصادي السليم».

«إيطاليا بلدي وموطني ولم تحقق معي أبدًا ولم تتهمني أبدًا، وقدمَت المساعدة القانونية التي طلبتها سويسرا لمداهمة منازلنا ومصادرة أوراقنا وسلمتها إلى سويسرا، ولم تكن إيطاليا الدولة التي نسقت ما حدث لنا، الدولتان اللتان فعلتا ذلك هما سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية، صحيح أنني إسلامي وأنا فخور بذلك؛ ولأني إسلامي أعتقد أن أي نوع من الإرهاب بما في ذلك ما وقع في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أو بعد ذلك في مدريد أو لندن، أو في أي مكان شيء لا يمكن تأييده على الإطلاق، ويجب ألا تُعاقِب العدالة الإسلاميين المتبعين للقانون إذا اختطف القتلة الإسلام واستخدموا اسمه في إرهابهم، هذا إن افترضنا أنهم هم الفاعلون كم قيل عنهم».

«الإسلاميون لم يعطوا الحق لأيٍّ من أولئك المجرمين للقيام بأعمالهم الوحشية القاسية باسمهم، هناك حاجة لإيجاد طرق فعالة لتنظيم العولمة، التي إذا مضت دون تنظيم فسوف تزيد بدرجة كبيرة الخلل الراهن في ميزان العدالة في العالم، ولا ينبغي للعالم أن يترك وجوده مرهونًا برغبات الحكام المستبدين أو شهوات السياسيين العنصريين وأهوائهم».

«إن الإخوان المسلمين من بين الداعين إلى العولمة والنظام العالمي، والفارق الأساسي بيننا وبين غيرنا في هذا المضمار هو أن دعوتنا لا تقوم على عِرْق أو لغة أو لون أو ميزة للأقوياء؛ كما كان الحال أيام سيادة الإغريق والرومان، وإنما تقوم دعوتنا على العدالة والتسامح والسلام والمساواة».

وعلى الرغم من أن عمله المتواصل وحياته الاجتماعية الحافلة لأكثر من نصف قرن بالنشاط في العمل الديني والخيري وفي التجارة والبنوك والصناعة - قد قوطع بطريقة فجة، فإن يوسف ندا يريد أن يستمر في دوره كسفيرٍ للخير.

وقال لي: «أريد أن أستمر في الطريق الذي كرَّست له حياتي، إن عقيدتي وتكويني ومهاراتي واتصالاتي وخلفيتي وخبرتي كلها كانت وستبقى مفيدة في فتح الحوارات ومد الجسور، وتؤدي إلى المزيد من التفاهم والتعاون بين مختلف الدول والسياسيين والفصائل والجماعات الدينية، ورأب الصدع وبناء الأواصر من خلال الاحترام والتسامح، لقد فعلت ذلك سابقًا، وسوف أستمر فيه».

لقد مضى ثلاثة أرباع عام ٢٠١٢ وما زال يوسف ندا على القائمة الأمريكية للإرهاب، مما يستدعي السؤال: متى يتحول اعتبار شخصية ما بأنها إرهابية إلى أنها لم تعد كذلك؟

في أغسطس ٢٠٠٢، سمَّت حكومة الرئيس «بوش» أحمدَ إدريس نصر الدين الإيطالي الجنسية بأنه ممول كبير للإرهاب، والرجل صديق يوسف ندا وعضو لمجلس إدارة بنك التقوى، وقالت إنه ممول رئيسي في شبكة القاعدة الدولية، وتابعت الأمم المتحدة خُطى الولايات المتحدة الأمريكية فأمرت دولها الأعضاء المئة والتسعين بتجميد أرصدة نصر الدين وأصول أعماله التجارية ومنع كل الاتصالات معه.

وفي ١٤ من نوفمبر ٢٠٠٧، قامت الحكومة نفسها دون أي ضجة برفع اسم نصر الدين وحوالي عشر من شركاته من القائمة السوداء الرسمية؛ وعقب ذلك فورًا حَذت الأمم المتحدة نفس الحذو، ولم يصدر أي بيان علني أو توضيح من أي شخص أو منظمة بخلاف مذكرة بعنوان «قائمة مُحدَّثة لأعمال الإنفاذ»، فما الذي تغير؟

قال المحامي «جوناثان م. وينر»؛ النائب المساعد لوزير الدولة لإنفاذ القانون الدولي: لا تستطيع أن تتحدث عن شخص ما لمدة خمسة أعوام باعتباره ممولًا للإرهاب الدولي، وتستولي على كل أمواله، ثم تغير رأيك فجأة دون أن تشرح ذلك على الملأ. ثم أضاف: ولكي تكون لديك مصداقية، يجب أن تشرح للعالم ما يحدث، وعليك أن تُبرر كلًّا من القرارين، هل كان القرار الأول خطأ؟ وإذا لم يكن، فكيف تبرر القرار الجديد؟ إن الحاجة إلى تفسير كامل ملحة، ولم يقدمه أحد

بعـدُ، وعندمـا سُـئلتْ وزارة الخزانة لم تناقـش الحالة وإنما أَدْلَـت بتصريح قالت فيه إن قـرار وضع الاسـم علـى القائمة وقرار رفعـه منها كلاهمـا كان «صحيحًا». مكتب مراقبـة الأرصـدة الأجنبية التابع لوزارة الخزانة الأمريكيـة راجع كل المعلومات التي لديـه بما في ذلك المعلومات التي ترتب عليها التصنيف الأصلي للسـيد نصر الدين، كما راجع معلومات إضافية وما تقدم به السيد نصر الدين دعمًا للالتماس المُقدم منه لرفـع اسـمه من القائمة، وذكرت الخزانة أن «الأسـاس الأوَّلـي» لتصنيف نصر الدين كممول إرهابي كان «تأييده ليوسـف ندا»؛ الذي شاركه نصر الدين في تأسيس وإدارة بنك التقوى الشهير، ودعم نصر الدين للبنك ذاته. «أما التغيير الذي حدث عام ٢٠٠٧ فسـببه أن نصر الديـن لم يعد تنطبق عليـه معايير التوصيف المذكور لأنـه قدم بيانات موقّعـة منـه إلـى مكتب مراقبـة الأرصدة الأجنبية تشـهد بأنـه أنهى كل علاقـة أعمال تجارية له مع يوسف ندا أو بنك التقوى أو أي شخص آخر أو هيئة أخرى مصنفة على القائمة، وأنه لن يتعامل مع أي منهم في المستقبل.

وأمـا المسـئول بـوزارة الداخلية؛ والذي شـارك فـي التوصيف العالمـي لكل من أحمـد إدريس نصر الدين ويوسـف نـدا، عندما كان ينتمي لمجموعـة الأمم المتحدة لرصد تنظيم القاعدة فقال: إن الخزانة الأمريكية أثارت أسـئلة أكثر من الإجابات عن كيف يُزال اسـم أحد الأشـخاص من القائمة السـوداء بعد كل هذه السـنوات، ويبدو وكأنهم يقولون إنه كان شخصًا شريرًا لكنه تنصل من ذلك، فإذا كانت هذه هي معايير التغيير، مَرْحى مَرْحى، فسيحاول كثير من الناس محو أسمائهم من القائمة.

وقـال موظفـو الخزانة بشـكل غير رسـمي: إن أفـرادًا كثيرين تُرفع أسـماؤهم من القائمة حيث تسـمح الظروف بذلـك (where circumstances warrant)، ومر الأفراد عبـر «تحقيقٍ يعتمد على الحقائق»، وقالوا: إن حالة أحمد إدريس نصر الدين لم تكن غير عادية.

ومع أن اسم يوسف ندا قد رُفع من قائمة الأمم المتحدة، فإنه لا يزال في عام ٢٠١٢ مدرجًا على القائمة الأمريكية، ولن يقر أحد، فيما يبدو، بأن وضعه على القائمة وتغيير

حياته رأسًا على عقب كان خطأً، أو استجابة عفوية للأحداث.. ولو كانت كارثية؛ لقد قيل وكُتب إنه مذنب في أمور كثيرة، لكنه لم يُتهم رسميًّا أو تُرفع عليه دعوى رسمية بأي شيء على الإطلاق، إنه إهمال طال به العهد، شديد التعقيد عدميّ؛ كأحداث وشخصيات الروائي «كافكا» (It's been a long limbo – Kafkaesque, indeed).

الفصل السابع عشر

في انتظار العدالة

«أي دولة من أعضاء مجلس الأمن ليس لديها مشكلة في إضافة اسم، ما عليها سوى أن تُخطر لجنة العقوبات باسم الشخص الذي يؤيد القاعدة أو غيرها من الشبكات الإرهابية، ولكنها لا تحتاج لتقديم أي دليل».

ديك مارتي

يوسف ندا لديه مكتبة من الأوراق المتعلقة بوضع اسمه في القائمة السوداء، وهي لا تعدو أن تكون جزءًا مما تولَّد منذ صدمة أحداث سبتمبر في نيويورك التي هزت حياته، وبإمكانه أن يستعيدها كاملة في ذاكرته عندما يشاء كما يسترجع المرء مشاهد فيلم رآه من قبل، وهي قصة مزعجة؛ لأن دليلًا واحدًا لم يُقدَّم على صحة أيٍّ من أحداثها سوى تقارير صحفية؛ تكرر أوهام القصاصين وخيالاتهم.

كانت الكلمة المتكررة دومًا المواد «المطلوبة» في الطريق، غير أن انتظارها كانت تكتنفه ظلال عبثية مما تحفل به مسرحيات «صمويل بيكيت»، وبما يشبه الإجماع بدا كأن كل واحد - جميع الدول المشتركة - يريد أن يظل مطمئنًا إلى أنه يوصف بأنه يفعل شيئًا ضد الإرهاب.

هذا المخطط دمر حياة يوسف ندا، وهو يوضح ذلك بقوله: «بعد ١١ من سبتمبر بأسبوع، بدأت وسائل الإعلام تهاجمني، واشتد الهجوم بعد مداهمة بيتي ومكاتبي في ٧ من نوفمبر ٢٠٠١، وما أعلنه «جورج بوش» على التلفاز من أنه سوف يجوِّعنا، ومرت خمسة أعوام ثم تقدمنا بطلب لرفع أسمائنا من القائمة السوداء السويسرية؛ ولكن الطلب رُفض، وكانت جهودي في مجال الإعلام غير كافية، فلجأت إلى المحكمة التي قضت بأنه على الرغم من حرماني من حقوقي الإنسانية، وحياتي فيما يشبه تحديد الإقامة الجبري، إلا أن سويسرا يجب أن تلتزم بقرار مجلس الأمن، حتى وإن كان يتعارض مع القانون والدستور السويسريَّيْن، كانت المسألة برمتها سياسية، تحركتُ قانونيًّا ولم تستطع قوة القانون أن تمنع الظلم رغم إقرارها ببراءتي، وتحركت إعلاميًّا وأسمعت العالم أنني ضحية دكتاتورية النظام العالمي الظالم الذي تتحكم فيه إدارة أمريكية تتشدق بالقانون وهي التي تحتكر اختراقه، فلم يبقَ إلا التحرك سياسيًّا؛ لعل السياسة تصل إلى العدالة؛ واتضح أن الأمر يحتاج إلى سياسي فدائي يقف أمام دكتاتورية الإدارة الأمريكية ويقارعها».

«عندما اتصلت بصديقي السويسري البروفيسور «سباستيان مارتينولي» طالبًا النصيحة قال لي: إن السياسي الوحيد في سويسرا الذي قد يكون مستعدًّا للدخول في هذه الأدغال هو الدكتور «ديك مارتي»؛ وفي غضون ثلاثة أيام رَتَّبَ لعقد اجتماع بيننا، ولأن «ديك مارتي» كان مدعيًا سابقًا، فقد أراد بطبيعة الحال أن يتحقق من صحة ما ذكرته له، أعطيته كل المستندات والأوراق واقتنع بما ذكرته، وقد اشتهر «مارتي» في سويسرا منذ أن كان مدعيًا شابًّا عندما أُطلق عليه لقب «صائد المافيا» بعد أن قضى على عصابات تجارة المخدرات».

في عام ١٩٨٧ حصل «ديك مارتي» على جائزة تقديرية من وزارة العدل الأمريكية والرابطة الدولية لضباط مكافحة المخدرات، وبين عامَيْ ١٩٩٥ و ٢٠١١ انتُخب مرارًا لعضوية مجلس الولايات السويسرية لولاية «تيتشسينو»، ومن ١٩٩٨ إلى ٢٠١١ كان عضوًا في المجلس البرلماني الأوربي، وفي عام ٢٠٠٥ ترأس التحقيق الذي أقامه المجلس الأوربي في المزاعم الخاصة بوجود سجون سرية غير قانونية

تابعـة لوكالة الاسـتخبارات المركزيـة الأمريكية في أوربا، مما جعلـه هدفًا لتحريات «الخدمات الخاصة» الأمريكية. استخدم السياسي السويسري صور الأقمار الصناعية وسـجلات الطيران ليكتشـف إذا كان «الاسـتجواب الشديد» للمشـتبهين بالإرهاب أو الاعتقال السري غير القانوني قد حدثا في أي من الدول أعضاء المجلس الأوربي، وفـي عملهم مع وكلاء النيابـة الإيطاليين، ولقد أدت تحقيقاتهم إلـى توجيه اتهامات إلى عشـرين من عملاء الـ«سـي آي إيه» وضباط الأمن العسـكري الإيطالي لتواطئهم السـري فـي خطف المشـتبهين بالإرهاب، واستجوابهم تحت التعذيب في سـجون سرية في مصر والأردن ورومانيا وبلغاريا والعراق وأفغانستان والمغرب.

وفي نهاية سـبتمبر ٢٠٠٩ أزيل اسـم يوسـف ندا من قائمة رصد الإرهاب الخاصة بمجلـس الأمـن التابع للأمم المتحدة، وقال يوسـف ندا: «كانـت حالتنا هي الوحيدة فـي أوربا التـي جرى فيها التعاون بين اثنتي عشـرة دولة، وتولى أمرهـا المدعي العام السويسري استجابة لطلب من الولايات المتحدة وتحت إشراف أمريكي منذ سبتمبر ٢٠٠١. لـم يتمكنوا من تقديم أي دليل على اشـتراكنا في تمويل الإرهاب كما زعمت واشـنطن، فرفعنا قضية ضد النائب العام الذي وبَّخَتْه المحكمة السويسرية العليا على تأخره في إبلاغنا بالتهم، وفي ٣١ من مايو ٢٠٠٥، أُنهيت التحقيقات بعد أن أقر بعدم توفر أي دليل».

«غير أن أمريكا رفضت أن تُرفع أسـماؤنا من قائمة واشـنطن أو القوائم التي وضعها المجلس الأوربي والمملكة المتحدة، أما سويسرا باعتبارها عضوًا في الأمم المتحدة فقد أعلنت أنها ملتزمة بقرار مجلس الأمن؛ ولن تستطيع إزالة أسمائنا من قوائمها آنذاك».

«أرسـل «ديـك مارتي» فريقًـا تلفزيونيًّا مـن البرلمان الأوربي ليسـجل شـهادتي، وعرضهـا بالفيديـو أمـام البرلمـان، وطلب الاقتـراع على تقريـره، وباسـتثناء رومانيا وبلغاريـا، وافق جميع الأعضاء وأرسـلت مسـودة القـرار إلى البرلمان السويسـري، وقـال لهـم «ديك مارتي»: إن قضية يوسـف ندا عارٌ على سويسـرا. وطلب التصويت علـى اقتراحه، واحتجَّت وزيرة الخارجية السويسـرية، لكن الموافقة كانت بالإجماع

على اقتراحه؛ بأن تخبر الحكومة السويسرية مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بأن سويسرا لن تلتزم بقوائمه الخاصة بالإرهاب لأي اسم مضى عليه ٣ سنوات بدون إدانته في محكمة عادلة».

«اتضح للولايات المتحدة أنه إذا نَفَّذت سويسرا القرار فإن الدول الأخرى سوف تتبعها وتتجاوز نصوص البند السابع لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي يُلزم دول العالم بتطبيق قراراته ولو تناقضت مع الدساتير أو القوانين المحلية، والذي قيل إنه منصوص عليه لحماية الأمن والسلام الدوليَّيْن؛ ولكي تمنع أمريكا ذلك سحبَتْ اعتراضها (الفيتو) على اسمي، ووافقت على إزالته من قائمة الأمم المتحدة، ولكن لم ترفعه من قائمتها؛ مما يثبت بالأحرى دعوى «ديك مارتي» الذي قال إن الطريقة التي يعمل بها نظام القوائم السوداء تُعد انتهاكًا للقانون الدولي وتمنح ميزة للإرهابيين، وأصبحت سويسرا - حتى الآن - هي الدولة الوحيدة التي اتخذت تدابير، بموجبها تلتزم الحكومة برفع العقوبات عن شخص مذكور في قائمة سوداء إذا لم تفحص سلطة قضائية ملفه خلال ثلاث سنوات».

و«ديك مارتي» ينظر إلى المسألة بهذه الطريقة؛ المشكلة ليست في القوائم بحد ذاتها، ولكن في الطريقة التي تُدار بها؛ فأي دولة من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لا تجد صعوبة في إضافة اسم جديد، وكل ما يجب أن تفعله هو أن تُخبر لجنة العقوبات (المكونة من أعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر) بأن هذا الشخص أو ذاك يؤيد القاعدة أو شبكة إرهابية أخرى، وليس من الواجب على الدولة المُبلِّغة أن تقدم أي إثبات، ويكتشف الشخص اسمه على القائمة دون أن يُخبَر بذلك، ودون أن يُمنح فرصة لإقامة دعواه، ولا يستطيع الوصول إلى تفاصيل الاتهام الموجه نحوه، والتي يُعلن أنها من أسرار الدولة، كما أنه لا يستطيع الاستئناف أمام سلطة ملائمة للدفاع عن نفسه، والمسألة برمتها تعسفية تعسفًا كاملًا.

كل ممتلكاتك وأصولك مُصادَرة، ولا تستطيع الحصول على بطاقة ائتمانية أو أن تحتفظ بأي حساب في البنك، ولا يمكنك الالتحاق بأي وظيفة تُدِر دخلًا، ولا تُعطَى

مـن مالِك حتى ما يَسُـد رمقك؛ وهذه القيود ليسـت مرتبطة بمـدى زمني محدد؛ مما يعني التدمير الاقتصادي الكامل لبعض الأفراد.

وتتـم كثيـر من الصفقات داخل لجنة العقوبات، على طريقة «إذا مكَّنتني من وضع اسم الإرهابي الذي أريده على القائمة فسوف أجعلك تضع الاسم الذي تريده عندما يحيـن الوقـت لذلك»؛ إنها فضيحـة أن يعمل البعض بهذه الطريقـة في داخل مجلس الأمن، هل تؤدي الطريقة التعسـفية التي تُدار بها القوائم السـوداء إلى توسـيع الفجوة بيـن الغـرب والعالم الإسـلامي؟ بالطبـع نعم، والحكومـات، وبخاصـة الأوربية، لا تُبدي شـجاعة كافية تنسـجم مـع المبادئ التي تدعو إليها، وهـذا يمنح الإرهاب نوعًا من الشـرعية - الشـرعية لمحاربة دول تسـتخدم طُرقًا غير قانونية؛ كالقوائم السـوداء ورحلات الـ«سي آي إيه» الجوية، والسجون السرية.

«باسـم مكافحـة الإرهـاب، يُختطـف الأشـخاص ويُعتقلـون سـنين طويلـة دون محاكمة، ويُطلق سـراحهم بعد تسـعة أعوام لنقص الأدلة وبـدون توجيه كلمة اعتذار واحـدة أو تعويضهـم ولـو بـدولار واحـد، وقـد خَلق هـذا موجـة مـن التعاطف مع الإرهابييـن؛ وهو أمـر جد خطير ومؤسـف؛ خاصة أن هذه الإجـراءات حتى الآن لم تُصِب سـوى المسـلمين، ولو حدث وتضرر مواطن من دولة غربية مسيحية لتحركت الأمور. وبدأت الأمم المتحدة تتحرك في أعقاب هذا القرار؛ فأُزيلت أسماء قليلة من القوائم السوداء، كما عَيَّنت الأمم المتحدة أمينًا للنظر في المظالم، فاكتشفت أن بعض الأفراد ممن توفوا منذ وقت مضى ما زالت أسماؤهم مُدْرَجة على هذه القوائم».

«ديك مارتي»؛ سـريع البديهة والحركة، قوي السـمعة والشخصية، ومشاركته في ندوة عن حقوق الإنسان مع «أرماندو سباتّارو»؛ مدعي ميلانو؛ الودود المرح وشديد الصلابـة في آنٍ معًا، قد جذب جمهورًا غفيرًا إلى جامعة لوجانو في يناير ٢٠١٢ رغم العاصفة الثلجية ودرجة البرودة تحت الصفر، وصَحِبَته حراسة مشددة.

جلسـت بجوار يوسـف ندا في أحـد الصفوف الأماميـة، وفجأة اقتحمـت القاعة مجموعـة من نحـو ٣٠ من أنصار البيئـة يتصايحون بشـعاراتهم ويُلَوِّحون بأعلامهم، ويدقـون الأرض بكعوبهـم، متجهيـن نحـو مقدمـة القاعـة، وأخـذ «ديـك مارتـي»

والآخرون يشاهدون دون تعليق التشابك بينهم وبين حراس المكان الذين تَمَكّنوا من إخراج أولئك المحتجين من القاعة، واستطاع «ديك مارتي» فيما بعد أن يُزيل أثر التوتر الذي ساد، لم يكن ثمة شيء، وقال رجل الأمن: لم يكن مع أحد سلاح. كان بيانًا حيًّا بأنه مهما طابت النوايا فلن تستطيع إرضاء كل أحد، خاصة في عصر يقصر عن استكمال العدالة، ومن المؤكد أنه بعد العمل الأوّلي السريع تدور عجلات عالم العدالة ببطء وتؤدة.

في ٢٣ من مارس ٢٠١١، صاحبتُ يوسف ندا وزوجته ومساعده المخلص غالب همت إلى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، كانت دعواه أن السلطات السويسرية قد أساءت معاملته، وتم نظر دعوى «ندا ضد سويسرا» في القاعة العظيمة الخاصة بالغرفة الكبرى للمحكمة الأوربية لحقوق الإنسان في ستراسبورج؛ وذلك أمام سبعة عشر قاضيًا.

وكانت الدعوى اعتراضًا على تنفيذ عقوبات الأمم المتحدة على «أشخاص يُفترض أنهم على صلة ما بالقاعدة»، وقد ثبت أنهم لم يكونوا. وأوضحت وثائقُ المحكمة أسباب إقامة الدعوى:

... لانقضاء ما يَقرب من سبع سنوات دون تقديم أي ادعاءات محددة أو عقد أي شكل من جلسات نظر الدعاوى التي يُمكن من خلالها البت فيها، ونتج عن ذلك أن صاحب الدعوى الراهنة؛ وهو يوسف مصطفى ندا، مواطن إيطالي حُددت إقامته في أرض مساحتها ١,٧ كيلومتر مربع، وعانى من تدخلات خطيرة في حياته العائلية، وكذلك إلى تدمير خطير لسمعته، كما وُضِع اسم ندا على قائمة لجنة الأمم المتحدة، ووُضِع كذلك عدد من المنظمات المرتبطة به، وفي ٣٠ من نوفمبر ٢٠٠١ أضافت السلطات السويسرية كل أولئك إلى قائمة الأشخاص المعنيين بمرسوم مناهضة طالبان. والمرسوم يقضي بتجميد الأصول والموارد المالية لأولئك المعنيين، ويمنع تزويدهم بالأموال أو الموارد المالية.. بالإضافة إلى منع دخولهم إلى سويسرا أو سفرهم عبرها.

وقد طلب السيد ندا حذف اسمه وأسماء المنظمات المرتبطة به من القائمة؛ لأن التحريات السويسرية عنه قد توقفت. ورُفض طلبه كما رُفضت الطعون الإدارية المتعاقبة، وفي سبتمبر ٢٠٠٩ رُفع اسم ندا من القائمة بدون أي توضيح... ودون أي جلسات.

وقد ترافع «جيرمي ماكبرايد» عن يوسف ندا وقال في الدعوى: إن «كامبيوني ديتاليا» مكان يشبه الجنة؛ يقع على شاطئ بحيرة لوجانو، تحت السفوح الخضراء لجبال الألب الجنوبية، هذه البلدة الإيطالية الصغيرة والملاذ الضريبي الواقعة ضمن «كانتون تيتشينو» السويسري بقعة من الجمال الطبيعي الفائق، لكنه بالنسبة إلى أحد سكانها الأليفين؛ السيد يوسف مصطفى ندا، أصبح إلى السجن أقرب؛ بعدما أَطلق عليه مجلسُ الأمن التابع للأمم المتحدة لقب المصرفيّ الإرهابي.

كان ذلك في أكتوبر ٢٠٠١، بعد ١١ من سبتمبر بقليل؛ إذ اتهمت إدارةُ «بوش» السيدَ يوسف ندا؛ رجلَ الأعمال المصري الثري والعضو البارز في جماعة الإخوان المسلمين بأنه يمول تنظيم القاعدة، وجمدت حساباته المصرفية، وحسابات أعماله، وقَيدت تحركاته بحيث لا تتجاوز ضيعته البالغ مساحتها ١,٧ كيلومتر مربع – أكثر من نصفها مسطحات مائية – مما يعني في الواقع أنه قد وُضِع تحت الإقامة الجبرية، واستمر ذلك ثمانية أعوام حتى سبتمبر ٢٠٠٩؛ عندما أُزيل اسمُه من قائمة المشتبهين بالإرهاب الخاصة بالأمم المتحدة، ورُفعت العقوبات المُوقَّعة عليه.

والسيد يوسف ندا، لم يَثْبُت عليه مطلقًا أيُّ شيء له علاقة بالإرهاب، لم توجه له تهمة قط، ولم تقم ضده أي دعوى رسمية. بدأ المدعيان السويسري والإيطالي التحقيقات، لكنهما أغلقاها فيما بعد لنقص الأدلة، أما ندا فقد أنكر دائمًا أيَّ اشتراك في مثل هذه الأعمال، لكنه لم يتمكن من الدفاع عن نفسه لدحض الادعاءات، ونتيجة لتداعيات القضية فيما يتعلق بجهود حكومات كثيرة لوضع قوائم سوداء في إطار «الحرب الكونية على الإرهاب» فقد اكتسبت قضية يوسف ندا أهمية عالمية، وطلبت المملكة المتحدة أن تكون طرفًا بفريقها في الجلسة، وأيضًا الحكومة الفرنسية. وكان السؤال المطروح هو: منذ متى كان صوابًا أن تلاحق المشتبهين بالإرهاب وتتجاهل

القانـون؟ أو كمـا صاغها وزير المالية الأمريكية الأسـبق «بول أونيل»: إنشـاء هيكلية قانونية جديدة لتجميد الأرصدة بناء على أدلة لا تصمد أمام المحكمة.

ودافَعَـت خبيـرةُ مكافحـة الإرهـاب الأوربيـة «جيـل دو كيركهـوف» عـن هـذه التصرفات بقولها: هذا ليس قانونًا جنائيًّا، إنها عقوبات إدارية، وإن العقوبات الإدارية مثـل مخالفة تعدي السـرعة القصوى أو مخالفـة تعليمات انتظار السـيارة تحتاج إلى ضمانات قانونية أقل؛ أولئك سـوف يضعفون الأداة فحسـب، إنه توازن دقيق، إنه أداة سياسية ودبلوماسية كذلك.

وعندمـا أغلق مكتب المدعي الإيطالي ملف تحقيقاته الخاص بيوسـف ندا قال: إن الإدراج على القوائم السوداء دافعه أساسًا الاختيار السياسي.

وفـي ٢٣ مـن مارس ٢٠١١ ، أكـد «جيرمي ماكبرايد» نقطة مـا زالت تتعلق بالأمر علاقـة كبيرة؛ لقد مضت تسـع سـنوات ومـا زال صاحـب الطلب ينتظـر المثول أمام أي محكمـة، وبعـد ذلك بسـنة وبعد انقضاء أكثر من عشـرة أعوام ما زال يوسـف ندا ينتظـر الحكم من المحكمة الأوربية لحقوق الإنسـان، ويقول: «تعلمت في الإخوان المسلمين أن أتقبل القضاء راضيًا؛ فأفعل ما يجب عليَّ ثم أُفوض أمري إلى الله».

الفصل الثامن عشر

أرني المال

«إن الأمة التي تواصل إنفاق المزيد من المال على دفاعاتها العسكرية عامًا بعـد عام دون أن تنفق مثلـه على برامج التنميـة الاجتماعية تقترب حثيثًا من كارثة روحية».

مارتن لوثر كينغ؛ الابن

هذه الأيام ليس لدى يوسف ندا إلا القليل من الوقت ليشغل نفسه بأخبار السياسيين البارزين (إذ يجد صعوبة في استخدام مصطلح «قادة العالـم») في أوائل القرن الحادي والعشـرين أمثـال الرئيس الأمريكي «جـورج دبليو بوش»، وصاحـب الملايين حاليًا «توني بلير» رئيس وزراء بريطانيا السابق، أشبه بعلي جناح التبريزي وتابعه قفة.

وذكرت له تعليقات «توني بلير» لإذاعة «بي بي سي» الرابعة في البرنامج الإخباري «اليوم» بتاريخ ٢٩ من ديسمبر ٢٠١١، قال «بلير»: لو نظرنا إلى الماضي، لنستمد منه درسًـا للمستقبل فإن بقاء الأشـخاص في مناصبهم لمدة ٢٥ عامًا ولأكثر من ذلك في بعـض الحالات أمر لا يـدوم، وحتى من وجهة نظر المصلحة الشـخصية يجب علينا أن نسـاهم في تغيير متدرج وإلا سـتقع الثورة، وأعتقد أنه كان من الأفضل لو استطعنا تعزيـز التغيير التدريجي فـي هذه البلاد بدلًا من الثورات التي أسـفرت عن صعوبات

جمـة، ليسـت في طريقنا فحسـب، لكن لشـعوب هذه البـلاد ذاتها، انظـر ماذا حدث لمعدلات النمو الاقتصادي في مصر وللسياحة بها.

لـم يتأثر يوسـف نـدا بهذا الـكلام خاصة. وقال لـي: «أي واحد يسـتطيع مهاجمة «بليـر»، لكنه رجـل ينتمي إلى الماضي، إنـه مضيعة لوقتنا، إن اسـتحواذ الأفراد على السـلطة المطلقة ثلاثين عامًا يشـل العمل، كل ما نحتاجه هو أن ندرك أين نحن وإلى أين نحن سائرون الآن بعد أن اختفى من الساحة أصدقاء «بلير» من أمثال القذافي».

«أنـت لا تحتـاج إلى أن تحتضن الوحـوش، يكفيك أن تتفـاوض معهم: ثمة فرق ضخم بين هذه وتلك».

«هـؤلاء الطغاة ليسـوا أغبياء؛ الآن وقد ذهب القذافـي، وتنحّى مبارك، وهرب بن علي من تونس؛ فإن الشعوب تحلم بأنها سوف تسترد الأموال التي سرقوها وهرَّبوها إلى خارج بلادهم، وسـيكونون محظوظين لو استعادوا عشرة في المئة منها، بل ربما أقـل من ذلك. هؤلاء الطغاة والبطانة المحيطة بهم قاموا بتهريب الأموال إلى الخارج بذكاء بحيث يصعب تقفي أثرها (على خلاف ما فعله الجنرال «سـاني أباتشـا»؛ الذي تـدرب فـي الجيش البريطاني وأصبح رئيسًـا لدولـة نيجيريا الغنيـة بالنفط في ١٩٩٣ لمدة خمس سنوات، نَهَب هو وعائلته خمسة بلايين جنيه إسترليني من دولته، وتُوفي بطريقة غامضة وبرفقته ست بغايا مراهقات هنديات وجرعات من السم)».

«سيكون لديهم شركات وهيئات في أي مكان في العالم، سواء في المناطق الحرة أم المُعْفَـاة مـن الضرائـب والمتابَعة، أم داخل البـلاد أم خارجها، مع ملكية الأسـهم لحامليها دون توقيع أي من أسمائهم عليها، ولا يعرف أحد مَن هو المنتفع الحقيقي؛ المنتفع النهائي».

«تستطيع، على سبيل المثال، أن تسأل سويسرا عن أموال القذافي، التي تم تهريب الجزء الأعظم منها، والتي تُقدر بالبلايين لا الملايين، ولكنها قد تكون مُودَعة بأسماء شـركات أسهمها قابلة للبيع في أي وقت ولأي حامل، والمنتفع النهائي هو الشخص الذي تئول إليه الملكية بتحويلها من حامل السند، وهذا قد يكون أيَّ إنسان».

«قال «توني بلير» إن البقاء في السلطة ٢٥ أو ٣٠ عامًا يسمح بالوقت الكافي لإتمام الترتيبات؛ في مصر هناك أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذين بَقوا من عهد مبارك متابعين لخط السادات، ومن قبله عبد الناصر؛ ستون عامًا وما زالت الدكتاتورية تحكم مصر؛ مصر فيها مناجم ذهب لكن أين هو الذهب؟ هو فقط في مقبرة توت عنخ آمون!!».

«إن كراهية الاستغلال قد برزت كموضوع مشترك بين المحتجين عبر أنحاء العالم العربي، فشعوب شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية تناقش طَوال الوقت كم من المال سرق بن علي ومبارك، وكم هَرَّبت عائلة القذافي إلى نيويورك وباريس ولندن. قيل إن مجموع هذه المبالغ قد يصل إلى مئة بليون دولار أمريكي، وقد يكون ذلك صحيحًا، على اعتبار الفترة التي قضاها الحكام الثلاثة في السلطة والجهود التي بذلوها في نهب ثروات بلادهم».

«إن كراهية الفساد، سواء كان نهبًا لبلايين الدولارات أم التصريح لبائع جائل، قد أصبحت الآن أمرًا محوريًّا في العالم العربي، وضروريًّا لهَبَّة الربيع العربي، وأيضًا في الغرب حيث تنتشر كراهية المصرفيين ومديري صناديق الاحتياط باعتبارهم المقابل للطغاة الأشرار النَّهِمِين».

وهناك عالَم آخر يجري الكشف عن خباياه، سواء كان غرور الحكام أم إهمالهم أم جرائمهم، ويحكي يوسف ندا عن تجربة حدثت لأحد أصدقائه عندما ذهب لاجتماع عمل مع أمير أحد الإمارات في المملكة العربية السعودية: «كان هناك مشروع مهم في المنطقة، وكان صديقي خبيرًا، وتم تحديد موعد لمقابلته في التاسعة صباحًا، لكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف ظهرًا وما زال جالسًا ينتظر قدوم الأمير، وأراد أحد أعضاء الفريق المصاحب لصديقي الذهاب إلى الحمام، وفي طريقه فتح بالخطأ أحد الأبواب فوجد الأمير واقفًا أمام لوحة ممسكًا بالفرشاة في يده؛ والأمير مُحِبّ للرسم؛ فهو إحدى هواياته، وكان عليهم أن ينتظروه! فالوقت لا يعني عنده شيئًا».

«خذ قصة يحيى حسين عبد الهادي؛ الخبير المثمن لصفقات الخصخصة التي تُقرها الحكومة المصرية؛ فقد تواردت في ٢٠١١، وذُكر أنه تم استدعاؤه قبل ذلك

بخمسة أعوام إلى مكان عمله في وزارة الاستثمار بالقاهرة، حيث أعطوه وثيقة من ثلاث صفحات وأمروه بالتوقيع عليها، كانت وثيقة بيع مجموعة محلات عمر أفندي البالغ عددها ٨٢ متجرًا كبيرًا تمتلكها الدولة، في مقابل «المبلغ المنصوص عليه في الأوراق المرفقة».. ولم تكن هناك أي أوراق مرفقة!! وبعد ذلك بثلاثة أيام بيعت جميع المتاجر والأرض المقامة عليها لرجل أعمال سعودي بمبلغ ٩٩ مليون دولار أمريكي؛ وهو ثمن بخس للغاية عند مقارنته بالقيمة الحقيقية للمحلات. ويقول عبد الهادي: كانت الحكومة متلهفة على البيع.. ولم تسأل عن شيء».

«في عامَيْ ٢٠١١ و٢٠١٢ اكتُشِفت صفقات سرية مشابهة عقب تغيير النظام وبداية تعقب الكنوز التي خبأها الدكتاتور».

«وطبقًا لما تراه «أنثيا لوسون» من منظمة «جلوبال ويتنس» بلندن لأبحاث مكافحة الفساد فإن هذه الاقتصادات تعمل وهي متسربلة بعباءة من الضبابية. و«الاحتجاج على» الفساد كان قاعدة كل ثورات «الربيع العربي»، وكانت الشعوب غاضبة إلى الحد الذي خاطرَتْ معه بالحياة وهي تسعى للقضاء عليه».

«ولم تتضح مقادير تلك البلايين الشقية، أو بالأحرى ما عُرف أو قُدر منها بالتقريب، إلا في عام ٢٠١٢؛ ففي تونس، كانت أسرة الرئيس زين العابدين بن علي بامتداداتها تتحكم في الاقتصاد، فامتلكت أسرته المنازل في باريس وفي جبال الألب وفي جنوب فرنسا، وجَمَّدت سويسرا ٦٩ مليون دولار أمريكي من ودائع أفراد الأسرة في البنوك، كما صادرت الحكومتان الفرنسية والسويسرية طائراتهم الخاصة، وفي الوقت نفسه، ما زالت ملاحقة ثروات القذافي مستمرة، مع اكتشافات مبكرة لبعضها بما في ذلك عقارات في حي «وست إند» في لندن، وأسهم في نادي كرة القدم الإيطالي «يوفنتوس». وأودع مبارك، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، أرصدةً أخرى في أكثر من عشر دول، بما فيها دول الخليج وسائر الدول الآسيوية، أما فرحات بن قدارة محافظ بنك ليبيا المركزي الذي هرب في مارس ٢٠١١، فقد قال إن القذافي احتفظ في طرابلس بحوالي ٥٠٠ مليون دولار أمريكي نقدًا، كما احتفظ بنحو ١٥٥ طنًّا على

شـكل قضبان من الذهب تبلغ قيمتها ٥ ,٧ بليـون دولار أمريكي. ولم يَصْدُر أيُّ بيان بهذا الشأن منذ بدايات ٢٠١٢».

«فـي فبرايـر ٢٠١١، قَدَّرت صحيفة الجارديـان البريطانية ثروة عائلـة مبارك بأنها تتراوح بين ٤٤ و٧٠ بليون دولار أمريكي، تشـمل منازل في «بيفرلي» في كاليفورنيا، وفـي نيويـورك وفـي حي بلجرافيا مـن أرقى أحياء وسـط لندن وغيرها من حسـابات بنكيـة، وإذا كان مبـارك مصاصًا للدماء عاش على امتصاص دماء بلده حتى آخر قطرة فـإن الأرقام في هذا التقرير وأشـباهه بمثابة الخنجر الخشـبي الـذي إذا غُرز في قلب «دراكولا» نجت ضحيته من براثنه».

وتتفق «أنثيا لوسـون» من مؤسسـة «جلوبال ويتنس» مع يوسـف نـدا حول فُرص اسـترداد الملاييـن المفقـودة، فتقـول: لا يكفـي خروجـك بِنِيَّة الصيد فقـط؛ ولكنك تحتاج إلى تحديد ما تريد صيده. وغالبية الدول تحتاج إلى وكالات تسترد عن طريقها أموالها المسروقة؛ فهي تتعرف على مَن أخفاها وأين ذهبت؛ هذه أمور معقدة، كما أن الموظفين المدنيين لا يُريدون أن يذهبوا إلى السجن إذا باحوا بتفاصيل.

إن الكارثة تكمن في عدم وجود مَن يعرف مكان الأموال، وأن يموت الأشخاص وتضيع الوثائق إلى الأبد، حسـبما قال «بيير شـيفرلي»؛ المحامي من مدينة جنيف في ٢٠١١، وكان قـد سـاعد فـي اسـترداد البلايين التي هرَّبهـا الرئيس النيجيري «سـاني أباتشـي» والرئيـس الفلبينـي «فردينانـد ماركـوس»، ويقـول «شـيفرلي»: إن أمـوال «ماركـوس» كانـت مخبأة بعناية فائقة، لدرجة أن أفراد عائلته كانوا لا يعلمون مكانها، أو هكذا قالوا؛ فالشك وانعدام الثقة عادة لا يزولان سريعًا.

الفصل التاسع عشر

بدايات جديدة

«الأمور العظيمة تُنجز عندما يلتقي الرجال والجبال».

ويليام بليك، ١٧٨٩

فيلّا ندا، كمبيوني ديتاليا، ٢٣ من يناير ٢٠١٢:

بعد الغداء بوقت قصير، أدار يوسف ندا أزرار التلفاز بحثًا عما تخبئه الأيام؛ يا إلهي، كانت بداية صاخبة ساخنة لعالم المستقبل؛ فقد عُقدت في القاهرة صباح ذلك الاثنين من بدايات عام ٢٠١٢ الجلسة الافتتاحية لأول برلمان مصري يأتي عبر انتخابات حرة منذ ١٩٥١، جاء الاحتفال قبل يومين من الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى للاضطرابات التي شهدها ميدان التحرير وميادين مصر ومدنها الأخرى في «ثورة ٢٥ من يناير»، وجلست مع يوسف ندا نشاهد معًا الاحتفال الذي تنقله قناة الـ«بي بي سي» الفضائية العربية.

لم يتكلم، وكان تركيزه منصبًّا على ما يجري أمامه على الشاشة، بدأ الاحتفال بقراءة الفاتحة على أرواح الألوف الذين سقطوا أثناء الثورة، ووقف الرئيس المؤقت للمجلس الدكتور محمود السقا؛ أكبر الأعضاء سنًّا (٨١ عامًا)؛ وهو من حزب الوفد ليقول: أدعو الأعضاء المحترمين للوقوف وتلاوة الفاتحة على أرواح شهداء الثورة؛ الذين لولا دماؤهم ما كنا هنا اليوم.

ظل البرلمان المصري برلمانًا صوريًّا عقودًا من الزمان، يُقر كل التشريعات التي يريدها الحاكم وتخدم سياساته، أما البرلمان الجديد فكائن مختلف تمامًا عن سابقيه، بدأ يوسف ندا يُترجم التعليق التلفزيوني :

بينما نحن نشاهد «النواب الجدد»، وقد لبسوا أوشحة صفراء مكتوبًا عليها «لا لمحاكمة المدنيين أمام محاكم عسكرية»؛ في إشارة إلى مَن عُومِلوا كما عومل يوسف عام ١٩٥٤، وأيضًا كما حُوكم غيابيًّا مرتين عام ١٩٦٦ وعام ٢٠٠٧، وفي كل منهما حُكم عليه غيابيًّا بعشر سنوات سجنًا؛ أي لو كان في مصر لقضى عشرين عامًا في السجن.

وبدأ أعضاء المجلس الجديد واحدًا واحدًا عندما ينادَى اسمه يُمسك المكروفون ويقسم على حماية النظام الجمهوري، ومصالح الشعب و«أن يحترم الدستور والقانون»، حتى جاء دور ممدوح إسماعيل؛ من الحزب السلفي الذي نال ربع مقاعد المجلس، فأضاف عبارة «فيما لا يخالف شرع الله»؛ ونهره رئيس المجلس الدكتور سعد الكتاتني في حزم، واعتبرها مزايدة رخيصة، كما قاطع وكيلُ المجلس النوابَ السلفيين عندما أرادوا تكرار ما فعله ممدوح إسماعيل، فما كان منهم إلا أن بدءوا قسمهم بهذه العبارة ثم أتبعوها بالنص الرسمي لليمين، ورغم أن الدكتور الكتاتني معروف بصبره ومنطقه الهادئ وتجنبه المراء والنزاع، ولكن تصرّف السلفيين دفعه للشدة على غير عادته؛ فهذا التصرف يوضح ضحالة تفكيرهم وتمثيلهم الفج بالورع المصطنع؛ فالدستور الذي يقسمون على الالتزام به منصوص في مادته الثانية على الالتزام بالشريعة الإسلامية.

كانت مكاسب السلفيين الانتخابية أكبر مفاجأة أسفرت عنها الانتخابات المصرية، وكان أداؤهم القوي مفاجئًا للإخوان المسلمين الذين توخَّوا الحذر من أن يُستدرجوا إلى اتخاذ مواقف متشددة؛ فالسلفيون على خلاف الإخوان يريدون للدستور المصري الجديد؛ الذي تكتب مسودته لجنة يختارها البرلمان، أن ينص على التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية، وقبل ذلك كانت الصيحات قد ارتفعت حول إجراءات انتخابات رئيس مجلس الشعب.

نسق حزب الحرية والعدالة المنبثق عن الإخوان المسلمين مع أحزاب رئيسية أخرى اختيارَ سعد الكتاتني الأمين العام للحزب رئيسًا للمجلس، وأحدث المرشحون الآخرون ضوضاء كبرى وهم يصرون على حقهم في مخاطبة البرلمان وتقديم أنفسهم لأعضاء المجلس.

وانتُخب الكتاتني رئيسًا لمجلس الشعب، وهو الوحيد من بين قيادات الإخوان المسلمين الذي لم يُعتقل قط، وعقب انتخابه ألقى خطابًا يتسم بالأهمية والحساسية السياسية معًا، فبدأ أولًا بشكر المجلس الأعلى للقوات المسلحة على الوفاء بوعده وإجراء الانتخابات التشريعية، ثم قال: لن نرضى إلا عندما تتحقق جميع أهداف الثورة؛ سوف نثأر لشهداء الثورة عن طريق محاكمات عادلة عاجلة وفعالة، وسوف نُعيد بناء مصر دولة وطنية ديمقراطية دستورية حديثة. وقد علق يوسف ندا بأن سعد الكتاتني ومحمد مرسي هما أكفأ وأفضل الإخوان، رغم أن ساحة الإخوان مليئة بالأَكْفَاء والمخلصين.

إن وجود مجلس ذي مصداقية خطوة للأمام؛ وهو إحياء لبرلمانات كانت منذ بدايات القرن العشرين صوتًا مستقلًّا ومسموعًا في مواجهة الملك والنفوذ البريطاني، كل ذلك اختفى بعد انقلاب عبد الناصر في ١٩٥٢، وظل تأثير هذا الرجل الذي أَوْدَع يوسف في السجن مستمرًّا دون توقف حتى بعد وفاته في سبتمبر ١٩٧٠.

كانت جلسة افتتاح برلمان الثورة الخطوة الأولى لتغيير ذلك كله، في الماضي كان حزب مبارك يكسب بأغلبية ساحقة على الدوام، وأفضل نتيجة حصل عليها الإخوان كانت في انتخابات ٢٠٠٥ عندما حصلوا على عشرين في المئة من عدد المقاعد في الجولة الأولى مما حدا بمبارك إلى تزوير الجولة الثانية، أما في انتخابات عام ٢٠١٠، فكانت مزورة تزويرًا فاضحًا.. ولم تفز المعارضة جميعها بمقعد واحد.

وفي مساء ذلك اليوم من يناير، تم انتخاب سعد الكتاتني بأغلبية ٣٩٩ صوتًا في مقابل ٩٧ صوتًا ذهبت لمنافسيه، تَحوُّلٌ مهم في تاريخ الإخوان المسلمين، وبعد أربعة وثمانين عامًا من النضال في ظل الملكية والدكتاتورية أصبح الإخوان رواد الفكرة الإسلامية في العالم يمتلكون قوة سياسية وشرعية ديمقراطية؛ كانت هذه

علامة دالة على تحول الإخوان المسلمين من معارضة تسميها الأنظمة الدكتاتورية غير قانونية إلى هيئة سياسية شرعية وقانونية.

وقال رئيس البرلمان الجديد الدكتور سعد الكتاتني: «هذه هي الديمقراطية التي غادرَت هذه القاعة سنين، والآن هي في يد الشعب، إننا في مصر نريد العالم كله أن يعلم أن ثورتنا سوف تستمر، وأننا لن نستريح وأعيننا لن تغفل حتى تحقق الثورة جميع مطالبها.

وإذا شهد البرلمان الجانب العاطفي لنهضة الإخوان، فإن صحوتهم المادية في مصر قد اتخذت شكلًا ظاهرًا؛ في مايو ٢٠١١ عندما نقلوا مكاتبهم من شقة في إحدى العمارات في الجزيرة بالقاهرة إلى مقر جديد بمنطقة المقطم، ووضعوا باعتزاز شعار الجماعة القديم باللغتين العربية والإنجليزية، وهذا الشعار يعترض عليه يوسف ندا ويطالب بتغييره إلى ما يرمز للعدالة وهي أهم ما يدعو إليه الإسلام، وأهم ما افتقده الإخوان من الحكومات المتعاقبة منذ نشأتهم.

ويقول حزب الحرية والعدالة، الذي يضم أقلية قبطية بين أعضائه، إنه يريد دستورًا يحترم المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، وإنه لن يفرض الشريعة الإسلامية ولكن أيضًا لن يناقضها، وإنه ملتزم بالتعددية وبالديمقراطية، ومشكلته العاجلة اقتصادية أكثر منها دينية، ثم هناك السياسة الدولية، وكل فريق يسلك سبيله؛ فحزب النور السلفي في طريق، والعلمانيون في طريق آخر، وكذا طبقات رجال الأعمال.

غير أن الإخوان المسلمين وقد تَصدَّروا المشهد في مصر؛ زعيمة الشعوب العربية، فإن كل حركة في كل دقيقة مرصودة في موسكو وواشنطن ولندن والسعودية وطهران وتل أبيب. في عام ٢٠١٢ وصل الإخوان المسلمون إلى السلطة، بينما العالم يتأرجح على حافة حرجة، لا تستطيع البحث في جوجل عما يأتي به المستقبل، لكن ما وصفوه يومًا بـ«الفوضى في الشرق الأوسط التي تبتهج لها أمريكا»؛ هذا بالضبط ما هو كائن الآن؛ فوضى يمكن القول إنها من صنع الآخرين.

وفـي الوقت ذاته، وبينما كان البرلمان المصري يدبر شـئونه، كانت أمريكا تشـهد سـباقًا لتحديد المرشـح الجمهـوري الذي سـيواجه «بـاراك أوباما» فـي الانتخابات المقبلة، كانت المُناظرات الانتخابية عروضًا مسـلية أكثر منها وسـائل توعية، وبعض المعلقيـن الأمريكيين تذكروا علاقات الماضي المتوتـرة وأخذوا في تقييمها؛ ومنهم «ستيف كول» في جريدة «نيويوركر» في فبراير ٢٠١٢، الذي تذكر الخطاب الرئاسي السنوي الذي ألقاه «أيزنهاور» عام ١٩٥٤، بعد أقل من عام من إصداره أوامره السرية إلى «سـي آي إيه» لتطيح بحكومة مصدق إيران يسـارية الميول، وفي الخطاب رَحَّب «أيزنهاور» بـ«قوى الاستقرار والحرية» التي تعمل في إيران.

وكتـب «كـول» يقـول: فـي ١٩٨٠، ألقى «جيمـي كارتر» خطابه السـنوي وسـط إعصار ثورة إيران الإسـلامية المعادية لأمريكا، والتي اشـتعلت جزئيًّا بسبب ذكريات الإيرانييـن عـن انقـلاب «أيزنهـاور»، وأعلن «كارتر» فـي خطابه: نحن سـنواجه هذه التحديات، ولن نتقاعس.

ويقول التعليق إنه بعد ثلاثة عقود، أقام رجال الدين في إيران دولة بوليسية، ونشروا العنف خلال الشـرق الأوسط وامتلكوا مفاعلات نووية، وظلت إيران موضوعًا كئيبًا في خطب الرئاسـة، و«بـاراك أوباما» في خطابه الرئاسـي الثالث أدلـى بدلوه كذلك: كُونوا على يقين أن أمريكا عاقدة العزم على أن تمنع إيران من الحصول على السـلاح النووي، ولن أهمل أي خيار مطروح لتحقيق هذا الهدف.

وطرح «سـتيف كـول» هـذه النقطة الكئيبـة بقوله: إضاعـة الخيـارات المطروحة طريقة غير مباشـرة للتهديد بالحرب، وفي اليوم نفسـه ذكر رئيس الوزراء الإسـرائيلي «نتنياهـو» للكنيسـت: بالجمـع بين العقوبـات المعيقة للحركة وطـرح كل الخيارات يمكن أن نجعل إيران تُوقف برنامجها النووي.

وفـي الوقت ذاته، تحدث ثلاثة من المرشـحين لتمثيـل الجمهوريين؛ وهـم «ريك سانتوروم» و«ميت رومني» و«نيوت جنجريش» مُبدِين موافقتهم على قصف المواقع النووية الإيرانية أو اغتيال علماء إيرانيين.

وبينما واصل الساسة الأمريكيون حديثهم أنهت إدارة «أوباما» سنوات طويلة من العداء، وبدأت تتفاوض مع الإخوان المسلمين الذين كانت إلى فترة قريبة تراهم معارضين دائمين لمصالح الولايات المتحدة، وكان التحول الأمريكي إقرارًا بواقع سياسي جديد؛ قوة الجماعات الإسلامية، وكذلك أظهر قبول واشنطن بما يقوله يوسف ندا عن عزم الإخوان المسلمين على بناء ديمقراطية تحترم حريات الفرد.

ويقينًا، فإن التحذير الأمريكي العلني السابق المستمر للإخوان المسلمين قد زاد من هيبة الحركة الإسلامية في مصر، وأعطى للإخوان شرعية دولية ذات قيمة، والعلاقة النامية بين أمريكا والإخوان جزء من النمط الذي يربط تحول السلطة في الشرق الأوسط في أعقاب التغيرات التي حدثت في المغرب وليبيا وتونس ومصر، والتي تمت كلها في شهور وليس في سنوات.

بعد أن زار السناتور «جون كيري» قيادات الإخوان المسلمين في القاهرة، قال لمرافقيه: سوف يتعين عليكم بكل تأكيد أن تجدوا طريقة للتعامل مع الحكومات الديمقراطية التي لا تتبنى سياستكم أو مبادئكم. واقتراب إدارة «أوباما» من الإخوان المسلمين مثل مفاوضات الأسلحة بين الرئيس «رونالد ريجان» والاتحاد السوفيتي؛ فالولايات المتحدة تحتاج إلى التعامل مع واقع جديد، كما تحتاج إلى التركيز أثناء التحرك القادم.

وحينما كانت المساجلات السياسية الأمريكية تسير فإن إدارة «أوباما» قلبت سنين كثيرة من التوجس وعدم الثقة والمهاجمة وبدأت في التفاوض مع الإخوان الذين حتى الساعة كانت تعتبرهم بتصميمٍ أعداءَ المصالح الأمريكية.

التغيير كان اعترافًا بالحقائق السياسية الجديدة وقوة الاتجاه الإسلامي، ودل أيضًا على أن واشنطن قَبِلَت ما كان يقوله يوسف ندا؛ أن الإخوان يَسْعَون لبناء ديمقراطية حديثة تحترم الحريات الفردية.

وكمـا يعلم يوسـف ندا جيدًا فإن الأمريكان لـم يتحادثوا مـع الإخوان بتاتًا من قبل ولـو حتى سـرًّا وفي هـدوء، ورغم ذلك فقد أبلغت مخابرات حسـني مبـارك الرئيس المصـري أن الأمريـكان يتحادثـون مـع الإخـوان، وتحدث مبـارك عنها مـع الكاتبة الأمريكيـة «مـاري آن ويفر» عام ١٩٩٤، كان مبارك يفتقـر إلى ملكة الحدس والقدرة على استشـراف المستقبل؛ فكان متمسـكًا في حديثه مع السيدة «ويفر» بنقطة لا يحيد عنهـا: حكومتـكِ تتصـل بالإرهابيين من الإخوان المسـلمين؛ اتصالات سـرية، دون علمنا في البداية. وأسـتطيع أن أؤكد للكِ أن هذه الجماعات لن تسـتطيع السيطرة على هذا البلد أبدًا!!

الفصل العشرون

يحيا ندا

«الأسبوع وقت طويل في عالم السياسة».

هارولد ويلسون؛ رئيس الوزراء البريطاني، ١٩٦٤

فيلّا ندا، كمبيوني دليتاليا، ٢٨ من يناير ٢٠١٢

صاح مدير الأمن الإيطالي: عليك أن تتصل بروما؛ هم وحدهم بيدهم السماح بذلك.

وكان «ذلك» هو تقدم رئيس وزراء تونس حمادي الجبالي من لوجانو في سويسرا بضع مئات من الأمتار عبر الحدود إلى داخل الأراضي الإيطالية؛ كان هناك خلط بين اللغات المختلفة، وبين سيارات الأمن السويسري والإيطالي وسيارات كبار الزوار التونسيين وحراسهم الأمنيين، ولم يرد أحد أن يقع حادث دولي، وعند قوس مدخل قرية «كمبيوني ديتاليا» تستطيع الوقوف بحيث تطأ إحدى قدميك أرض سويسرا وتقف على قدمك الأخرى في إيطاليا؛ وهذه الطرفة النادرة قد تشكل كابوسًا قانونيًّا عند المسئولين المكلفين بحماية رئيس وزراء، خاصة إذا كان قد انتُخِب مؤخرًا. كان حزب النهضة ورئيسه حمادي جبالي المنتميَيْن لحركة النهضة التي يتزعمها مؤسسها الشيخ راشد الغنوشي؛ الصديق الحميم ليوسف ندا، قد فاز في الانتخابات في تونس، وترأس أول حكومة منتخبة.

والآن؛ عقب انتهاء الاجتماع السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس في سويسرا، توجه حمادي الجبالي وصانع الملوك راشد الغنوشي وبعض الوزراء التونسيون الجدد لزيارة فيلّا ندا في ذلك السبت من يناير ٢٠١٢، وعندما تمت جميع الترتيبات وتأكد رجال الشرطة المسلحون من معرفة القادمين الذين سيقومون على حراستهم كما عرفوا إلى أين سيتجهون، سار الموكب الأمني المصاحب للمسئولين التونسيين يشق طريقه مرتقيًا جانب الجبل، وشكَّل حشد المسئولين والحرس والسائقين ما يشبه تجمعًا للشرطة خارج فيلّا ندا.

لم يبق مع وجود هذا التجمع سوى مساحة صغيرة للحركة، وإذا تحركتَ فستجد الضباط في زِيهم الرسمي أو في ملابس مدنية على اليمين وعلى اليسار.. بل في كل مكان في الحقيقة.

كان ذلك يشبه المنظر أمام فيلّا ندا بعدما أطلق الرئيس «جورج دبليو بوش» على يوسف ندا لقب «ممول الإرهاب»، وقامت الشرطة السويسرية والشرطة الإيطالية بتطويق منزله ثم مهاجمته في السابع من نوفمبر عام ٢٠٠١.

كان الفارق في هذه المرة أن زعماء دوليين جاءوا لزيارة وتحية يوسف ندا.

لحظة مدهشة! هذه هي السياسة.

أشباح الماضي

«لا تُفهم الحياة إلا بالعودة إلى الماضي؛ لكنها لا تستمر إلا بالمستقبل».

الفيلسوف اللاهوتي الدنماركي، سورين كيركجارد، ١٨٤٢

الفوضى السياسية التي تعيشها مصر في صيف ٢٠١٢ هي مستقبلها. كنت في القاهرة عندما قرر مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين في اقتراع سري لمجلس شورى الجماعة أن يتقدم بمرشح في الانتخابات الرئاسية؛ وهو رجل الأعمال الناجح والدعائي المسموع خيرت الشاطر، رغم انعدام حاسة الذوق والتمدن في مظهره وملبسه، وقد أُشيع عنه وعن المرشح الآخر الذي فضَّل الانسلاخ من الجماعة لترشيح نفسه وهو عبد المنعم أبو الفتوح القدرة على التخطيط والانفرادية والتكتم في العمل والتعالي على المساعدين واستبعاد المخالفين لرأيهما، ولم نجد طريقة مباشرة أو وقتًا كافيًا لنؤكد ذلك؛ ولذلك نتحفظ ولا نؤكد.

وكانت نتيجة الاقتراع ٥٦ في مقابل ٥٢.

وحتى يوم الاقتراع كان الجو يتسم بهدوء ملحوظ داخل المركز العام الجديد المتألق للإخوان المسلمين في منطقة المقطم؛ التي تُشرف على العاصمة المترامية الأطراف.

وعندئذ، كان حزب الحرية والعدالة يمتلك نحو ٥٠ في المئة من مقاعد البرلمان، وأغلبية الأعضاء المئة في الجمعية التأسيسية المنشغلة بكتابة دستور جديد. وكان

الإخوان المسلمون في أعقاب أحداث ثورة يناير ٢٠١١ قد تعهدوا بأن لا يُرشحوا أحدًا منهم لرئاسة الجمهورية (اتخذ مكتب الإرشاد هذا القرار قُبيل تنحي مبارك بأيام، وورد في البيان الصادر عن المكتب في العاشر من فبراير ٢٠١١، وتكرر هذا القول أكثر من مرة، ولكنهم في نهاية الأسبوع الأول من إبريل ٢٠١٢ فعلوا ذلك، ورأى الكثيرون ومنهم يوسف ندا، وعدد لا بأس به من مكتب الإرشاد؛ كما توحي بذلك نتيجة الاقتراع الحرجة، أن القرار الإخواني كان خطأً، بل إن يوسف ندا وصفه لي بأنه «كارثة»، وعندما سألته عن السبب قال إن الكارثة هي قرارهم الأول الذي افتَقد الرؤية الواقعية لخلو الساحة السياسية من كفاءات ممارسة أمينة ومخلصة عندها الرغبة والجرأة يمكن ترشيحها والإجماع عليها، فالأسماء اللامعة لمّعها إعلام مبارك لولائها له، وأعطاها الإمكانية لتتدرّب، واستعملت كفاءاتها في الفساد، وممالأة النظام السابق، والأسماء الأخرى الأمينة ذات الكفاءة ينقصها الجرأة وتخشى المجلس العسكري الحاكم وفلول مبارك، وكانت كل الشواهد تدل على ذلك، فكيف غاب ذلك عنهم ووعدوا بما لا يمكن أن ينفذوه؟!

وهذا القرار الكارثي الأول ترتب عليه قرار آخر اضطراري لا بد منه؛ وهو تقديم مرشحهم، وبذلك ظهروا بمظهر يتعارض مع مبادئ ثابتة شرعًا بالالتزام بالعهد، وهذا لا يجوز شرعًا حتى في الحروب التي تزهق فيها الأرواح، والادعاء بأن هذا ليس عهدًا هو استخفاف بالعقول أو التواء فقهي، ورغم أن القرار الأول كان قرار مكتب الإرشاد، وهذا ما يجب أن يكون، والثاني كان قرار مجلس الشورى بأغلبية بسيطة؛ فإما أن الأول تعدى الصلاحيات وقرر في غير اختصاصه، وإما أن الثاني قرر ما ليس من اختصاصه. بالإضافة إلى أن قرارات مصيرية لا يصح أن تُقنن بالأغلبية البسيطة سواء كانت في الشورى أم في الإرشاد، والخطأ الآخر هو أن المرشح الأول خيرت الشاطر قانونًا لم تُعَد له حقوقه المدنية كلها المترتبة على الحُكْمين الجائرَيْن في حقه من نظام مبارك، ولكن فقط عن أحد الحُكْمين، وبالرغم من هذا أعلن أنه أُعيدت له حقوقه المترتبة على الحُكْمين، وهنا علامة استفهام لا بد من الإجابة عنها؛ هل هي سقطة شرعية أخرى بإخفاء الحقيقة، أو قول غيرها؟ وبذلك ضاعت جهود

وأموال ووقت لعمل الدعاية لخيرت الشاطر، بالرغم من المعلوم عن عواره للترشيح والمعلن عن هذا العوار؛ وهذا ما استَنَدَتْ عليه لجنة الانتخابات التي غَضَّت الطرف عن أعتى فلول مبارك؛ وهو أحمد شفيق الذي كان مفضل المجلس العسكري، واستطاع شفيق أن يستفيد بكل الوقت الدعائي الإيجابي له والدعائي السلبي الذي بُذل من أجل منافسه الشاطر، وضاع على منافسه البديل لولا حكمة الله ورعايته وإخلاص وربانية مرشح الجماعة الثاني الدكتور مرسي.

بدا الإخوان المسلمون وكأنهم يريدون السيطرة الكاملة، وليس المشاركة في الحكم التي تعهدوا بها؛ وخرج خيرت الشاطر على شاشة الجزيرة ليقول بتحدٍّ يخلو من التواضع الإخواني إنه لا بد من إسقاط حكومة الجنزوري، وإنه شخصيًّا مستعدٌّ غدًا أن يُشكل الحكومة، وامتلأ الإعلام بأن الإخوان يركزون على اللعبة السياسية أكثر من مصلحة الشعب المصري، وسرعان ما أصرت جماعات المعارضة على أن الإخوان؛ الذين كانوا محظورين إلى عهد قريب بأمر قانوني من حسني مبارك، قد وَضعوا أنفسهم في موقع الاستئثار بالسلطة، وسارع غيرهم للتحذير من استيلاء إسلامي على مصر زعيمة الدول العربية وأهمها قاطبة.

وجاء التفسير الرسمي للموقف فأعلنه أمين الجماعة محمود حسين؛ إذ قال إن تغيير الإخوان لخططهم جاء نتيجة عدم موافقة مَن نعتقد أنهم كفاءات تمثل الشعب للتصدي للمسئولية وللتهديدات القائمة بحل مجلس الشعب وتقدُّم رموز النظام السابق للترشيح لرئاسة الجمهورية؛ ولذلك غيرت الجماعة قرارها بعد أن رصدت أخطارًا حقيقية تُهدد الثورة والديمقراطية.

وفي مطلع شهر إبريل قبل أيام من إعلان المرشد العام عن ترشح خيرت الشاطر للانتخابات الرئاسية جلستُ في مقر الإخوان أحتسي الشاي مع مهدي عاكف؛ المرشد السابق للإخوان المسلمين حتى عام ٢٠١٠؛ عندما انتُخِب الدكتور محمد بديع خلفًا له؛ ومهدي عاكف زميل يوسف ندا لأعوام طويلة ورفيقه في المعتقل في الخمسينيات، ولم تنقطع اتصالاتهم ببعض بعد أن استهلكت سجون عبد الناصر من عمره أكثر من عشرين عامًا، وبعد خروجه من السجون انتشر خارجها لينظم ويؤسس

فروعًا قديمة وجديدة في قارات أخرى من المركز الإسلامي في ميونيخ، وضم له كثيرًا من المراكز الإسلامية في ألمانيا.

وأقر عاكف بوجود ضغوط هائلة؛ فهناك مشكلة المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذي واصل - وبإمكانه أن يستمر في ذلك - السيطرة على البلد، بينما «يهيمن» على الأحداث، ووقفت القوتان وجهًا لوجه في خلاف حول مستقبل رئيس الوزراء الجنزوري الذي طالب الإخوانُ باستقالته، واستطاع الجيش أن يُحبط آمال خيرت الشاطر باستخدام أحكام مبارك الجائرة الجنائية الصادرة ضده (قامت اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية باستبعاد أسماء عشرة مرشحين لرئاسة الجمهورية من بينهم خيرت الشاطر؛ الذي قالت اللجنة إنه لم تتم إزالة الآثار المترتبة على أحد الأحكام التي كانت صُممت في عهد مبارك لإدانته ثم أعفي منها لأسباب صحية. خيرت الشاطر الذي بلغ ٦٢ عامًا ٢٠١٢ كان شابًّا معارضًا في أواخر السبعينيات، وترك مصر ليعيش في إنجلترا عندما أصدر السادات أوامره باعتقال كثير من الإخوان، وقد عاد إلى القاهرة في عام ١٩٨٦، واشتغل بالأعمال التجارية، وأحرز ملايين من تجارة المنسوجات والأثاث وغيرهما)، وفي ٣١ من مارس ٢٠١٢ استقال خيرت الشاطر من منصب نائب المرشد العام، ومن عضوية مكتب الإرشاد ليُصبح مرشحًا لرئاسة الجمهورية.

وكانت حكومة حسني مبارك قد قدمته عدة مرات إلى المحاكمة بتهمة «تمويل منظمة محظورة؛ وهي الإخوان المسلمون». وفي عام ٢٠٠٨ صدر ضده حكم قاسٍ بالسجن سبع سنوات، وبعد ثلاثة أعوام عندما انتهى حكم مبارك بحلول الربيع العربي أصدر المشير محمد حسين طنطاوي رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة عفوًا صحيًّا عن خيرت الشاطر.

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث واتضح أن مهدي عاكف ذا الطبيعة المرحة يعتبر الانتخابات الرئاسية المقبلة وقرار ترشيح الشاطر يشكلان أساسًا عقبة أخرى في لعبة عالمية طويلة، وقال عاكف: إن الإخوان المسلمين قد عاشوا سنوات طويلة هذه المعركة من أجل الحقوق، خلال القرن العشرين وما مضى من سنوات الألفية

الجديدة، لقد نجونا منها وساعدنا في أن نجعل العالم مكانًا أكثر سلامًا بجهود رجال من أمثال يوسف ندا. لقد جازفوا بأرواحهم، وقام يوسف ندا بمهامَّ عظيمة حول العالم، لكنها كانت جميعها بتكليف من المرشد العام ودعم كامل منه ومن الإخوان. مهام في إيران واليمن والعراق وأفغانستان وماليزيا والجزائر والسعودية وأمريكا، وحقق ما يشبه المعجزات في كل مكان؛ إنه شخص ينبغي على العالم كله، لا العالم الإسلامي وحده، أن يستمع إليه، إنه يقول الحق ولا يكذب، ويعمل من أجل السلام وليس للحرب.. من أجل الحوار المشترك وليس العنف المتبادل.

وسألت مهدي عاكف إذا كان ثمة شخصية دولية تتشابه في وضعها مع يوسف ندا، فنظر بشيء من الحيرة، فاقترحت أن يوسف ندا يشبه إلى حد ما «نيلسون مانديلا»؛ فاحمر وجه المرشد العام السابق للإخوان المسلمين ودقّ بقبضة يده على مكتبه قائلًا: «مانديلا» كان رئيسًا لدولة، وكافح من أجل حقوق شعب واحد، أما يوسف ندا فأكبر من «مانديلا» ١٠ أو ٢٠ مرة، إنه من دعاة الخير - الرجل الذي يَستمع له الرؤساء، كل من استمع لآراء يوسف ندا فهو محظوظ، وسيستفيد العالم من سماعها.. وبخاصة الأمريكيون.

والأمريكيون، كعادتهم دائمًا، كانوا هناك، كانوا يُفصحون عن مصالحهم بشكل مضطرد، وعندما وجهت السفارة الأمريكية في القاهرة الدعوة إلى قيادة الإخوان لاجتماعات مع زوار من واشنطن، أكد الإخوان على أنه يجب حضور الشخصيات الأمريكية إلى مقر الإخوان، وقد لَبَّت السفارة هذه الرغبة بدون تعقيب، ويؤكد مهدي عاكف على أن البيت الأبيض كان مطلعًا اطلاعًا دقيقًا على ما يحدث في المنطقة.

وامتلأت وكالات الأنباء والإعلام العالمي بالتلويح بكميات هائلة من الدولارات، والعروض الأمريكية مقدمة للإخوان بالنفوذ والمعونة والمساعدة، واتبعت كل وسائل الإغراء للإخوان المسلمين كي يوافقوا على التبعية المطلقة لأمريكا، وانتشر الأمريكيون بإنجليزيتهم المميزة يعرضون أنفسهم للبيع حيث يجب ألا يكونوا، وكأنهم يُنتجون فيلمًا فاشلًا.

كان مهـدي عاكـف منفعلًا في تناوله لفكرة الصفقة التـي يريدها الأمريكيون: هذا لن يحدث أبدًا؛ فمصر غنية بمواردها، قوية بشعبها.. نعم، إن الاقتصاد في حالة سيئة، هناك فقر وصعوبات، لكن هذا ما نرغب في تصحيحه؛ هذا هدفنا. عندما يزول الفساد سوف نتمكن من الاعتناء بأنفسنا، وسوف يسمع العالم مصر تتحدث عن نفسها.

كان لدينا مناجم للذهب بِيعت لمعارف مخصوصين بتسعة ملايين دولار أمريكي، وكانت قيمتها الحقيقية تسـعة بلايين دولار أمريكي، وهذا بند واحد وصغير في ملف الفساد الذي استنزف البلد على مدى أجيال، وسوف نعمل مع جميع الدول كي يعود لمصر ازدهارها؛ نحن هنا لنمثل الشعب ولا نمثل أي مصالح خاصة.

لكـن ماذا عن المصالـح الخاصة للإخوان المسـلمين؟ ثار نقاش حـارّ حول هذا الموضوع عندما رفع خيرت الشـاطر كمرشـح رئاسـي شـعارهم، في مستقبل الشرق الأوسـط، وفي إندونيسيا، في ماليزيا، وحول العالم، إذا كان البرلمان والرئاسة تحت المظلة الإسـلامية للإخوان، فلن يشك سـوى القليل في نفوذهم وتأثيرهم على الأمة العربيـة؛ هذه الجماعة ذات الـدور التاريخي البطولي في المنطقـة، والتي يجب على الغـرب التعامل معهـا أو ضدها. إذا كان البرلمان والرئاسـة تحت المظلة الإسـلامية للإخـوان وحـزب الحريـة والعدالة الذي أنشـأه الإخـوان يضم أعدادًا مـن الأعضاء الأقبـاط، ويصـر باسـتمرار علـى المطالبـة بدسـتور جديـد يحتـرم المسـلمين وغير المسلمين على حد سواء.

ويؤكـد حزب الحريـة والعدالة أنه لن يفرض الشـريعة الإسـلامية ولـن يتعارض معهـا، وأنه ملتزم بمصر التعدديـة والديمقراطية؛ إن حزب الحرية والعدالة والإخوان المسلمين ينشطان معًا في فضاء سياسي جديد، وهما ليسا وحدهما في الثورة الجديدة للإسلام السياسي؛ فالحركة السلفية الأكثر محافظة وتشددًا تزاحمهم في السـاحة يومًا بعـد يوم، وقد احتفلت احتفالًا صـاخبًا بإعلان مرشـحها للانتخابات الرئاسـية عندما قدم حازم صلاح أبو إسـماعيل أوراقه مصحوبة بمئة وخمسـين ألف توكيل رسـمي؛ قبل مرشح الإخوان بأربع وعشرين ساعة.

وفي المساء الحار من يوم الجمعة ٣٠ من مارس ٢٠١٢، اختنقت حركة المرور حول القاهرة عندما اصطف أنصار «أبو إسماعيل» في الشوارع عبر العاصمة المصرية، بدءًا من مسجد أسد بن الفرات في الدقي، عبر جسر السادس من أكتوبر وصولًا إلى طريق صلاح سالم فمصر الجديدة إلى مقر اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية، وكانت مسيرة التأييد الشعبية لإثبات أن التوكيلات المؤيِّدة للمرشح السلفي غير مزيفة، عَكْس ما هو شائع في عالم العقارات في مصر من غلبة التوكيلات المزيفة التي تهدر حقوق الناس وممتلكاتهم لحساب المحتالين، فأبطل اشتراك هذه الأعداد الهائلة في المسيرة أي احتمال بتزوير التوكيلات.

ولم يكن ممكنًا إثبات أن هذه الجماهير قد تلقّت مالًا من أحد، كما قد يصعب إثبات عكس ذلك. كانت المطويات الدعائية مطبوعة بأناقة، وكانت لافتات الحملة الانتخابية وملصقاتها تحمل صورة «أبو إسماعيل» يبتسم للناخبين، وتساءل الكثيرون في الشوارع عمن يُمول حملة السلفيين الرئاسية، ووافق معظمهم على أن الدعم المالي الكبير يأتي من المملكة العربية السعودية التي تعتنق المذهب السلفي، لكنها تريد دائمًا أن تُسعد أصدقاءها الأمريكيين.

ومن المركز العام المتألق في المقطم اعتَلَت بوابةَ الدخول صورةُ نبتة مخضرة مكتوب تحتها بالعربية والإنجليزية: نحمل الخير لكل الناس. وتستطيع أن تمد ناظريك عبر المدينة إلى معلمها البارز: برج القاهرة؛ لقد أنشأ عبد الناصر هذا البرج بأموال أمريكية دُفعت لبنائه بعد استيلائه على السلطة، وبعد أن أصبح الرجل الذي يجب التعامل معه، إن شبح «كرميت «كيم» روزفلت» وسياسات جده ما زالت تحوم حول مصر والإخوان المسلمين، والبرج الذي سماه بعض المصريين على سبيل السخرية: «روزفلت الواقف – حماقة روزفلت»؛ ليس تخليدًا لذكرى عميل غامض!!

الخاتمة

الشهرة والنصيب

«مشكلات النصر متفق عليها أكثر من مشكلات الهزيمة، لكنها ليست أقل منها صعوبة».

ونستون تشرشل

القاهرة، يونية ٢٠١٢

إن استخدام تراث «كرميت روزفلت» كمصطلح نافع للإشارة إلى تكتيكات أمريكا وأجندتها السياسية في الشرق الأوسط يستدعي أن نتذكر أن مصر أمة يهيمن عليها التاريخ.

كان البكباشي جمال عبد الناصر فرعونَ بالغريزة وليس بالتوريث، كان زعيمًا يسعى إلى السلطة والتحكم المُطْلَقَيْن، واستمر أسلوبه الاستبدادي في الحكم إلى اليوم، حتى بعد الإطاحة بحسني مبارك والحكم بإدانته بالتواطؤ في قتل المشاركين في ثورة يناير ٢٠١١. في يونية ٢٠١٢ حكمت المحكمة على مبارك بالسجن المؤبد؛ لأنه لم يمنع قتل المتظاهرين أثناء ثورة الشعب، ومن أوائل الأسئلة التي دارت على ألسنة الناس في شوارع القاهرة ومقاهيها سؤال عن فخامة وترف الزنزانة التي سيُقيم بها، وسوف يقوم «رجاله» العسكريون الذين دَرَّبهم وأغدق عليهم الأموال والأوسمة

بتنفيذ «العقوبة» عليه، وقيل لي إن بطانته من العسكر بدءوا في بناء فيلَّا خاصة لتكون محبسه، حتى من قبل تركه السلطة، وكانت إدارة «الانتخابات الديمقراطية» أمرًا مخططًا.

تمتع الفريق أحمد شفيق القائد الأسبق للقوات الجوية بتأييد الجيش في سعيه للفوز بمنصب رئيس الجمهورية، وكان مبارك المرتبك المهزوز في آخر أيامه قد كلف شفيق برئاسة الوزارة، ثم أصبح مرشحًا رئاسيًّا يمثل الواقع الراهن وسيطرة العسكر. وكان خصومه الأوائل؛ وهم خصوم البكباشي عبد الناصر من ستين عامًا.. الإخوان المسلمين.

الأسبوع وقت طويل في عالم السياسة، لكن في الشرق الأوسط الأحداث والأوقات تمشي الهوينَى، أمامًا أو خلفًا، واتضح أن الارتباط بين الديمقراطية والطغمة المصرية الحاكمة لم يتجاوز مرحلة الخطوبة بعدُ ليصبح قرانًا، ناهيك عن كونه ارتباطًا شرعيًّا لحياة مشتركة.

وفي أوائل يونية ٢٠١٢، كان السباق الرئاسي في مصر وتبعاته الممتدة من بكين إلى واشنطن إلى أوربا المأزومة، قد تحول إلى مواجهة بين الأعداء القدامى.

كانت المواجهةُ أسوأَ كابوس في العالم؛ أو الخير في مواجهة الشر، كانت هذه أو تلك اعتمادًا على نوع المنشور الضوئي السياسي الذي ينظر إليها من خلاله، أعتقد أنها حتمية تاريخية.

كانت عقارب الساعة تمضي دون نكوص نحو هذا الضحى الفاصل بين الماضي والمستقبل.

إن قرار الإخوان المسلمين المفاجئ بتقديم مرشح للانتخابات الرئاسية؛ وكانت المفاجأة ترشيح خيرت الشاطر، قد قُوبل برد سريع من المجلس العسكري، وبحركة سريعة أشبه بما يحدث في الشطرنج.. غَيَّروا اللعبة؛ «بيتوا الطابية». أسقطوا ببساطة اسم الشاطر وتسعة من المرشحين الآخرين لعدم قانونية ترشيحهم، ولم يكن لهؤلاء الحق في الاستئناف ضد القرار. تم استبعاد الشاطر بسبب «صحيفته الجنائية» – التي

احتوت على حُكم بالسجن سبعة أعوام صادر من إحدى محاكم مبارك العسكرية، كما استُبعد حازم صلاح أبو إسماعيل مرشح السلفيين لأن أمه المتوفاة جمعت بين الجنسيتين المصرية والأمريكية؛ وقد أنكر حازم هذه التهمة.

حازم أبو اسماعيل محامٍ وداعية إسلامي تلفزيوني، وله أتباع متحمسون ومتشددون، ويقول أتباعه إن استبعاد اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية له كان جزءًا من مخطط أمريكي إسرائيلي ضده، أما الشاطر فرأى أن ما وصفه بالخداع هو شر كذلك وبنفس القدر: إن المجلس العسكري ليس جادًّا حول تسليم السلطة، لكنه يبحث عن شخص يمكن التحكم فيه من وراء ستار. واتَّهم الشاطرُ المجلسَ العسكري الحاكم بمحاولة التلاعب في الانتخابات باستبعاد المرشحين الإسلاميين الأقوياء، ووصف القضاة الذين عينهم مبارك والذين تكونت منهم اللجنة الانتخابية بأنهم عصابة، بيد أنه تعين على الإخوان المسلمين مواجهتهم والماضي الذي يمثلونه، وكان اختيارهم الجديد للتنافس على منصب الرئيس المقبل لمصر هو الدكتور محمد مرسي؛ الإسلامي الملتزم الذي يبلغ عامه الستين في ٢٠١٢. وكان عضوًا في مكتب الإرشاد ثم استقال عندما انتخبه الإخوان ليتولى رئاسة حزب الحرية والعدالة؛ وهو رجل صاحب فكر دمث متواضع ينأى بنفسه عن النزاعات والمهاترات المضيعة للوقت، التزامه الديني قوي ولا يشوبه التشنج السلفي، اختار العمل في التدريس في الجامعة لأن المهنة تتناسب مع أهدافه وطباعه، أسلوبه في الخطابة يعكس خلفياته كمحاضر يحرص على إيصال المعلومة للسامع بترتيب وموضوعية. وقد تنافس مرسي الأستاذ في كلية الهندسة مع اثني عشر مرشحًا في الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية المصرية.. والتي جاءت نتائجها محيرةً للكثيرين.

أسفرت الجولة عن ضرورة الإعادة بين المرشَّحَيْن الفائزَيْن بالمركز الأول والثاني؛ محمد مرسي وأحمد شفيق؛ الذي كان في نظر كثير من المصريين استنساخًا لعهد مبارك. كان يرفض «الربيع العربي» ومواليًا عنيدًا لمبارك، لم يكن رجلًا ينجذب له الناس، بل سَخِروا منه وسمَّوْه «بلوفر»؛ لأنه كان كثيرًا ما يُرى مرتديًا «بلوفر» أزرق. لكن بدون دعم المجلس العسكري وقوة «الدولة العميقة» في مصر، ودعم الكنيسة

القبطية ووجوده في الساحة الدعائية طَوال مدة الدعاية، وأقوى منافسيه لم يكن أمامه سوى أسبوع دعائي لم يعد الرجل ذا قيمة.

هذان الرجلان هما مَن بَقِيا من المرشحين الثلاثة عشر الذين انقسم حولهم الرأي العام، وكان أقرب الآخرين إليهما ثلاثة هم: المتحدث عبد المُنعم أبو الفتوح؛ الذي انفصل عن جماعة الإخوان المسلمين ليرشح نفسه للرئاسة خارجًا عنهم بعدما رفضوا ترشيحه، وحمدين صباحي؛ الصحافي ذا الميول اليسارية الناصري، وعمرو موسى الذي كان وزير خارجية مصر في عهد مبارك. لم تكن اختيارات الشعب محددة، لكن يمكنك القول من واقع النتائج إن أغلبية ما كانت ترغب في مجتمع ديمقراطي ولا تريد الدكتاتورية، أما استطلاعات الرأي السابقة على الانتخابات التي تنبأت باختيار واحد من اثنين – الإسلام في مواجهة العسكر – فثبت خطؤها، وتلاشت الحكمة التقليدية حول تكوين قلب العالم العربي في القرن الحادي والعشرين، وصرَّح الأقباطُ بأنهم سوف يؤيدون شفيق.

نال مرسي ٢٦ ٪ من الأصوات، والسلفيون انقسموا؛ فبعضهم اتخذوا جانب مرسي، وأحمد شفيق قد ساندته أصوات كالأشباح، فقد حصد الفريق ذو السبعين عامًا ٢٤٪ من أصوات الناخبين، ووجد داعمين تلقائيين في المصريين الذين لم يؤيدوا الثورة يومًا، والعاملين في القوات المسلحة والشرطة، على الرغم من أن المصريين العاملين في القوات المسلحة والشرطة ممنوعون من التصويت، إلا أن آلاف الجنود فعلوا عكس ذلك، وغيرهم ساعدوا الناخبين الشرعيين على انتخاب الفريق الذي وقفت الدولة بجواره؛ بالأوامر والتعليمات. لكن أحبه أيضًا بعض المصريين من الطبقة الوسطى الذين سئموا الفوضى التي عمَّت الخدمات العامة والاقتصاد الذي يتدهور من سيئ إلى أسوأ، وكان عليه أن يتجه إلى الأقلية المسيحية التي تتغذى يوميًّا على حكايات مخيفة عن وضعها في مجتمع الإخوان المسلمين الإسلامي، كما كان لشفيق جاذبيته كرجل عسكري حازم جريء؛ يستطيع أن يُعيد الأمن إلى الشوارع.

وذاك بالطبع الذي سيعود بالأمة إلى عهد مبارك، أو السادات، أو عبد الناصر؛ الأسماء لا تهم لذاتها وإنما المهم ما تمثله. في أثناء الحملة الانتخابية أفصح أحمد شفيق عن موقفه المتشدد من الإخوان المسلمين مثيرًا الذكريات عن الأيام التي كانت مباحث أمن الدولة تعتقل أعضاء الإخوان وتلاحقهم، وخاصة قبل الانتخابات.

المواجهة الانتخابية في أول منافسة ديمقراطية على الرئاسة في مصر كانت اختيارًا بين شخصية مستنسخة من مبارك أو رئيس من الإخوان المسلمين يُغير حياتهم كلها. كانت معركة شرسة حقًّا، وحسب قول رجل الأعمال مجدي محمد: إن شفيق سوف يكون «مبارك» آخر، لا أكثر ولا أقل، وكل المكاسب الديمقراطية والقانونية التي حققها المصريون سوف تتلاشى، وقد يُطلق سراح مبارك. أما الطالب الجامعي عمرو شلبي فقال: لا خيار أمامي الآن سوى انتخاب شفيق؛ نحن لا نستطيع السماح للإخوان بالوصول إلى السلطة.

في البداية كان الاختيار واضحًا إما أبيض وإما أسود، وسرعان ما تحول إلى لغز يلفه الغموض، على الطريقة المصرية: من يَفُز لن يكون فائزًا؛ لأن من سيصبح رئيسًا لمصر سوف يشغل منصبًا من أسخن المناصب في العالم. الضغط من داخل مصر، وعبر الحدود من حولها والضغوط الدولية كلها سوف تستمر في التزايد، وسوف يتواصل الانقسام بين الإسلاميين وبين المشككين فيهم والخائفين منهم. وفي محاولة لرأب هذا الصدع نشط محمد مرسي في إطار مشروعه الإخواني رغم استهزاء خصومه الذين أطلقوا عليه لقب «المرشح الاحتياطي» أو «الاستبن»؛ لقد أثبت وجوده في الجولة الأولى للانتخابات، وفاز على الشخصية الإخوانية السابقة الذي ظن أنه سينتخبه مَن لا يريدون الإخوان إذا خرج عليهم؛ وهو عبد المُنعم أبو الفتوح، وبعدها ازداد عدد الناخبين المؤيدين له يومًا بعد يوم؛ متأثرين بسلوكه الهادئ في مقابل أسلوب غيره الصاخب، وتضاعفت ثقة مرسي، فأصبح كأنه الفائز. والآن، تَعَيّن عليه أن يُوسِّع قاعدته ويزيد من شعبيته، ووعد بأن يعمل من أجل الجميع؛ حتى مع العسكريين، وتقدم بمجموعة أفكار، وتوجه بفكره المتسامح إلى كثير من المتخوفين من حكم إسلامي في مصر.

لكن بالنسبة للعالم سوف تظل عقبة فلسطين على الدوام قائمة، وينتقد محمد مرسي إسرائيل ومعاملتها للفلسطينيين، لقد أشار الإخوان المسلمون إلى أنهم سيعملون كمظلة تجمع بين حماس وفصيل فتح الذي يؤيده الغرب على أمل أن يتوحدا ويتجدد بذلك الضغط على إسرائيل كي تعترف بدولة فلسطينية.

غير أنه ومنافسه الرئاسي أحمد شفيق قالا إنهما سيحترمان اتفاقية السلام مع إسرائيل وتحالُف مصر مع أمريكا. سوف تكون المحاذير الداخلية أمام الرئيس الجديد أقل منها في مجال الشئون الدولية.

قال محمد مرسي إن المسيحيين في عهده (لا يصلون إلى ١٠٪ من السكان) سوف يتمتعون بنفس حقوق المسلمين، كما أنه سوف يعين مستشارين أقباطًا فيما سماه «المؤسسة الرئاسية»، ولم يعارض إنشاء الكنائس أو الأحزاب السياسية المسيحية. الأقباط مصريون لهم نفس الحقوق النبي ينص عليها القانون؛ وأهمها، حرية العقيدة وحرية العبادة، لقد أَمرنا الإسلامُ بحماية الكنائس كما أمرنا بحماية المساجد.

وفي تشابه أكبر مع فلسفة يوسف ندا، قال مرسي إن حقوق المرأة سوف تُصان دون فرض لباسٍ خاص (انظر الملاحق) بما في ذلك النقاب: النساء لهن الحقُّ في اختيار ما يناسبهن من زي.

وتعهد محمد مرسي الحاصل على الدكتوراه من جامعة جنوب كاليفورنيا بالعمل مع حكومة سياسية: أنا ملتزم بالحكم من خلال مؤسسة رئاسية، لن يكون الحكم فرديًّا مرة أخرى.

وقال إنه سيشكل حكومة ائتلافية مع الأحزاب البرلمانية، ثم اقترب من العسكريين الذين حكموا مصر ستين عامًا. نادى الشبابُ الثائر في الشوارع وممن شهدوا الرعب في ميدان التحرير بسجن أعضاء من المجلس العسكري وإعدامهم، لكن مرشح الإخوان المسلمين في محاولة مستميتة لإقرار السلام قال: لا يوجد مصري واحد لا يحب الجيش؛ فالجيش لعب دورًا مَجيدًا في حماية الثورة، كانت هناك أخطاء، نعم، لكن خطوات إيجابية كذلك؛ من بينها الانتخابات التي تمت في حماية الشرطة والقوات المسلحة.

كما قال إن الحكومة لن يتولاها بالضرورة رئيس وزارة من حزب الحرية والعدالة؛ الشريك السياسي للإخوان المسلمين، وكان منفتحًا مع المرشحين الذين خسروا في الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية ليعملوا معه: «أريد أن يكون هناك نواب للرئيس ليسوا من الإخوان المسلمين أو من الحرية والعدالة، أريد مساعدين ومستشارين قادرين على تقديم الخبرة الحقيقية والمشورة الحقيقية، أريد مستشارين في كل المجالات».

سوف يغير انتصاره كل شيء. سوف يعزز وضع الإخوان المسلمين في العالم ويدعم مكانتهم في الحياة والسياسة المصرية حيث سيطروا على البرلمان، وبالنسبة للعسكر كانت هذه أكثر الأفكار مَدْعاة للخوف، وكانت النتيجة الأرجح هي المواجهة بين العسكر الذين فرضوا مشيئتهم منذ ١٩٥٢ وبين الإخوان المسلمين الذين تعهدوا بالقبول بكل ما لم يستطيعوا تغييره بالطُّرق السلمية، وقبل إكمال فرز الأصوات كان الحديث يدور حول انقلاب يقوم به الجيش، واحتجاجات دموية في الشوارع؛ تواصل بائس وخطير للاضطرابات والمظالم وفقدان للأرواح دون حصر، بصرف النظر عمن يكون الفائز من المرشحين.

في يوم الخميس ١٤ من يونية ٢٠١٢؛ ليلة جولة الإعادة للانتخابات الرئاسية قام العسكر بانقلاب عسكري من طراز القرن الحادي والعشرين.. كان مفاجأة مذهلة!!

عندما ازدهر الربيع العربي في ٢٠١١، وانفعل العالم مع أحداثه، لم أَسْتَوعب حماسَ يوسف ندا القليلَ في البداية، وسرعان ما فهمت السبب عندما شرح لي أنه بعد تجربة دامت طيلة حياته اعتبر ما حدث مجرد خطوة أولى صغيرة، كان مقتنعًا أن العسكر بعد فترة تَجَمُّل، سوف يعودون مرة أخرى إلى السيطرة بقوة على مقادير الأمور، وستكون الاستجابة السليمة لهذه الأحداث أن نفهمها ونقبلها، وعلى الذين يتوقون إلى التغيير أن يعيدوا ترتيبها.

لقد جرت أحداث بالزخم والشكل الذي تنبأ به يوسف ندا بدقة، ولم يُفرحه ذلك. قال لي: «شيء مؤسف؛ لقد التزم الجيش بما في الكتاب من قواعد وفرَّق صفوف المعارضة، فتشاجر بعضهم مع بعض، وحكم هو، خطَّطَ الجيش لهذه اللحظة؛

فرجال مبارك هؤلاء لم يتركوا الساحة مطلقًا، وتُسدل ستارة الزمن بينما تمددت ستارة سميكة أخرى من النسيان».

وبالفعل، عندما لعب المجلس العسكري لعبته، كان اليساريون والليبراليون والإسلاميون وثوار التحرير مجموعة ضائعة لا يثق بعضهم في بعض. ولكونها أقوى أحزاب المعارضة، عانت جماعة الإخوان المسلمين أكثر من غيرها، لاستهدافها من قِبَل آلة دعاية العسكر، ولتعثرها أحيانًا لضعف قبضتها على السلطة، وعبر العالم راقب ملايين الإخوان المسلمين التحول السياسي في مصر وتتبعوا كل التحركات؛ الانحراف بالقواعد وقلبها وعكسها، وكلهم يعرفون معرفة جيدة خلفية هذه الأمور، وكثير منهم تشهد الندوب في أجسادهم وعقولهم بهذه المعرفة، ومع ذلك كان هناك من استاءوا عندما أصدرت المحكمة الدستورية العليا، المترعة بقضاة عيَّنهم مبارك، قرارًا بحل مجلس الشعب المُنتَخَب حديثًا لعدم دستوريته؛ وذلك قبل جولة الإعادة لأول انتخابات رئاسية على الإطلاق بثمان وأربعين ساعة، وعلَّق المراقب شادي حامد على القرار قائلًا: هذا أسوأ ما يمكن تخيله؛ لقد لعبوها بمهارة فائقة وأخذونا على حين غرة.

أما الإخوان المسلمون الذين كانت لهم أكبر حصة من مقاعد المجلس المنتخب، فكانت هذه الخطوة للثورة المضادة المحسوبة بدهاء من الحرس القديم خسارة واضحة وكبرى لهم؛ كان الإخوان يتوقعون مثل هذه التحركات، وكانت هي السبب الرئيسي وراء تخليهم عن تعهدهم السابق بعدم ترشيح أحد منهم لرئاسة الجمهورية، لقد أضر ذلك بمصداقيتهم.. لكن – كما أثبتت الأحداث– ترك لهم لاعبًا في الساحة الديمقراطية، وإن لم يكن على أعلى مستوى.

ثمة كثير من أوجه التشابه بين ما جرى وبين أحداث الجزائر عام ١٩٩١ عندما فاز الإسلاميون في اقتراع ديمقراطي، فأوقف الجيش الجولة الثانية من الانتخابات وفرض قوانين الطوارئ التي منحته سلطات خاصة، وبدأ عقد من الفوضى والهلاك؛ وتفشى التعذيب وقُبض على الفائزين في الانتخابات، ونشبت حرب عصابات مرعبة. وبحلول نهاية أسبوع الانتخابات الرئاسية بالقاهرة في يونية ٢٠١٢، كان

العسكر قد مَنحوا أنفسهم كافة سلطات الطوارئ للضبطية القضائية، وازداد التماثل مع الحالة الجزائرية وضوحًا، كانت التشريعات الجديدة تعني أن الجيش يستطيع أن يفعل ما يريد ليسيطر ويحتفظ بالسيطرة، وأنه على استعداد للقيام بهذا على الأغلب، كان العسكر يعلمون كذلك أن الإخوان سيقبلون بالأحداث ولن يُفَجّروا عنفًا يؤدي إلى موت فرد واحد أو إصابته.. فاز العسكر في هذه اللعبة.

إن المحكمة التي حلت مجلس الشعب هي أعلى محاكم مصر، وكانت معروفة باستقلاليتها، لكن في عهد مبارك تدخلت الدولة بترتيب منه لتعيين قضاة ولاؤهم للرئيس، السياسة جاءت قبل البروتوكول، بل قيل.. العدالة. لم يأخذ القضاة قرارًا ارتجاليًّا بحل البرلمان، وإنما بنوه على أمور حساسة سياسيًّا، بما فيها شرعية القواعد الانتخابية أو مدى موافقة القوانين للمواد الدستورية المستقاة من الشريعة الإسلامية، كان المعتقد دومًا أن هذه المحكمة كانت مُعيّنة لنقل السلطة من مبارك لولده جمال.

كان قرار المحكمة الدستورية يعني أن الفائز في الانتخابات الرئاسية؛ كائنًا من كان، لن يجد مجلسًا تشريعيًّا يعمل معه، كما ألغت المحكمة الجمعية التأسيسية بأعضائها المئة المُشَكّلة لكتابة دستور جديد من شأنه أن يُحدّد صلاحيات الرئيس ويُقلصها.. إذا كنت تعرف النتيجة مسبقًا فلن يهمك ما حدث قبلها.

كان عرضا تمثيليًّا صامتًا (بانتومايم): جولة الإعادة للانتخابات الرئاسية يشترك فيها مرشح للإخوان، ذابت قاعدته البرلمانية على أيدي مؤيدي منافسه؛ الذين أكدوا وجود هذا المنافس: ففي قرار منفصل، أكدت المحكمة رفضها لقانون «العزل» الذي أصدره مجلس الشعب ذي الغالبية الإسلامية، والذي كان سيمنع كبار المسئولين في نظام مبارك من المشاركة في الحياة السياسية، وجاء قرار المحكمة داعمًا لمرشح اختاره الجيش؛ أحمد شفيق؛ آخر رئيس وزراء اختاره مبارك.

وبعد الحكم وتغير اللعبة، امتدح شفيق المحكمة لقرارها التاريخي، وما كان له ألا يفعل. إطالة الفترة الانتقالية ثم التوقف في الوقت المناسب لم يكن عملًا سهلًا لحكام مصر العسكريين، الاقتصاد مرتبك والملايين جوعى والمستقبل كئيب، أين الموارد اللازمة لدفع الأمة إلى الأمام؟ وما هي هذه الموارد؟

الأمل كبير: أكبر من أي شيء، لأنه يبزغ عقب أيام الضياع الطويلة الممتدة، وأخيرًا في ٢٤ من يونية ٢٠١٢، حدث ما بدا يومًا من المحال، فمن هذا التعثر، أصبح محمد مرسي عضو الإخوان المسلمين أول رئيس لمصر منتخب انتخابًا ديمقراطيًّا عبر تاريخ امتد سبعة آلاف سنة، وبعد عقود من حظر جماعته واضطهادها والتحقير من شأنها، كما جاءت النتيجة تحديًا لعقود الدكتاتورية ولكثير من صُناع الرأي العام العالمي. لقد فاز أول رئيس مدني بنسبة ٥١,٧٣٪ من الأصوات في مقابل ٤٨,٢٧٪ حصل عليها أحمد شفيق الذي سارع لنفي نفسه خارج البلاد، واشتعل ميدان التحرير فرحًا، وانتقلت عبر الأثير إلى كافة أنحاء العالم صور الابتهاج والاحتفالات الصاخبة، كانت لحظة فريدة، كانت لحظة تاريخية، بقيَ الكثير غير مؤكّد لكن ساد شعور في القاهرة في عصر ذلك الأحد بأن ثورة قد قامت يومًا ما في الماضي القريب، لم يكن ميلاد الحدث سهلًا أو سريعًا، كان يوسف ندا سعيدًا. وفي خلال أربع وعشرين ساعة تلقى مكالمة هاتفية حارة من الرئيس محمد مرسي. وقال لي يوسف لاحقًا: «هذه هي السياسة، لقد ذكرت لك من قبل: عليك بتعلم الصبر».

من قصة يوسف ندا تَعلمنا كذلك أن الكفاحَ من أجل الجائزة الكبرى للحياة النبيلة موكبٌ تَحُفّه الأخطارُ.

ملحق رقم ١

من بين الجمع الكثير من المشكلات والقضايا والأساطير والتوقعات المحيطة بالإخوان المسلمين على امتداد تاريخها هناك موضوع يَرِد ذِكره بشكل شبه دائم؛ وهو موقف الإخوان من حجاب المرأة، والمسألة تتعلق بمكان الرجل ومكان المرأة في المجتمع؛ وهو جزء من نقاش يدور في القرن الحادي والعشرين ممتد من الشرق إلى الغرب. لقد تغير العالم منذ نشر الدكتور «جيفري لانغ» الباحث في جامعة كانساس كتابه بعد أن أسلم: «كفاح من أجل الاستسلام» (Struggling to Surrender) في ١٩٩٤. لكن يوسف ندا يعتقد أن تفسيرات الدكتور «لانغ» صحيحةٌ، ويُشير إلى كتابه كإسهام في الفهم.

يقول «لانغ»:

في عصور ما قبل الإسلام، كان الزي المعتاد لنساء القبائل العربية يتكون من غطاء مزخرف للرأس يتدلى على ظهورهن ويُظهر شعورهن من الأمام، وقميص واسع ذي فتحة كبيرة من الأمام تكشف عن الصدر وتنورة معقودة عند الخصر، مع قِطَع مختلفة من المجوهرات مثل الخواتم والأقراط والأساور والخلاخيل؛ هذا الطراز من الملابس الذي لم يكن جذابًا فحسب، لكنه كان يُخفف من حدة المناخ أيضًا، ظل زيًّا مستخدمًا عند النساء البدويات في شبه الجزيرة العربية إلى بداية القرن الحالي (العشرين)، والتقط بعض الرحّالة الأوربيين صورًا له. وتعاليم القرآن الكريم تأمر النساء بأن ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور:٣١)، وأن ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب:٥٩)، إذا خرجن من بيوتهن، ففَرَضتْ على نساء المؤمنات أقلّ الأعباء: زيًّا محتشمًا للمسلمات. كما تمضي الآية ٣١ من سورة النور لتقرر أنهن يستطعن ارتداء ملابسهن التقليدية في بيوتهن وأمام محارمهن وخادماتهن، وأوضحت الأحاديث النبوية المتعلقة بهذه الآيات، وخاصة المتصلة منها بالآية ٥٩ من سورة الأحزاب أن الإساءة الجنسية هي مبعث القلق هنا، ولما كان المجتمع أَمْيَل دومًا إلى استغلال النساء جنسيًّا أكثر مما يفعل مع الرجال، ومن ثَمَّ كان التركيز على ملابسهن أكبر. بمرور الوقت، تحدث الفقهاء بوضوح عن زي متشدد للنساء المسلمات، غير أن ارتداء الخمار كما وَصَفَتْه سورة

النـور عندمـا يصحبه الثوب الخارجـي على الصفة المذكورة في سـورة الأحزاب، فمـن المحتمل أنه قـد يقارب إلى حد كبيـر التوضيحات المتأخـرة، أما ما ورد من نقـاش الفقهـاء الأوائل حول هذه المسـألة فيرجع إلـى جيلَي الصحابـة والتابعين، ويتركـز علـى النقاش حول وجوب تغطيـة المرأة لوجهها في الأماكـن العامة، وإذا كان مقبـولًا أن تُظهـر يديهـا ووجهها. كان الـرأي الأخير هـو رأي الجمهور، وظل الـرأي المعتـاد منذئذ، لكن هذا لم يَعنِ أن كل النسـاء في العالم الإسـلامي يعترفن بزي شـرعي واحـد؛ لأن هناك تنوعات كبيرة؛ فعلى سـبيل المثال، كثير من النسـاء المصريات يُغطين شـعورهن لكنهن يكشفن عن رقابهن، وتلبس النساء الماليزيات أحيانًا سـراويل تحت حرامل[1] طويلة، أما السـيدة السـعودية فتلتـف بطرف غطاء الرأس عدة لفات غير محبوكة حول الرقبة، والإيرانية تلبس عادة خمارها وتسـدله على جبينها بحيث يغطي حواجبها فلا يمكن رؤيتها. بيد أن هناك شبه قبول تام بأن مـا يمكن رؤيته من المـرأة هو وجهها ويداها فقط، ولا يعنـي ذلك عدم وجود آراء مخالفة؛ إذ من السـهل أن يتخيل المرء الصعوبات التي تواجهها النسـاء المسلمات المسـافرات أو المقيمـات فـي مجتمعات غير مسـلمة. وإلى اليـوم، ما زال أوضح الآراء وأكثرها مرونة ما قاله محمد أسد: على الرغم من أن شارحي الفقه الإسلامي لقـرون طويلة قد مالوا إلى تحديـد تعريف «ما يمكن ظهوره من وجه المرأة ويديها وقدميهـا»، وأحيانًا أقل من ذلـك، وربما نفترض افتراضًا مأمـونًا أن عبـارة ﴿إِلَّا مَا ظَهَـرَ مِنْهَا﴾ أوسـع دلالـة بكثيـر، وأن المقصود من غموضها المتعمد أن تسـمح بالتغيرات التي سـتطرأ مع تغير الأزمـان والضرورية للتنمية المعنوية والاجتماعية.

إن أهم جملة في الأمر السالف موجهة إلى كلا الجنسين؛ الرجال والنساء، بكلمات واحـدة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. (النـور: ٣١)، وهـذا يحـدد درجـة مـا يمكن اعتباره «محتشمًا» من الناحية الشرعية، أي موافقًا لما ذكره القرآن عن مبادئ الأخـلاق الاجتماعية، في عصر بعينه، أو «غير محتشـم»، وذلك من حيث المظهر الخارجي.

ولـذا؛ فإن الأمـر بضرب المؤمنـات لخُمُرِهن علـى جيوبهن (والخِمَـار مصطلح مألوف لدى معاصري الرسـول صلى الله عليه وسـلم) لا يتعلق بالضرورة باسـتخدام الخِمَار في حد ذاته، لكنه يعني بالأحرى أن صدور النسـاء ليسـت مما يمكن أن يَظهر للناظرين ضمن ما يعتبر مظهرًا محتشمًا لهن.

---

(١) جمع حَرْمَلة: وهي رداء قصير واسع يوضع على الكتف ويغطي الظهر والصدر؛ وهو مفتوح من الأمام.

إن الصيغ المحددة والمرتبطة بعصور بعينها لمعاني الآية ٥٩ من سورة الأحزاب (كما يتضح من ذكر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وبناته)، وكذلك الغموض المتعمد في توصية النساء بأن «يسدلن على أجسامهن من ملابسهن الخارجية (من جلابيبهن)» عند خروجهن، مما يوضح أن الآية لم يُقصد منها أن تكون بمثابة «حكم» عام، بالمعنى الاصطلاحي غير المرتبط بزمن ما، ولكنها بالأحرى توجيه أخلاقي يُتبع مع اعتبار تغير الأزمان والبيئات الاجتماعية، هذا الحكم تدعمه الكلمات الأخيرة من الآية عن مغفرة الله ورحمته.

إن وضوح مقولة محمد أسد يقلله إلى حد ما تأكيده على أن القيد على كشف النساء لنحورهن غير مرتبط بزمان، لأنه إذا كانت «تغطية ما» لها صفة الديمومة، فلماذا لا يكون ذلك لغيرها؟ إن دعوى الانتقائية سوف تُثار دون شك، وبالفعل عندما ندافع عن تفسير جديد في ضوء الظروف المتغيرة علينا أن نتوقع مثل هذه الدعوى، وغموض الآيات في بعض النقاط يفسح المجال لتنويعات ثقافية مختلفة، ولدينا من ذلك الكثير كما رأينا، بَيْد أن الموضوع الذي نتناوله يتعلق بالمقدار، وإلى الآن في موضوعات كهذه فإنني وغيري من الكُتّاب ذهبنا إلى أن المشاركين فيه يحاولون التمييز بين التوجيه العام للقرآن الكريم عند الاستجابة لآية بذاتها؛ فالمسلمون لم يعودوا حريصين، كما أسلفنا على سبيل المثال، على حشد الخيول استعدادًا للقتال، على الرغم من وضوح نص الآية ٦٠ من سورة آل عمران؛ إذ لم يعد رباط الخيل ذلك العنصر الرئيسي في كسب المعارك، ومن ثَمَّ ففي حالة الزي الشرعي، قد ينبغي علينا أولًا أن نُحدد إذا كان على الأمة الإسلامية الالتزام على الأقل بحدٍّ أدنى من الحشمة في اللباس. من المحتمل أن جميع المؤمنين، بناء على الآية ٣١ من سورة النور، سوف يتفقون على هذا الحد كما فعل محمد أسد في تفسيره لهذه الآية، والأرجح أنهم سيتفقون على أن الزي الموروث من المجتمعات الإسلامية الأُولى، والذي انتقل إلينا من جيل إلى الجيل الذي يليه كان ملائمًا للزمان الماضي بالتأكيد، وموافقًا لتعاليم القرآن.

وربما يُطرح سؤال عن ما هي المرحلة التي أصبح عندها من المُوصَى به أو المسموح به للمسلمين أن يكتسبوا تقاليد غربية، من الصعب أن تجد تبريرًا أخلاقيًّا أو نفسيًّا لتغيير كهذا. في الحقيقة أن الإسلام على مفترق طرق. وفي أوائل هذا القرن حثَّ محمد أسد المسلمين بنفسه ألا يتخذوا المعايير الغربية، وفي طبعة منقحة من كتابه نشرها بعد خمسين عامًا، لم يعتذر عن هذا الرأي، واعتبر أنه كان ملائمًا لوقته، لكنه قال إن المسلمين في السنوات التي انقضت بين الطبعتين قد تشربوا القيم الثقافية الغربية إلى درجة أن محاولة إعادتهم إلى عاداتهم الأُولى

سوف تكون غير منطقية مثل التبنّي الأصلي للأساليب الغربية، وفي رأيه، فلن تعدو أن تكون «محاكاة أخرى غير رصينة، في هذه الحالة محاكاة لماضٍ ميت لا يعود».

وبعبارة أخرى، تغيرت التقاليد الاجتماعية بالفعل؛ للأسوأ أو للأحسن، كأثر حتمي لمواجهة حضارة أقوى، ونتيجة لذلك، ما كان يُعتبر في الماضي لباسًا متهتكًا أو غير محتشم لم يعد اليوم يُنظر إليه كذلك.

لن يقتنع كثير من المسلمين بهذا المنطق؛ لأن جزءًا أساسيًّا من عقيدة المؤمن أن الدين يضع المعايير الأخلاقية للمجتمع وليس العكس، وعلاوة على ذلك، فعلى الرغم من أن النساء في الغالب لا يتمسكن بقواعد الزي التقليدي، فإن هذه القواعد نفسها باعتبارها مثلًا يُحتذى يكاد يُجمع عليها المسلمون رجالًا ونساءً؛ وفي الآونة الأخيرة شَهِدت المجتمعات الإسلامية في أنحاء العالم عودة ظهور الزي النسائي التقليدي على نطاق واسع، وختامًا، يتبع الزيّ التقليدي للنساء روحَ القرآن الكريم وأربعة عشر قرنًا من العادات، وسوف يمنع ما يعتبره المسلمون استغلالًا جنسيًّا للمرأة في الغرب.

ولذا، فإنني أشعر بأن مسألة المراجعة الحقيقية لهذه القضية ليست مقنعة، ومن جانب آخر، الأمة بحاجة ماسّة إلى إبداء تعاطفها وتفهمها نحو من يخوض غمارها، وبخاصة النساء المسلمات اللاتي يعشن في الغرب، والصعوبات والمتاعب النفسية والاجتماعية والخاصة بالحصول على عمل التي تواجه مَن ترتدي هذا الزي تختلف من شخص إلى آخر، ومنهج المسلم يجب أن يكون توافقيًّا موائمًا أكثر منه اتهاميًّا لوّامًا، ويجب تقديم أقصى العون حتى لا تُصد المرأة المسلمة عن المشاركة الاجتماعية، وينبغي على الرجال المسلمين كذلك أن يُبدوا فائقَ الرفق والحساسية في هذا الصدد، منذ وقت قصير رأيت مشهدًا عبثيًّا لبعض النساء المسلمات، اللاتي ارتدين زيًّا كاملًا سابغًا يجلسن إلى طاولة سفرية تحت شمس الصيف القائظة، بينما كان أزواجهن يلعبون في الماء والرمال وسط الأمريكيين المسترخين تمتعًا بحمامات الشمس. سوف ينقضي بعض الوقت قبل أن تجد المسلمات الأمريكيات والأوربيات الملابس التي تنسجم مع ثقافتهن ودينهن، لكن إذا زادت الحاجة فسوف يحدث ذلك بكل تأكيد، والآن سوف أقترح تَوَجُّهًا للمجتمع بهذا الصدد يتفق مع ما خُتمت به الآية ٥٩ من سورة الأحزاب، من تذكير القارئ بمغفرة الله ورحمته، ربما كان هذا؛ حسبما يقترح محمد أسد، إفادة بمصاعب المستقبل التي سيلقاها المسلمون في هذا المجال ودعوة المؤمنين إلى الرحمة في جهودهم للتغلب عليها، لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، كما يقول عز وجل: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ

يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴾ (النساء: ١٢٧)، وسوف يواصلون طلب الفتوى حتى اليوم. وعَبْر التاريخ، لم يكن الدين عطوفًا مع النساء؛ لأن المذاهب السلفية التي سادها التعصب الذكوري قد صهرت الانحيازات والصدود الثقافية مع العقيدة والشريعة والتفسير، وكان على مجتمع القرن العشرين أن يُعيد البحث فيها جميعًا؛ إذ كيف يقضي الله بهذا الحكم المتدني على شخصية المرأة ومكانتها؟! المسلمون الغربيون، غير المتصلين «أو/ و» المنقطعون عن الثقافات التي أبقت أو حافظت على الإسلام، يكتشفون في القرآن والإسلام رؤية للنساء مختلفة عن التي كانوا يرونها في الماضي؛ حقيقي أنه «ليس الذكر كالأنثى»، وأن أي قراءة أمينة يجب أن تَقبل هذا باعتباره من تعاليم القرآن، لكن ليس معنى هذا أن أحدهما بطبيعته أكثر ذكاءً من الآخر أو أتقى منه، بل الأصح، أنه يعني أن شخصيتيهما متوازنتان بدرجة كبيرة، وتكمل إحداهما الأخرى بطرق تتلاءم جيدًا مع كل التغيرات التي سيمر بها المجتمع، ويستوي في صحته؛ وطبقًا للقرآن والسنة، نقول إن هناك شيئًا في شخصيتَي الجنسين يسمح للرجال أن يتولوا القيادة والسيطرة بسهولة أكثر من النساء، غير أن هذا الواقع لا يعني أن النساء لسن صالحات للقيادة أو التعليم أو المشاركة؛ لأنني أعتقد أن نصوص المصادر الأصلية في الإسلام منفتحة بوضوح على هذه الإمكانية، أما الشيء الذي تعنيه فهو أن المجتمع يجب أن يَحذر من الإساءة إلى النساء؛ لأن الإنسان يجد خلال القرآن كله أوامر متكررة بعدم الإساءة إليهن وتحذيرات متكررة من ارتكاب هذه الإساءات، ومن الأمثلة على ذلك الآية الأولى من سورة المجادلة: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾، والتي تتناول ظلمًا شاع ارتكابه بين الرجال في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ويجب قراءته كتحذير عام لكل زمان ومكان، تلتزم به الأمة الإسلامية إلى الأبد، في ضوء الخصوصية الثقافية الواضحة في الآية التالية. والتفسير المخلص للإسلام على أيدي مسلمين محدثين من الأرجح أنه لن يتفق تمامًا مع كثير من آراء الدعوات النسوية في القرن الحادي والعشرين، كما أنه لن يوافق على كثير من الآراء الخاصة بالمرأة الواردة في الدراسات الإسلامية المبكرة.

ومرة أخرى، كما حدث في قضايا كثيرة للغابة، ستجد الأمةُ الإسلاميةُ نفسَها مضطرةً إلى أن تبقى ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ في سعيها للوصول إلى معنى أن تكون رجلًا مسلمًا أو امرأة مسلمة في العالم الحديث.

ملحق رقم ٢: ملف وثائقي

إحدى وثائق ويكيليكس

المصدر: سفارة القاهرة

التصنيف: سري

الوجهة:

Header: VZCZCXYZ0000PP RUEHWEBDE RUEHEG #1976/01 2920752ZNY CCCCC ZZHP 190752Z OCT 09FMAMEMBASSY CAIROTO RUEHC/SECSTATE WASHDC PRIORITY 3905INFO RUEHTV/AMEMBASSY TEL AVIV PRIORITY 1967RUEHJM/AMCONSUL JERUSALEM PRIORITY 1218RUEATRS/DEPT OF TREASURYWASHDC PRIORITY
Tags: EFIN, KN, PTER, ECON, PGOV, EG

CONFIDENTIAL CAIRO 001976 SIPDIS E.O. 12958: DECL: 10/12/2019 TAGS: EFIN,KN, PTER, ECON,PGOV, EG SUBJECT: TREASURY DAS DANIEL GLASER, S MEETINGS WITH MINISTRY OF FOREIGN AFFAIRS AND THE CENTRAL BANK Classified By: MINISTER COUNSELOR DONALD A. BLOME REASONS: 1.4 (B) and (D)

١ ـ (SBU) النقاط الأساسية: المسئولون المصريون غير متأكدين من كيف دخلت إلى مصر الأموال المُرسَلة إلى حماس، وحكومة مصر غير سعيدة لأن الأمم المتحدة قد رفعت اسم يوسف مصطفى ندا من قائمتها المدعومة بقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ١٢٦٧، والتي تحتوي أسماء أفراد وهيئات مرتبطة بالقاعدة أو طالبان. وفي ٢٦ من أغسطس ٢٠٠٩، بناء على طلب من السلطة الفلسطينية أصدر البنك المركزي المصري تعليماته إلى جميع البنوك المصرية بتجنب التعامل مع البنك الوطني الإسلامي المنتسب لحماس.

٢ ـ (U) اجتمع نائب مساعد وزير الخزانة الأمريكي «داني جلاسر» مع مساعد وزير الخارجية منسق مكافحة الإرهاب أشرف محسن ونائب محافظ

البنك المركزي هشام رامز في ٤ من أكتوبر لمناقشة قضايا واسعة النطاق تتعلق بتمويل الإرهاب وقضايا مكافحة غسيل الأموال في مصر وعبرها.

٣ ـ (C) أكد أشرف محسن أنه ليس مُلِمًّا إلمامًا جيدًا بمسائل الأموال المُرسَلة إلى حماس؛ لتمر خلال مصر إلى غزة عبر أنفاق، وخَمَّن أن الأموال المرسلة إلى حماس والداخلة إلى مصر ربما جاءت أموالًا سائلة حملها سياح عرب، ودبلوماسيون لا تتعرض حقائبهم للتفتيش بواسطة موظفي الجمارك، وذكر أشرف محسن أن حكومة مصر لا تنوي إصدار قائمة بأسماء الإرهابيين خاصة بها، وأشار إلى أن مصر اعتبرت وجود حماس محظورًا داخل أراضيها، فلن يستطيع أي مسئول مصري أن يجتمع مع حماس حول عملية السلام مع إسرائيل، وأبدى محسن تخوفه من أن وضع حزب الله على قائمة المنظمات الإرهابية سوف يضفي «شرعية» على المنظمة ويضاعف شهرتها في مصر.

٤ ـ (C) طلب «داني جلاسر» معلومات عن عبد المنعم أبو الفتوح والعديد من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الآخرين الذين اعتُقِلوا بتهمة التآمر مع منظمات أجنبية وغسيل الأموال، وقال أشرف محسن إن الحكومة المصرية لا تستطيع إفشاء أي معلومات عن القضية حتى تنتهي محاكمتهم أمام القضاء. ووفقًا لما ذكره محسن فإن النائب العام يجب أن يحيل أولًا ملف القضية إلى القضاء، وحكومة مصر غاضبة لرفع اسم يوسف ندا من قائمة الإرهابيين.

٥ ـ (C) بَيَّن أشرف محسن أن حكومته غير سعيدة من قرار لجنة الأمم المتحدة رقم ١٢٦٧ بإزالة اسم يوسف مصطفى ندا من قائمتها المدعومة بقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ١٢٦٧؛ والتي تحتوي أسماء أفراد وهيئات مرتبطة بالقاعدة أو طالبان، وأشار محسن إلى أن ندا أهم ممول للإخوان المسلمين، وإلى أن الإخوان المسلمين يرون في رفع اسم يوسف ندا من القائمة انتصارًا رمزيًّا، كما لفت أشرف محسن النظر إلى تورط الولايات المتحدة في قرار لجنة الأمم المتحدة رقم ١٢٦٧ بإزالة اسم يوسف مصطفى ندا من قائمتها، وقال إنه يرى تناقضًا بين إزالة اسم ندا من القائمة وطلب حكومة الولايات المتحدة مناقشة حماس مع حكومة مصر، واجتهاد البنك المركزي المصري في الرقابة على المعاملات المالية.

٦ ـ (C) كما اجتمع نائب مساعد وزير الخزانة الأمريكي «داني جلاسر» أيضًا مع نائب محافظ البنك المركزي هشام رامز لمناقشة الوقاية من تمويل الإرهاب وقضايا مكافحة غسيل الأموال الأخرى، وعند سؤاله عن تمويل حماس عبر الأراضي المصرية، خمّن هشام رامز أن هذا التمويل من المحتمل أن يتم عن طريق التحويلات بين الحسابات البنكية باستخدام شبكة الإنترنت؛ (تعليق: يبدو أن محسن ورامز كليهما غير مستوعبَيْن الاستيعاب الجيد لمسألة تمويل حماس عبر مصر). وعن كوريا الشمالية، ذكر رامز أن النشاط المالي الكوري الشمالي ليس قضية كبيرة في مصر، وأضاف قائلًا إن البنك المركزي مارس منهجًا عمليًّا في مراقبة المخاطر المحدقة بالمؤسسات المالية المصرية؛ فعلى سبيل المثال، يفحص البنك المركزي كل معاملات التحويل للنقد الأجنبي في نظام البنوك المصرية كل ساعة من أجل المحافظة على معدلات مستقرة لاستبدال العملات، وكذلك للكشف عن أي صلة ممكنة بغسيل الـ «إم إل» أو تمويل الإرهاب.

٧ ـ (C) تساءل نائب مساعد وزير الخزانة الأمريكي «داني جلاسر» إذا كان البنك المركزي المصري قد تَلقّى رسالة من جهاد الوزير؛ محافظ هيئة النقد الفلسطينية، يطالب فيها جميع البنوك المركزية في المنطقة بعدم السماح للبنك الإسلامي الوطني التابع لحماس بالتعامل مع أي مؤسسات مالية خاضعة لسلطة هذه البنوك؟ وقد أقر هشام رامز بأن البنك قد تَسلَّم الرسالة، وأنه في ٢٦ من أغسطس ٢٠٠٩ أصدر أوامره إلى كل البنوك المصرية بتجنب التعامل مع البنك الإسلامي الوطني.

٨ ـ (U) وَثَّقت وزارة الخزانة هذه البرقية؛ سكوبي.

ملحق رقم ٢

[illegible]

PROCURA FEDERALE

[illegible]

Berne, 23rd January 2002

Department of the Treasury
Mister George B. Wolfe
Deputy General Counsel
By fax: 001 202 622 19 11 and via Swiss
Federal Office of Justice

Al Taqwa / Nada Managment Organization; your letter from January 4, 2002

Mister Deputy General Counsel,

Dear Mister Wolfe,

Thank You for your letter dated from January 4, 2002. I have read it with interest.

When I was in Washington on the 29th of November 2001, I received the guarantee from the General Counsel to get all informations You have about Nada / Al Taqwa. I was more than disappointed when I received Your letter. That does not give more informations that I already have and the only explanations I received are so general and without details that I can not use them to go on with my investigations.

To be clear I shall quote the content of Your letter and take the extract to ask You some more questions. I repeat what is important for me is to have elements that I may use to do one or more steps further in investigations in Switzerland and in the rest of the world against the firm and the directory from Nada / Al Taqwa:

Ad page 1: "...*involved in financial radical groups like the Palestinian HAMAS, Algeria's Islamic Salvation Front and Armed Islamic Group, and Tunisia's An-Nahda.*"

- What are the demonstrable facts for a correlation between AL TAQWA and groups like ARMED ISLAMIC GROUP, ISLAMIC SALVATION FRONT and AN-NAHDA?
- Do You have informations about MOKDAD LAZHAR, born 15.08.1956, in connection with the Bank Al Taqwa??

Ad page 2: "*In 1997, it was reported that $60 million collected annually for HAMAS from all parts of the world were moved to account with AL Taqwa*"

- What does that means exactly?
- Who gave You this information?

- Is that a secret information?
- Do You have the demonstration from this information?
- On which Bank account?
- At which date?



Embassy of the United States of America

TO: Bundesamt für Polizei, Terrorism Taskforce

FROM: Federal Bureau of Investigation, Terrorist Financial Review Group
United States Department of the Treasury, Operation Green Quest

DATE: April 12, 2002

RE: ON SITE REVIEW IN BERNE OF RECORDS SEIZED RELATING TO AL TAQWA BANK and YOUSSEF NADA

From April 2, 2002 to April 12, 2002, the Bundesamt für Polizei, Swiss Federal Office for Police, Terrorism Task Force, hosted a delegation of agents and analysts from the Federal Bureau of Investigation (FBI) and the United States Department of the Treasury (DOT), allowing them full access to review the records seized by the Swiss Federal Police during searches executed in November 2001. The searches were conducted in conjunction with an investigation into alleged ties to terrorism concerning Youssef Nada and his businesses Al Taqwa Bank and Al Taqwa Management.

The Swiss Federal Police was extremely helpful in this endeavor and provided full unrestricted access to the seized documents, timely responses to any and all questions posed by the delegation regarding the seized documents and an excellent work space to review these documents. The assistance provided to this delegation, both professionally and personally, was exceptional in every regard, and the delegation wishes to express their sincere appreciation for such cooperation.

The delegation consisted of the following individuals:

SA H. Dandridge Myles, FBI Terrorism Financial Review Group, 001-202-324-8636

SA Thomas A. McCabe, FBI Terrorism Financial Review Group, 001-202-324-8521

Analyst Lee Herbert, FBI Terrorism Financial Review Group, 001-202-324-9020

Analyst Kelly Emerson, FBI Terrorism Financial Review Group, 001-202-324-3614

SSA Todd Nevins, Treasury Department, Operation Green Quest, 001-770-994-

Page 1 of 4

4181

Programs Officer Jennifer Houghton, Treasury Department, Operation Green Quest, 001-202-827-6702

SA C. Steve Howard, Treasury Department, Operation Green Quest, 001-202-827-6526

GOALS

The delegation's goal was to review the documents seized in order to determine if sufficient financial ties to terrorism existed in order to request a Mutual Legal Assistance Treaty (MLAT). The method employed by the delegation was to review the documents and to extract any individual names, company names, addresses, telephone numbers, email addresses, and bank account numbers located in the documents and to process this information through the Terrorist Financial Review Group and Operation Green Quest criminal databases. Any responses or matches would be reviewed by the delegation, and if sufficient ties existed to terrorism, the delegation would then recommend that an MLAT request be produced and provided to the Swiss Federal Police. The delegation would provide the Swiss Federal Police with their findings and further investigative needs would be determined at that time

REVIEW

The delegation was provided with access to seven cabinets of general business documents, including but not limited to invoices, stockholder balance statements, business correspondence, bank records and background information. Additionally, the delegation was provided with access to various videotapes and electronic media seized from the locations. These documents were in Arabic, Italian, German, French, and English. The records were seized from the Lugano office of Al Taqwa Management, the residence of Ahmad Huber, previously known as Albert Huber, the residence of Youssef Nada, the residence of Ali Ghaleb Himmat, and the Vaduz office of ASAT Trust.

The delegation performed a cursory review of all of the documents with the exception of the electronic media. After a cursory review was performed, the delegation then proceeded to review the documents in a detailed manner, extracting any names, company names, addresses, telephone numbers, email addresses, and bank account numbers. The documents were prioritized and bank records and stockholder records were reviewed in their entirety. Approximately seventy percent of the remaining records were reviewed by the delegation in detail.

The delegation provided a daily report of the extracted information to the Swiss Federal Police and to the FBI and Treasury offices in the United States. Each day at 11:00 a.m. the delegation met with the Terrorism Task Force at which time they would provide the



U.S. Department of Justice

Federal Bureau of Investigation

[illegible]

June 26, 200[illegible]

BY LIAISON

ALI GHALEB HIMMAT,
YUSUF MOHAMAD NADA,
AND THE AL TAQWA MANAGEMENT ORGANIZATION

(U) Per your request, dated [illegible]/2003, the FBI conducted a search of its records for information pertaining to Ali Ghaleb Himmat, Yusuf Mohamad Nada, and the al Taqwa Management Organization. The information found in our databases is the same information which you have provided to us. We currently have no ongoing investigations on the above individuals.

(U) With regard to the 241 pictures which you would like to have circulated among the prisoners at Guantanamo, this may be a possibility, provided you narrow the scope of the parameters as to which detainees should view the photos. For example, people captured in the same location where the meeting took place, or members of an organization with whom the meeting related, or specific Guantanamo detainees that you have knowledge of that you feel should view the photos.

ملحق رقم ٢



DEPARTMENT OF THE TREASURY
OFFICE OF PUBLIC AFFAIRS

EMBARGOED UNTIL
2:00 PM June 26, 2003

Contact: Taylor Griffin
(202) 622-2960

Written Testimony of David D. Aufhauser
General Counsel, Department of the Treasury
Before the Senate Judiciary Committee
Subcommittee on Terrorism, Technology and Homeland Security
June 26, 2003 2:00 p.m.
The United States Senate

The Threat of Terrorist Financing

Chairman Kyl and distinguished Members of the Subcommittee on Terrorism Technology and Homeland Security, thank you for inviting me to testify today about the threat posed by those who fund terrorists and what can be done to keep that money from getting into the hands of terrorists.

I want to take a moment to emphasize that the terrorist financing strategy of the United States government does not target any particular faith or sect. We are not at war with a religion, but rather with terrorists who sometimes masquerade as its champions. It is a difficult challenge to distinguish between an austere, uncompromising and intolerant view of faith from extremism and fanaticism that purposely seeks the blood of children.

Terrorist supporters also corrupt otherwise legitimate companies to either raise or move funds for terrorists. Such activity, as with the abuse of charitable organizations, is particularly nefarious since this may occur without the knowledge of other shareholders, employees, or customers.

To date, the United States has taken strong action to shut down such front companies and businesses which have become corrupted by the influences of terrorist financiers and to strip away the otherwise legitimate holdings of those individuals who finance and abet terror. For example, we worked closely with our partners in the Caribbean and Europe for nearly a year to unearth the insidious network of financial houses and investment firms used by the European and Caribbean-based al Qaida supporters, Youssef Nada and Ahmed Idris Nasreddin. These companies were then publicly designated, shut down, and acted against by the United Nations for their ties to al Qaida in a joint action between the U.S., Italy, Switzerland, Luxembourg, and the Bahamas. We have also publicly designated a network of honey shops and bakeries in Yemen that funded al Qaida's operations as well as the front companies for the European based al Qaida supporter, Mamoun Darkazanli.

We continue to monitor, analyze, and investigate the links between businesses, in the United States and elsewhere, and terrorist groups. Using Bank Secrecy Act data and analysis provided by the Financial Crimes Enforcement Network (FinCEN) and other relevant law enforcement resources, we are able to target suspicious business activities and anomalous transactions. This type of methodical investigative and analytical work will continue to uncover networks of businesses used to generate and funnel money to terrorist groups.

8

ملحق رقم ٢

[illegible] FAX [illegible]

Testimony of Steven Emerson
Executive Director, The Investigative Project
Before the House Financial Services Committee
Subcommittee on Oversight and Investigations
May 18, 2004

The Investigative Project
[illegible] Connecticut Ave., NW, [illegible]
Washington, DC 20015
Phone 202-[illegible]
Fax 202-[illegible]
Email: [illegible]

Introduction

Madame Chairwoman, Ranking Member Gutierrez, Chairman Oxley, Ranking Member Frank, and all Members of the Committee, thank you for inviting me to participate in this hearing. I commend you on assembling the best panel of [illegible] experts on money laundering issues that I have seen at a Congressional hearing in the past two years. They are some of the most influential, knowledgeable, and dedicated experts in the United States and, indeed, the world. I want to thank Jon Lewis and Dana Lesemann of The Investigative Project for their work in preparing this testimony.

We are here today to examine whether the Riggs case represents the exception to the rule or the tip of the iceberg. Riggs Bank's failure to file Suspicious Activity Reports (or "SARs") in deference to its clients' desire for secrecy is the single most serious breach ever in the first line of U.S. financial controls against terrorism, and the bank officials who participated in these violations should be held personally responsible. SARs are integral to identifying and monitoring illegal assets in the United States. I urge this Committee to conduct a thorough review of the examinations conducted by financial regulators of Riggs and other major financial institutions to see what the regulators knew or should have known of gaps in anti-money laundering systems.

In at least one instance that I can discuss, a major financial institution cut ties with a terrorist-linked bank upon being advised to do so. In 2000 and 2001, Citigroup was participating in joint ventures with al-Aqsa Bank, which has ties to Hamas. When informed by the Israeli government of these ties, Citigroup contacted the United States Treasury for guidance and subsequently terminated its relationship with al-Aqsa Bank. The question is this: What is the true paradigm? Is it Citigroup's taking the initiative with the Treasury Department or is it Riggs Bank's failure to comply with government mandates? The answer to this question will be critical to determining how you formulate effective measures to monitor terrorist-related transactions in the future.

For those companies that do defy U.S. regulations or fail to prevent their employees from doing so, the recent $100 million fine against Switzerland's UBS AG is a crystal-clear illustration that any short-term profits produced by defying U.S. law will ultimately be overwhelmed by the repercussions of being caught. UBS likely suffered even greater damage by demonstrating that its violations were not part of a [illegible] disregard for financial controls but were isolated actions taken by employees acting contrary to company policy.

However, al-Qaeda has established its own banking system outside of European and U.S. law. Al-Taqwa Bank was created by the Muslim Brotherhood in 1988 to move and safeguard large quantities of cash for terrorist causes. It was finally designated a terrorist entity by U.S. authorities in 2001.

Al-Qaeda and other terrorist organizations have also found considerable profit in the financial networks of wealthy patrons and exploited the lack of regulation in third-world countries to obscure the sources and destinations of their funds. How has the private sector responded to the revelation that Al-Taqwa was a terrorist bank? When did [illegible] learn of Al-Taqwa's links to terror and did they take a hard look before the government's designation? Did al-Taqwa's business partners cooperate with U.S. and European investigators once they were made aware of Al-Taqwa's links to terrorism? These questions will require your attention, and ultimately, the answers will guide your approach to regulation of this industry.

As far as maintaining oversight over domestic transactions, the U.S. must continue a multi-pronged approach to preventing terrorist money trafficking in the formal international financial

3

ملحق رقم ٢

According to President Bush, Bank al-Taqwa is "an association of offshore banks and financial management firms that have helped al-Qaeda shift money around the world."[15] Al-Taqwa was founded as the first step in "establishing a world bank for fundamentalism" and to compete with Western financial institutions.[16] Al-Taqwa's connections to al-Qaeda led the Bush administration to freeze al-Taqwa's assets on November 7, 2001.[17]

In January 4, 2002, the Treasury Deputy General Counsel wrote to Swiss official M. Claude Nicati that, "Bank al-Taqwa... was established in 1988 with significant backing from the Egyptian Muslim Brotherhood, and it has long been thought to be involved in financing radical groups like the Palestinian HAMAS, Algeria's Islamic Salvation Front, and Armed Islamic Group, and Tunisia's An-Nahda."[18] The Deputy General Counsel also wrote that, "as of October, 2000 Bank Al Taqwa appeared to be providing a clandestine line of credit for a close associate of Usama bin Laden."[19] Al-Taqwa reportedly has offices and activities from Panama to Kuwait.[20]

Unlike al-Aqsa Bank or Bait al-Mal [illegible], al-Taqwa Bank was able to function entirely on its own, without relying on the patronage of a larger organization. By avoiding interaction with the international financial community, terrorist organizations evade government regulations such as BSA reports entirely. Indeed, although it is not yet clear whether Riggs Bank made a simple business decision that [illegible] would be beneficial to its standing among its target clientele or [illegible] procedures to defy federal regulations, al-Taqwa and other terrorist institutions exist specifically to design means of circumventing government controls.

Al-Qaeda and other terrorist organizations have diversified means of obtaining cash, both legally and illegally, which must be passed from its multitude of sources to many [illegible] without identifying the donors, the means of passage, or the receivers. All of the proceeds of assorted schemes involving counterfeit baby formula, CDs, and DVDs, schemes to profit on untaxed cigarettes and other products, credit card fraud, smuggling, and a slew of [illegible] petty crimes must be laundered. While hawalas and suitcases full of cash have served to pass significant quantities of cash, al-Qaeda's financial apparatus is integral to the smooth operation of al-Qaeda's network of members and affiliates.

Indeed, Osama bin Laden came to prominence among the Afghan Mujahideen precisely because of his talent for moving men and money around the world without governmental interference. Every government victory in [illegible] terrorist finances today is being [illegible] by our enemies for lessons-learned, which are then incorporated into the organizations and companies replacing those we have shut down.

---

[15] "President Announces Crackdown on Terrorist Financial Network," November 7, 2001. http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/11/[illegible].html

[16] Bodansky, Yossef. "Iran's Fleet Movement Gives It a Strong Leg in the Gulf and Red Sea." Defense & Foreign Affairs' Strategic Policy. March, 1998.

[17] Executive Order No. 13224, September 23, 2001, 31 CFR Part 595,597, as amended November 7, 2001.

[18] Letter from George B. Wolfe, Deputy General Counsel of the U.S. Department of the Treasury, to M. Claude Nicati, Substitut du Procureur General, Switzerland. January 4, 2002.

[19] Letter from George B. Wolfe, Deputy General Counsel of the U.S. Department of the Treasury, to M. Claude Nicati, Substitut du Procureur General, Switzerland. January 4, 2002.

[20] "Money Laundering Probe to Lead to Possible Bin Laden Link," Agence France Presse, September 23, 2001, and Executive Order No. 13224, September 23, 2001, 31 CFR Part 595,597, as amended November 7, 2001. Various sources have referenced al-Taqwa activity in Liechtenstein, Italy, Malta, Panama, Switzerland, France, Kuwait, the United Arab Emirates, and the Bahamas.

[illegible]

بيليوجرافيا

BIBLIOGRAPHY

Aburish Said K, 'Nasser: The Last Arab' (Gerald Duckworth, London, 2004); 'Arafat' (Bloomsbury, London, 1999).
Ahmed, Leila, 'A Quiet Revolution, The Veil's Resurgence from the Middle East to America' (Yale University Press, New Haven and London, 2011).
Ambrose, Stephen E, 'Eisenhower: Soldier and President' (Simon & Schuster, New York, 1992).
Asbridge, Thomas, 'The Crusades' (Simon & Schuster, London, 2010).
Akyol, Mustafa, 'Islam without Extremes, A Muslim Case for Liberty' (W W Norton, New York, 2011).
Al-Awadi, Hesham, 'In Pursuit of Legitimacy: The Muslim Brothers and Mubarak, 1982-2000' (Tauris Academic Studies, London, 2004).

Beattie, Kirk, 'Egypt during the Sadat Years' (Palgrave Macmillan, London, 2001).
Bergen, Peter L, 'The Osama bin Laden I Know' (Free Press /Simon & Schuster, New York, 2006); 'Holy War Inc' (Weidenfeld & Nicholson, London, 2001).
Besson, Sylvain, '*La conquête de l'Occident: Le projet secret des Islamistes*' ['The Conquest of the West: The Islamists' Secret Project'] (Seuil, Paris, 2005).
Braithwaite, Rodric, 'Afgantsy, The Russians in Afghanistan 1979-1989' (Profile Books, London, 2011).

Catterall, Peter, 'The Macmillan Diaries 1950-1957' (Macmillan, London, 2003); 'The Macmillan Diaries Vol II: Prime Minister and After: 1957-1966' (Macmillan, London, 2011).
Coll, Steve, 'Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and bin Laden from the Soviet Invasion to September 10, 2001' (Penguin Books, New York, 2004). Chandrasekaran, Rajiv, 'Imperial Life in the Emerald City: Inside Bagdad's Green Zone' (Bloomsbury, London, 2007).
Cox, Caroline & John Marks, 'The West, Islam and Islamism: Is Ideological Islam Compatible with Liberal Democracy?' (Institute of Study of Civil Society /Civitas, London, 2003).

Dalin, David G, & Rothmann, John F, 'Icon of Evil, Hitler's Mufti and the Rise of Radical Islam' (Random House, New York, 2008).
Daniel, Norman, 'Islam and the West' (Oneworld Publications, reprint, 2009).
El Baradei, Mohamed, 'The Age of Deception: Nuclear Diplomacy in Treacherous Times' (Bloomsbury, London, 2011).
Esposito, John L, 'The Islamic Threat: Myth or Reality?' (OUP, New York, 1992); 'The Oxford Encyclopaedia of the Modern Islamic World [4-vol. set]' (OUP, New York, 2001).

Feiler, Bruce, 'Generation Freedom' (Harper Perennial, New York, 2011).
Fuller, J F C, 'The Decisive Battles of the Western World, 480 BC-1757, Volume One' (Granada Publishing, London, 1970); 'Decisive Battles of the Western World (from the Defeat of the Spanish Armada to Waterloo) Volume 2' (Weidenfeld & Nicholson, London, 2001); 'Decisive Battles of the Western World (from the American Civil War to the end of the Second World War) Volume 3' (Weidenfeld & Nicholson, London, 2001).

Ghazanfar, S M, 'Medieval Islamic Economic Thought: Filling the Great Gap in European Economics' (Routledge, London, 2003).
Gheissair, Ali, & Seyyed Vali Reza Nasr, 'Democracy in Iran: History and the Quest for Liberty' (OUP, New York, 2009).

Hattersley, Roy, 'Campbell-Bannerman' (Haus Publishing, London, 2006).
Hersh, Seymour M, 'The Samson Option: Israel's Nuclear Arsenal and American Foreign Policy' (Random House, New York, 1991).
Howarth, David, 'The Desert King, A Life of Ibn Saud' (Collins, London, 1964).

Johnson, Ian, 'A mosque in Munich: Nazis, the CIA, and the Rise of The Muslim Brotherhood in the West' (Houghton Mifflin Harcourt, Boston, 2010).

Kepel, Gilles, 'The Roots of Radical Islam' (Saqui, London, 2005); 'Allah in the West' (Polity Press, Cambridge, 2004).
Kocher, Victor, *'Terrorlisten: Die schwarzen Löcher des Völkerrechts'* (Promedia Verlagsges, Vienna, 2011).

Lacey, Robert, 'Inside the Kingdom' (Hutchinson, London, 2009); 'The Kingdom' (Harcourt Brace Jovanovich, New York, 1981).
Lia, Brynjar, 'The Society of the Muslim Brothers in Egypt, the Rise of an Islamic Mass Movement, 1928-1942' (Ithaca Press, New York, 2006).

Mackey, Sandra, 'The Saudis: Inside the Desert Kingdom' (Houghton Mifflin, Boston, 1987).
McCarthy, Andrew C, 'The Grand Jihad: How Islam and The Left Sabotaged America' (Encounter Books, New York, 2010).
McGeough, Paul, 'Kill Khalid, The Failed Mossad Assassination of Khalid Mishal and the Rise of Hamas' (Quartet Books, London, 2009).
Mitchell, Richard P, 'The Society of the Muslim Brothers' (OUP, New York, 1993).

Naylor, R T 'Satanic Purses: Money, Myth and Misinformation in The War on Terror' (McGill/Queen's University Press, Montreal, 2006).

Norwich, John Julius, 'The Normans in the South 1016-1130' (Faber and

Faber, London, 2010); 'The Kingdom in the Sun, 1130-1194' (Faber and Faber, London, 2010).

O'Sullivan, Edmund, 'The New Gulf: How Modern Arabia is Changing the World for Good' (Motivate Publishing, Dubai, 2009).

Pargeter, Alison, 'The Muslim Brotherhood: The Burden of Tradition' (Saqui, London, 2010).
Phares, Walid, 'Future Jihad' (Palgrave Macmillan, 2005).
Qutb, Sayyid, 'Milestones' (Islamic Book Service, New Delhi, 2001).

Rogan, Eugene, 'The Arabs: A History' (Allen Lane, London, 2009).
Roy, Olivier, 'Islam and Resistance in Afghanistan' (Cambridge University Press, Cambridge, 1990).
Rubin, Barry, 'The Muslim Brotherhood' (Palgrave Macmillan, London, 2010).
Rutherford, Bruce K, 'Egypt After Mubarak: Liberalism, Islam and Democracy in the Arab World' (Princeton University Press, New Jersey, 2008).

Seale, Patrick, 'The Struggle for Arab Independence: Riad el-Solh and the Makers of the Modern Middle East' (Cambridge University Press, Cambridge, 2010).
Shawcross, William, 'The Shah's Last Ride: The Fate of an Ally' (Simon & Schuster, London, 1997).
Skovgaard-Petersen, Jakob, & Bettin, Graf (editors), 'Global Muft: The Phenomenon of Yusuf al-Qaradawi' (Hurst and Company, London, 2009).
Silvers, Robert B, 'The Consequences to Come: American Power After Bush' (New York Review Books, New York, 2008).
Simpson, William, 'The Prince: The Secret of the World's Most Intriguing Royal: Prince Ban Dar Bin Sultan' (Harper, New York, 2007).

Thesiger, Wilfred, 'Arabian Sands' (Longmans, Green and Co Ltd, 1959).

Vidino, Lorenzo, 'The New Muslim Brotherhood in the West' (Columbia University Press, New York , 2010).
Vitalis, Robert, 'America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier' (Stanford University Press, London/New York, 2009).

Weaver, Mary Anne, 'A Portrait of Egypt: A Journey through the World of Militant Islam' (Farrar, Strauss and Giroux, New York, 2000).
Wright, Lawrence, 'The Looming Tower: Al-Qaeda's Road to 9/11' (Allen Lane, London, 2006).

Yallop, David, 'In God's Name' (Jonathan Cape, London, 1984).
Yamani, Mai, 'Cradle of Islam' (I B Tauris, London, 2005).

ملحق الصور



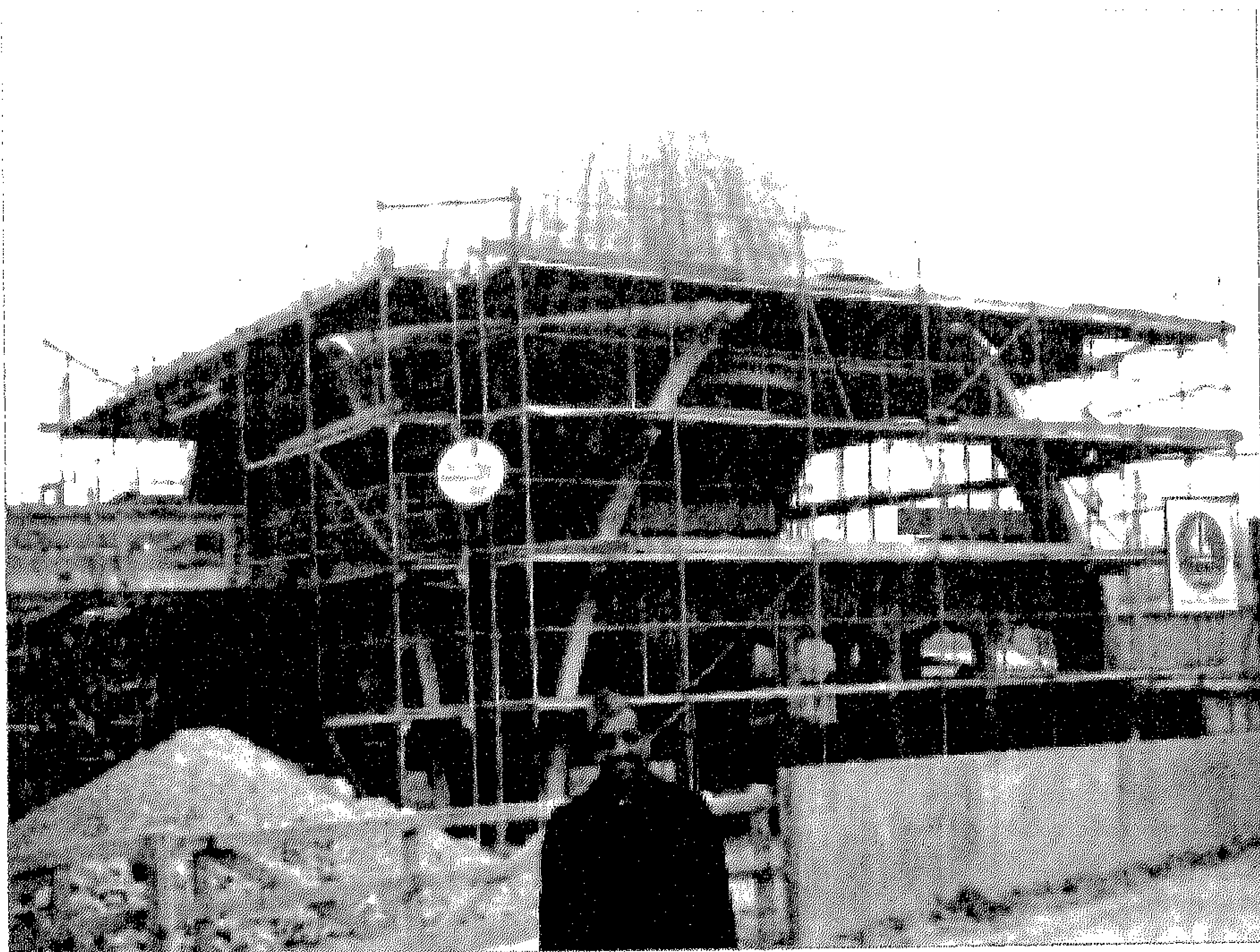
يوسف ندا طفلاً



يوسف ندا في سن المراهقة - الإسكندرية



والد يوسف ندا؛ مصطفى علي ندا، صاحب مزرعة ومصنع لمنتجات الألبان بالإسكندرية



أمام مسجد في ميونيخ، والتي أثارت جدلًا عند التحقيقات والتغطية الصحفية عقب أحداث ١١ من سبتمبر



يوسف ندا موضحًا لـ «محسن رفيق دوست»؛ وزير الحرس الثوري الإيراني، مخطط إنشاء مدينة سكنية قرب طهران، وخلفهما صورة آية الله الخميني



مع أنور إبراهيم؛ زعيم المعارضة في ماليزيا، وأسرته عام ١٩٩٥



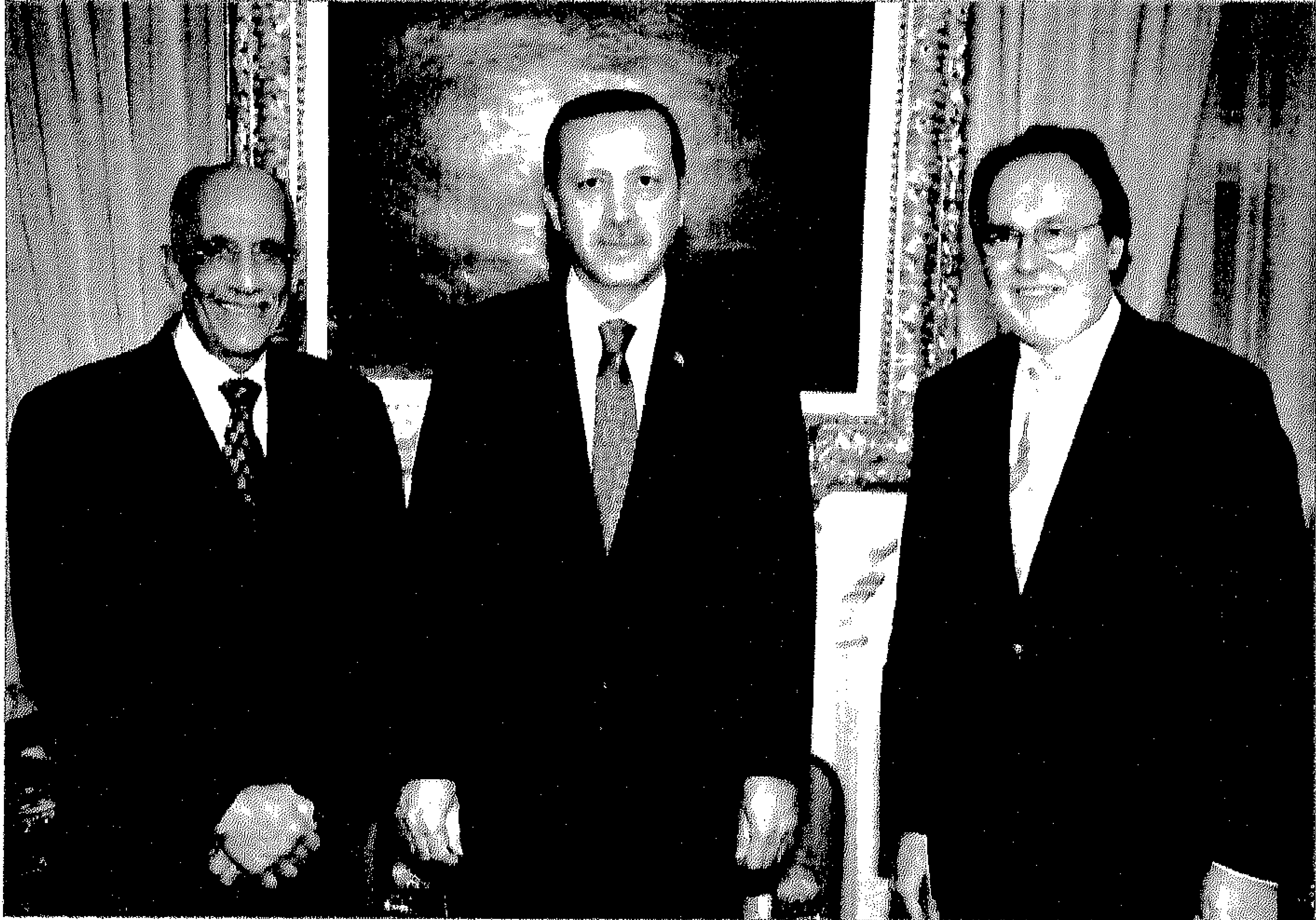
مع الرئيس الإندونيسي «ب.ج. حبيبي» في چاكارتا



يوسف ندا واقفًا، وعن يمينه السيد/ أحمد حلمي عبد المجيد، ثم الأستاذ مصطفى مشهور ثم الدكتور يوسف القرضاوي



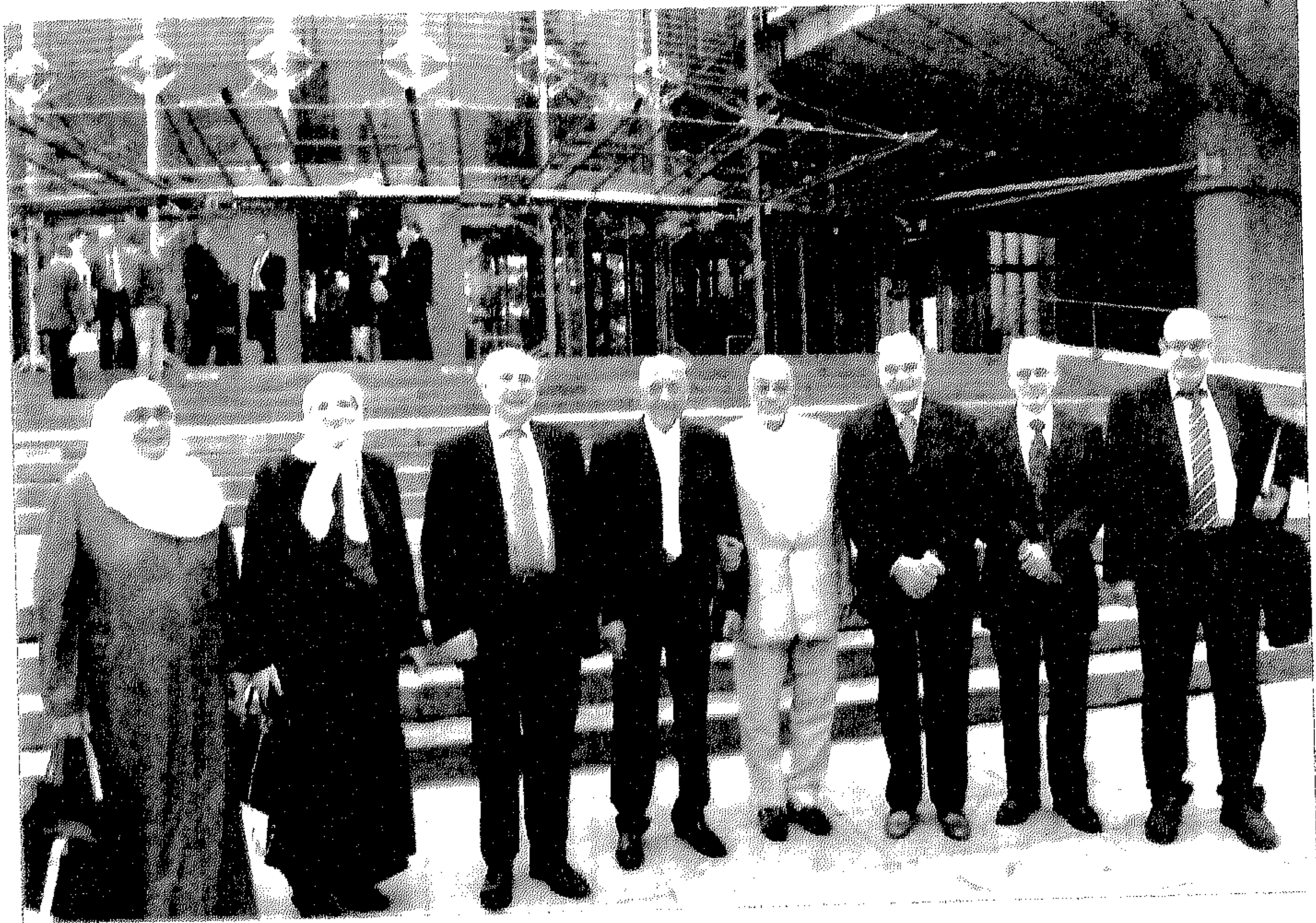
في لقاء مع «چاندومينكو پيكو»؛ رئيس بعثة الأمم المتحدة السابق للتفاوض بشأن الرهائن



مع عضو المجلس الأوربي الحقوقي السويسري الشهير «ديك مارتي»، ورئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان



مع راشد الغنوشي وابنه معاذ وحمادي الجبالي وأعضاء من حكومته وغيرهم



محمود الإبياري وإبراهيم منير وغالب همت والأستاذ عاكف ويوسف ندا وماكبرايد وأمل الشيشكلي ووفاء عزت أمام المحكمة الأوربية



صورة التقطها حرس صدام حسين أثناء استقباله ليوسف ندا في سبتمبر ١٩٩٠ قبل حوارهما المطوَّل؛ والذي حاول ندا فيه إقناعه بالانسحاب من الكويت



مع صديقه وشريكه في تأسيس بنك التقوى؛ السيد أحمد إدريس نصر الدين، وقد اعتبرتهما أمريكا بعد ذلك إرهابيَّيْن



مع نجم الدين أربكان وأوغوز خان أصيل تورك



مع بيريز دي كويار أمين عام الأمم المتحدة



مع أهم الشخصيات السويسرية في لوجانو



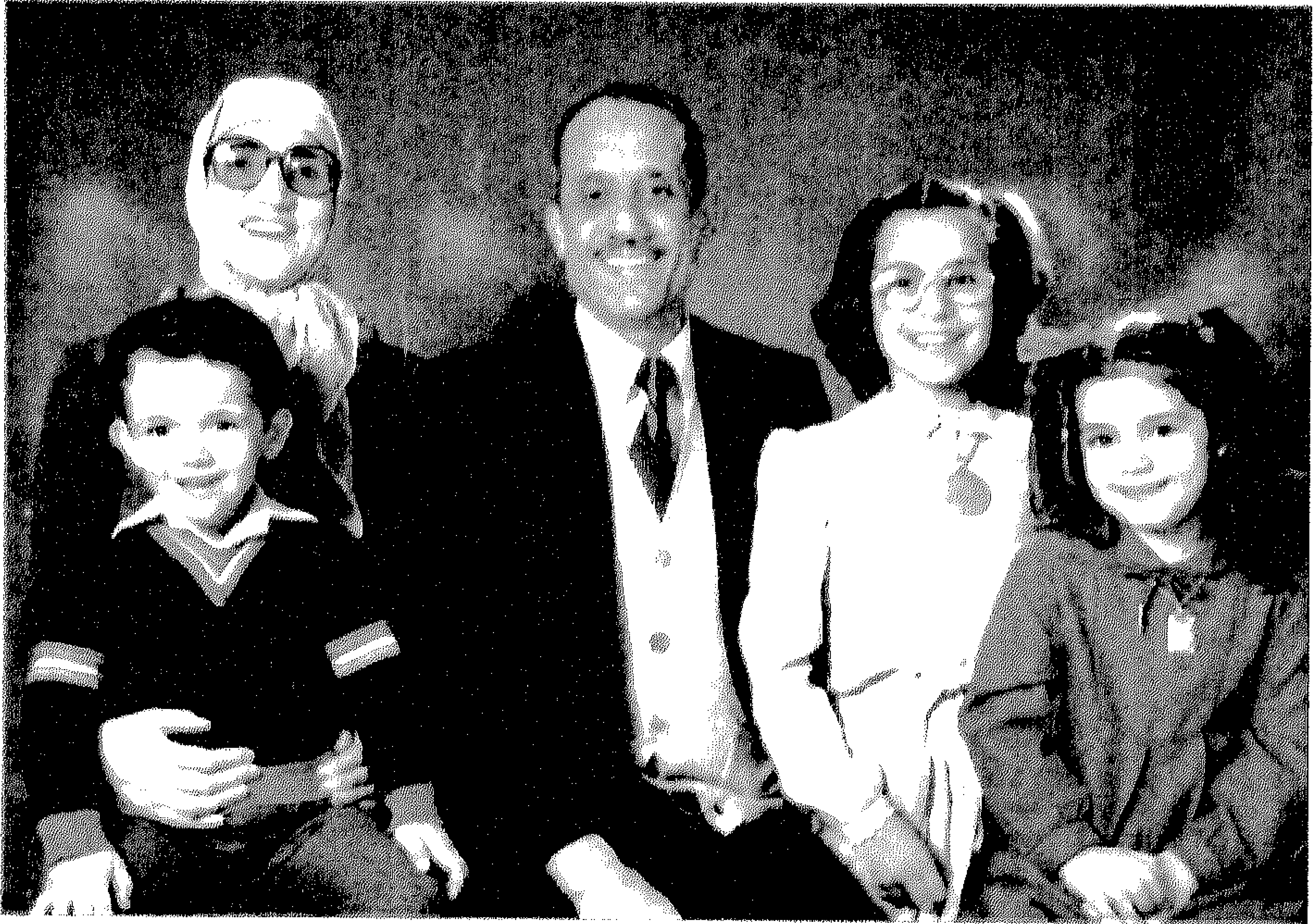
مع محفوظ نحناح وعصام العريان وحمدي مسعود



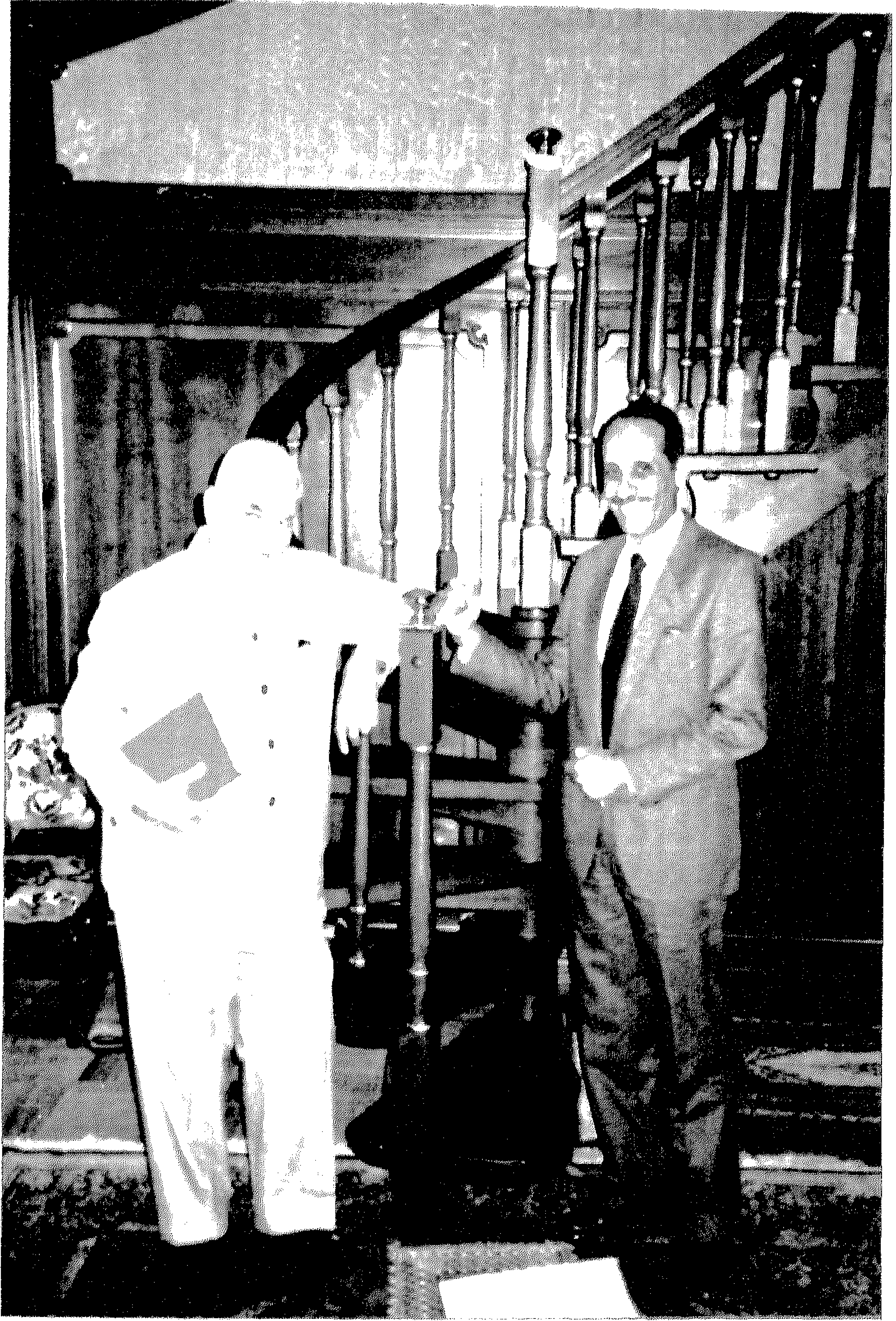
الشيخ متولي الشعراوي مع يوسف ندا وعائلته



مع دكتور «كريستيان بيرنارد»؛ أول من زرع قلبًا في العالم، ومع غالب همت وحسناء ندا



مع عائلته قبل ولادة حازم الأخير



مع الأستاذ عمر التلمساني

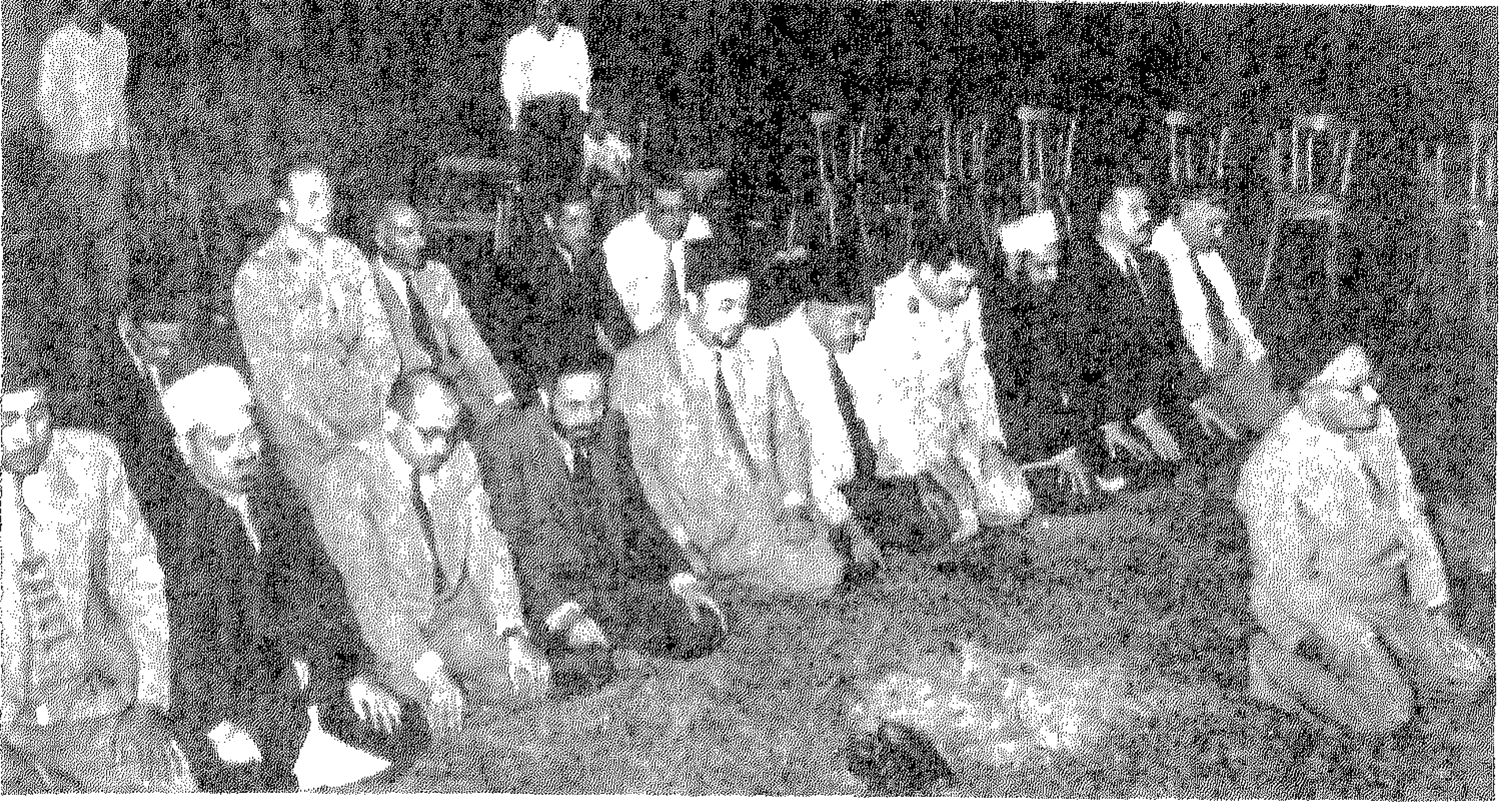


من المحب عمر التلمساني
إلى أحب أبنائه إليه وأقربهم من قلبه الأخ يوسف مصطفى ندا
عمر التلمساني
١٥/ ١١/ ١٤٠٤
١٢/ ٨/ ١٩٨٤

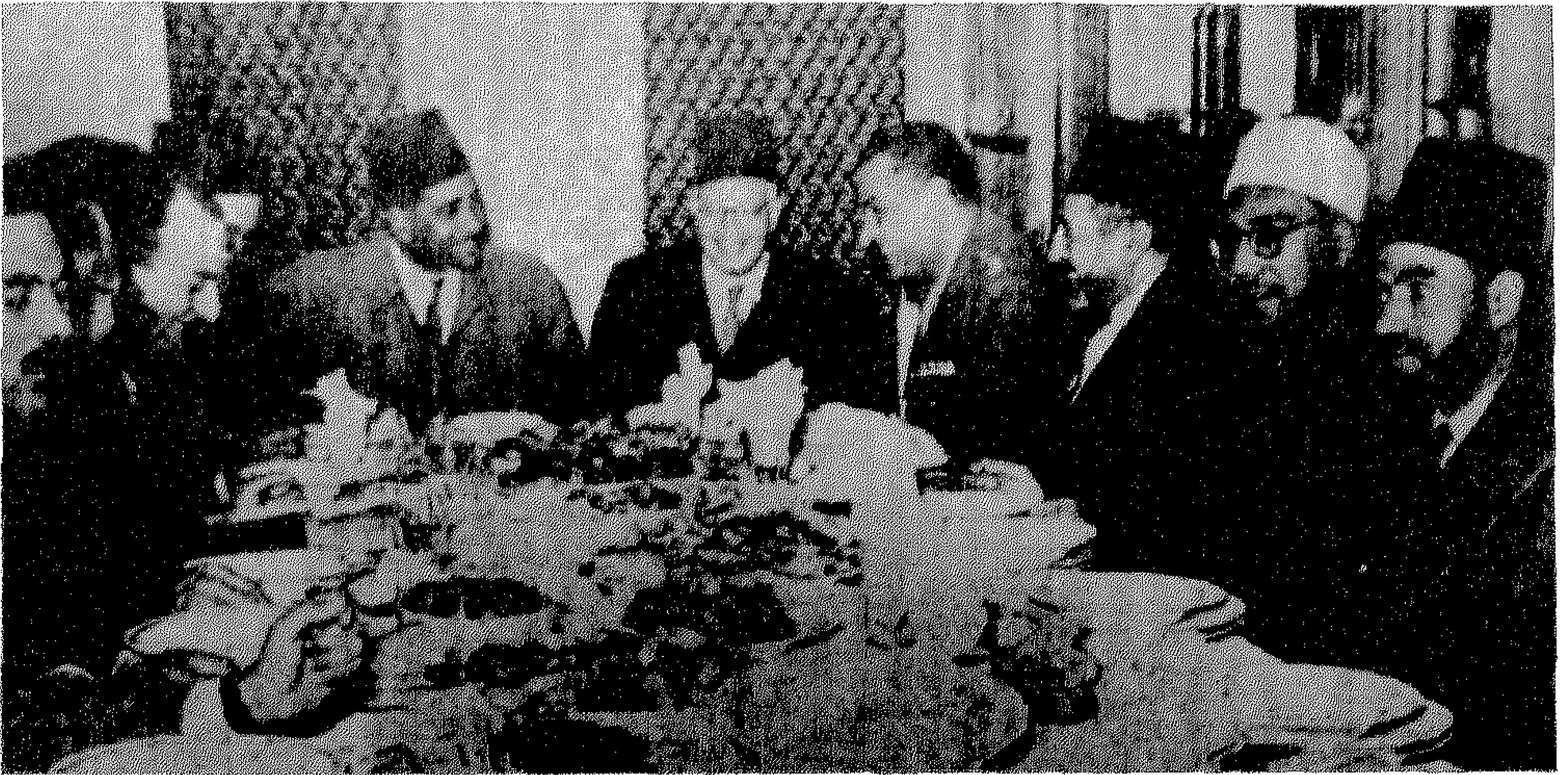
صورة شخصية أهداها عمر التلمساني إلى يوسف ندا

«من المحب عمر التلمساني إلى أحب أبنائه إليه وأقربهم من قلبه الأخ يوسف مصطفى ندا

عمر التلمساني: ١٥/ ١١/ ١٤٠٤ - ١٢/ ٨/ ١٩٨٤»



الإمام : مرشد الإخوان الثاني حسن الهضيبي الصف الأول من اليمين: مرشد الإخوان الثالث عمر التلمساني، حسين الشافعي، عبد المعز عبد الستار، كمال الدين حسين، عبد القادر عودة، عبد الحكيم عابدين، عبد الرحمن البنا، د. حسين كمال الدين، الشيخ محمد فرغلي، ومرشد الإخوان الرابع محمد حامد أبو النصر. الصف الثاني من اليمين: جمال عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، جمال سالم، زكريا محيي الدين، ود. خميس حميدة



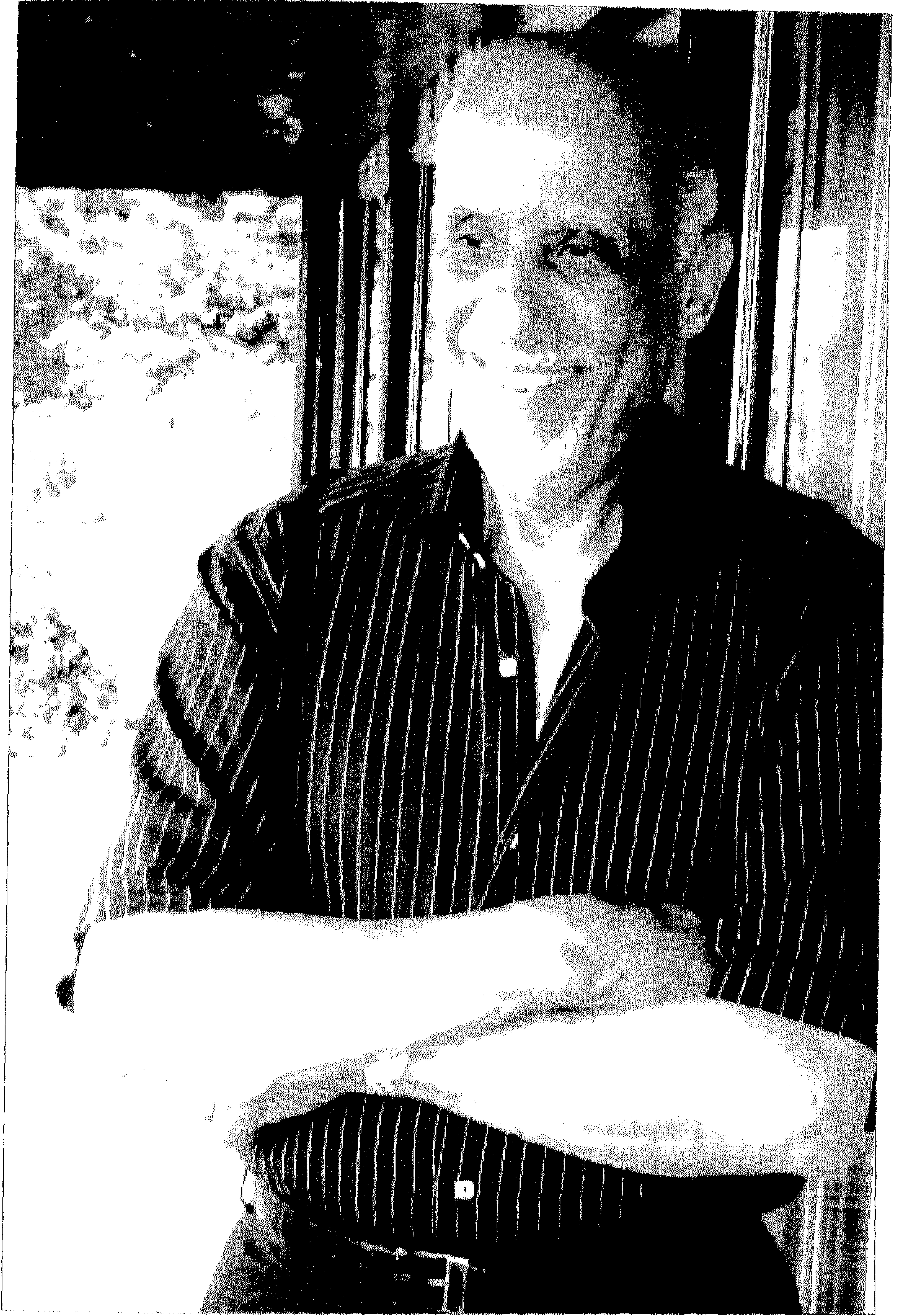
من اليمين: عبد الرحمن البنا، الشيخ أحمد شريت، الشهيد عبد القادر عودة، جمال عبد الناصر، مرشد الإخوان الثاني حسن الهضيبي، مرشد الإخوان الرابع محمد حامد أبو النصر، عبد الحكيم عابدين، زكريا محيي الدين، جمال سالم، كمال الدين حسين



(من اليمين) الشيخ محمد فرغلي، جمال عبد الناصر، ومرشد الإخوان الرابع محمد حامد أبو النصر



من اليمين: عبد القادر عودة، عبد الحكيم عامر، الشيخ محمد فرغلي، د. حسين كمال الدين، كمال الدين حسين، سكرتير جمال عبد الناصر، مرشد الإخوان الثاني حسن الهضيبي، الشيخ أحمد شريت، جمال عبد الناصر، السكرتير الثاني لجمال عبد الناصر، محمد حامد أبو النصر، د. محمد خميس حميدة، عبد الرحمن البنا، عبد الحكيم عابدين، جمال سالم



يوسف ندا في لحظة تأمل من شرفة منزله (في كامبيوني بإيطاليا) المطل على بحيرة لوجارنو



«دوجلاس تومسون» مؤلِّف له أكثر من عشرين كتابًا. كتب عن تراجم المشاهير، وهو مذيع وصحافي دولي يسهم بانتظام في كبرى الجرائد والمجلات في مختلف أنحاء العالم. وكتبه منشورة بأكثر من عشر لغات، وتشمل العديد من التراجم الأكثر مبيعًا.

وقد تعاون مع «كريسستين كيلر» في روايتها للقصة الكاملة لفضيحة «بروفومو» وزير الدفاع البريطاني في كتاب بعنوان «أسرار وأكاذيب». كما شارك اخصائية العلاج الطبيعي الشهيرة «بولين ساتكليف في كتابة القصة المؤثرة لأخيها «ستيوارت» الذي أعطى فرقة «البيتلز» اسمها واشترك مع «جون لينون» في إنشائها.

أما كتابه «عصابات الجرائم الصغرى» - (The Hustlers)، والذي تناول موضوع عالم الجرائم الصغرى وظاهرة الميسر في العاصمة البريطانية في ستينيات القرن الماضي، فقد تحول إلى فيلم سينمائي من أفلام الإثارة الكبرى، كما كان موضوعًا لأحد أفلام القناة التلفزيونية الرابعة الوثائقية. ومن أحدث أعماله الناجحة كتاب «Shadowland» (أرض الظل) عن المافيا الأمريكية في لندن، وكتاب «Mafia Princess» أو «أميرة المافيا»؛ الذي تم إعداده للسينما.

ويقضي «دوجلاس تومسون» أوقاته بين الحياة في قرية إنجليزية تعود إلى العصور الوسطى وولاية كاليفورنيا التي عمل فيها مراسلًا أجنبيًّا للصحف البريطانية وكاتبًا للأعمدة الصحافية لفترة تزيد على عشرين عامًا.

يوسف ندا شخصية بارزة في جماعة الإخوان المسلمين يتصدى للأكاذيب والأباطيل ويبين:

السبب في خطأ العمليات الانتحارية.

أن على النساء المسلمات أن يخلعن النقاب ويشاركن في السياسة.

كيف أن القاعدة جماعة من المجانين صغيرة العدد، وأن الغرب يهول من شأنها بدرجة مبالغ فيها.

كيف ينبغي على المسلمين والمسيحيين واليهود أن يتعلموا العيش معًا في سلام.

كيف أن الشريعة الإسلامية قد تم اختطافها من قِبل المتطرفين.

أن المسلمين يسافرون اليوم بالطائرات وليس بالجمال. ولأن الإسلام صالح للقرن الحادي والعشرين فعلى المسلمين أن يتكيفوا مع العصر.

أن علماء الدين المسلمين لم يستخدموا عقولهم منذ القرن الثاني عشر.

كيف أن استمرار النظم الوراثية في حُكم البلاد الإسلا... خيانة للإسلام والمسلمين.

أن وجود دولتي فلسطين وإسرائيل وضع لا يحمل اسـ... ء.





دار الشروق
www.shorouk.com